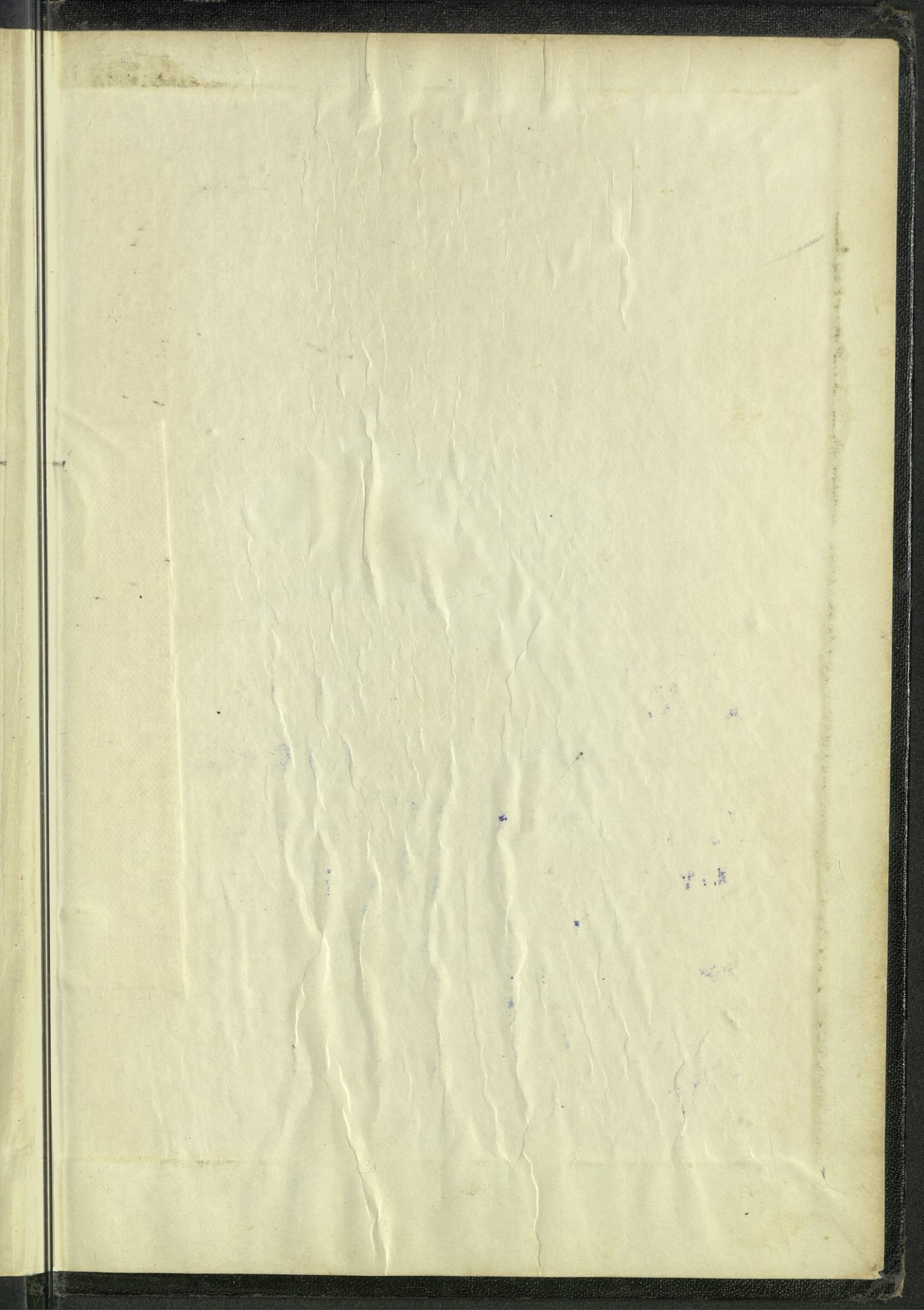
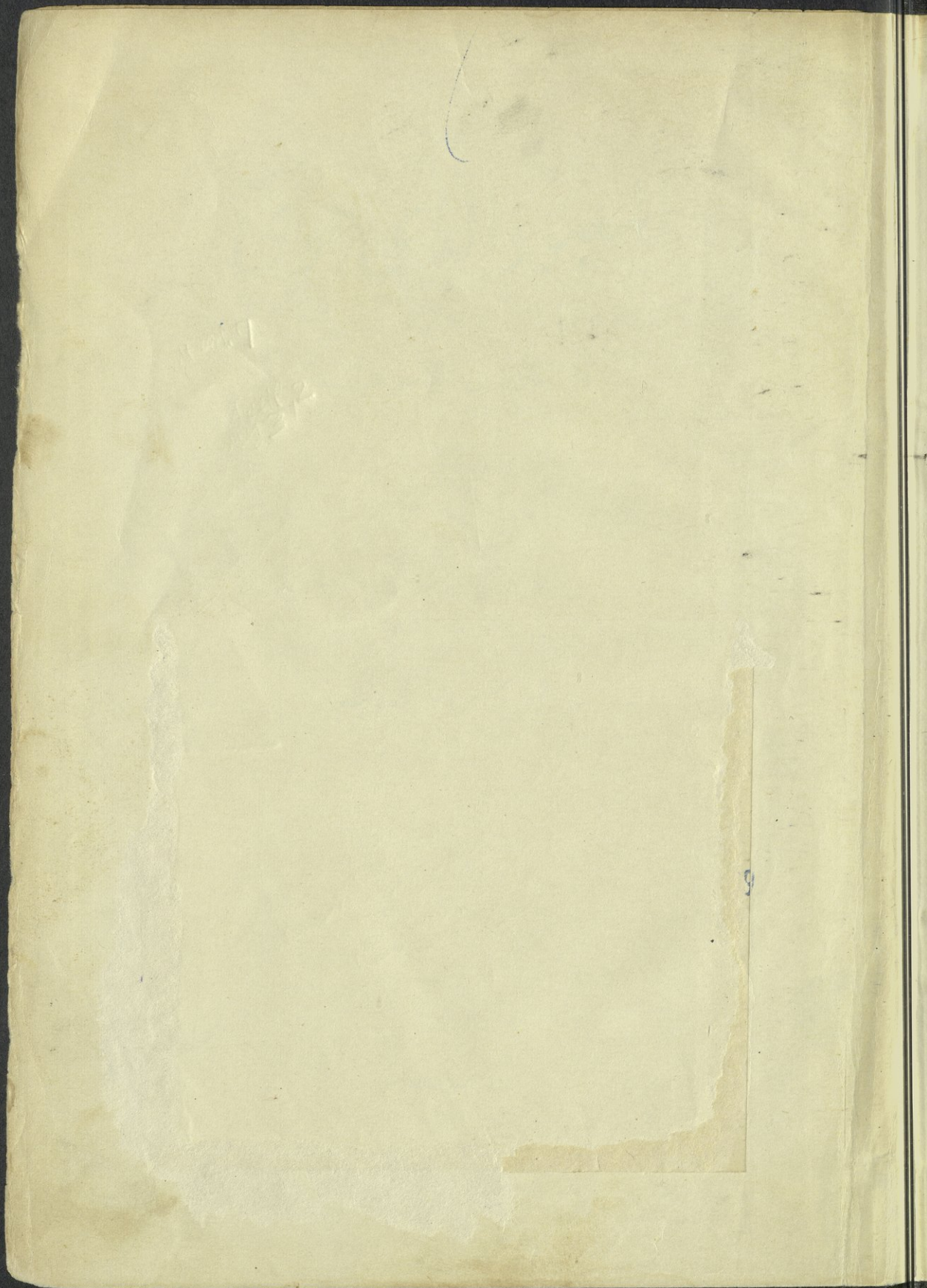






cat. 24 p. 2

335.4
K78mA

المعبود الذي هوى

دراسات في الشيوعية

نقلها إلى العربية

عبد الرحمن حافظ بك

دار النيل للطباعة

١٩٥١



نقل هذا الكتاب

عن

سنة كتاب أعلام

آرثر كوستلر اينازيو سيلوني

أندريه جيد ريتشارد رايت

لويس فيشر ستيفن سبنلدر

كلمة الناقل

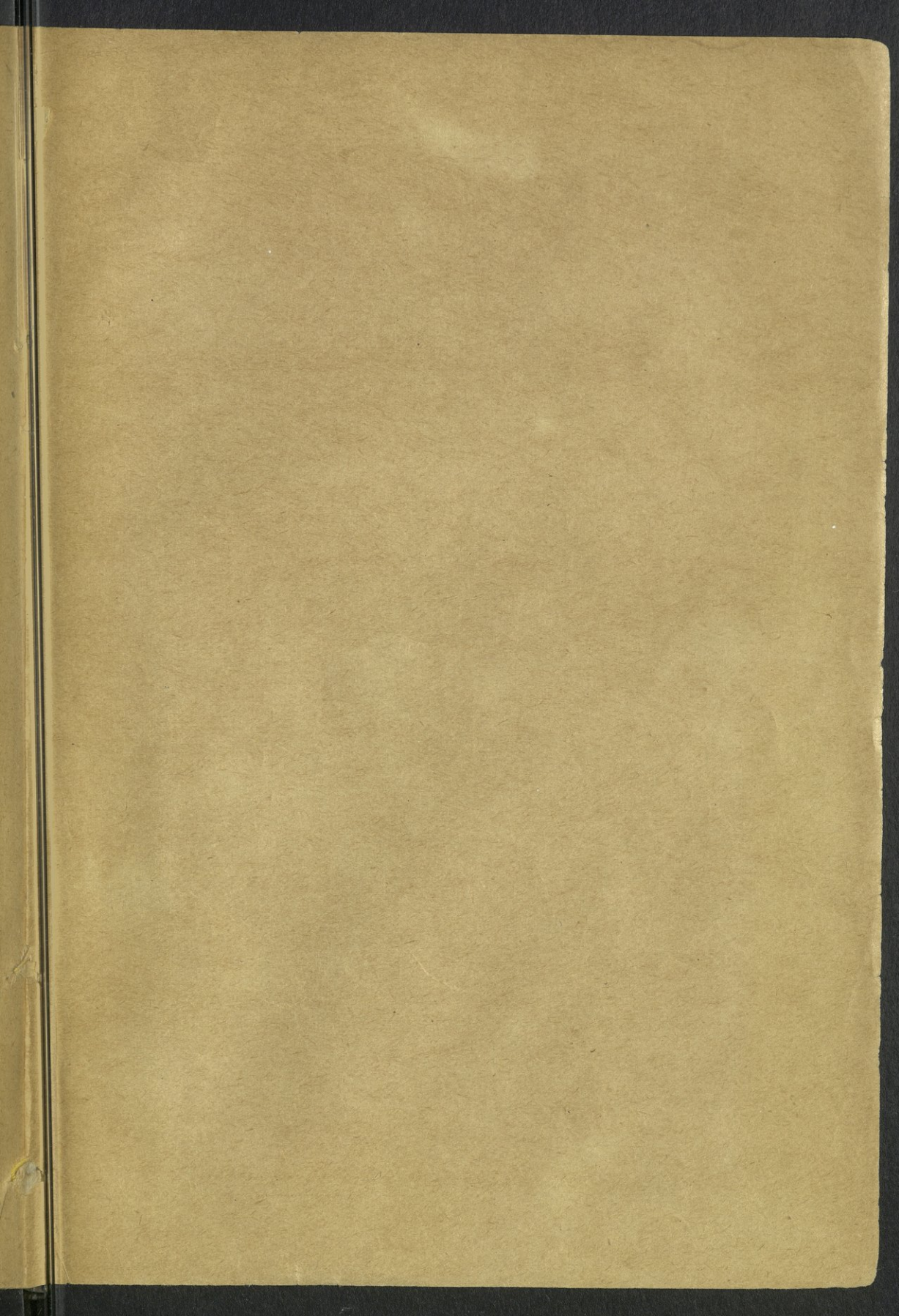
لست للشيوعية نصيراً ، وما أنا لها بخصم ؛ ولكني أقرأ ، وأبحث ،
وأندبر ملياً ، فإن أعجبنى شيء نقلته ، وإن لم يرقني قرأته لنفسى وكتبته ، ولم
أكن به خفياً ...

وقد وقع لى هذا الكتاب نصيحة من ناصح قرأه فأعجبه ، لأنه لم يأت دعاية
على الشيوعية أو مجرد تشهير ومشالبة ، فحفظت إلى نقله ، متأنياً له ، حريصاً على
معانيه وجملة أساليبه ، وأرجو أن أكون قد وفقت فيه ناقلاً وفياً .

ولست أحسبه لمعاشر المتحمسين للديمقراطية مسرّضاً ، لأنه قد شوه لديهم حالاً ذهبياً .
ولا أظنه لمعاشر الموالعين بالشيوعية مقبولاً ، لأنه قد شوه لديهم حالاً ذهبياً .

ولكن أقدار الأمم لا تعتمد على الأحلام ، وإنما تنهض على أثبت الأسس ،
وكل تفكير يأتى عن سخط ، ويختمر عن تبرم ، يخرج فاسداً ، أو حامضاً ، وقد
يسوّى عليه فى نار الألم ، فلا تزيده النار إلا كراهة طعم ، فى حلق الطاعمين ...
وأخشى أن يكون الذين استخفّتهم الشيوعية من الشباب ماضين فى اثر فتنة ؛
والفتنة تتملك العاطفة قبل العقل ؛ وكل ميل إلى العاطفة ، يحجب البحث ، ويُرقد
الفكر ، ويرين على البصر ، ويأبى إلا أن يكون منفرداً عصياً .

ورجائى إلى هؤلاء الذين مُفتموا أن يقرأوا هذا الكتاب ، على مُمكنث ،
ويتجردوا فى قراءته من النزوع فان الذين نقلت منهم فيه ، كانوا من قبلهم مفتونين ،
فلما جربوا ، عرفوا ، وحين خبروا ، اهتمدوا واكتشفوا ، ولا ينبئك مثل خبير ...



المقدمة

بقلم ريتشارد كروسمان
النائب البريطاني

ولدت فكرة هذا الكتاب في استعار نقاش ، وحرارة جدل ؛ فقد كنت مقيماً مع « آرثر كوستلر » Arthur Koestler في شمال ويلز . وفي ذات مساء بلغ بنا النقاش السياسي الذي قامت عليه صداقتنا ، حداً وقف عنده البحث ، ونقطة جمود ، لا متقدم عنها ولا متأخر ، فأنثني صاحبي يقول : « إما أنك لا تستطيع أن تفهم ، وإما أنك تأتي أن تفهم ، وهذا هو شأنكم جميعاً معاصر الأنجلوسكسونيين المستريحين الناعمين ، المحصورين في جزائركم ، المناهضين للشيوعية والشيوعيين . فأنتم تكرهون منا صيحاتنا النذرة ، وتنفرون منا كحلفاء ، ولكننا معاصر الشيوعيين المرتدين — بعد كل ما يمكن أن يقال لنا أو علينا — لا نزال في الجانب الذي يعرف كل شيء ، ويعلم الخافية ، ويدرك الحقيقة ... » .

وعندئذ انعطفت بنا الحديث عن فلان ، وفلان ، وفلان ، وكيف انقلبوا شيوعيين ، ولماذا خرجوا على الحزب أو بقوا فيه . ومضيت أقول ، حين عادت المناقشة تستحى ، ومراحل الجدل تغلّ : « على رسلك ... وتعال قل لي أنت عما جرى حين انضمت إلى الحزب ، لا من ناحية شعورك الآن ، بل من ناحية شعورك في ذلك الحين ... » .

وهكذا بدأ كوستلر يقص قصته العجب ، ويروي كيف كان لقاؤه بالهر « شنيلر » في مصنع « شنيدمول » للورق ، وإذا بي فجأة أقطع عليه الحديث قائلاً : « هذا يصح أن يكون كتاباً ... » .

وبدأنا نسترجع من الذاكرة أسماء المرتدين الذين في وسعهم أن يرووا للناس قصتهم ، ويحدثوهم عن أنفسهم أحاديث الحقيقة كاملة .

واتسع في البداية نطاق اختيارنا ، وتعددت الأسماء أمامنا ، وترامت الأمثلة لدينا ؛ ولكننا قبل أن ينتهي مجلسنا في تلك الليلة ، أجمعنا النية على ألا تتجاوز الأسماء ستة من الكتاب والصحفيين ، ولم نعن مطلقاً في وضع هذا الكتاب بتضخيم الدعاية ضد الشيوعية ، ولا نظرنّا فيه إلى تهيئة الفرصة لبسط الشفائع ، وسرد المعاذير ؛ بل ألقينا بالنّا فيه إلى شيء واحد ، وهو دراسة نفسية الشخص الذي اعتنق الشيوعية وحالته العقلية عند اعتناقه لها ، والجو الذي كان محيطاً به ، في الفترة بين عامي ١٩١٧ و ١٩٣٩ حين شاع الاعتناق ، وكثرت أفواج المعتنقين .

واقترض تحقيق هذا الهدف ألا يحاول كاتب من هؤلاء الذين حشدنا أحاديثهم في هذا الكتاب أن « يعيش » مرة أخرى في الماضي ، فإن ذلك أمر مستحيل ، بل أن « يعيد خلقه » بالخيال ، وينشئه من جديد بالتحليل النفسي ، على الرغم من الحاضر وعلمه به ، وما توافر من المعرفة والإحساس فيه .

ولست أجهل أن رواية المرء عن نفسه على هذا النحو ، تكاد تكون ضرباً من المستحيل على السياسي العملي ، لأن كرامته ستأبى إلا تصوير الماضي بروح الحاضر وتفكيره .

ولست أنكر أيضاً أن مايسمونه « التحليل العامى » مضلل هو كذلك ، ومبعد بنا عن الحق والواقع ، لأن تقطيع الشخصية وتجزئتها إلى مجموعة من العلل النفسية والأسباب والمؤثرات الاجتماعية ، من شأنه أن يذهب « بالانفعالات » التي أردنا وصفها ، ويفقد الحديث الدوافع العاطفية التي رمينا إلى حشدّها بين دفتي هذا الكتاب ؛ فلا عجب إذا نحن توخينا « الموضوعية » البحتة منه ، وهي أن يتمكن كل كاتب من « استجماع » الماضي ، إن لم يكن في هدوء تام ، فعلى الأقل في تجرد من الهوى ، وتنزه عن الغرض ، وهي مقدرة قلما تتوافر لغير الكاتب الذي أوتي ملكة الخيال .

وقد حدث في السنوات التي انقضت بين بداية الثورة البلشفية في أكتوبر ، وميثاق التحالف بين هتلر وستالين ، أن قن بالشيعوية خلق لا عداد لهم من الكتاب والأدباء في أوربا وأمريكا ، ولكن هؤلاء لم يكونوا في الواقع من قبيل المعتنقين للمألوفين ، أو كسائر الذين تحولوا إلى الشيوعية ودخلوا في غمارها ، بل كانوا في الحقيقة أشد الشيوعيين الجدد شذوذاً ، وأغرب المتحولين أمراً ، لقرط ما بهم من حساسية ، وتناهى ما في نفوسهم من سرعة تأثر ، مثلهم في ذلك كمثل الكاثوليكي الأديب ، إذا قورن بعامة الكشالكة ؛ فقد كانوا أسمى من سواهم إدراكاً لروح العصر وأشد فطانة من الآخرين ، لوجوه فشلها ، ونواحي الأمل والرجاء فيها ، فكان تحولهم إليها معبراً بصورة بالغة ، أو هستيرية أحياناً ، عن أحاسيس يشاركون فيها ، على نحو مبهم ، وبمعنى غير واضح ، ملايين بكم لم يؤتوا القدرة على التعبير ، ممن أحسوا أن روسيا « في صف العمال والكادحين » . ولا يخفى أن الشخص « المستنير » في السياسة هو أبداً غير « متزن » في تقدير زملائه ، لأنه إنما يتمشى حول المنعطف المثالي ، أو يطل على المفرق ، أما هم فلا تفارق أعينهم النظر إلى الطريق ؛ وهو إنما يجازف بإيمانه على أفكار وتصورات لم تتحقق ، ولا يأخذ بالحكمة والحرص فيقتصر على الولاء للمألوف . وهو على هذا النحو « متقدم » أو في هذا المعنى « متطرف » . فإن جاءت الأيام مصدقة لما كان يقول به ، فنعمت العاقبة ، وحسنًا فعل ؛ وأما إذا اتخذت الأيام منعطفًا آخر ، فإما أن يتقدم ويواصل المسير إلى النهاية المحتومة ، وإما أن يرضى لنفسه المهانة فيقل راجعاً وينقض أفكاراً وآراء أصبحت جزءاً من نفسه وبضعة من شخصيته .

وفي هذا الكتاب انبرى ستة « مستنيرين » لوصف رحلتهم إلى الشيوعية وما بهم منها ، بعد أن رأوها في مبدأ الأمر من طريق طويل ، ومكان قصي ، كما رأى أسلافهم منذ مائة وثلاثين عاماً الثورة الفرنسية ، كملكوت الله على الأرض ، وراحوا — كما فعل الشاعران وردسورث Wordsworth وشيلي Shelley —

يكرسون مواهبهم للعمل في تواضع وخشوع على مجيئها، والتعجيل بمقدمها، ولم تنهم
صدمات الثوريين المحترفين لهم، ولا سخريات خصومهم، بل ظلوا ماضين في
طريقهم، حتى بدت لهم الفجوة بين ملكوت الله الذي تصوره، وبين حقيقة
الدولة الشيوعية — وعندئذ بلغ الصراع بينهم وبين ضمائرهم حدود الانفجار.

وقليل هم الذين يحق لهم أن يقولوا إنهم ألموا حقاً على المنعطف، ووقفوا عند
المفترق؛ فقد استطاع برتراند رسل Bertrand Russell أن يعيد طبع الكتاب الذي
نشره في عام ١٩٢٠ وهو «البلشفية نظرية وتطبيقاً» دون أن يغير فيه حرفاً واحداً؛
ولكن أكثر أولئك الذين رشدوا اليوم بعد غي، وسخروا من بعد يقين، ونفروا
من بعد رضى، كانوا إما عمياناً، كما كان إدموند بيرك في أيامه أعمى، فلم يدركوا
معنى الثورة الروسية، وإما أنهم تراوحو مع «البندول» فذموا ثم مدحوا، ثم
عادوا فذموا، تبعاً لإملاء السياسة العامة ومقتضياتها.

إن هذه الروايات الست التي يرويها أصحابها عما وقع لهم في حياتهم حرية على
الأقل بأن تكشف للناس عن مخاطر هذه المناهضة الهينة اللينة للشيوعية، بل هذه
المناهضة التي تدفع إليها الظروف والضرورات، كما تكشف فتنة الشيوعية كآسلوب
من أساليب الحياة لب رجل مسيحي في أعماقه كسيلوني Silone يضع ستين، ويلم
استيلاؤها على شخصيات بارزة كشخصيتي أندريه جيد André Gide وكوستلر
Koestler عن نقص بالغ في الديمقراطية الغربية، وعيب كبير. وإن انتقال كاتب
زنجي مناضل في شيكاغو كريتشارد رايت Richard Wright إلى صفوف الحزب
الشيوعي، بلا تردد، ولا إحجام، لهو في حد ذاته اتهام موجه إلى أسلوب الحياة
عند الأمريكيين؛ وأما لويس فيشر Louis Fisher فيمثل ذلك الفريق الممتاز من
المراسلين البريطانيين والأمريكيين الذين وضعوا إيمانهم في روسيا، لا عن احترام
للشيوعية قدر ما هو عن زوال أوهامهم بسبيل الديمقراطية الغربية وانقشاع
العشاوة عن أبصارهم، ونفورهم بعد ذلك من محاولات تسكين ثائرة المتسخطين،

وتهدئة خواطر المستكرين والمنددين . وهذا هو الدافع ذاته الذى دفع ستيفن سبندر Stephen Spender الشاعر الإنجليزى إلى ناحية الشيوعية ، فقد بذت له الحرب الأهلية فى إسبانيا ، كما بذت لجميع معاصريه ، بحك السياسات العالمية . وهى سبب رحلته القصيرة إلى الشيوعية ، وسر انتقاضه عليها فيما بعد .

وليس بين هذه الشخصيات الست المتباينة من رابطة غير شئ واحد ، وهو أنهم جميعاً ، بعد صراع أليم مع ضمائرهم ، اختاروا الشيوعية ، لأنهم فقدوا إيمانهم بالديموقراطية ، وارتضوا التضحية بـ « البورجوازية » من حقوق أو « حريات » ، لكي يدحروا « الفاشية » .

فقد كان تحولهم إلى الشيوعية فى الواقع عن يأس من قيم الحضارة الغربية وأقدارها ، ومن السهل على المرء أن يستشف بالتأمل فى الماضى ذلك اليأس الذى كان يعتمل فى نفوسهم ، ويرى أنه كان يأساً « عصبياً » أو « هستيرياً » ، وإن كانت « الفاشية » قد « اندحرت » بغير تسليم فى تلك « الحريات » كما كانت الشيوعية مقتضيتهم . ولكن كيف كان « سيلونى » مستطعماً أن يتنبأ بهزيمة الفاشية فى عام ١٩٢٠ ، حين كانت الديموقراطيات تداعب موسوليني وتجاهله ، ولم ينهض لتنظيم حركة مقاومة خطيرة حيالها غير الشيوعيين فى إيطاليا دون سواهم . وهل كان « جيد » و « كوستلر » على ضلال مبين ، حين أصبحا شيوعيين ، فى شعورهما بأن الديموقراطية الألمانية والفرنسية فاسدة ، وإحساسهما بأنها ستستسلم غداً للفاشية صاغرة ؟

إن بعض فضل هذا الكتاب أنه يهز ذاكرتنا هزة عنيفة ، ويذكركنا بتلك الوحشة الأليمة التى عاناها خصوم الفاشية قبل الأوان . وهم أولئك الذين فهموها على حقيقتها وحاولوا أن يحاربوها قبل أن تصبح محاربتها جديرة بالتقدير ، حرية بالإكبار ؛ فإن تلك الوحشة هى التى جعلت عقولهم تستجيب للشيوعية وتستمع إلى ندائها الجديد .

وقد كانت الاستجابة لها قوية على الأخص في نفوس الذين كانوا من الإخلاص
لفطرتهم بحيث لا يرتضون الاشتراك في الإيمان العام بقيام نهضة تقدمية اعتباطاً ،
ورأسمالية متزايدة نامية على الأيام ، والقضاء على سياسة القوة في هذا العالم .

وتبين لهم أن «الكلوجية»^(١) في أمريكا، و«البلدوينية والمكدونالدية»^(٢)
في بريطانيا ، والسلامة الجماعية^(٣) في عصبة الأمم ، كانت مجرد «بهارج» بليدة
مموهة أعمت أبصارنا، معاشر الديموقراطيين الفطنين الحريصين، عن رؤية الهوة السحيقة
التي كنا مندفعين نحوها اندفاعاً . وقد كان هؤلاء يشعرون في أعماق نفوسهم بنذير
تلك الهوة ، فمضوا يبحثون لهم عن فلسفة يستطيعون تحليلها والتغلب عليها ، فوجد
كثير منهم في الماركسية طلبتهم ، ووقعوا منها على ما كانوا يندشون .

وكان سر فتنة «الماركسية» لعقول المستنيرين أنها قضت على نظريات الأحرار
وسفسطاتهم وأثبتت حقيقة مرة ، وهي أن «التقدم» لا يأتي «اعتباطاً» ، وأن
الرواج والكساد أمران ملازمان للرأسمالية، وأن الظلم الاجتماعي، والتعصب العنصري،
لا يعالجان بمر الزمن وحده ، وأن سياسة القوة هيئات أن تلغى ، بل ستستخدم للشر
والخير على السواء ، ولم يكن في إمكان رجل مستنير بعد عام ١٩١٧ إذا هو خير بين
فلسفتين ماديتين أن يختار فكرة «التقدم الاعتباطي» التي رأينا فريقاً كبيراً من
أهل النفوذ ، يعدونها الأساس الأوحد للديموقراطية ؛ وكان الاختيار يومئذ بين أقصى
«اليمن» واعتزاه استخدام القوة لتدمير الحرية البشرية ، وبين «اليسار» الذي
كان يومئذ يلوح في لهفة على استخدامها لتحرير البشر . ولم تعد الديموقراطية الغربية
اليوم ، قليلة الخبرة ، مادية متناهية في المادة كما كانت في تلك الفترة الموحشة ، فترة الهدنة
بين الحربين الماضيتين ، ولكنها لم تبدأ تفهم أن مهمتها هي ألا تسمح «للتقدم»

(١) نسبة إلى كوليج رئيس الولايات المتحدة مرتين بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٩ .

(٢) نسبة إلى بلدوين وماكدونالد وهما معروفان .

(٣) يشير إلى جهود عصبة الأمم في سبيل صون السلام الدولي .

بأن يؤدى عنها عملها ، ويتولى عنها واجبها ، بل تتكفل بإيجاد بديل من الثورة العالمية من طريق التعاون بين الشعوب الحرة . نعم ، لم تبدأ تفهم مهمتها هذه إلا بعد حربين عالميتين ، وثورتين دكتاتوريتين .. !

وإذا كان اليأس والدهشة هما الدافعين الكبيرين إلى اعتناق الشيوعية ، فقد وجدا نصيراً قوياً لهما فى الضمير المسيحى ، وظهيراً بالغاً . فإن الرجل المستنير شعر بوخز المسيحية الأرثوذكسية ، وإن كان قد تنحى عنها ، وهجر عباداتها وشعائرها ، بل لقد كان شعوره بهذا الوزر أشد وقعاً فى نفسه منه فى نفوس خلق كثير من جيرانه الذين ألقوا الذهاب إلى الكنيسة ، ولم يؤتوا القدرة التى أوتيتها على التفكير فى الدين ، والبحث فى جوهره وصميمه ، لأنه أدرك على الأقل مبلغ الظلم الذى يقرن بالمركز الذى يحتله فى المجتمع والامتيازات التى يستمتع بها ، سواء ما كان منها بحكم العنصر أو الطبقة أو التعليم . ولعل سر استجابة العاطفة لدعوة الشيوعية وفنونها فى تلك التضحيات المادية والمعنوية التى تطلبها من المعتنق لمبادئها . ولك أن تسمى هذه الاستجابة رضى بالألم ^(١) ، أو تصفها بأنها رغبة صادقة فى خدمة البشرية ؛ ولكن أيا ما تدعوها ، فلا تزال فكرة قيام « رفقة » أو « زمالة » عملية فى النضال ، زمالة تقتضى التضحية الشخصية وإلغاء الفوارق بين الأجناس والطبقات ، قوة الأثر فى كل ديموقراطية غربية ؛ ولا يخفى أن مبلغ فتنة الحزب السياسى العادى رهن بمدى ما يقدمه إلى أعضائه ، فلا عجب إذا كان مبلغ فتنة الشيوعية أنها لا تقدم شيئاً ، بل تقتضى كل شيء حتى التسليم فى الحرية الروحية والرضوخ ^(٢) بكل معانيها ومطالبها .

وفى هذا تحليل لظاهرة طالما أحرزت المفكرين ، وأعجزت الباحثين ، وهى كيف ارتضى هؤلاء المستنيرون نظريات ستالين وتعسفاته ؟؟ والجواب ستجده متناثراً فى

(١) فى الأصل ماسوكيزم أى رضى بالعذاب عن اختلال فى الحاسة الجنسية أو نحوها .

(٢) رضى بالشيء أعطاه وسلم فيه .

الصفحات التالية ، فإن الناعم المادية في نظر الرجل المستنير لا تهم ، وإنما أكثر اهتمامه منصرف إلى الحرية الروحية ، وكانت قوة الكنيسة الكاثوليكية وسلطانها الدائم أنها تقتضى التضحية بتلك الحرية بلا رفق ، والتخلي عنها بلا هوادة ، وحكمها على الكبرياء بأنها ذنب عظيم ، وإثم لا يغتفر ؛ وقد كان الشيوعى الجديد فى إخضاع روحه لقانون الكرمين يشعر بشيء من تلك الراحة النفسية ذاتها التى توحى بها « الكثلثة » إلى نفس الرجل المستنير الذى يستشعر الألم الواخز من استمتاعه بامتيازات دون الكافة ، وحرىات دون الآخرين .

وبوم يرتضى المستنير التخلي عن حريته الروحية ، لا يلبث ذهنه أن يصبح بكلية فى خدمة هدف لا يخالجه الشك فى سلامته ، وغاية لا يساوره الريب فى صدقها بدلا من أن يفكر طليقاً ، ويتأمل حرّاً من كل قيد أو سلطان ؛ بل إن إنكار الحقيقة يصبح خدمة تؤدى ، وعملاً حسناً . وهذا هو بلا شك السبب فى أن مناقشة شيوعى ما فى أية ناحية من نواحي السياسة عقيمة لاجدوى منها ، وكل اتصال ذهنى صادق به ينطوى على تحد لايمانه ، واصطدام بيقينه ، وإثارة بالغة لروحه . ولهذا كان تقديم الكبرياء على مذبح الثورة الشيوعية أسهل كثيراً من انتزاعها منه واستردادها .

وقد يكون هذا سبباً من الأسباب التى جعلت الشيوعية أكثر نجاحاً فى الأقطار الكاثوليكية منها فى الدول البروتستانتية ؛ لأن البروتستانتى ، فى الأصل على الأقل ، يأبى عليه ضميره أن يرتضى الرضوخ بالروح لأية سلطة مستأثرة ، ويعتقد أنه يعلم الشر والخير ، ويدرك الحق والباطل ، بنور قلبه ، وضياء روحه ، وأن الديمقراطية عنده ليست مجرد شكل مريح أو عادل من أشكال الحكم ، بل ضرورة تقتضيها الكرامة الإنسانية . مثله فى ذلك كمثل « برومسيوس^(١) » الذى سرق النار من السماء واستقر إلى الأبد على جبل القوقاز ينقر النسر كبده ، لأنه أبى التسليم فى حق

(١) « برومسيوس » فى أساطير اليونان هو نصف إله صنع الإنسان من صلصال وسرق النار من جبل أوليب . وعلم الإنسان استخدامها فمأقبه « زفس » رب الأرباب بقيده فى الأغلال .

معاونة بنى البشر بالعقل والهدى . وإني لأسائل نفسي أحياناً ما بالى يوم كنت فتى
حدثاً أقيم مع ويلي منزنج Willy Munzinger الزعيم الشيوعى فى برلين لم أقبل
إغراءه إياى بقبول الدعوة إلى الذهاب معه إلى روسيا ، وإن كانت شخصيته الرائعة
قد أسرتنى ، تلك الشخصية التى وصفها آرثر كوستلر فى هذا الكتاب . وكانت
الماركسية تبدو لعينى الجزء المكمل للفلسفة الأفلاطونية ، وهى يومئذ موضوع بحثى
وجوهر دراستى . وكنت فى صيف عام ١٩٣١ على يقين يخالطه زهو بأن الديمقراطية
الاشتراكية فى ألمانيا سوف تتداعى أمام النازية ، وأن نشوب الحرب أمر لا مفر منه
حين يستولى هتلر على مقاليد السلطان .

فليت شعرى إذن ما الذى جعلنى فى أعماقى لا أستجيب لنداء الشيوعية وقتونها؟؟
والجواب أن مرجع ذلك فى ملتقى واعتقادى إلى « العناد » ، أو إن شئت قل
إلى « الكبرياء » . فلست أرى على سلطاناً لأحد ، كائنًا من كان ، يستوى فى ذلك
الروحى والزمنى . وهذا هو بعينه الباعث الذى يستطيع المرء أن يجده فى شأن « ستيفن
سبندر » فقد رأيناه عقب انضمامه إلى الحزب الشيوعى ينشر فى جريدة « الدبلى وركر »
مقالاً سداه ولحمته « الانحراف » عن الشيوعية ، لمجرد التصلب والعناد . وأميل إلى
الاعتقاد بأن تجاربه فى الشيوعية كانت متسمة فى الواقع بالطابع « البريطانى » . أشبه
شئ بما كان من أمر « الرفيق » الذى وصفه لنا « سيلونى » فى روايته التى يتحدثنا فيها
عن نفسه ؛ فإن تأثيره الساذج بأ كذوبة متعددة أثارت الضحك فى جميع أرجاء
« الكرمليين » . فنحن البريطانيين نُخرج من الزنادقة — أو الهراطقة — أكثر مما
ينبغى ، وهم عندنا أكثر متوافرون ، لما ركب فى نفوسنا من النفور الشديد من فكرة
« العصمة » من الذنوب . ولكن لا تنس أن هنرى الثامن كان فى زمانه مثال المؤمن
« بالتيتوية » ^(١) ... !

(١) نسبة إلى المارشال تيتو الذى يصر على أن الشيوعية التى يؤمن بها هى الشيوعية الصحيحة
الصادقة ، وإن كان فى الوقت ذاته قد انصرف عن روسيا وشيوعية ستالين . وكذلك كان هنرى
الثامن يصر على أنه ما فتى مسيحياً كاثوليكياً صليماً ، وإن كان فى سلوكه وتصرفاته يبدو من
المسيحية بعيداً .

ولكن لنعد إلى أوربا .

إن من أعجب الأسرار التي كشفت عنها هذه الروايات الست التي سنوردها في هذا الكتاب موقف الشيوعيين « المحترفين » من المستنير الذي تحول إلى الشيوعية . فهم لا ينفرون منه ولا يستريبون به فحسب ، بل الظاهر أيضاً أنهم يعرضونه لتعذيب بالغ ، وإيلام شديد ، واضطهاد عقلي مقصود . وكانت هذه المعاملة في بداية الأمر لا تزيد إلا إيماناً . بل كانت في الواقع تنمى فيه الشعور بالذلة والضعفة حيال العامل الكادح الصادق في شيوعيته ، الأصيل في عقيدته . وكان يرى من المتعين عليه أن يحقق بالتدريب النفسى الصفات التي كان يصور الخيال له ، من فرط الإعجاب ، أن العامل إنما أوتيها بالسليقة ، واكتسبها بالفطرة . ولكن من الجلى أن هذا الشعور لا يلبث أن يتغير ، وصرعان ما يفتن إلى حقيقة الأحوال في روسيا . وعندئذ تستحيل الذلة الأولى التي كان يستشعرها ، والتي رأينا « سيلوى » في روايته يحيد وصفها ، إلى ذلك الإيمان الذي أوحى به ماركس ، على الرغم من سحره البالغة من الصقالة Slavs ، وهو أنه من المتعين على الغرب « تنوير » الشرق ، وعلى الطبقة الوسطى تنوير الطبقة الكادحة .

وكان هذا الاعتقاد بداية انقشاع الأوهام التي كانت مسيطرة على أذهان الذين اعتنقوا الشيوعية ثم ارتدوا ، بل بداية التشفع والاعتذار عن البقاء في حزبها . أما انقشاع الأوهام فلأن الدافع الأكبر إلى اعتناقها هو اليأس من الحضارة الغربية بعد أن تبين لأولئك المستنيرين أنها تحوى فيما توجب الالتجاء إلى الشيوعية الروسية . وأما الاعتذار فلأن الحجة التي يتيسر لهم التذرع بها هي أن القسوة الشرقية من شأنها ، إذا توارى النفوذ الغربى ، أن تحيل الدفاع عن الحرية الإنسانية إلى طغيان مقيت ، وسلطة غاشمة .

وهنا يبسّد الصراع الرهيب في أعماق الضمير . ذلك الصراع الذي وصفه « أندريه جيد » في عرض قضية الغرب القديمة ضد الشيوعية الروسية ^(١) .

ولولا الحرب الأهلية في إسبانيا، والسياسة التي اتبعتها الغرب حيالها، وهي الامتناع عن التدخل فيها، لارتد بعد أندريه جيد في عام ١٩٣٠ ألوف من « المستنيرين » . فإن مأساة الحرب الإسبانية، والحملة المنظمة لإقامة جبهة شعبية حيال « الفاشية »، ساقتا بحيل كامل من الشباب الغربيين إلى معسكر الشيوعية، أو إلى الاتصال الوثيق به، واحتجزت خلقاً كثيراً آخرين عن « الردة » إلى الديموقراطية؛ وإن كانوا قد اشمأزوا مما شاهدوه، وانقلبوا مما عانوه ساخطين .

أما قصة ريتشارد رايت، فلها شأن خاص، وخطر قائم بذاته، لأنها تدخل على المسرح الأمريكي مشاهد « الروح الاستعمارية » Imperialism ونتائجها ومعقباتها، ومناظر « العنصرية » Race ومساوئها وموابعاتها؛ فقد شعر، وهو زنجي يعيش في أكواخ شيكاغو وأعشاشها، بما لم يشعر بمثله أحد من المستنيرين الغربيين، شعر بسلطان عقيدة جديدة تبدو كفيلة برد حاسم كامل على مشاكل المظالم الاجتماعية والعصبيات العنصرية . وبينما نرى الكتاب الآخرين في أحاديثهم التي يجمعها هذا الكتاب قد ضحوا طواعية بمراكمهم الشخصية وحرّياتهم الخاصة بقبولهم « النظام الشيوعي »، نجد « رايت » يعد هذا النظام سراحاً رائعاً لقوة مكبوتة وإطلاقاً بديعاً لمواهب وملكات محتبسة، وننبين أنه إنما « ضحى » حين غادر صفوف الشيوعيين . فقد مضى في قصته يقول « لقد كنت أحس في أعماق قلبي أنني لن أستطيع

(١) وذلك أن أندريه جيد أبدى استعداداً للمساهمة في هذا الكتاب قبل إعداده، ثم تبين له بعد ذلك أن حالته الصحية لا تسمح له بتأدية هذه المهمة، فأسفت لهذا أشد الأسف، ولم أشأ أن أخسر هذا العنصر الخطير من عناصر هذه الدراسات . ولشد ما سرني أن أعهد إلى الدكتورة إينيد ستاركى بتنسيق ما كتبه أندريه جيد وإعداده للنشر، ففعلت على العمل، واستشارته فيه، وقد أقر ما كتبه في النهاية وأذن به، وهكذا جاء النص من عملها، ولكنها بنقته على فقرات بأعيانها من رسالتين كتبتهما عقب رجوعه من روسيا، كما استأنست بما ورد في « مذكراته » ومناظرة جرت في دار « البحث عن الحقيقة » في باريس عام ١٩٣٥ . وأحب هنا أن أقدم إلى الدكتورة ستاركى شكرى وشكر الناشر على إجادتها هذه المهمة الشاقة، وعلى عنوان الكتاب، لأنها هي التي اقترحت علينا .

بعد اليوم أن أكتب بذلك الأسلوب الذى كنت أكتب به ، ولن أشعر بذلك
الشعور الحاد المرهف الذى كنت أستشعره ، ولن أعبر بعد الآن عن الأمل الوثاب
الغلاب فى النفس ، التعبير الحامسى البليغ الذى كنت أعبره من قبل ، ولن أعود أسلم
بالإيمان تسليماً ... » .

إن هذا الاعتراف المحزن إنما هو تذكرة بأن الشيوعية ، مهما طاشت سهامها فى
الغرب ، فلا تزال القوة « المنقذة » و « العامل المحرر » بين الشعوب الملونة
Coloured Peoples التى تؤلف الأثرية الكبرى من البشر ، وإن « رايت »
كزنجرى أمريكى إنما ينتمى إلى تلك الأثرية ، وفى الوقت ذاته لا ينتمى للديموقراطية
الغربية . فقد رأيناه ككاتب أمريكى ، أشربت نفسه معانى الكرامة الإنسانية كما
يؤمن الغرب بها ، وتأثرت مشاعره بالقيم الغنية فيه ، يصطدم بالجهاز الشيوعى . ولكنه
كزنجرى راح يبعث من أعماقه تلك الصيحة المحزنة ، ويرسل من صدره تلك العبارة
الحزينة عقب انصرافه عن الحزب الشيوعى . وهى قوله « سأكون لهم ، حتى وإن لم
يكونوا لى . I'll be for them, even if they are not for me » ولكن ملايين
من أفراد الشعوب الملونة لا يستهدفون لهذا الصراع النفسى الذى استهدف له ريتشارد
رايت ؛ فلا تزال الديموقراطية الغربية فى اعتقادهم « رفعة البيض » وسموهم على السود
أو الصفر ، ولا تزال الشيوعية خارج حدود القارة الهندية حيث تحققت المساواة بفضل
براعة الساسة الغربيين ، رسول الخلاص بين الشعوب الملونة . وفى وسع « المستنير »
من أهل الصين أو أفريقيا أن يقبلها على هذا المعنى ذاته دون أن يدمر شيئاً
من شخصيته .

ولعل هذا هو سر الخلاف المشاهد بين الروس وبين الجهاز الحزبى فى مسلكه
إزاء « المستنيرين » الغربيين . ولعل الكرمليين تحسب أن نفوذ هذه الطبقة الخالصة
الموثوق بها سيتلاشى أو يصبح شيئاً لا يكاد يذكر ، إذا جاءت الحرب القادمة ، فإذا
هى يومئذ صراع بين الشعوب الكادحة وبين خصومها ، لا بين طبقة وأخرى داخل
الشعب ذاته .

ومهما يكن من الأمر فلا نزاع في أن معاملة الجهاز الشيوعي للمستشير الغربي وحشية قاسية ؛ ولو أن الكومنترن Comintern أظهر شيئاً من الاحترام والتقدير له من الحين إلى الحين خلال الثلاثين عاماً الماضية، لظفر بتأييد أكبر فريق من معاصر التقدميين في مختلف أرجاء العالم الغربي وبقائه ؛ ولكن الظاهر أن الكومنترن إنما قبل من بداية الأمر ذلك التأييد متكرها ، ومضى يحاول جاهداً استنفارهم ، ويعمل على إقصائهم ؛ حتى لقد رأينا أن أحداً من هؤلاء الكتاب الذين سقنا في هذا الكتاب أحاديثهم لم يخرج على الشيوعية طائعاً راضياً ، ولا غادر صفوفها مستريح الضمير . ولم يكن أحدهم ليرتدد في العودة إليها خلال مرحلة الانسحاب التي وصفها في قصته لو أن الحزب الشيوعي أولاه نظرة فهم ، ولحجة إدراك ، لما كان يؤمن به من الحرية البشرية والكرامة الإنسانية .

ولكنه لم يفعل ، بل ذهب الجهاز الشيوعي عن عمد لا هواة فيه ، وتدمير مقصود لا يداخله تردد ، يغر بل الحب ، ولا يبقى من الثقافة الغربية إلا التبن والقش . وماذا يحدث للشخص الذي يتحول إلى الشيوعية حين يتنحى عنها ويتنصل من صفوفها ؟؟

إن لويس فيشر وستيفن سبندر وأندريه جيد لم يعملوا يوماً مع اللجنة الداخلية في الحزب ، ولا اشتغلوا عن كتب من ساداته وأهل السلطان فيه ، بل إن فيشر في الواقع لم ينضم إلى الحزب في وقت ما ، وإنما كانوا جميعاً ، إخوان سفر ، ورفقة في القافلة ، فلم تفرغ شخصياتهم في قوالب الشيوعية ، ولم يندمجوا بها في صميم حياتها ، ولهذا لم يكن ارتدادهم ، على ما فيه من ألم بالغ ، وعذاب شديد ، مفسداً لطبائعهم ، أو مشوهاً على الدهر لقطرهم وسليقاتهم .

أما سيلوني وكوستلر وريتشارد رايت فلن يفلتوا يوماً من الشيوعية وبرائتها ، بل سيقضون حياتهم إلى النهاية في إسارها ، متأثرين آخر الدهر بمنطقها وكلامها ،

وستكون المعركة بينهم وبين الاتحاد السوفييتي صورة ماثلة لصراع نفسى رهيب
في حنايا نفوسهم .

والواقع أن المتمرد الصادق لن يسترد شخصيته كما كانت أول مرة ، وقد رأينا
كيف أصبح هذا الصراع عند رجل مثل كوستلر منبع إنشائه ، ومصدر جهده ،
ومنبث تفكيره وتأملاته . وحسبه أنه في بعض قصصه ، وهى « اليوغى »
و « القوميسار » يصف كيف نظر اليوغى فى المرأة ، فرأى نفسه « قوميساراً » فطم
المرأة حنقاً وغضباً . وليس ما يكتبه اليوم « نطراً » يجلب السكينة ، وينزل على
النفس برداً وسلاماً ، ولكن استجواب قاس لها ، وبحث فى الحركات العالمية التى
تنعكس عنها ؛ استجواب نفس أخرى غير مبالية بألم ، ولا مكترثة بتعذيب .

وقد استطاع « سيلوى » باستدارته دورة كاملة فى الأوبة إلى تعاليم المسيحية التى
تركها أن يحقق توازناً نفسياً جعله « بمنأى » عن الصراع ، ومبعدة عن العراك الناشب
فى أعماق النفس وأغوارها ، وأمسى اعتقاده الأساسى ، تقديس كل محاولة من النفس
فى التفوق على ذاتها ، وتقدير كل ما يتصل بأسباب قلقه الدائم ، وثورته الأبدية .

وجملة القول أن دراسة هذه الحن التى خاضها أولئك الكتاب الستة تسفر عن
شئ واحد ، لا يداخله ريب ، وهو ما عناه « سيلوى » بقوله لتوليأتى مازخا :
« إن المعركة الحاسمة ستكون بين الشيوعيين ، والمرتدين عن الشيوعية . ولكن لن
يستطيع أحد أن يفهم حقاً قيم الديمقراطية الغربية ، إذا هو لم يسبق له صراع مع
الشيوعية كفلسفة ، ولا مع الشيوعيين كخصوم سياسيين » .

لقد كان إبليس يوماً مقياً فى الجنة ، ولا أحسب الذين لم يلتقوا يوماً به قادرين
على تمييزه « كلاك » إذا هم رأوه ...!

معلومات موجزة عن الرواة في هذا الكتاب

آرثر كوستلر

ولد في بودابست يوم ٥ سبتمبر عام ١٩٠٥ من أب مجرى، وأم نمسوية من أهل فيينا، وتلقى التعليم فيها، ولبت عامين كاملين يطوف أرجاء الشرق الأدنى، ثم عين فيه «مراسلاً» لمجموعة صحف أولشتاين Ulstein في برلين، وهي صحف الأحرار، وانضم إلى الحزب الشيوعي في ٣١ ديسمبر عام ١٩٣١، وخرج منه في ربيع عام ١٩٣٨ بعد أن زجت به السلطات الإسبانية على عهد فرانكو في غيابة السجن خلال الحرب الأهلية التي وصفها في جريدة «العهد».

وسجنته الحكومة الفرنسية مرة أخرى في عام ١٩٣٩ ولكنه فر إلى بريطانيا لينخرط في الجيش البريطاني عام ١٩٤٠.

وتشمل تواليفه «الظلام في الظهيرة Darkness at Noon» و«الطغام» — أو «حتالة الأرض Scum of the Earth» و«القدم والرحيل» و«لصوص الليل» و«اليوغى والقوميسار» و«البصيرة والبصر Insight and Outlook» و«الوعد والتنفيذ Promise and Fulfilment».

اجنازيو سيلونى

ولد في أول مايو عام ١٩٠٠ في بسكينا دل مارسى إحدى القرى القائمة في جبال «الآينين» في سفوح «أبروزى» Abruzzi. وكان أبوه من صغار المالكين، وأمه نساجة Weaver. وفي الحرب العالمية الأولى عين وهو يومئذ يناهز السابعة

عشرة « سكرتيراً » لجماعة العمال الزراعيين في ولاية « أبروزى » ، وسبق به إلى المحاكمة بتهمة تنظيم مظاهرة عنيفة احتجاجاً على دخول الحرب . وفي عام ١٩٢١ ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي ، وتولى تحرير مجلة أسبوعية تدعى « الطليعة » في روما ، وجريدة يومية تدعى « لافوراتوري » في تريستا ، وظل مقياً في إيطاليا حتى بعد تنفيذ القوانين الخاصة التي اشترعت ضد خصوم « الفاشية » وإصدار صحف غير مشروعة .

وفي عام ١٩٣٠ بعد أن سجن وأبعد من عدة دول أوربية استقر به المقام في سويسرا حيث لبث إلى عام ١٩٤٤ ، وكان خروجه من الحزب الشيوعي في عام ١٩٣٠ ، وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ قبل الاضطلاع بإدارة القسم الأجنبي في الحزب الاشتراكي الإيطالي ، وهو الذي تولى تنظيم الحركة التي جعلت تنادى بقيام « جبهة ثالثة » .

مؤلفاته — رواية « فونمارا » Fontmara في عام ١٩٣٠ — « الخبز والنبيذ » في عام ١٩٣٧ — « مدرسة الطفلة » — « محاورات » ١٩٣٨ — « البذرة تحت الجليد » ١٩٤٠ ، وأخيراً مسرحية « وقد أخفى نفسه » And He did hide himself .

ريتشارد رايت

ولد في ٤ سبتمبر عام ١٩٠٨ في مزرعة تبعد مسيرة خمسة وعشرين ميلاً من ناتشز Natchez في ولاية مسيسيبي ، من أبوين زنجيين فقيرين ، وقد تحلى عنه أبوه فكفيلته أمه ، وكانت تشتغل « غسالة » ، ولكنه أصيب في طفولته بالشلل فتولته جدته وأرسلته إلى مدرسة خيرية . وفي الخامسة عشرة ترك الدار ، وخلف العشيرة ، واشتغل عامين في مدينة « ممفيس » ، وقرأ يومئذ كتاب « مقدمات » لمنكن Mencken Prefaces ، فلم يلبث أن اعتزم أن يصبح كاتباً ، ونزح إلى شيكاغو وهو يحمل مائة وخمسين ريالاً في جيبه ، ومضى يكسب قوته بمختلف الحرف ومنوع

الأعمال حتى اضطره الكساد إلى ترك العمل والتبطل فانضم إلى الحزب الشيوعي من طريق نادى جون ريد John Reed Club .

مؤلفاته : — « أبناء العم توم » Uncle Tom's Children وهى مجموعة قصص وقصة « كيف ولد بيجر » و « الابن الوطنى » و « الغلام الأسود » Black Boy .

أندريه جيد

ولد فى باريس خلال شهر نوفمبر عام ١٨٦٩ ، وتلقى العلم فى البيت ثم ذهب إلى المدرسة الإلزامية فى باريس ، وكان طيلة حياته رجلاً صاحب موارد ، فلم يحتاج يوماً إلى كسب الرزق بالانحراط فى مهنة ما أو صناعة معينة ؛ وقد أغناه صلاح أمره عن الكدح ، فطارت فى أفق الأدب شهرته ، ووضع وهو فى العشرين من العمر « الأغذية الأرضية » Nourritures Terrestres وهو الكتاب الذى قيض له أن يحدث أثراً بالغاً فى نفسية الجيل الذى تلا الحرب العالمية الأولى ، ومن بين كتبه « الباب الضيق » و « السيمفونية القروية » و « أوديب » و « تيزيه » Thésé . ولكن لعل « يومياته » هى أبلغ ما كتب وأنسب ما تكون لعبقريته الفذة ومواهبه الملمة ، لأنه يتجلى فيها الكاتب الأخلاقى الناسج على منوال القداى . وأكبرالظن أن نبالة اتجاهاته ، ورفعة آرائه ، ونقاوة أسلوبه تضعه فى مصاف السادات والأعلام فى الأدب الفرنسى ؛ وقد منحته جامعة أ كسفورد فى شهر يونية عام ١٩٤٧ الدكتوراه الفخرية فى الفلسفة ، وكان ذلك أول شرف ناله فى حياته ، وإن كان يومئذ قد أسند إلى الثامنة والسبعين ، كما ظفر بجائزة « نوبل » فى الأدب قبيل نهاية ذلك العام .

ولم يكن أندريه جيد يوماً عضواً فى الحزب الشيوعى ولكنه كان معنياً بمتابعة سير التجربة الشيوعية فى روسيا ، ويرى أن فى نجاحها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البشرية مما تعانيه . وقد زار روسيا فى شهر يونية عام ١٩٣٠ تلبية لدعوة من « جمعية

المؤلفين « الروس ، ولكنه عاد متبرماً مستنكراً ، وأدرك أنه كان واحداً ، ورجع
ينادى بما كان به منادياً ، ونعنى به مبادئ « الفردية » ، ومذاهب الأحرار . ولم
ينشر بعد « تيزيه » منذ عام ١٩٤٦ شيئاً جديداً ، ولكنه راح يتوفر على جمع تواليفه ،
واستكمال « يومياته » .

الناقل : — وكانت وفاته في شهر فبراير من العام الحالي — ١٩٥١ .

إينيد ستاركى

ولدت في كيلنى بولاية « دبلن » في أيرلندة ، وكان والدها المرحوم الرايت
أونورابل و . ج . م . ستاركى من العلماء الإخصائيين في الفلسفة الإغريقية القديمة ،
ومندوبا سامياً للتعليم في أيرلندة على عهد الحكم البريطانى . وقد تلقت تعليمها
في كلية اليكسندرة بدبلن وكلية سومرستفيل في أوكسفورد والسوربون في باريس ،
وتوفرت على دراسة الأدب الفرنسى ، وأحرزت إجازة الامتياز من الدرجة الأولى
من أوكسفورد ، والدكتوراه من جامعة باريس ودكتوراه في الآداب من أوكسفورد
ومنحت وسام « فرقة الشرف » — اللجيون دونير — لمساهمتها في الآداب الفرنسية .

وتشمل مؤلفاتها في الإنجليزية بحوثاً ودراسات عن مؤلفات ريمبو Rimbaud
وبوديلير وغيرها من الكتاب ، وقد توجت بعض كتبها بإقرار من الجمع الفرنسى
— الأكاديمية — وهى الآن تشغل منصب « محاضرة » في الأدب الفرنسى بجامعة
أوكسفورد ، و « زميل » Fellow في كلية سومرفيل .

لويس فيشر

ولد في ٢٩ فبراير عام ١٨٩٦ في فيلادلفيا وقضى بضع سنين يشتغل بالتدريس ،
ثم ساهم في الصحافة ، وأوفد إلى برلين في عام ١٩٢١ من قبل صحيفة « نيو يورك بوست »
ولبث خمسة وعشرين عاماً يطوف أوروبا وآسيا .

ولم ينخرط يوماً في سلك حزب سياسي ، ولكنه كان نصيراً لروسيا ثم مؤيداً للجمهورية الإسبانية ، وظل طيلة الحرب الأهلية في إسبانيا يوافي العالم بأنباءها .
تأليفه : — السوفييت ومكانهم من الشؤون العالمية — الرجال والسياسة —
التحدي الأكبر — غاندى وستالين — الثلاثة عشر الذين هربوا .
وهو الآن يضع دراسة وافية عن حياة غاندى .

ستيفن سبندر

شاعر وناقد أدبي ، وابن الكاتب الحر المعروف ، ادورد هارولد سبندر ، وكان مولده في عام ١٩٠٩ وتلقى بعض علومه في سويسرا وبعضها الآخر في جامعة أكسفورد وبدأ ينظم الشعر فيها مع داي لويس Day Lewis وأودن Auden .
واندمج في دنيا السياسة عام ١٩٣٠ فوضع كتابه « خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار » عام ١٩٣٧ . ولم يلبث أن انضم إلى الحزب الشيوعي ولكنه لم يقض فيه إلا أمداً قصيراً .

وفي عام ١٩٤٦ عكف على دراسة النازية وأثرها في نفسية الشباب الألمان ، لتقديم تقارير عنها إلى قلم المخابرات السياسية بوزارة الخارجية البريطانية .
ونشرت بواكير قصائده عام ١٩٣٣ ، ونقداته الأدبية « العنصر الهدام » عام ١٩٣٥ ، وكتابه « شاهد من الغرب » عام ١٩٤٦ . وهو الآن يجمع ديوانه .

ريتشارد كروسمان

كان مولده في ١٥ ديسمبر عام ١٩٠٧ من أب كان يشتغل أولاً بالحماماة ثم انتقل إلى القضاء . وقد تلقى علومه في كلية ونشستر في جامعة أكسفورد حيث برز في الأدب والفلسفة ، وظل في الجامعة « زميلاً » ثمانية أعوام يدرس للطلبة فلسفة أفلاطون والعلوم السياسية . وفي الفترة ذاتها بدأ حياته السياسية كاشتراكي في مجلس

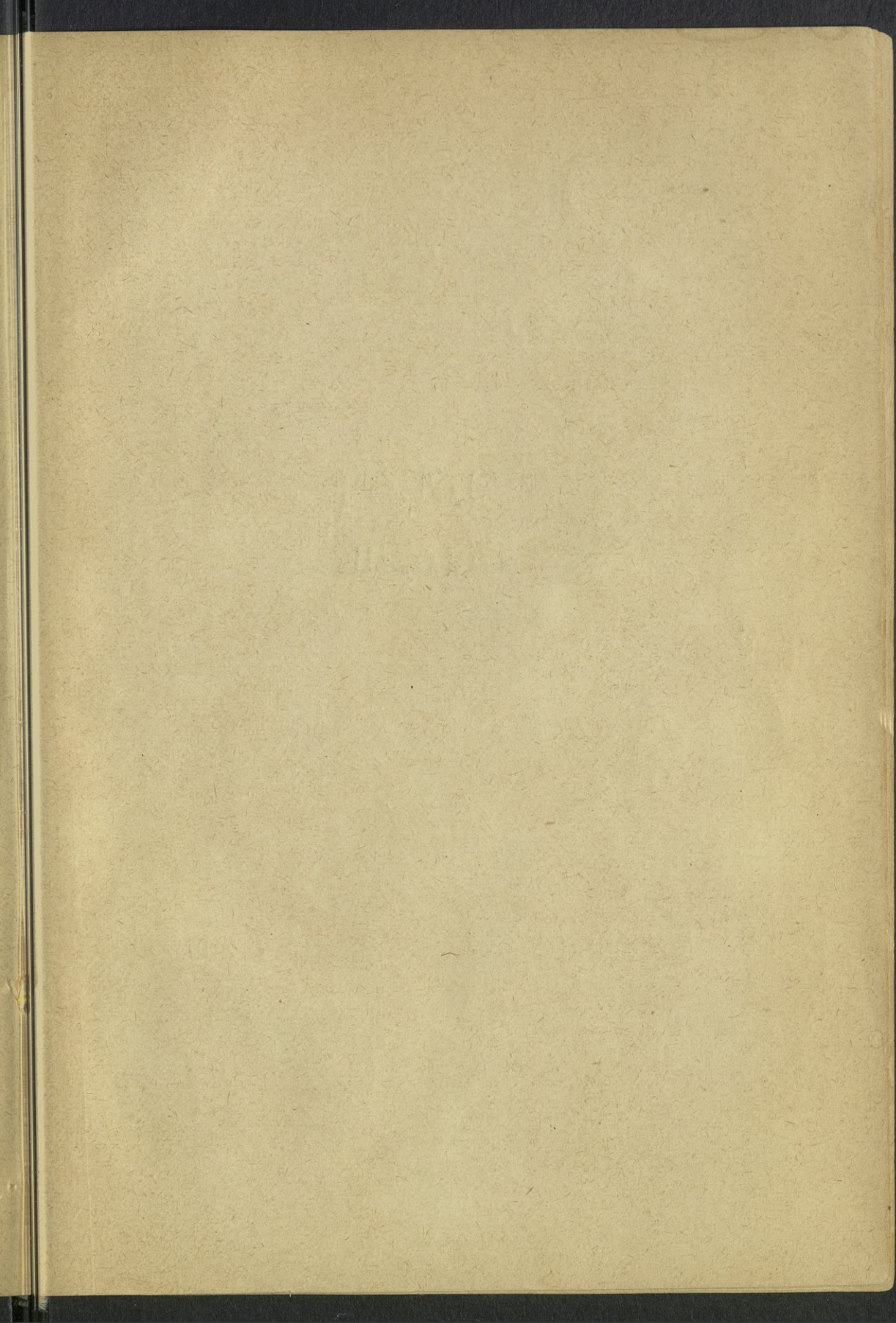
المدينة ، وشرح نفسه في عام ١٩٣٧ للانتخاب عن حزب العمال عن دائرة كوفنثري
وفاز بالمقعد في انتخابات عام ١٩٤٥ .

وفي عام ١٩٣٧ عين مساعد رئيس تحرير الجريدة « نيو ستيتسمان ونيشن » ،
وهو لا يزال محتفظاً بهذا المنصب ، واشتغل خلال الحرب الأخيرة في وزارة الخارجية
البريطانية أولاً ثم انضم إلى هيئة أركان حرب الجنرال أيزنهاور كخبير بالألمانية
ليتولى الدعاية بها .

وفي عام ١٩٤٦ اشتغل مع اللجنة البريطانية الأمريكية التي عهد إليها البحث في
مسألة فلسطين . وقد انتهى الأمر به إلى الوقوف في طليعة المعارضين لسياسة
بينفن إزاءها .

توالياه : — أفلاطون اليوم — الحكومة والمحكومون — لجنة فلسطين .

القسم الأول
«المبتدئون»



أرثر كوستلر

- ١ -

لا يكتسب الإيمان بالحجة والمنطق . والمرء لا يقع في حب امرأة ، أو يدين بمذهب ، أو يعتنق ملة ، نتيجة إقناع ، أو وليد منطق . وقد تدافع الحجة عن فعل من أفعال الإيمان، ولكن ذلك إنما يأتي بعد انتهاء الفعل ، وارتباط الفاعل به ؛ وقد يكون للحث أو الحض أو الإقناع أثر في تحويل المرء من اعتقاد إلى اعتقاد ، وانتقاله من مذهب إلى مذهب ، ولكن دور الحث أو الإقناع لا يتعدى مجرد الوصول بعملية نفسية ظلت دهرًا طويلاً تحتلج وتستوى وتنضج في ناحية لا ينفذ إليها الحث ، أو يخترقها الإقناع ، إلى ذروتها الكاملة ، وأقصى حدود الإحساس بها واليقين .

الإيمان لا يكتسب ، وإنما ينمو نمو الشجر . وإن رأسه ليذهب في السماء ، ووقته لتمضي مصعدة في الأفق ؛ أما جذوره فتغيب في أعماق الماضي ، وتفتدى من عصارة تربة الأجداد ، ونشأة السلالة ، وتنقل الأجيال في التاريخ .

وليس ثمة فارق كبير ، في رأى علماء النفس ، بين عقيدة جديدة ، وعقيدة قديمة ، أو بين مذهب ثورى وآخر تقليدى . وكل إيمان صادق لا يعرف التراوح ، ولا يطبق المهادنة ، لأنه إيمان أصيل نقي . ومن هنا نرى الحريص الحق على القديم ، متحمسًا ثائرًا في نضاله وصراعه حيال « الفريسيين » Pharisees أو « الملاحدة » أو معاشر الفاترين المفسدين للعقيدة والعابثين بالدين ، والعكس بالعكس ، فإن الإيمان « بالأمثلة العليا » في العصر الحديث ، هذا الإيمان الذى يلوح في الظاهر رمزًا للتمرد التام على الماضي وتحطيم كل ارتباط به ، إنما يتشكل طبقًا لصورة من الفردوس المفقود ، أو ترسم معالمه على غرار عصر ذهبي قديم ، أو عهد كان صالحًا في ماضى الأحقاب وسالف القرون .

ولم يكن ماركس وأنجلز Engels يرميان من قيام مجتمع شيوعى لا فوارق فيه ولا طبقات ، إلا إلى تجديد الجماعة الشيوعية البدائية ، التى كانت قائمة عند نشأة العالم الإنسانى وبداية تكوينه ، بعد أن ينتهى البحث فى الشيوعية والدرس ، والأخذ والرد بين علماء الكلام ومناطقته .

وكذلك كل إيمان صحيح ينطوى فى ذاته على تمرد وسخط وتبرم بالبيئة الاجتماعية الراهنة ، والتقدم إلى المستقبل بفكرة جديدة ، أو مثل عليا ، مستمدة من الماضى البعيد . وكل المثل العليا ، ومطالب الكمال ، أو « الطوبوية »^(١) إنما تتغذى من أساطير الأولين . وليست تصميمات المهندس الجديد فى بناء صروح المبادئ الاجتماعية ، ولا أوراقه الشفافة الزرقاء اللون ، إلا طبقات منقحة من النصوص الغابرة .

إن التفانى فى مثل عليا نقية ، والتمرد على مجتمع فاسد ملوث ، هما إذن القطبان اللذان تنهض عليهما قوة جميع العقائد الجاهدة . وما سؤالك : أيهما يمد التيار الحاضر ويشير الأمواج المتقاذفة : أهو الفتون بالعقيدة الجديدة ، أم النفور من البيئة الحالية ؟ — إلاتريد للسؤال القديم ، حول الدجاجة والبيضة . ومن رأى علماء النفس أن كلا من اللفظة على المثل العليا والسخط على « الوضع الحاضر » هو بعض أعراض الاختلال الاجتماعى وعلاماته . ولكن المصلحين الاجتماعيين يرون فيهما العكس ، ويعتقدون أنهما من المظاهر الاجتماعية السليمة ، والاستعداد الحسن للإصلاح والتنظيم . وقد ينسى علماء النفس أو يتناسون أن الإصلاح اللين الرفيق لمجتمع مشوه لا يخلق إلا أفراداً مشوئين^(٢) مشوهين مثله . كما قد ينسى المصلحون الاجتماعيون أن الكراهية ، ولولشئ كرهه فى ذاته ، لا يمكن أنثمر المبرة والعدالة اللتين ينبغى أن يقوم عليهما كل مجتمع صالح .

(١) Utopia لعلها من « طوبى » على وزن فعلى فيقال لك « طوبى لك » وطوباك أيضاً . وطوبى اسم شجرة فى الجنة .

(٢) مشوئين أى فهاشاً مشوهين .

ومن هنا يصح لى أن أستخلص أن كلتا الوجهتين : رأى العالم النفسى ، ونظرة العالم الاجتماعى — تصور نصف الحقيقة ، ولا ترسم الحقيقة كاملة .

ولست أنكر أن تاريخ جمهرة الثوريين والمصلحين يكشف لنا عن صراع عصبى بينهم وبين الأسرة ، أو المجتمع ؛ ولكن هذا ليس إلا دليلاً — كما يقول ماركس — على أن المجتمع المريض لا يخرج غير « لحادين » مرضى يحفرون له قبره .

ولست أنكر أيضاً أن الموقف المشرف الأوحى فى وجه كل ظالم صارخ ، هو التمرد عليه ، وترك البحث والدرس والتأمل إلى وقت أفضل ، وفرص أسنح وأصلح ؛ ولكن إذا نحن عدنا إلى التاريخ ، وقارنا بين الأهداف العالية التى قامت الثورات باسمها ، وبين الخواتيم السيئة التى انتهت إليها — تبين لنا ، فى أكثر من شاهد ، كيف لوثت الحضارة المدنسة ثمارها ، ودنست ذرايها ، وأخرجت أسوأ البنين .

أما إذا جمعنا بين نظرة العلماء النفسيين ، ونظرة العلماء الاجتماعيين ، وكلتاها نصف الحقيقة ، أدركنا أنه إذا كان فرط التأثير بالظلم الاجتماعى والتلف الملح على المبادئ المثلى هما علامة اختلال عصبى ، فإن المجتمع قد يصل مع ذلك إلى حال من الانحلال يصبح فيها التأثير المختل الأعصاب أهون ذنباً عند الله وأخف جرماً من العاقل السليم الذى يأمر بإلقاء الخراف ^(١) فى اليم مغرقة على أعين قوم جياع ساغبين ... !
كذلك كانت حالة حضارتنا ، فى شهر ديسمبر عام ١٩٣١ ، حين انضمت إلى الحزب الشيوعى فى ألمانيا ، وأنا يومئذ فى السادسة والعشرين ...

وقد تحولت إلى الشيوعية لأنى كنت يومئذ قد نضجت لهذا التحول وتأهبت نفسى له ، فقد كنت أعيش فى مجتمع ممزق الأوصال متلف على الإيمان ظمآن لموارده ، ولكن اليوم الذى تسلمت فيه بطاقة العضوية لم يكن سوى الذروة التى انتهت إليها نفسيتى بعد تطور بدأ قبل أن أقرأ عن « الخراف » المغرقة على أبصار

(١) فى الأصل « الخنازير » ، وهى كلمة مأخوذة من الإنجيل .

الجوع ، وقبل أن أسمع باسمي ماركس ولينين ، بعد طويل ؛ بل لقد كانت تلك الحالة النفسية متأصلة الجذور في حداتي ، غائبة الأصول في أعماق طفولتي .

ولئن كان تحول كل فرد منا نحن رفاق العهد الباكر قبل الشيوعية أوفراق الفترة الوردية^(١) Pink Decade يرجع إلى أسباب وعوامل وجذور مختلفة ، فقد كنا جميعاً أو كانت أكثرنا ، ثمرات جيل واحد ، ونتاج بيئة ثقافية بذاتها . وهذه الوحدة التي جمعتنا ، على اختلاف أسبابنا وعواملنا ، هي التي تحدوني إلى الأمل في أن تكون قصتي هذه خليفة بأن تقص ، وحديثي هذا حرياً بأن يروى ..

ولدت عام ١٩٠٥ في بودابست حيث أقمنا حتى عام ١٩١٩ ثم نزحنا منها إلى فيينا . وكنا في حال حسنة إلى نشوب الحرب العالمية الأولى ، مثال الأسرة الأوربية التي تمثل « الطبقة الوسطى » في الغرب . فقد كان أبي « مجرياً » يشتغل مندوباً لبعض مصانع النسيج البريطانية والألمانية القديمة العهد ، ولكن هذا الأسلوب من العيش انتهى كغيره وعدة من أشباهه في شهر سبتمبر عام ١٩١٤ إلى خاتمة فجائية . فلم يستطع أبي من ذلك العهد أن يقف على ساقيه أو يسترد في يوم من الأيام مكانه . وقد لجأ إلى عدة أعمال والتمس الرزق من وجوه مختلفة . ولكن كلما فقد الثقة بالنفس في عالم متغير ، ودنيا متقلبة ، كان التجاؤء أعجب وأغرب ، وإقدامه على المحاولة وهماً ومفارقة . فقد فتح مصنعاً للصابون الإشعاعي ومضى يمول عدة مخترعات صغيرة كالثرثريات الكهربائية التي لا يتطرق إليها الفساد والطوب المستخدم في تدفئة سرر المرضى وما إليها . ولكنه في النهاية خسر البقية الباقية من رأس ماله في فترة التضخم النقدي الذي طرأ على النمسا في عام ١٩٢٠ ، ففارقت أبوي وأنا يومئذ في الحادية والعشرين . ومن ذلك الحين أصبحت المعين الوحيد لهما ، القائم بأودهما .

وقد أدركت فجأة وأنا في التاسعة ، حين انهيار كيان الطبقة الوسطى ، جملة الحقائق الاقتصادية في الحياة ، وكنت وحيد أبوي فظلاً يدللاني ، ولكني كنت بعسرتي

(١) هي السنوات العشر الأولى التي كانت النفوس فيها سكرى بالنشوة الجديدة ، ولذلك سميت « الوردية » أو « القرظلية » Pink Decade أي فترة التمهيد أو تورده الزهرة قبل احمراها .

عليها ، وعلى أبي مشفقاً ، فقد كان كريماً سخياً ، وأخا طيبة ساذجة نقية ؛ فلا عجب إذا أنا مضيت أشعر بوخز أليم ، واستنكاف موجه ، كلما ابتاعاً لي كتباً أو اقتنياً لي الأعياب . ولبث هذا الإحساس مخالجي حين شببت عن الطوق : كلما اشتريت لنفسى ثوباً ، أدركت أن شرائه سيضطرنى إلى الإقلال من المال الذى سأسله إليهما ، وأحسست عندئذ كراهية بالغة للأغنياء والمترفين ، لأنهم يستطيعون أن يشتروا ما هم مشتهوه — فإن للحسد فى المعترك الاجتماعى أثراً أقل كثيراً مما يظن الناس عامة — ولكن لقدرتهم على الشراء ، دون تخرج أو وخز ضئير .

وهكذا أدخلت العامل الشخصى فى كيان المجتمع عامة ، وكان ذلك بلا شك طريقاً ملتويلاً لا اكتساب وعى اجتماعى . وقد أصبح الاعتقاد الذى أخذ يومئذ ينمو فى نفسى ، بسبب هذا العنصر الشخصى الدقيق فيما يتصل بحياتى ، جزءاً من كيانى ، وقطعة وثيقة من شعورى ووجدانى ؛ ولكنه ظل بضعة أعوام لا يستحيل عندى إلى عقيدة سياسية . وإنما أخذ فى بداية الأمر صورة تأفف واشمئزاز . فكان أى احتكاك بأناس أشد فاقة منى أليماً لا يطاق . فالطالب الذى لا يملك قفاً لتدفئة يديه حتى ليولوج « القشف » على أنامله ، والبائع الجوال الذى كان من قبل فى خدمة أبى ، أصبح لا يجد طعاماً ، وأكثر وجباته تطفلاً ، أو وغولاً على موائد الناس ، كان يؤسهما يزيد فى وخز ضميرى ، وتأثمتى وخرج صدرى . وأحسب العالم النفسى لا يجد مشقة فى التدليل على أن هذه العقدة النفسية التى لازمتنى ترجع إلى عوامل أخرى أعمق جذوراً من مجرد إعسار أهلى ، وفاقه عشيرتى . بل لو أنه أطال التنقيب وأوغل فى البحث ، ونفذ إلى صميم الأمر وسائر ألفافه وأغشيته وطبقاته ، لوصل إلى العوامل الأصلية ذاتها التى أدت إلى قيام ملايين من الحالات المشابهة لحالتى ، والتى يجمعها القول المأثور « ويل للذين يغنون على صوت العود ، ويدهنون بالأدهان النفيسة ، ولا يكتئبون لانكسار يوسف ... » ^(١) .

(١) أعلها من كلمات المسيح عليه السلام .

وكذلك هيأتى فرط التأثير بحالتى الخاصة وشدة الإحساس بسوء عيشى ، للشعور
بصدمة أليمة حين عرفت أن القمح أتلف ، والفاكهة أفسدت ، والخراف أقيت
فى اليم وأغرقت ، فى أعوام الكساد — لحفظ الأسعار وتمكين الرأسماليين السمان من
الغناء على أنغام الأوتار ، بينما راحت أوروبا ترعش من الجوع ، وترجف من السغب ؛
ومضى أبى يخفى كم ثوبه الناصل^(١) تحت المائدة .

ولم تلبث الأكام الناصلة الممزقة والخراف المفرقة أن اندجحت فأحدثت انفجاراً
عاطفياً بمجرد لمس « الفتيل » العام : فقد رحنا يومئذ نشد لحن « الدولية » ، ولكن
كان أولى أن تكون كلمات ذلك اللحن هى بذاتها الكلمات القديمة « ويل للرعاة
الذين يأكلون هم ، ولا يُؤْكلون قطيعهم .. »^(٢) .

وأحسب قصتى أقرب مثلاً إلى قصص الآخرين وأشدّ شبيهاً بها من وجوه
أخرى . فقد دمر التضخم النقدى الذى عرا العالم فى عام ١٩٢٠ نسبة كبيرة من
الطبقات المتوسطة التى كانت تشبهنا فى أوروبا الوسطى . وكان ذلك بداية تدهور أوروبا
وأفول نجمها ؛ فقد أدى هذا التمزيق فى أوصال الطبقة الوسطى إلى قيام عملية رهيبة
قاسية ، وهى عملية « الاستقطاب »^(٣) التى لا تزال إلى اليوم قائمة . وأصبحت
البورجوازية التى هوت إلى الفاقة والعوز متمردة : فريق منها إلى اليمين ، وفريق
إلى اليسار ؛ وإذا بكل من « شيكلجروبر »^(٤) — أى هتلر — و « جوجا
شفيلي »^(٥) — أى ستالين — ينتفعان بفوائد هذا الانتقال الاجتماعى . وأما الذين
أبوا الاعتراف بأنهم أمسوا بلا طبقة ينتمون إليها ، وأصرّوا على الاستمتاع بقلب
الطبقة ومظاهرها الفارغة ؛ واسمها الأجوف الفارغ ، فقد انضموا إلى « النازية » ،

(١) الثوب الناصل الذى نخل وبره وذهب لونه .

(٢) فى النص : ويل للرعاة الذين يهلكون ويددون غم رعيتهم .

(٣) الاستقطاب فى علم الطبيعة أى « التحويل الإرغافى أو العسفى » .

(٤) اسم هتلر فى الأصل .

(٥) اسم ستالين فى الأصل .

ووجدوا العزاء في إلقاء تبعه ما أصابهم على مؤتمر « فرساي » واليهود . ولكن فريقاً كبيراً منهم لم يجدوا حتى هذا العزاء يتأسون به ، فعاشوا هيماً ضالين ، على غير هدى ، أشبه بجماعات من ذباب الشتاء المكدود ، تتسلل على نوافذ أوروبا القائمة ، بل أمسوا أفراداً في طبقة مشردة في التاريخ .

أما الفريق الآخر فقد ولى وجهه شطر اليسار ، محققاً بذلك نبوءة « البيان الشيوعي »^(١) في قوله « إن فئات بأكملها من الطبقات الحاكمة ... هوت إلى مصاف الطبقة الكادحة »^(٢) أو أصبحت على الأقل مهددة في أحوال عيشها ... وهى تمد الطبقة الكادحة بعناصر جديدة من « التنوير والتقدم » .

ولشد ما سرنى أن اكتشفت أن ذلك « العنصر الجديد » من التنوير، هو أنا ، فقد عددت نفسى — مادمت قد اقتربت من حدود الجوع والمسغبة — أحد الذرارى المشردة إلى حين من أفراد البورجوازية وأفراخها الناشئة .

وفي عام ١٩٣١ ، حين استطعت بعد خاتمة المطاف أن أصيب دخلاً حسناً ، لم ألبث أن أدركت أنه قد حان لى أن أنضم إلى صفوف « الكادحين » ، ولكن سخرية هذا الحدث لم تقع لى إلا فيما بعد ، حين عدت أفكر فى الماضى وألقى البصر كرهة إليه ...

— ٣ —

« وستتوارى الأسرة البورجوازية قطعاً بتوارى الرأسمال ... وكلما رثت^(٣) روابط الأسرة ووشائجها بين الكادحين ، كانت الشقشقة البورجوازية وكثرة كلامها عن الأسرة والتعليم ، والروابط بين الأبوين والأبناء ، أدعى إلى السخرية والاشتمزاز بسبب النهضة الصناعية الحديثة » .

(١) اللانقستو .

(٢) الكادحة : أى البروليتاريا .

(٣) رثت : أى تقطعت ووهنت .

هذه فقرة جاءت في البيان الشيوعي ، وقد راحت كل صفحة أقرأها لماركس وإنجاز ، تكشف لعيني عن جديد ، وتدخل على نفسي فرحاً ذهنياً بالغاً لم أجربه إلا مرة واحدة من قبل ، حين بدأت أقرأ « فرويد »^(١) .

وأحسب أن اقتطاع هذه الفقرة من أصل البيان ونصوصه يجعلها تبدو سخيفة مضحكة . ولكن إيضاح الفوارق والروابط التاريخية ، بين القوانين الموضوعية للأمرة ، والطبقة ، والوطنية ، والأخلاق ، وأسرار العلاقة الجنسية وخفاياها ، وبين أمثلتها العليا ، وما يراد أن تسمو إليه كجزء من نظام واضح المعالم ، يجعل الفلسفة الاجتماعية تتخذ قالباً عاماً ، وشكلاً شاملاً واضحاً — جاء يومئذ كنشوة بديعة أشبه بتأثير التحرر الفجائي من الأصفاد والأغلال الصدئة التي كانت تقيد عقول الأحداث في الطبقات الوسطى قبل عام ١٩١٤ ، وتحطم أذهانهم تحطياً .

ولكن اليوم قد هوت فلسفة ماركس إلى درك السفسطاء البيزنطية ، وتحولت كل فقرة في برنامجها من حيث المعنى إلى نقيضها . فلم يعد من السهل استعادة تلك الحماسة القديمة التي كانت لها ، والحمية الأولى التي كان المرء يشعر بها ، واللذة الذهنية التي كان يحسها .

لقد كنت مهياً للتحويل إلى الشيوعية كنتيجة لتاريخ حالتي الشخصية ، كما تهيأ له ألوف آخرون غيري من الشباب « المثقف المستنير » في الطبقة الوسطى ، ذلك الشباب الذي يتألف منه الجيل الذي نشأت فيه ، نتيجة لتواريخ حالاته الخاصة ، إذ مهما تباينت تلك الحالات في ذاتها ، فقد كان يجمعها عامل مشترك عقب الحرب العالمية الأولى ، وهو التدهور السريع في القيم الأخلاقية ، وأساليب العيش التي كانت قائمة قبل عام ١٩١٤ في أوروبا ، كما كانت تجمعها الفتنة المستحوذة على الأبواب التي اقترنت بها العقيدة الجديدة القادمة من الشرق^(٢) .

(١) العلامة فرويد Freud الذي توفر في كتبه وبحوثه على دراسة الحاسة الجنسية من جميع جهاتها ، وله فيها نظريات فريدة ، وتخريجات عجيبة .

(٢) يعنى الشيوعية الروسية ، تشبيهاً لها بالمسيحية عند ظهورها بمولد عيسى في بيت لحم .

وانضمت في عام ١٩٣١ إلى الحزب . ونحن لا نزال إلى اليوم نقول «الحزب»
بأداة التعريف كلما تحدثنا عنه نحن معاصر الذين كنا منتمين إليه . وكان انضمامي في
بداية تلك الفترة القصيرة التي سادها التفاؤل ، واستفاض فيها الانتعاش الروحي إلى
حين . تلك الفترة التي عرفت فيما بعد « بالفترة الوردية »^(١) . وكانت الأنجم الزهر
التي طلعت في ذلك الفجر الكاذب تتألف يومئذ من باريوس ، ورومان رولان ،
وأندرية جيد ، ومالريه في فرنسا ؛ ومن ويسكاتور ، وبيخر ، ورن ، وبرخت ،
وإيسار ، وسيفرزي ألمانيا ؛ ومن أودن ، وايشر ، وود ، وسبندر في إنجلترا ؛ ومن
دوس باسوس ، وأبتون سنكلر ، وستانيسك في أمريكا . وكان الجو الثقافي مشبعاً
بمؤتمرات الكتاب التقدميين ومعاهد التجارب ، ولجان السلام ومقاومة «الفاشية» ،
وقيام الجمعيات العاملة على الاتصال الثقافي بروسيا السوفيتية . كما كان يغشى ذلك الأفق
أفلام روسية ، ومجلات توطن للعبادى الجديدة ؛ وخيل للمرء يومئذ أن العالم الغربي
الذى اضطرب في عقابيل الحرب ، واختلت أعصابه ، واصطلحت عليه عوامل
التضخم النقدي ، والكساد التجارى ، والبطالة ، والخللاء من عقيدة يحيا الناس من
أجلها ، وإيمان يعيشون في سبيله — قد أوشك أخيراً أن يزيل من الروس جملة
الأفكار السخيفة ، وكتلة الهراء التي استقرت فيها ، « ويجمع شتات قوى الإرادة
المضمحلة الواهنة — على حد قول «أودن» — وإطلاق سراحها في الأرض ، حتى
تعمرها وتقيم في النهاية أساس عدالة بشرية » .

لقد بزغ كوكب « بيت لحم » الجديد في الشرق ، واستعد الحارس أن يأذن
لك لقاء قليل من المال في الاستمتاع بلعحة قصيرة ، أو نظرة عاجلة ، إلى أرض الميعاد .
وكنت أقيم يومئذ في برلين ، وقد قضيت خمسة أعوام أعمل في مجموعة صحف
«أولشتاين» Ullestein ، بادئاً كمراسل لها في فلسطين والشرق الأوسط . ثم انتقلت
بعد ذلك إلى باريس ، وانضمت في عام ١٩٣٠ إلى هيئة التحرير في دارها الكبرى

برلين. وأجد لزماً على^(١) ، في سبيل معاونة القارى على فهم ما سبلى من هذا الحديث ، أن أحدثه قليلاً عن دار « أولشتاين » التى تعد رمزاً للجمهورية فيمر^(٢).

كانت دار « أولشتاين » مجموعة ضخمة من شركات متضامنة Trusts وأكبر هيئة من نوعها فى أوربا، وعلى الأرجح فى العالم كله ؛ فقد كانت تصدر خمس صحف يومية فى برلين وحدها ، ومن بينها صحيفة فوسيش زيتونج Vossische Zeitung الكبيرة للمكانة التى أنشئت فى القرن الثامن عشر ، وصحيفة اب . ز . أم ميتاج Am Mittag ، وهى مسائية ضربت الرقم القياسى فى كثرة التوزيع وسرعة الإصدار . وكانت دار أولشتاين تصدر إلى جانب هذه الصحف أكثر من اثنتى عشرة مجلة بين أسبوعية وشهرية ، وتتولى بذاتها جمع الأنباء من مظانها . ولها وسائل نقلها الخاصة . وهى يومئذ أيضاً من أكبر دور نشر الكتب وطبع المؤلفات ، وكان يملكها إخوان أولشتاين ، وهم خمسة أشقاء ، كسان إخوان روتشلد ، وكانوا يهوداً أيضاً مثلهم ، وكانت سياستهم حرة ديمقراطية ، وفى المسائل الثقافية « تقدمية » إلى حد « الطليعية »^(٣) . وكان هؤلاء الإخوة يناهضون « العسكرية » أو « الميليتاريزم » ، ويكرهون النعرات الوطنية^(٤) Anti-Chauvinistic . وإلى نفوذهم فى رأى العام يرجع أكثر الفضل فى انتشار فكرة التقريب بين ألمانيا وفرنسا . وهى الخطة التى سعى فى تحقيقها برين وسترسمان ، وتداولها بين معاصر « التقدميين » فى الشعب الألمانى . ولم تكن دار أولشتاين قوة سياسية فى ألمانيا فحسب ، بل كانت أيضاً رمز كل حركة تقدمية أو عالمية « كوزومو بوليتانية » فى جمهورية فيمر . حتى لقد كان جو الدار فى شارع كوخ Koch Strasse يلوح أدنى إلى جو « وزارة » منه إلى جو إدارة تحرير وصحافة .

(١) أى الجمهورية الألمانية الأولى التى أنشئت بعد الانتخاب الذى تم فى « فيمر » عام ١٩١٩ ووضع بعدئذ الدستور وانتخب « إيبيرت » للرئاسة ، وذلك قبل عهد النازيين .

(٢) الطليعية - نسبة إلى الطليعة وهى Avant-Gardism أى الحركة التى تتقدم الصفوف .

(٣) أى التهوس الوطنى أو الغلو فى « الوطنية » .

وكان سبب انتقالى من مكتب باريس إلى الدار الكبرى فى برلين مقالا
كتبته بمناسبة منح جائزة نوبل فى العلوم الطبيعية إلى البرنس دى بروجلي فقد
أجمع رؤسائى عقب صدور المقال على أنى قد أوتيت ملكة تبسيط العلوم وتقريبها
إلى أذهان العامة — وقد كنت طالب علوم فى فيينا — فعرضوا على العمل كرئيس
تحرير القسم العلمى فى جريدة «الفوسيش» ومستشار فى المسائل العلمية لجميع صحف
أولشتاين ومطبوعاتها الدورية .

ووصلت إلى برلين فى ذلك اليوم المشؤم ، يوم ١٤ سبتمبر عام ١٩٣٠ — يوم
الانتخابات لعضوية الريشتاغ ، وهى الانتخابات التى وثب فيها الحزب الاشتراكى
الوطنى وثبته الكبرى ، فارتفع عدد نوابه من أربعة إلى ١٠٧ كما ظفر الشيوعيون
فيه بكسب كبير ، واندحرت الأحزاب الديموقراطية فى الوسط ، وكان بداية النهاية
فى حياة « فيمر » ، وتجلّى الموقف على حقيقته فى عنوان الكتاب الذى أخرجه
يومئذ نيكر بوكر . ووجد أشد الرواج ، وظفر بأعظم الإقبال ، وكان عنوانه «ألمانيا
— أنازية هى أم شيوعية ؟؟» . والظاهر أنه لم يكن ثمة شىء ثالث .

وعكفت على عملى ، فجعلت أكتب عن «الالكترونات» والجزيئات والسفن
النيزكية والإنسان النيندرتالى^(١) والسديم الحارونى والعلوم الكونية عامة . ولكن
لم يلبث ضغط الحوادث أن اشتد ، فقد أصبح ثلث مجموع العمال فى ألمانيا
بلا عمل ، حتى كادت البلاد تعيش فى حالة حرب أهلية كامنة ، وأصبح محمّا على
المرء أن يتخذ جانبا معينا أو يختار له موقفا ما ، إذا لم يشأ أن تكتسحه الأعاصير
القادمة ، ويذهب ضحية مغمورة لا شأن لها ولا خطر . وكان حزب سترزمان قد
قضى نحبه ، وانقرض ، وأخذ الاشتراكيون ينتهجون سياسة النفعية وانهاز الفرص ،
وبدا الشيوعيون يومئذ القوة الوحيدة التى تستطيع مقاومة سيل النازية الجارف وشارة

(١) نسبة إلى نيندرتال وهو واد فى أوربا الوسطى ومعناه الإنسان الأول الذى كان يعيش
قبل عصر الجليد .

صليبيها المعقوف ، حتى ولو بعملية استئصال محض مادام الاتحاد السوفييتي الضخم من ورائهم . ولكنى لم أصبح شيوعيا بعملية استئصال محض ، وإنما كرهت نفسى الكهربات ، وعافت البحث فى الجزئيات ، والأمواج والتيارات ، فأنشيت لأول مرة أقرأ كارل ماركس وأنجلز ولينين قراءة ممعن مدقق . ولم أكُ أد أنهى من قراءة « فيرباخ » و « الدولة » و « الثورة » حتى أحسست أننا فى أعماق خاطرى هزنى هزاً كأنه انفجار ذهنى شديد . وما قول المرء فى تصوير ذلك الإحساس إنه « قد أبصر الضياء » إلا وصف ضعيف لتلك اللذة التى لا يعرفها إلا المعتنق الجديد لأية عقيدة ، والمتحول إلى أية ملة أو إيمان . فكأنما راح الضياء الجديد يتدفق من كل مكان ، ويغمر الرأس من كل ناحية ، فتتجمع أجزاء الكون كله كما تتجمع القطع المتناثرة من لعبة لغز ، بحركة سحرية واحدة ، وقد تراءى لى عندئذ الجواب عن كل سؤال ، والرد على كل إشكال ، والحل لكل عقدة ؛ وتوارت الشكوك والهواجس التى كانت تتنابى فيما مضى من الدهر ، أو تلك الحقيبة التى كنت فيها أعيش فى جهل مطبق ، أو فى عالم خلى من الذوق واللون ، عالم الجهل والخلاء من المعرفة . فلم يعد ثمة شئ بعد اليوم يمكن أن يزعج سكينتى أو يبدد هدوء نفسى ، خلا الخوف أحيانا من فقدان الإيمان مرة أخرى ، بل فقدان كل ما يجعل الحياة جديرة بأن تُحيا ، والخشية من العودة إلى الظلام ، حيث يتعالى الصياح وتكشر الأنياب فى كل مكان .

ولعل هذا هو السر فى أن الشيوعية التى أوتيت عيوننا بها تبصر ، وعقولنا بها تفكر ، لا تزال مستطبعة أن تعمل بنيات سليمة من جانب أشخاصها وأفرادها حتى الساعة . ولم يخل عهد من العهود ، ولا عقيدة من العقائد ، ولا دين من الأديان من أقلية عابثة تستوجب الحرّم^(١) والبت ، وتلتجر على الطريقة اليابانية - الهارا كيرى - باسم العقيدة ذاتها ، والحق فى صميمه وجوهره .

(١) الحرّم — أو الفصل من عضوية الكنيسة .

ومن السهل أن أذكر التاريخ الذي قدمت فيه طلباً للانضمام إلى الحزب الشيوعي في ألمانيا ، فقد كان ذلك في الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٩٣١ ، كأنما قدر لى أن أبدأ الحياة الجديدة مع استهلال العام الجديد ، وكان طلي في صورة كتاب وجهته إلى اللجنة المركزية ، وأرفقت به منهاجاً قصيراً بينت فيه استعدادى لخدمة القضية بأية صفة يقررها الحزب .

ولم تجر العادة بأن تقدم طلبات العضوية إلى اللجنة المركزية واسكنى فعلت ذلك عملاً بنصيحة أصدقاء وصحاب على صلة وثيقة بالحزب ، وإنما كان الإجراء المألوف أن ينضم المرء إلى إحدى الخلايا ، وهى الوحدات الأساسية التى تتألف منها هيئة الحزب ويقوم على شبكتها نظامه . وكانت الخلايا نوعين : خلايا « الورش » التى تضم الأعضاء الذين يشتغلون فى مصنع أو معمل أو « ورشة » أو مكتب أو ما إليها ، وخلايا « الشوارع » ، وهى خلايا منظمه بحسب العمارات والأبنية والمناطق والأحياء . وكان أكثر العمال والأجراء ينتمون لسكتنا الخليتين ، خلية المصنع الذى يعملون فيه ، وخلية الشارع الذى يسكنونه ، وكان هذا النظام عاماً فى جميع الأمصار والبلدان التى يستمتع فيها الحزب الشيوعي بوجود مشروع . وكانت القاعدة العامة التى لا مفر من اتباعها أن ينتمى العضو مهما يكن شأنه فى الحزب أو خطره إلى خلية ما ، حتى لقد قيل لنا إن هناك خلية من خلايا الورش فى الكرملين ذاتها ، حيث يجتمع أعضاء المكتب السياسى ، والحراس والبوابون والغسلات فى صعيد واحد للمناقشة فى سياسة الحزب معاً فى ديمقراطية أخوية ، وكانت الاجتماعات تنعقد عادة فى كل أسبوع مرة ، وكان ستالين يمنع من حضورها إذا هونسى أن يدفع اشتراكه .

ولكن صديقى « ن » الذى اضطلع بدور حاسم فى مسألة انضمامى ، نصيح لى ألا أنضم إلى إحدى الخلايا على النحو المألوف ؛ وأنا أرمز له بالحرف « ن » لأنه ترك الحزب منذ سنين وقيم الآن فى بلد إذا عرف فيه عن المرء أن له ماضياً فى الشيوعية

حتى وإن كان قد تنحى عنها ، ودفن الماضي بيديه ، استهدف لخطب كبير ، وتعرض لمتاعب جمة . وكان « ن » هذا يشغل من قبل صبي « سباك » ، فما زال بالدراسة في الفرق والفصول الليلية ، والإكباب على المطالعة ، حتى تخرج وأصبح كاتباً سياسياً معروفاً ، وكان يحفظ كتب ماركس ولينين استظهاراً ؛ وقد أوتى ذلك الإيمان المطلق الهادئ الذي يفعل فعل التنويم المغناطيسي في عقول الناس ونفوسهم ؛ فقد مضى يقول لي « لاتكن أحق » ، لأنك إذا انضممت إلى خلية وعرف عنك أنك أصبحت عضواً في الحزب ، فقدت عملك في دار أولشتاين ، وهو عمل يهتم الحزب كثيراً .

ولا يفوتني هنا أن أقول إنني عينت إلى جانب شغلي العلمية في صحيفة « فوسيش » رئيس تحرير القسم الأجنبي في صحيفة « أم ميتاج » ، وهو مركز يكسب شاغله شيئاً من النفوذ ويمكنه من الظفر بأدق المعلومات السياسية وبواطن الأمور الجارية .

وعملاً بنصيحة صديقي « ن » لتبت رأساً إلى اللجنة المركزية ، وجاءني الرد بعد أسبوع أو قرابته في صورة كتاب محير ، فقد جاء مكتوباً بالأداة الكاتبة ، على ورقة بيضاء ، بلا عنوان ، وكان نصه فيما يلي :

سيدى العزيز

بالإشارة إلى كتابكم المرقوم ٣١ ديسمبر يسرنا أن نتكرموا بمقابلة مندوبنا الهر شيلر في إدارة مصنع شنيدمول للورق بشارع في التاسعة من مساء الاثنين القادم .

الخلاص

« الإمضاء غير مقروءة »

وكانت مصانع شنيدمول معروفة في ألمانيا ولكن لم يخطر يوماً ببالي أن لها صلة أو شأناً باللجنة المركزية للحزب الشيوعي . ولست أدري العلاقة بينهما تماماً . ولكن الواقع أن مكاتبها في برلين كانت ملتقى لاجتماعات سرية ، ومقابلات تجرى في الخفاء . ولم أستطع أن أفهم السر في هذا التكم المتناهى ، ولكنني وجدت هزة لها

فى مشاعرى ، وقلقاً بالغاً فى نفسى ، فلم يحن الموعد المضروب حتى كنت فى مصانع
شنيدمول أطلب لقاء الهر شنيلر .

ونظرت الفتاة الجالسة قبالة منصة الاستعلامات نحوى نظرة « متفحصة » كما
ألفنا أن نقول فى وصفها ، وإن كان الأصح أن ندعوها « حلقية » من عين سمكة
أو « تخازراً »^(١) . وقد لقيت هذه النظرة ذاتها مراراً من ذلك الحين فى مواقف
مماثلة . وقد ألف الناس كلما اصطدمت الرغبة فى المؤاخاة بالتخوف والرغبة أن يتبادلوا
نظرات غير نافذة ولا متفحصة ، بل نظرات بليدة كالسمك .

وانثنت الفتاة تسألنى : هل أتيت على ميعاد مع إرنست ؟؟

قلت : كلا . . بل مع الهر شنيلر .

وبدا لى أن هذه العبارة أقنعتها نوعاً ما بسلامة نيتى ، فقالت إن الهر إرنست
شنيلر لم يصل بعد وسألتنى أن أجلس وأنتظر ؛ فجلست وانتظرت أكثر من نصف
ساعة ، وكان ذلك أول عهدى باستخفاف الطبقة العليا من الحزب الشيوعى بالمواعيد
ولا عجب ، فإن الروس ، وهم أشباه شرقيين ، غير حريصين بطبعهم على المواعيد ،
وكان كل بيروقراطى فى الحزب يحاول عامداً أو غير عامداً أن يعيش على الأسلوب
الروسى ، فلم تلبث عادة الاستخفاف بالمواعيد أن انتقلت شيئاً فشيئاً من كبار
الشيوعيين إلى كل شيوعى فى أوروبا .

وأخيراً وصل الهر شنيلر ، وراح يعرفنى بنفسه على الطريقة المألوفة فى القارة
الأوربية ، صائحاً « شنيلر » ، فصحت بدورى « كوستار » ، وتصالحنا ، وبعد اعتذار
« صورى » عن « التأخير قليلاً » دعانى إلى الجلسوس فى مقهى مقابل للدار فى
الشارع ذاته .

وكان شنيلر ناحلاً معروفاً بآدى العظام فى نحو الخامسة والثلاثين ، ذا وجه ضيق ،
بآدى الأشداق ، مشدود البشرة ، وابتسامة نايبة ، كركته وطريقته . وكان يلوح

(١) تخازر بعينه أى ضيقهما ليحدد النظر .

أبدا مضطربا قلقا، وحسبته يومئذ عضواً صغير الشأن في بيروقراطية الحزب ومكاتبه .
وعلمت فيما بعد أن اسمه في الحقيقة إرنست شنيلر ، أو هو « شنيلر » العضو في اللجنة
المركزية ورئيس إدارة التحريض والدعاية المعروفة باسم أجميتبروب Agit Prop ^(١)
ثم علمت بعد هذا أيضاً أنه رئيس « الأبارات ن » وهى أحد أقلام « الخبايا »
الأربعة أو الخمسة المستقلة بعملها وإدارتها ، والتي يديرها الحزب الشيوعى الألمانى
ويتولى الأوجبو ^(٢) تنظيم بعضها رأساً . ولست أعرف إلى اليوم العمل الذى كان
« القلم » الذى يرأسه شنيلر يؤديه : هل كان عملاً من أعمال « الخبايا » العسكرية
أو مجرد جاسوسية صناعية بريئة ؟ وقد حكم النازيون عليه بالسجن ست سنوات مع
الأشغال الشاقة وقضى نحبه أو قتل فى السجن .

ولم أكن بالطبع أعرف من ذلك كله شيئاً حين التقيت بذلك الرجل الأعجف
الرث المعروف البدن فى تلك المكاتب « الرثينة » ^(٣) التابعة لمصانع شنيدمول ، عند
أول عهدي بالحزب وأهله . ولا أذكر من حديثنا فى ذلك المقهى الصغير غير أنه
نبأنى أنه رجل « نباقى » لا يعيش إلا على الخضر النيئة والفاكهة ، ولعل ذلك سر
وجهه المروق ، وفه للشدوق ، وبشرته الجافة الناشفة .

وأذكر أيضاً أننى سألته هل قرأ مقالا معيناً ذكرته له فى إحدى الصحف السيارة ؟
فكان جوابه أنه لا يقرأ الصحف البورجوازية فى حياته ، وأنه إنما يقرأ جريدة
« روت فاهن » Rote Fahn لسان حال الحزب دون سواها .

فأدركت أن اللجنة المركزية أوفدت للقائى رجلا بيروقراطياً ضيق الفكر حزبياً
استبدت به حزبيته ، إذ لم أتبين السخف الذى ينطوى عليه اختيار مخلوق لا يقرأ
إلا جريدة حزبه ليتولى إدارة الدعاية له إلا حين علمت فيما بعد بخافية أمر شنيلر
وحقيقة عمله ومركزه .

(١) كلمة مركبة تركيباً مزجياً من اللفظتين (التحريض والدعاية) .

(٢) « الأوجبو » الروسية كالجستابو الألمانية أى فرق البوليس السياسى .

(٣) الرث والرثيث أى « المدهول » أو « المهمل » .

ولم يوجه لى أسئلة كثيرة ، ولكنه سألنى تفصيلاً عن طبيعة عملى وحقيقة مركزى فى دار أولشتاين ، فأبلغته رغبته فى ترك عملى والتفرغ لخدمة الحزب كداعية ، أو أفضل من ذلك ، كسائق جرارة فى الاتحاد السوفيتى . وكان ذلك العهد عهد الزراعة الجماعية والصحف الروسية يومئذ تنادى بالحاجة الملحة إلى سائقى جرارات . وكان صديقى « ن » من قبل قد حذرنى من هذه الفكرة وكان يسميها « خيالاً بورجوازياً تافهاً » ويقول إننى إذا تحدثت بها إلى موظف فى الحزب ، انكشفت وعرضت نفسى للسخرية والتهانف^(١) ، ولكنى لم أستمع لتحذيره وحسبته الهازل المالحن ، لأننى لم أكن أجد أى بأس أوزير فى العمل ولوعاماً واحداً كسائقى جرارات أو عامين ما دامت جبهة الإنشاء والتعمير بحاجة ملحة إلى السائقين .

ولكن شنيل راح فى رفق وتؤدة يبين لى أن الواجب الأول المفروض على كل شيوعى هو العمل فى سبيل الثورة داخل بلاده ، وفى عقر موطنه ، وأن السماح بدخوله فى الاتحاد السوفيتى حيث تواتى النصر للثورة امتياز نادر لا يصيبه غير القدامى فى الحركة والراسخى القدم ، وأن من الخطأ أيضاً أن أترك وظيفتى ، إذ ييسر لى أن أكون أنفع للحزب وأكثر إفادة إذا بقيت فيها ، ولزمت الصمت فى أمر معتقداتى السياسية وآرائى .

قلت : وما وجه النفع والإفادة ؟ وأنا لا أستطيع أن أحيل الجريدة التى أشتغل فيها ، وهى « أم تاج » إلى صحيفة شيوعية ؟ أو أحدث تغييراً فى سياسة دار أولشتاين .

قال : إنك وضعت السؤال فى قالب « سوقى » . ولكن هناك وجوهاً عدة تستطيع منها أن تؤثر فى سياسة الصحيفة من طريق « الرتوش » والتحسين فى الأسلوب ، كإبراز الأخطار التى تهدد السلام العالمى مثلاً من العدوان اليابانى على الصين^(٢) .

(١) التهانف أى الاستهزاء والزراية .

(٢) كانت روسيا يومئذ تخشى هجوماً عليها من اليابان .

وقال : إننى أستطيع إذا شئت أن أقابله مرة في الأسبوع للبحث في هذه المسائل ونحوها ، ولكنه يفضل أن ينتدب من هو أقل مشاغل منه ليكون تحت تصرفى فى كل وقت لتوجيهى وإرشادى ، وأنه فى إمكانى من طريق هذا الصديق أن أقدم إلى الحزب أية معلومات ذات أهمية خاصة تقع لى ، فإن الحزب على الأرجح سيعضطر وشيكاً إلى العمل سراً ، والجهاد فى الخفاء ، فإذا حدث ذلك كان أمثالى من الذين يشغلون مراكز محترمة ، لا تشوبها من الريب شائبة ، أنفع وأجدى على الحزب فى معركة الحياة والموت التى ستشب بينه وبين الفاشية والعدوان الاستعمارى .

وبدا لى ذلك كله معقولاً وجيهاً فلم يلبث نفورى الأول من شنيلر أن استحال إلى احترام لطريقته الصريحة فى البحث والنقاش ، واتفقنا على اللقاء بعد أسبوع لتعريفى بمرشدى السياسى الجديد .

قلت : ومن تراه سيكون ؟

قال : رفيق يدعى إدجار .

وبعد أن ودعته خطرت لى فجأة أننا لم نتحدث إطلاقاً عن موضوع قبولى فى عضوية الحزب ، بل تركناه معلقاً ولم نتناوله بقول ، ولا قطعنا برأى فيما إذا كنت قد أصبحت شيوعياً فعلاً أم لا .

فعدوت فى إثره ووجهت إليه هذا السؤال .

فابتسم ابتسامته الغريبة وقال : إذا كنت مصرّاً جعلناك عضواً ، بشرط أن تبقى عضويتك سراً مجهولاً ، فلن تلحق بأية خلية ، بل ستعرف فى الحزب باسم منتحل . فارتضيت ذلك متكرهاً ، لأننى لن أستطيع ، إذا أنا حرمت من الالتحاق بخلية ما ، أن أدخل فى صميم حياة الحزب وجوه ووسطه ورفقته .
وانثنى شنيلر يقول : نبئنى أى اسم منتحل تختاره لكى آتيك ببطاقتك حين نلتقى فى المرة التالية ؟؟

وكان الاسم الذى خطر لى بعد لحظة السرحان المألوفة هو « إيفان ستانيرج ». أما إيفان فلأنه اسم له رنين أسماء الروس ، وأما ستانيرج فقد كان اسم صديق من المعننين بالتحليل النفسى فى « تل أبيب » ، وقد مضت عدة أعوام لم أره ولم أسمع به ، وكان يحاول جهده حتى على إتمام دراستى فى جامعة فيينا بعد انقطاعى عنها قائلاً : إذا أنت لم تستكمل دراستك ولم تتخرج فسوف تظل متشرداً وسوف يكشف الناس تشردك ، مهما يكن المركز الذى تصل إليه .

واجتمعت بشنيل مرة أخرى بعد أسبوع فى الموضع ذاته ، فإذا به يصطحب فتاة بدلا من « إدجار » الذى تحدث عنه ، وقد عرفنى بها قائلاً : إنها الرفيقة « بولا » وإنها تعمل وتتعاون مع إدجار .

ورأيت حياى فتاة سمراء ذات حوّل خفيف تناهر الخامسة والعشرين . وذهبنا مرة أخرى إلى ذلك المقهى الصغير .

وظفّق شنيل يحدثنى عن الفتاة قائلاً إنها ستشتغل معى كحلقة اتصال بينى وبين إدجار ، لأنه « صعب المنال » وليس من السهل الاتصال به فى أى وقت . أما هى ففى إمكانى أن أحدث إليها فى التليفون متى شئت ، وهى تستطيع الاتصال بى متى شئت ، أو بمعنى آخر أننى لن أعرف شخصية إدجار هذا ولا مقامه وعنوانه .

ولا يفوتنى هنا أن أقول إن الحزب الشيوعى كان فى ذلك العهد — يناير عام ١٩٣١ — مشروعا فى ألمانيا ومعترفا به ، وله نواب فى الريشتاغ ، ومنهم شنيل هذا ، وصحفه تنادى جهاراً فى كل صبح بوجود النضال والثورة ، واجتماعاته العامة تنعقد تحت حماية البوليس ، وهيئته شبه العسكرية وأعنى بها « الروتفرونتسكمبرند » أى رابطة الجنود الحمر القدامى — وهى أحد أربعة جيوش خاصة فى ألمانيا — معترف رسمياً بها . أما الثلاثة الأخر فهى جنود العاصفة النازيون S. A. والستاهلهم الوطنى والرايشباند التابع للديموقراطيين الاشتراكيين^(١) .

(١) ويعرف بالأحرف الأولى وهى ر. ف. ب. R.F.B. ، بينما تعرف جنود العاصفة بالآستورم .

ولكن الحزب كان في الوقت ذاته يعد العدة للجهاد السري ، وكانت مظاهر نشاطه ، إلى جانب هذا الجيش العلني الظاهر ، سرية في الغالب ، وغير مشروعة ، أو مخالفة للقانون ، فلا يلبث العضو الجديد فيه أن يجد نفسه هابطاً عالمًا جديداً ، ودنيا ليس له بمثلها عهد ، كأنما قد دخل بركة أسماك عميقة ، حوت أشكالاً وأشباحاً فوسفورية مضيئة مارقة سريعة الحركة ، مفلته هاربة ، عالمًا أهلاً بقوم ليست لهم غير أسماء بلا ألقاب ، من أمثال إدجار ، وبولا ، وإيفان ، وما إليها ، ولا نعرف لهم مقارراً ولا عناوين ، ولم يكن هذا مقصوراً على أفراد الشبكات^(١) المختلفة ، وإن كانت لجمهرة أعضاء الحزب صلة مباشرة بشبكة منها ، بل كان يتعداهم إلى أفراد الخلايا أنفسهم أيضاً . فلا عجب إذا كان الجو مشبعاً بالمتناقضات ، أو مزيجاً من رقعة أخوية ، وريبة متبادلة ؛ كأن شعاره « أحب رفيقك ، ولكن لا تأمن قيد شبر إليه ، فإن ذلك في مصلحتك معاً . أما أنه في مصلحتك فلا أنه قد يخونك ، ويكشفك ؛ وأما أنه في مصلحته فلا أنه كلما كان أقل بالخيانة إغراء ، كان ذلك خيراً له وأجدى » . وكذلك هو شأن كل حركة سرية ، وكان ذلك أمراً مسلماً به في الحزب إلى حد جعل القوم لا يدركون مدى التحول الذي يطرأ حتماً على أخلاق المرء ونفسيته وشخصيته ، ويعتري بالضرورة العلاقات بين الناس ، من أثر البقاء طويلاً في الحزب والاندماج فيه .

وكان لقائي الثاني بشنيلر هو الأخير ، فقد ذهبنا مرة أخرى إلى المقهى ، حيث كتبت عندي رقم تليفون « بولا » واتفقت معها على الاجتماع بها في « شقتي » بعد يومين .

وأخرج شنيلر عندئذ بطاقة عضويتي ، وقد كتب عليها اسمي المنحول « إيفان ستانبرج » وتصافحنا مصافحة غريبة ، وراحت بولا تمدحني تلك الحدجة المتخازرة « السمكية » التي رأيتها في عيني الفتاة التي لقيتها في ردهة الاستقبال من قبل .

(١) الابارات Aparat أو الشبكة ، أو مجموعة من الخلايا .

وأحسست أنني لن أكتسب ثقة هذا النوع من الفتيات إلا بعد وقت طويل .
فقد كن في ثياب رثة ، مهملات زينة وجوههن ، كما نما من احتقار لمحاولة التجميل
والظهور حسناً على الأعين مادام التجميل والزينة من شأن « البورجوازيات »
وديدنهن ؛ وقد ألفن جميعاً هذه الحلقة الجريئة للإيماء بأنهن « فاهمات » فلا
يخدعنهن شيء .

وقبل أن ينصرف شنيلر ذهب يقول بابتسامته المرتبكة : الآن وقد أصبحت عضواً
في الحزب ، فلا تخاطبني بعبارات التعظيم . أنتم . وحضرتكم . وما إليها . بل قل
« أنت » وكذلك فلتخاطب « بولا » سواء بسواء .

وشعرت عندئذ كأني « فارس » يتلقى رسامته ويُخلع عليه لقبه الجديد .
وفي الموعد المضروب جاءت بولا وإدجار للقاء في شقتي محي و يستند ، وقد جاء
في « تاكسي » وأحضرت بولا معها أداها الكاتبة وكان إدجار فتى ناعماً باسماء ،
أشقر ، يناهز الثلاثين .

وتحدثنا في مسائل السياسة ، وكانت في نفسى أشياء من خطة الحزب وسياسته
فكنت مثلاً أسائل : لماذا لا يتفاهم الحزب مع الاشتراكيين مادام هتار على
الأبواب ؟ ولماذا نصر على تسميتهم « الفاشيين الاشتراكيين » تلك التسمية التي
أحنقهم وجعلت التعاون معهم ضرباً من المستحيل ؟ .

وظفق إدجار يشرح لي الأسباب في تودة وصبر طويل فقال : إنه ليس ثمة شيء
أحب إلى الحزب من إنشاء « جبهة متحدة » من الطبقة الكادحة والكتلة
الديموقراطية الاشتراكية ، ولكن الوحدة يجب أن تبدأ من القاعدة ، لا من القمة ،
فإن الزعماء الديموقراطيين خونة وقد ينكثون بأي عهد أو حلف يبرمه الحزب معهم
فلا سبيل إذن إلى تحقيق فكرة « الجبهة المتحدة » إلا بكشف القناع عن الزعماء
الاشتراكيين ، وكسب الجماهير التي يتزعمونها .

وكان لإدجار منطق خلاب ، فلم تنقض بضع دقائق حتى اقتنعت بأنه من الحق

البالغ أن يؤيد أحد فكرة التعاون بين شقي الحركة العمالية في ألمانيا ، حيال النازيين .

وسألني إدجار هل من حاجة إلى الإرشاد بسبيل شيء آخر ، فلما أجبته سلبياً ، انثنى يقترح عليّ ، وهو يبدى طمأنينة ملحوظة ، حين وجدني مكتفياً بما سألته ، أن أنبئه بأية معلومات سياسية أو أسرار أو أحاديث سمعتها في دار أولشتاين أو وصلت إلى علمي .

وعاد يسألني بعد لحظة أخرى هل لي اعتراض على أن تتولى بولا كتابة ما قلته الساعة له ، اقتصاداً في العمل ، والوقت ، فقلت لا مانع عندي .

واقتصر نشاطي في الأسابيع القليلة التالية على إملاء تقارير على « بولا » مرة أو مرتين في الأسبوع .

وكان « إدجار » يهبط أحياناً علينا ، فيستمتع هو كذلك ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الناعمة الخليطة بشيء من السخرية وهو يذرع الغرفة ذهاباً وحيثاً ، وكانت عادتي أنا أيضاً أن أتمشي ، حين أملي ، فجعلنا أحياناً نتمشي على زوايا قوائم فوق بساط الحجر ، مما كان له أثر في جوها ، وأضفى عليها أفقاً من التعاون والإخاء . وكان ذلك هو كل ما أحسسته من الحمية والحماسة عقب انضمامي إلى الحزب .

أما « بولا » فقلما كانت تخرج عن صمتها ، أو تزايل وجومها ، وقد تسكمت مرة أو مرتين في التليفون مع بعض رفاقها ، وكان كلامها همساً ، أو أنصاف ألفاظ ، أو تلميحاً ، ثم لا تلبث عندئذ أن تنقلب خلقاً آخر ، فإذا هي المرححة البسامية المتوثبة .

ولم تكن بيني وبينها أية جاذبية طبيعية ، وكنت أشعر بأنها من الناحية الروحية لا ترتضيني في عالمها ، ولن تتقبلني في دنيها ، لأنني في نظرها غريب ، أو أجنبي ، وقد أكون للحزب نافعاً ، وقد لا أكون أميناً موضع ثقته ، ولكنني على الحالين أجنبي دخيل من دنيا « البورجوازية » الفاسدة .

ولم تسكن يوماً لتقبل شراباً أو مرطباً، كلما اجتمعنا في المقهى، وكانت تصر على دفع ثمن ما تطلبه، ولحقت في أول مرة أريتها أين تغتسل، نظرة غضب واستنكار إلى جلاباب البيت الذي كنت أرتديه.

أما إدجار فكان أرق وأكثر مجاملة، ولكنه كان كلما أركبته السيارة «الأجرة» أصر على أن ينزل منها عند منعطف أو في زاوية أو شارع جانبي، قبل أن تصل إلى المكان الذي يقصده؛ وكلما التقينا في المقهى، كان أول منصرف، مشترطاً ألا أنصرف إلا بعد خمس دقائق من خروجه؛ مخافة أن أعرف مقره، أو أتبعه إلى مسكنه. وكان يقول لي وهو يتقسم: إن ذلك كله مما جرى عليه العرف في الحزب وإنني لن أثبت أن اعتاده وأنحو نحوه من تلقاء نفسي.

ولكنني شعرت في الواقع بامتعاض وخيبة أمل متزايدة، وإن قبلت هذا التدقيق كضرورة، وارتضيت هذا التخفي، بطبيعة الحال؛ فقد كنت أجرى في أذيان الحزب ظمآن متلهفاً على الارتقاء في أحضانه، وكلما اجتهدت في امتلاكه، وأردت أن يمتلكني، رأيت يزداد تهرباً، وتدللاً، وابتعاداً من قبضتي، فلم أثبت أن فعلت ما يفعل معاشر الخطاب الذين تتأبى الحسان عليهم، وزحمت أفكر جاهداً في إطرافه بالهدايا الكفيلة بترقيق قلبه، وكسب حبه، والظفر بابتسامه ورضاه.

فقد عرضت أن أضحي بوظيفتي، وأن أعيش عيشة مهينة متواضعة، كسائق جرارة في سهول روسيا المترامية، فقيل لي إن هذا خيال «بورجوازي» رخيص؛ وألححت على «إدجار» أن يدعني ألتحق بخلية لا يعرفني فيها أحد إلا باسمي المستعار، فقال لي إنني قد اكتشف وتعرف حقيقة أمرى فيحرم الحزب من نفعي وعوني. فسألته ماذا في وسعي أن أفعل بعد هذا أو أقدمه من الخير للحزب، فكان جوابه أنه سوف يفكر في الأمر، ولكن انقضت أسابيع ولم يقل شيئاً.

وفي ذلك الحين وضعت جريدة «أم ميتاج» تحت إشراف شاب يدعى فون...

Von A. ، وهو نجل سفير سابق لألمانيا في تركيا ، وكان الفتى في الحادية والعشرين ويريد أن يكون صحفياً ، فجاء ليستغل بضعة أشهر تحت التمرين براتب اسمي ، وكان مجلسه قبالي في المكتب ، فكنا إذا انتهى عملنا نخرج لبعض الألعاب الرياضية في النادي الذي أنشأته دار أولشتاين للترفيه عن موظفيها ؛ وكان الفارق بيننا في العمر لا يتجاوز خمسة أعوام ، فلم نلبث أن أصبحنا صديقين وتوثقت أواصر المودة بيننا ، فجعلت أثبت في نفسه تعاليم «ماركس» ونظرياته أو «أنجيله» كما ألفنا أن نقول ؛ وكانت حججي بوصفي معلمه ومدربه على الفن الصحفي ومطالبه تقع حتماً من نفسه ، وتجذ أذنا واعية لديه ؛ فلم يكده ينقض أسبوعان حتى توسمت فيه تقدماً كافياً لأن أربطه بعجلة الشيوعية وأسلحه في خدمتها ، ولكنني بالطبع لم أنبئه بأنني عضو في الحزب ، وإنما قلت له إن لي فيه أصدقاء اعتدت أن أوافيهم من حين إلى آخر بما يقع لي من « دردشة » أو معلومات سياسية ، أو أحاديث المجالس ، ولم يخطر عندئذ بخلي أن هذا التعبير هو وصف « ملطف » لعمل مع إدمار وبولا ، فكأنني قد بدأت فعلاً أجنّي حصاد اعتناقى للدين الجديد ، وأعني به نعمة هدوء الضمير وراحته .

وكان آل «فون!...» يعيشون عيشة اجتماعية مترفة ، ويختلف إلى دارهم ضباط وساسة وأعيان ، فطلبت إلى صديقي الشاب أن يرهب أذنيه ، ويوافيني بما قد يسمعه في سبيل خدمة القضية المشتركة ، من نحو الاستعداد في ألمانيا لمحاربة الاتحاد السوفيتي ، أو في أية دولة أخرى ، فوعدني أن يبذل كل جهده ، معتزاً بهذه الثقة التي وضعت فيه .

وهكذا أخذت التقارير التي جعلت أملها على بولا تمتلئ حياة وتزداد خطراً ، وهي في جملتها أحاديث دبلوماسية و « دردشة » مجالس ، وتنف وشذرات عن النسلح والدسائس الجارية بين الأحزاب الألمانية في العام الأخير من عمر الجمهورية الأولى .

وقد وقع يومئذ حادث لا يزال ماثلاً في خاطري بارزاً على غيره من الأحداث ، وهو أن الصحف المنتمية إلى الحزب الشيوعي لبثت عدة أسابيع تسخر من رفض الحكومة البروسية الألمانية ذات النزعة الفاشية الاشتراكية اتخاذ اجراء شديد حيال « القمصان السود » الذين كانوا يعدون العدة جبهة للقيام بحركة تطهير « البوتش »^(١) وقد علمت في ذات يوم من « رانير » المراسل السياسي لجريدة فوسيش زيتويج ، أن البوليس البروسي سيعيد « كبسة » فجائية على مقر رئاسة جنود العاصفة النازيين في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ، فيستولى على أسلحتهم وأوراقهم ، ويصدر أمراً بمحظر ارتداء « البذلة » النازية .

فبادرت إلى نقل الخبر إلى بولا وادجار ، وقد تم الأمر وفقاً للخطة المرسومة ، ولكن بينما كانت برلين على بكرة أبيها تتحدث عن وشك قيام حرب أهلية بين النازيين والاشتراكيين ، صدرت جريدتنا الشيوعية « روت فاهن » ساخرة في صفحتها الأولى كعادتها من التسامح الذي تبديه الحكومة الاشتراكية الديمقراطية حيال النازيين ، وكان صدور ذلك المقال هدفاً لسخرية بالغة ، ولكن الجريدة هي التي عرضت نفسها لها .

وسألت ادجار عن سر إغفالهم انذارى ، ورفضهم الأخذ بتحذيرى فقال : إن موقف الحزب من الديمقراطيين الاشتراكيين وليد سياسة ثابتة طويلة الأمد فلا يمكن أن تتغير لحادث عارض ، أو اجراء عابر .

قلت ولكن الواقع يكذب كل كلمة وردت في ذلك المقال ويناقضها .

قال وهو يبتسم ابتسامة التسامح ، إن نظرتك لا تزال « سوقية » .

وانطلق يشرح لى الوقائع بأسلوب « التحليل المنطقي » فقال إن اجراءات

البوليس لم تكن إلا عملية « صورية » لذر الرماد في العيون ، وإخفاء « الشركة »

(١) أو البوتش Putsch أى الحمام ، وقد عرف فيما بعد بمحامي الدم .

القائمة بين الفريقين فلئن رأيت فريقاً من الزعماء الاشتراكيين مناهضين «شخصياً»
للفاشية، فلا يزال الحزب الاشتراكي نفسه من الناحية «الموضوعية» أداة في يد
النازية، بل الواقع أن الاشتراكيين هم العدد الأكبر، لأنهم الذين أحدثوا صدعا في
الطبقة العاملة.

وقد اقتنعت بما قال لي ولكنني اعترضت لتغطية وجهي قائلا: إن الحزب
الشيوعي على كل حال هو الذي انفصل من الاشتراكيين في عام ١٩١٩.
قال هذه هي النظرة «السوقية» إلى الموضوع مرة أخرى فقد كنا يومئذ في
الظاهر أقلية، ولكننا نحن الذين نهضنا برسالة الثورة «العالمية»، فأبى الزعماء
الاشتراكيون أن يسيروا خلفنا، ومضوا يقسمون الطبقة العاملة ويحدثون صدعا في
صفوفها، فأصبحوا خدما للرجعية وأولياء.

وأخذت شيئا فشيئا استريب بآرائى ونظراتى «السوقية» كما وصفت لي،
والنظر إلى العالم المحيط بى على ضوء التعليقات «المنطقية» التى يتحدثون عنها، وكانت
هذه الحالة النفسية عندى مرضية كل الإرضاء، لأنك بمجرد تنسيق عقليتك وفقاً
للنقن ومصطلحاته ومآخذه ومقتضياته، لا تلبث أن تروضها على مواجهة الحقائق، فى
غير اضطراب أو انزعاج، ولهذا بدأت الوقائع تتخذ اعتباراً اللون الصالح لها عندى
وتنزل فى المكان المناسب.

واعتقدت يومئذ ان الحزب معصوم من الخطأ، أدبياً ومنطقياً على السواء،
أما أدبيا فلأن اهدافه صادقة أى وفقاً «لمنطق التاريخ» وعلوم الكلام، وهى
أهداف وغايات تبرر الوساطة، واما «منطقياً» فلأن الحزب هو طليعة الطبقات
الكادحة «البروليتاريا»، وهذه بدورها هى كيان المبدأ الفعّال فى التاريخ.

وكان خصوم الحزب من الرجعيين الظاهرين أى الفاشيين الاشتراكيين هم
ثمرات بيئتهم ونتاج محيطهم فلا غرو إذا جاءت افكارهم صورة «للبورجوازية»
ومساوئها ومقابحها. وما كان الخوارج على الحزب إلا نفوسا «ضالة» باءت بعار،

وليس الجدل معهم ، والاستماع ذاته لهم ، إلا تعاملًا مع قوى الشر ، واتصالًا بعناصر الإثم والسوء .

وكانت أيام جمهورية « فيمر » معدودات ، وكان كل عنصر منا في الحزب الشيوعي الألماني منتظرًا أن يرسل إلى داشاو أو أوراينبرج أو غيرها من المعتقلات ويرتقب سوء المصير .

ولكننا جميعًا مضينا نسير هانئين فرحين خلال سراب خداع من المصطلحات والأقنيس والتعبيرات الخاصة تحجب عن أعيننا عالم الحقيقة والواقع ، فليكن الفاشيون البهائم أنعامًا أو أضل سبيلًا ، فما لنا ولهم ، إن كل ما يهمنا هو أمر الهراطقة « التروتسكيين » والمنشقين الاشتراكيين .

وقد وضع الحزب الشيوعي في عام ١٩٣١ يده في أيدي النازيين عند إجراء استفتاء عام حيال الحكومة البروسية الاشتراكية ؛ وفي خريف ١٩٣٢ عدنا نضعها في أيديهم في حوادث الإضراب الذي عمد إليه عمال النقل في برلين . وكان هاينز نيومان Neumann الزعيم الشيوعي الألماني هو الذي ابتكر تلك الكلمة المشهورة « اضرب الفاشي أينما ثقفته » ، وهي كلمة كانت تبدو يومئذ ذات رنين خلاب ، ولكنه لم يلبث أن خمل وتوارت شهرته قبل القضاء عليه ، وراحت سياسة الحزب متراوحة لا تستقر على حال ، كما رأيناها قبل ميثاق مولوتوف — ريبنتروب ، وإن كان الحزب قد قرر أن يحمل عام ١٩٣٢ عام النصر للثورة « العمالية » في ألمانيا ؛ فقد ثبت لدينا يومئذ الإيمان المكين الذي لم يعد يتخذ الوعود جدًا ، والألماني يقينًا ، بل الإيمان الذاتي المستمد من أعماق الروح ؛ فلا عجب إذا كنا سعداء مستبشرين ، وإن ظللنا يومئذ القوم المستقيمين في عالم معوج ، الصالحين في دنيا فاسدة .

وفي ذات يوم سألتني إدجار عرضًا : هل ذهبت مرة إلى اليابان ؟
قلت : كلا .

قال : أتود الذهاب إليها ؟؟

فأجبت قائلاً : ولم لا ... إننى أحب الأسفار .

قال : هل تستطيع أن تقنع دار أولشتاين بفكرة إيفادك إليها كمراسل لها .

قلت : كلا . فإن لنا فيها مراسلين وأنا لا أعرف عنها شيئاً .

قال فى رفق : ولكنك لمصلحة الحزب تستطيع أن تكون فيها أنفع منك

هنا ، فهل فى وسعك أن تحمل صحيفة أخرى على إيفادك إليها ؟

قلت : إن فى ذلك مشقة ، ولكن أى عمل يمكن أن أؤديه فيها إذا أنا ذهبت ؟

فبدأ عليه شىء من التألم لسؤالى ، ولكنه أجابنى قائلاً : إننى هناك سوف أؤدى

عملى الصحفى وأكسب رزقى ، وأصيب مرتباً حسناً كما هو شأنى هنا فى الوقت

الحاضر . وبجانب ذلك أستطيع أن أوفى الحزب بمعلومات طيبة وتقارير هامة من

طريق أصدقاء سيدلونى عليهم ، ويعرفونى بهم . فهل لى أن أفكر فى هذا

الأمر ملياً ؟؟

قلت : لا مدعاة للتفكير ، فإنى لن أتردد فى الذهاب ، مادام الحزب يريد

منى أن أذهب ، ولكن ليس ثمة أمل فى الظفر بصحيفة تعهد إلى بالسفر أو تعين لى

مهمة أؤديها .

فسكت إدجار لحظة ثم استرسل يقول : هل ترضى السفر إذا توليفنا نحن إيجاد

الصحيفة التى تقبل فكرة إيفادك ؟؟

قلت : إننى أكررك أن ليس لدى ما أفكر فيه ، لأننى سأذهب إذا شاء

الحزب ذلك .

قال : إننى سأنبئك بما نريد بعد أيام .

وترك الحديث فى هذه المسألة ، ولم يعاوده بعد ذلك فلم أشأ أن أسأله ، فقد كنت

قد عرفت آداب الحزب ولقنت طريقته كل التلقين .

ووقع لى حادث غريب آخر بعد قليل .

فقد جاءتنى ذات يوم وأنا فى المكتب فتاة تدعى « مس ماير » وطلبت لقائى ،
وقد كتبت على البطاقة التى تقدم عادة إلى الزائر ليبيين ما حاجته تقول « لأمر خطير...
صديقة قديمة » .

فلما دخلت على الحجرة إذا هى فتاة مسيحة من الجمال^(١) دميمة صغيرة الجسم لم
أكن رأيتها من قبل ، ولكن زيتها المهمل وجرأتها وتصغير خدها ، وهى داخلة على
فى مكتبى ، لم تلبث أن دلتنى على أنها « رفيقة » .

وبدألى من حديثها أنها جاءت لتسألنى أن أقبل وظيفة « محرر مسئول »
فى وكالة صحفية حديثة العهد بالإششاء ؛ وكان القانون فى ألمانيا يحتم أن يكون لكل
نشرة دورية محرر مسئول عما ينشر فيها ، وكان المؤلف فى المجلات الصغيرة وأشباهاها
من النشرات السريعة النمو ، العاجلة الزوال ، كـ بعض النباتات الفطرية ، أو عش
الغراب^(٢) ألا يكون للمحرر المسئول عمل ما فى التحرير ، بل هو فى الغالب
شخص أوتى مكاناً فى المجتمع ، وله فى المصرف حساب ، ويجدى اسمه على المجلة إذا
صدرت به .

فسألت المس ماير أن تشرح لى أهداف هذه الوكالة الصحفية وماضيها ، لأننى
لم أكن قد سمعت فى حياتى بها .

وهزت كتفها متأففة وانشئت تقول : ولكن ألا تفهم أننى قد أوفدت من
أصدقائنا ، وأن هذه المسألة ليست سوى « شكلية » لـ مجرد توقيعك ؟
قلت بحذر متغايماً : ومن هم أصدقاؤنا هؤلاء ؟ ؟ .
وازدادت تمللاً ، وكادت تسب .

ولا عجب فقد كانت من نوع « سندريللا »^(٣) العصبى ، أو مثال الفتاة

(١) مسيحة من الجمال أى خالية منه ، وللانكيز تعبير آخر وهو قولهم « سادة » أى لا جمال
فيها ولا ملاحه .

(٢) نبات فطرى سريع النمو عاجل الزوال .

(٣) سندريللا فى الاسطورة المعروفة فتاة يتيمه عذبها امرأة أبيها عذاباً ألماً .

البورجوازية الخائبة التي استحوطت عن طواعية واختيار إلى صفوف الطبقة الكادحة
« البروليتاريا » ، وأمثالها كثيرات في الحزب الشيوعي الألماني .
فطلبت إليها أن تعين أسماء أولئك الأصدقاء .

قالت متكرهة ، وهي تلقي نظرة حول المكتب لكي تستوثق من أنه خال من
« الميكروفونات » : « جورج طبعاً » .

ولم يكن معارفي في الحزب إلى ذلك العهد يتجاوزون أرست وإدجار وبولا ،
وكنت أجهل هذا الاسم ، فلم أكد أصارحها بجبلي له حتى استشاطت غضباً ،
واشنت تقول « كيف تسول لهم نفوسهم إيفادى إلى إنسان مثلك لإضاعة وقتي » .
وانطلقت منصرفة .

وفي المرة التالية للقائى بولا ذكرت لها الحادث ، فعجبت له وارتبكت ، ووعدتني
أن تبحث عن « المس ماير » هذه وتنبئني ولكنها حين اجتمعت بي بعد ذلك قالت
إنها لم تجد متسعاً من الوقت للبحث .

ومضت يومئذ تهز كتفيها لكل سؤال ألقيه عليها بشأن تلك الفتاة وتقول إنه
لا بد من أن يكون قد اختلط الأمر علىّ وأنه يحسن أن أنسى ما جرى .

وجرت لى وقائع حال كثيرة من هذا القبيل ، ولكنها بجملة لم تكن
شيئاً مذكوراً .

ومن يدرينى لعل اقتراح إدجار بشأن سفرى إلى طوكيو كان مجرد اختبار
نفسى ، أو لعله أراد فعلاً أن يوفدنى إليها ، ولكن رؤساءه لم يطمئنوا لى ولم يثقوا
بى ؛ وقد تكون « المس ماير » قد جاءت فعلاً من قبل « إدجار » ، الذى كان
معروفاً لها باسم « جورج » ، فإن هذه الأمور ونحوها كثيرة الوقوع ، أو لعلها جاءت
من قبل شبكة شيوعية منافسة تحاول التعدى على منطقة اختصاص إدجار ونفوذها .
وقد تبين لى من هذا الحادث وغيره فى ألمانيا وروسيا أن أعمال هذه الشبكات
أقل كفاية وإتقاناً ودقة مما يظن خصوصاً ومنافسوها المروعون منها ، وأن الوسائل
التي تحت تصرفها أكثر قيوداً مما يحسبون ، وأن هناك ثلاثة عوامل نفسية كثيراً

ما يساء تقديرها ، ولا يدرك خطرها على حقيقته ، وهى الروح الخيالية التى تلازم فرق الأعوان المتطوعين فى خدمة « الهيئات السوفيتية الصامتة » ^(١) وسذاجتها ، وجرأتها التى لا تعرف ترددا .

ولم تتجاوز صلتى بشبكة شنيلا أكثر من ثلاثة أشهر أو شهرين ، ولم يكن هذا الاتصال سوى اتصال خارجى ، ولكن وقوفه عند هذا الحد فلم يجاوزه إلى الانغماس ، حتى أصبح « شبكياً » صمياً ، وهو الاصطلاح الحزبى الذى وضع للجوانيس والصنائع ، لم يكن مرجعه إلى شىء من جانبى ، فقد كنت مستعداً أن أكونه ، لأنى أصبحت يومئذ أحد أنصاف العذارى فى الثورة ، ممن ينتظر مجرد إشارة ليكون فى مصاف أولئك الصنائع لحماً ودماً ، وبدناً وروحاً .

وما أريد بذكر هذا أو الوقوف لحظة عنده أن أسوقه اعترافاً أو استشهد به فى قصتى استشهاده ، بل لأنى كفى ترجع نشأته إلى أوربا الوسطى ، ويتوافر فيه القدر العادى من الخيال ، والحد الوسط من الخبرة ، أمسيت يومئذ نموذجاً أو مثلاً من ألوف النماذج والأمثلة للشباب والفتيان الذين أقبلوا بكلمتهم على الشيوعية ، وتقاتلوا فيها تقانين ، وأن الكومنترن و « الأوجمو » كانا فى ذلك يتجران بالريق الأبيض وأن فريساتهما وضحاياهما هم أولئك الشباب الخياليون الذين يداعبون العنف ، ويتحايلون على الانغماس فى وسائله .

ولم تكن نجاتى من مخالب هذه « الشبكات » الشيوعية ، بفضل بعد بصرى ، أو يقظتى وحذرى ، بل مرجعها إلى براءة الشاب « فون ا... » ونقاء سريره ، فقد كان فى الحادية والعشرين ، وكانت نفسه تستشعر نحو تلك المودة التى يحسها الشاب فى تلك السن نحو معلمه ومدربه .

وقد مضت علاقاتنا بضعة أسابيع طيبة ، وظلت صلاتنا على ما يرام ، ولكنى بدأت بعد ذلك ألمح فتوراً من جانبه وإن لم ألق بالاً كثيراً إليه ، وجاءنى مرة

(١) سميت الصامتة أى التى تعمل فى هدوء وخفية بغير إعلان أو كلام ويرمز لها بالآحرف "S.S.S."

أو مرتين يقول في شبيب ومخافة إنه يود أن يكون له معى «حديث طويل» .
ولكنى يومئذ كنت مرهقاً بكثرة العمل ، متورطاً فى حب غير موفق ، كما
بدأت أمل تعليمه وأتبرم بتدريسه ، فجعلت أرجى هذا «الحديث الطويل» المطلوب
من حين إلى آخر ، وإن بدا لى فيما بعد أن إرجائى إياه كان غلطة من تلك الأغلاط
التي يهينها القدر لإفقاذى ، أشبه بمن يفوته ركوب الطائرة لأنها مقدر لها أن تسقط
أو تقع لها كارثة .

وفى ذات يوم ، وإنى لماض فى إملاء بعض الرسائل على إحدى الكتاتيب ، إذ
انقض الفتى «فون ...» علينا فجأة وطلب أن يتحدث معى فى الحال على انفراد .
وكان يبدو أشعث تاركاً شعر ذقنه ينمو ، وتلوح عيناه حمراوين ، وهو مضطرب
هائج ، فلم يسع الكتاتبة إلا أن تنصرف من الحجرة مروعة .
قلت وأنا متطير موجس «ما الخبر؟»

قال : لقد انتهى بى مطاف التفكير إلى نتيجة قاطعة ، وهى إما أن أطلق
الرصاص على رأسى فأنتحر ، أو أكشف القناع عن حركتنا ونشاطنا ، فأختر من
الأمرين ما تشاء .

قلت : ما هى هذه الحركات التى تتحدث عنها؟
قال بلهجة حماسية : حركات يصح أن تسمى «خيانة عظمى» ؛ وأنشأ يقص
قصته .

قال : إن هواجس وشكوكا خالجتة منذ أسبوع فى هذا الأمر الذى حملته على
ارتضائه ، ولم تلبث هذه الشكوك فى الليلة الماضية أن تحولت إلى يقين قاطع بأنه
ليس إلا جاسوساً ، وخائناً .

وعاد يكرر أنه لم يبق أمامه إلا أن يختار بين أحد أمرين : إما أن ينتحر ، وإما
أن يعترف بما فعل ، ويقبل النتائج .

فقلت له : إن هذا القول هراء كله وإن الجاسوس هو الذى يسرق وثائق حربية

أو يبيع أسرار الدولة لدولة أخرى ، وإن كل ما فعله هو نقل أحاديث و «دردشات»
في الجامع إلى صديق له .

قال مهاجماً : وماذا فعلت أنت بتلك الأحاديث ؟؟

قلت : رويتها لأصدقائي على علاقتها .

فصاح بي قائلاً : أصدقاء ... ! هل تريد أن تقول جواسيس أجنب ؟؟

قلت : إن الحزب الشيوعي هو حزب العمال في ألمانيا ، فهو وطني كالخزب النازي
أو الكاثوليكي سواء بسواء .

قال : كلا ... فإن كل إنسان يعرف أنه آلة في أيدي الروس .

وتولاني العجب من أمره ، وتساءلت في نفسي ماذا جرى له ، أفتراه انقلب
« نازياً » بين عشية وضحاها .

ولسكن تبين لي أنه لم يغير ميوله السياسية ، وإنما أدرك أن تحول المرء إلى
الاشتراكية ، أو الماركسية ، شيء ، ونقل المعلومات إلى دولة أجنبية شيء آخر .
واعترف وهو يهز كتفيه مستخفاً بأننا من الناحية الفنية قد لا نكون جاسوسين ،
ولسكن ذلك عنده لا يغير شيئاً من الواقع ، وهو أن سلوكنا كان خيانة ، وعملاً غير
شريف .

وقال إنه يستحيل عليه أن يعيش إذا هو لم يعترف بكل ما جرى ، وقد كتب
فعلاً اعترافه في الليلة البارحة ولكنه لن يسلمه إلا بعد موافقتي عليه .

وألقي بين يدي كتاباً مسهباً كتب على الأداة الكتابية ، فإذا هو في ثمانى
صفحات ، وموجه إلى « المدير العام » .

وطلب مني أن أقرأه .

فقرأت السطرين الأولين منه أو الأسطر الثلاثة الأولى ، وهى « أنا الموقع على
هذا ... أرى من واجبي أن أحيطكم علماً بما يلى ... إلخ »
ولسكنى وقفت عن القراءة نافرأ مستنكراً .

ولم يلبث الفتى وكان واقفاً قبالتى متأبياً الجلوس أن اكفهر ، وبدأ منظره أليماً ،
وعينه أشد من قبل تورماً واحمراراً ، فلم يخالجنى الشك فى أنه قد راح ينظر إلى
الموقف نظرة «دراماتيكية» ، ويريد الخروج منه بحماسة الشباب وتسارعه ونزقه ؛
ولكن قلماً تقع حوادث الانتحار لدوافع قوية ، وبواعث كبيرة ، وإن بدا لى مع
ذلك أن هذا الشاب قد أوتى من العزيمة ما سيدفعه فعلاً إلى إطلاق الرصاص على نفسه .
وظهر لى الموقف مضحكا ومؤملاً فى آن واحد ، أما أنه مضحك فلأن الشاب
كان مغالياً كثيراً فى أهمية شخصه ، مبالغاً إلى حد بعيد فى حقيقة ما فعلناه ؛
وكنت لا أزال أشعر بأن الأمر لم يتعد حد « الفضول السياسى » وإن أحسست
العجز عن مجادلته أو قراءة كتابه ، على الرغم من أنه يتصل رأساً بمصيرى .
وعند ما أبأغت « إدجار » الأمر فيما بعد ، لم أستطع أن أعلل له سر امتناعى
عن قراءة الكتاب ؛ ولعل هذا هو ما جعل « الشبكة » تتخلى عنى كأنسان
لا رجاء فيه .

أما اليوم فإن شرح المسألة سهل ، وهو أننى لم أقو على مواجهة شىء يتضمن
وقائع كنت أنظر يومئذ إليها نظرة خاصة ، وأغالط فى قيمتها المغالطات الحزبية
المألوفة ، متلطفاً فى أخذها كل التلطف ، مترخصاً أقصى حدود الترخص .
ولئن كنت مقتنعاً يومئذ بأن الفتى « فون » كان حاراً غريباً ، أو غيباً شاذاً
غريب الأطوار ، وأننى كنت العامل المجاهد الصادق فى خدمة « القضية » ، فقد
شعرت بأننى مخطئ فى حق ذلك الشاب ، مروع الخاطر من تلك الخطرة التى أنذرنى
بها ، متخيلاً وفقته أمام المرأة لإطلاق النار على رأسه .

وتناولت الكتاب فدرسسته فى جيبه وقلت له إننى لا أمانع فى تسليمه ، وليذهب
فى داهية ، مشيعاً منى بالبركات !....

قال : هل تعنى أنك موافق على أن أفعل ما أشرت إليه فيه .
فقد أخذته كلماتى مأخذ المفاجأة الأليمة ، وراح يسألنى هذا السؤال مترقباً الجواب

كأنه آخر فرصة أمامه ؛ وعندئذ بدا لي في لحظة ما أنني تصرف تصرفاً جنونياً ، فعملت بشيء من الجدل على الطريقة الخاصة ، مستطيع إخراجي من الحرج المحيط به . ولكنني لم أستطع الإقدام ، فقد تلاشت عندئذ اعتدادي بنفسى كعلمي ، وتبددت ثقتي بذاتي كمرشد ، وإذا بي أرى الشاب يعود من لندن الباب فيشد يدي في عاطفة رهيبية ، وينصرف لا يلوي على شيء ، وهو يلوح أقل اضطراباً مما بدا عند حضوره .

وهكذا انتهى عملي في دار « أولشتاين » وبدأت مرحلة جديدة في حياتي سلخت سبع سنين عجافاً ، وقد كنت متقبلاً من قبل أن أستغني عن وظيفتي من أجل الحزب ، ولكنني لم أكن أظن أنني خاسرها على هذا النحو الجنوني العجيب . وكان ذلك أيضاً نهاية علاقتي بالشبكة الشيوعية ، فقد خسرت الوسيلة التي كنت أستطيع أن أتوسل بها لخدمتهم ، على صورة تثبت أنني غير صالح إطلاقاً لأعمال « المخابرات » ، فلم يسعهم إلا الإعراض عني بغير احتفال ، ولم أعد أرى إيدجار أو بولا أبداً ، وإنما علمت فيما بعد أن بولا قتلها « النازيون » في رافنسبروك ، ولا تزال شخصية إيدجار مجهولة لدى إلى اليوم .

ويصح أن تسمى الطريقة التي فصلتني بها دار أولشتاين من العمل طريقة « قديمة » أو « معتدلة » أو بعض الأمثلة على « النفاق » البورجوازي ، تبعاً للزاوية التي تنظر منها ؛ فقد كنت أرتقب عقب انصراف الشاب « فون » لتسليم كتابه أن أدعى في أية لحظة إلى مقابلة المدير « مولر » ، وكنت قد أعددت دفاعي وهو أنني فعلاً طلبت إلى هذا الفتى أن يروي لي الأحداث السياسية التي قد تصل إلى علمه ، وأنني جعلت أحياناً أنقلها إلى أصدقائي في الحزب الشيوعي الألماني ، فأني إنهم في ذلك أوضير ، فكل الناس يتحدثون في السياسة ، ويتبادلون الأنباء مع الأصدقاء والأصحاب ، وليس للدار شأن بميولي السياسة ما دامت لا تؤثر في عملي الصحفي ، وما إلى ذلك كله من الحجج والاعتبارات التي كان إيدجار قد أشار على بها .

ولهذا ظلت بعد زوال الصدمة التي أحسستها على أثر مقابلتي للشاب فون ا ،
أترقب المشهد المنتظر بيني وبين المدير العام ، وأنا متملىء الصدر غضباً ، ناظم على هذا
الحادث الذي كنت على يقين من أنه سيؤدى إلى نتيجة سيئة ، وأنا فى الواقع
منه برىء ، لم أقترف إثمًا فى حق الأخلاق ، أو أسىء إلى الفضيلة ، ولا عجب ،
فإن من يعيش فى بركة عميقة مملأى بالأسماك ، يشق عليه أن يميز بين الأجسام
فيها والأشباح .

ولكن انقضت الأيام ولم يحدث شئ .

وإذا بى بعد أسبوع من واقعة الحال التي جرت بيني وبين ذلك الشاب أبصر
كتاباً على منضدتي ، ففضضته ، وإذا به يحوى اعتذاراً جميلاً يقول إنه بسبب
التخفيض العام فى عدد الموظفين مراعاة للأزمة الاقتصادية ، اقتضت الضرورة
الاستغناء عنكم ، تاركين لكم حرية الاختيار بين كتابة مقالات لصحفنا من الخارج
لقاء أجر شهري يعين حده الأدنى ، وبين قبول مبلغ من المال نظير المدة الباقية من
العقد المبرم معكم لمدة خمس سنوات .

وهكذا لم ترد فى الكتاب ولا كلمة واحدة عن الشاب فون ا ... ، أو عن
خيانة الأمانة ؛ ولا ريب فى أن دار أولشتاين أرادت ألا تحدث ضجة ، أو تكشف
عن فضيحة ، وكان ذلك أيضاً رأى الحزب ، فقد أشار على إدجار بقبول هذه
التسوية وإلقاء الغطاء على هذا الحادث .

ومن ذلك الحين ، كما أسلفت عليك ، لم أره طيلة الحياة ...

— ٤ —

وكذلك وجدتني بعد فقدان الوظيفة حراً طليقاً من قيود دنيا البورجوازية
وأصفادها ، ورحت أرسل جملة المال الذي قبضته من الدار إلى أبوى ، وكان يكنى
للقيام بأودهما عامين أو ثلاثة أعوام ، وقد أحسست أنني قد أخليت نفسي من تبعاتها
نحوهما فترة طويلة من الزمن ، ولكنى أبقيت مائتي «مارك» أو قرابة عشرة جنيهات
لأدفع منها أجر السفر إلى روسيا إذا سمح لي الحزب بالهجرة .

وتركت الطبقة التي كنت أسكنها في حي « وسند » وكنت أدفع عنها أجراً كبيراً ، وانتقلت إلى عمارة أخرى رخيصة الأجر في ميدان بوزر ، وجل سكانه من الفنانين « المفلسين » أصحاب المبادئ الراديكالية ، ولهذا سمي « المربع الأحمر » . وكانت الأشهر الثلاثة التي قضيتها فيه أسعد الأيام في فترة السنين السبع التي لبثتها عضواً في الحزب الشيوعي .

ولم يعد ثمة حائل بعد أن زال وجه الفائدة منى للشبكة الشيوعية يحول دون انضمامي إلى إحدى الخلايا والعيش المنظم الرتيب كعضو عامل في الحزب . والواقع أن إدجار كان قد سمح لي بالانضمام إلى خلية « المربع الأحمر » باسمي المستعار ، « إيفان ستاينبرج » ، وكان سماحه لي به قبل فصلي من دار أولشتاين بوقت قصير جزاء لي على الاجتهاد الذي بدا مني في إملاء تلك التقارير الطوال على « بولا » ، وكنت يومئذ أقيم في حي « وسند » ، وهو يبعد عدة أميال من ميدان « بوزر » ، فلا مخافة إذا أنا انضمت إلى خلية الحى الجديد الذي نزلت به من أن يكشف أحد من الناس أمرى ، أو يدرك شخصيتي « إيفان ستاينبرج » وما يخفى وراءها .

وكان ذلك من الأغلاط السمجة التي تقع من تلك « الشبكات » المكيفيلية^(١) ، فقد كان حي « المربع الأحمر » حي الفنانين والكتاب ، ولم أ كد أظهر في الخلية و يعلن للجمع عنى كعضو جديد يدعى « الرفيق إيفان » حتى رأيت بضعة وجوه تبسم لي مرحبة بحبيبة ، وكنت قد ألفت مشهدا من قبل .

ولم أعد أجد سبباً يدعوني إلى إبقاء عضويتي في الحزب سرّاً مكتوماً ، بعد أن تركت العمل في دار أولشتاين فلم ألبث في خلية « المربع الأحمر » أن ألقيت بنفسى كلية في حياة الخلية وأقفاها ورفقتها ، وكان أعضاؤها عشرين رجلاً ، وكنا نجتمع بانتظام مرة أو مرتين في الأسبوع ، وكانت كسائر الخلايا الشيوعية مقسمة

(١) نسبة إلى « مكيفاللى » صاحب كتاب « الأمير » ومذهب « الغاية تبرر الوسطة » . وجواز استخدام النفاق واللق والبطش والخداع لتحقيق الأهداف السياسية .

إلى ثلاثة أقسام : الأول منها يدعى « بول ليتز » أى « الزعيم السياسى » ، والثانى « أوج ليتز » أى « المنظم الإدارى » ، والثالث « أجيت بروب » أى العضو المسئول عن التهييج والدعاية ؛ وكان زعيمنا السياسى « ألفريد كانتوروفيكز » الذى يعمل الآن رئيساً لتحرير مجلة أدبية يحتضنها الروس فى برلين ، وكان يومئذ فى الثلاثين أو نحوها ، وهو الممشوق الناحل الأحسول المعروف فى عالم النقد والأدب ، ومؤلف قصة تدعى « قصة زماننا » وهى رواية لم تشهد الضياء فى يوم من الأيام .

ولكنه كان بعد ذلك كله رفيقاً طيب القلب إلى حد بالغ وصديقاً كريماً يبذل النفس رخيصة فى سبيل صديقه ، وقد أوتى حفاظاً وملسكة مجون خصيبة فياضة ، ولكن عيبه الوحيد هو الافتقار إلى الشجاعة الأدبية .

وقد لبثنا صديقين طيلة أعوام الهجرة التى قضيتها فى باريس ، وحين خرجت من الحزب كان الرجل الأوحى الذى لم يمسق فى وجهى ، وهو الآن من كبار أهل الأدب فى السوفييت ؛ وإنى لأرجو أن تحميه براءة سريره واستسلامه وطاعته من الوقوع يوماً فى فخاخ التقاليد المناهضة للثورة أو شرك الكوزمو بوليتانية البورجوازية ، أو اللصوصية « السكتية » الجديدة ، أو مجرد الإباحية الحرة ^(١) .

وكان زعيم خليلتنا « الإدارى » الموكل بشئون التنظيم هو « ماكس شرودر » ، وهو أيضاً من الأدباء ، يعيش على الشهرة التى اكتسبها بعدة القصائد العامرة التى نشرها وهو فى التاسعة عشرة من العمر ، أى منذ خمسة عشر عاماً مضت ، ولكنه كان أيضاً « بيضة » طيبة ، أو مثال « البوهيمى » الحبيب الذى انحدر من « ميونيخ » والذى وجد فى تفانيه وإخلاصه للحزب تعويضاً عن خيبة آماله فى الأدب والحاسة الجنسية ، والمال ، وما إليها .

وأسندت مهمة التهييج والدعاية إلى عقب انضمائى إلى الخلية بوقت قصير ،

(١) كل هذه نعوت وصفات يطلقها الشيوعيون على من يرددون التشهير بهم أو اتهمهم بأنهم غير صادقين فى تفسيرهم للتاريخ ونظراتهم إلى الطبيعة .

ولا أزال أعتقد أن بعض الرسائل والمنشairs التي وضعتها بقلبي ملأى بروح
اليقينية (١) الحارة الصادقة .

وأذكر أن من بين أعضاء خلية الدكتور ويلهلم راينخ مؤسس معهد السياسة
« الجنسية » ومديره العام ، وكان من الماركسيين المؤمنين بنظريات العلامة « فرويد » ،
وقد أصدر أخيراً بإيحاء من مالفينوفسكى كتاباً بعنوان « وظيفة الحاسة الجنسية » ،
شرح فيه النظرية القائلة إن إضعاف الحاسة الجنسية عند الطبقة الكادحة هو الذى
خفق فيها الوعى السياسى ، وإنه إذا لم تطلق الدوافع الجنسية وتسرح سراحاً تاماً بغير
قيد لها ولا حد من نشاطها ، فلن تدرك هذه الطبقة مدى مقدرتها الثورية ، ومبلغ
رسالتها التاريخية .

ولكن هذا الكلام وأشباهه كان أقل وضوحاً وجلاء مما يبدو من رنينه
وأنغامه .

وقد أصدر راينخ بعد انتصار هتلر دراسة باهرة فى علم النفس ، تناول فيها تحليل
« العقلية النازية » التى كان الحزب يندد بها ، ولم يلبث أن خرج عليه وانشق من
صفوفه ، وهو اليوم يدير معهد أبحاث علمية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان معنا أيضاً فى الخلية ممثلان فى مسرح من المسارح « الطبيعية » يدعى « فخر
الفار » وعدة فتيات ذوات مطامع أدبية غير ظاهرة ، وموظف فى شركة تأمين ،
وشاب يدعى « أرنست » ابن الفاكهى القائم فى الحى ونفر من العمال الكادحين .
وكان نصف نشاطنا داخل فى حدود القانون والنصف الآخر خارجاً عنه .

وكنا نبدأ اجتماعاتنا بمحاضرة سياسية يلقيها عادة الزعيم السياسى بعد أن تراجع
فى مقرر رئاسة الحزب أو من « معلم » يوفدونه لهذا الغرض .

وكان الهدف المراد من هذه المحاضرات شرح الخطة السياسية المرسومة بسبيل
مختلف المسائل الراهنة والشئون الجارية .

(١) أى الروح الثورية العنيفة التى لا تستند إلى العلم المادى ولكن كل كلامها حماسة .

وقد جرت في ربيع عام ١٩٣٢ وخريفه المشؤمين سلسلة انتخابات هزت البلاد هزة الزلازل ، كانتخابات الرئاسة ، وانتخابات الريشتاغ مرتين ، والانتخاب المتصل بمجلس النواب البروسي ، وهي أربعة انتخابات سلخت معاركها ثمانية أشهر في بلد أوشك أن يرتطم في حرب أهلية .

وقد اشتركنا في تلك الانتخابات ، من باب إلى باب ، ودار إلى دار ، موزعين نشرات شيوعية ، ومصدرين رسالات تدعو لحزبنا ، وكان أشق شطر من جهودنا ، تصييد الناهبين ، والطواف بالدوائر الانتخابية ، فقد اعتدنا التجول في صباح الأحد من الأسبوع ، حين يكون الناس في بيوتهم ، فكان الرجل منا يدق جرس الباب ويدخل إحدى قدميه بين الباب والعمود ويعرض النشرات ، ويدعو القوم برفق إلى مناقشة سياسية فيها إذا شاءوا .

وكان الناس في الغالب يلاقوننا بحفاء ، ولكنهم قلما يعمدون إلى الاعتداء ، وكثيراً ما كان الباب يوصد في وجهنا بعنف ، ولكن لم يتقدم أحد يوماً إلى شجار أو عدوان .

وكنا نتجنب دق أجراس بيوت النازيين المعروفين ، وكان أكثر الذين يقيمون في مربعا أو حواليه منهم معروفين لدينا ، كما كنا جميعاً لديهم معروفين ، لقيام خلايا لهم مثلنا ، وتشكيلات من ذوى « القمصان السود » ؛ فقد عمت ألمانيا حضرها وريفها تلك الخلايا المتقنة وشباكها الدقيقة ، ولا أزال أعتقد أننا كنا سنصيب رائد التوفيق ، لو لم نعدد موسكو إلى خطط نزقة ولا تفتأ بأساليبها الطائشة تمزق شباكنا وتخرجها من أيدينا ؛ فقد اجتمعت يومئذ الفكرة ، والاستعداد للتضحية ، والتأييد العام ، فكانت في عوننا ، وكنا مصيبي النجاح ، لولا ذلك العائق القائم في طريقنا .

وقد تلاشت من نفوسنا روح النضال ، لأننا لم نكون الصيادين ، كما كنا نظن ، بل « الطعم » المتدلى من الخطاف ، وإذا كنا يومئذ قد جهلنا هذه الحقيقة فما ذلك إلا لأن عقولنا « كيفت » تكيفاً جديداً من شأنه أن يجعلنا نتقبل أى تصرف

سخيف يأتي به الأمر من فوق ، كأنه من أصدق رغباتنا ، وبعض مظاهر اعتقادنا وبقيننا .

وكنا قد رفضنا تعيين مرشح مشترك مع الاشتراكيين في انتخابات الرئاسة ، وحين ناصر هؤلاء « هندنبرج » كأهون الشرين ، حيال هتلر ، مضينا نحن نرشح « تالمان » Thalmann ، وإن لم يكن ثمة أمل في نجاحه ، إلا من ناحية واحدة ، وهي أن ترشيحه سيقسم أصوات الناحيين العمال ويوزعها توزيعاً يكفي لجلب هتلر في الحال إلى مقعد الحكم وزمام السلطان .

وقد ألقى « معلم » الخلية علينا محاضرة ثبت فيها أن ليس هناك شيء يسمى « أهون الشرين » وإنما كل هذا كلام يجري مجرى المغالطة والمناورة ، بل هو فكرة « تروتسكية » منافية للثورة ، يراد بها تحويل الأذهان عن الشيوعية ، وتشتيت صفوفها ، فلا عجب إذا نحن لم نضمّر غير الإشفاق على الذين يرددون هذه العبارة ويتحدثون عنها ، ولم نكنّ لهم سوى الحق والحق ، لاقتناعنا من البداية أنها دسيسة علينا ، واختراع يراد به السكيد لنا ، وكيف يعجز المرء أن يدرك أن بتر الساقين خير من محاولة إنقاذ واحدة منهما ، وأن السياسة الثورية الصحيحة هي انتزاع العكازين من كفي الجمهورية الكسيحة المقعدة .

إن الإيمان ليأتي بالعجب ، لأنه يحرك الجبال فحسب ، بل يملك أيضاً على الاعتقاد بأن سمكة « الرنجة » هي حصان سباق ... !

ولم يكن « التكيف » الجديد مقتصرأ على طريقة تفكيرنا ، بل تعداها إلى مجموعة عباراتنا وأفكارنا ذاتها ، فقد منعنا من استخدام كلمات معينة ، كقولنا « أهون الشرين » ولفظة « الذاتي » أو « الاعتباري » لأن المظاهر « الذاتية » والدلالات « الاعتبارية » على وعى الطبقات الكادحة ، كانت جزءاً من نظرية « تروتسكي » عن الثورة الدائمة ، بينما أصبحت كلمات أخرى وعبارات بذاتها محبة شائعة مصطفاة ؛ ولست أعني بهذا تلك الكلمات الشيوعية السائرة من نحو قولهم « الجماهير الكادحة » ،

بل أقصد كلمات أخرى ككلمة « محسوس » ولفظة « طائفي » ، في قولهم « يجب أن تضع سؤالك في صيغة محسوسة » أو « إنك تتخذ أيها الرفيق موقفاً طائفيًا يساريًا » ، أو كلمة « هيروستراتي » ؛ فقد رأينا لينين في بعض مؤلفاته يذكر « هيروستراتاس » الإغريقي الذي أحرق معبدًا لا شيء سوى أنه لم يجد وسيلة أخرى يظفر منها بالشهرة والصيت ، وأصبحنا نسمع بعضهم يقول أحيانًا « إن هذا هو « الجنون الهروستراتي » الأثيم الذي يبديه أعداء الثورة في سبيل القضاء على الجهود الرائعة التي تبذلها الطبقات الكادحة في وطننا لتحقيق مشروع السنوات الخمس في أربع فقط » .

وفي وسعك طبقاً لمجموعة ألفاظهم « وكليشيئاتهم » الحبيبة إلى نفوسهم أن تعرف في الحال منزع الشخص الذي تتحدث إليه ، هل هو « تروتسكي » أو « إصلاحى » Reformist أو « براندليري » Brandlerite أو « بلانكستي » Blanquist أو سواء من نعوت الخوارج وأسماء المنشقين ؛ وكثيراً ما دل شيوعيون على أنفسهم أمام البوليس من طريقة حديثهم وألفاظهم وعباراتهم .

وأعرف فتاة كشف الجستابو في الحال عن حقيقتها ، بغير دليل قائم عليها ، أو بينة ظاهرة تدينها ، بل لمجرد أنها قالت في عرض كلامها « محسوس » ، وقد ظل القوميسار يصغى إليها ملولاً متبرماً ، وهو مقتنع إلى حد ما بأن مرءوسيه أخطأوا في اعتقالها ، حتى عادت تكرر كلمة « محسوس » أمامه ، فإذا بأذنيه تنفثران ، وهو ينظر إليها قائلاً : من أين التقطت هذا التعبير ؟؟ ، فلم تلبث الفتاة ، بعد أن كانت إلى تلك اللحظة هادئة متمالككة أن اضطربت وتلعثمت ومتى تلعثم المرء قالويل ويله ، والمصاب مصابه .

وكذلك أعيد « تسكييف » أذواقنا في الأدب والرسم والتصوير والموسيقى ، وقد تحدث لينين في بعض تواليفه عن نفسه فقال إنه عرف عن فرنسا من قصص بلزاك ، أكثر مما عرفه عنها من كل كتب التاريخ مجتمعة ، فلا عجب إذا عد الشيوعيون

بذلك أكبر كتاب الدنيا عامة، وقيل عن الكتاب الآخرين إنهم كانوا «يصورون القيم المشوهة للمجتمع المتداعي الفاسد الذى أخرجهم» .

وكان المبدأ الغالب فى المسائل المتصلة بالفنون هو «الديناميزم الثورى» Revolutionary Dynamism^(١) فكل صورة تخلو من مدخنة مصنع أو جرارة هى صورة رسام «تهربى» أو «متهرب» Escapist . وأما كلمة «الديناميزم» فقد أفسخت المجال لدخول أساليب تجريبية جديدة كقولهم الرسم التكعيبى Cubism والفن «التعبيرى» Expressionism وغيرها ؛ ولكن ذلك كله تغير بعد بضع سنين حين استعاض عن «الديناميزم» ، «بالرياليزم» الاجتماعى أو الفن «الواقعى» . ومن هنا أصبح كل ما هو حديث أو «تجريبي» يوسم بميسم «الصياغة البورجوازية» للتعبير عن فساد «الرأسمالية» وانحطاطها وتدهور أقيستها وفنونها ؛ وكان «الكورس» فى الموسيقى والتمثيل يعد يومئذ أسمى ضروب التعبير وأرفعها ، لأنه يصور الروح «الجماعية» فى اللحن والغناء ، ويتناقض مع الموسيقى «المفردة» التى شاعت فى «البورجوازية» واستمكنت منها ، ولم يكن فى الإمكان إلغاء «الأشخاص» أو «الأفراد» من «المسرحيات» ، فافتضى الأمر تحديد الأساليب والنماذج وتجريد الأشخاص من الفردية ، وقصرهم على الرموز .

وعمد الشيوعيون أيضاً إلى علم النفس فبسطوه تبسيطاً واسع المدى ، واكتفوا بإقرار دافعين انفعاليين ، وهما دافع «التضامن الطبقي» Class Solidarity والدافع الجنسى Sexual Urge ووصف كل ما عداهما بأنه داخل فيما وراء الطبيعة عند البورجوازيين ، أو أثر من التنافس الاقتصادى عند الرأسماليين ، كالطمع والطموح ونشوة السلطان والنفوذ .

أما الدافع الجنسى فقد كنا فى حيرة بالغة من أمره ، وإن أقره الحزب رسمياً ، واعترف به ، فإن الوحداية فى الزواج ، وشرعية الحياة الزوجية بحملتها هما من ثمرات

(١) مذهب فى الرسم والتصوير يروق الشيوعيين كما ترى من اشتراطهم فيه .

النظام الاقتصادى ، وهما يولدان « الفردية » ، ويعرسان النفاق ، ويحدثان نزوعاً إلى « التهرب » من الصراع الطبقي فلا معدى عن رفضهما جملة واحدة ، وليست « الزوجية البورجوازية » إلا ضرباً من « البغاء » أقره المجتمع ، ولكن الزواج « العرفى » مرذول أيضاً ، وقد راج فى الحزب وشاع فى روسيا والخارج ، حتى أعلن لينين مخالفته لنظرية « قدح الماء » Glass of Water وهى قولهم إن « العملية الجنسية » لا نتيجة لها غير ما يحدثه قدح من الماء فى إطفاء الظمأ إلى الشراب » ومن هنا كانت الأخلاق أو الحاسة الأدبية عند البورجوازية سيئة ، والزواج العرفى مثلها فى السوء ؛ والرأى الصائب فى مسألة « الدافع الجنسى » هو سلامة الحاسة الأدبية عند الطبقة الكادحة ، لأنها تقتضى الزواج والإخلاص للزوج وإخراج الفرارى الكادحة والبنين العاملين .

ولكن قد يسأل سائل : أليست هذه جميعاً واحدة عند الطبقتين ؟ ؟ والجواب الشيوعى هو أن هذا السؤال أيها الرفيق يدل على أن تفكيرك « سوقى » وليس تفكيراً « منطقياً » ، إذ ما هو الفرق بين البندقية وهى فى يد الشرطى ، وبينها وهى فى يد العامل ؟ ؟ إن الفرق هو أن الشرطى ليس إلا خادماً يجرى فى أذبال الطبقة الحاكمة ، وليست البندقية فى يده إلا آلة عسف واضطهاد ، ولكنها فى يد العامل الكادح أداة تحرير للطبقات المظلومة المضطهدة ، وهذا هو بالذات وجه الحق فى مسألة الفارق بين « الحاسة الأدبية » عند البورجوازية ، وبينها عند الطبقة الكادحة ؛ فإن شرعة الزواج فى المجتمع الرأسمالى هى مظهر من مظاهر الانحطاط البورجوازى ، ولكنها فى الجماعات الكادحة السليمة قد تحولت تحولاً منطقياً خاصاً ، طهرها من الشوائب ، فهل فهمت أيها الرفيق ، أم تريد منى أن أكرر الجواب فى صيغة أوضح بياناً ، وأكثر جلاء ؟ ؟

وكان تكرار الصيغ والعبارات ، وإلقاء الأسئلة وإعادتها بنصها فى الأجوبة والردود عليها ، واستخدام نعوت معينة ، وصفات بذواتها ، ورفض رأى أو حقيقة

بمجرد وضع الكلمات بين أقواس، وإضفاء غشاء تهكمي سافر عليها كقولهم : ماضى تروتسكى « الثورى » ! والرغاء « الإنسانى » الذى تلج صحف الأحرار فيه !... كل أولئك كانت أجزاء لامعدى عنها من الأسلوب الذى كان فيه جوزف جوجاشفيل^(١) السيد الذى لا يبارى ، والمولى غير مدافع بل الأسلوب الذى جعل من طول تكراره وجريانه على وتيرة واحدة ، يحدث تأثيراً أشبه بتأثير التنويم المغناطيسى ، فإن حضرت هذه اللهجة الرتيبة ساعتين من الزمن لم تعد تدرى أنت غلام أم فتاة ، بل أصبحت على استعداد للإيمان بأنك أحدهما ، بمجرد ظهور الآخر بين قوسين ، وتأهبت للاعتقاد أيضاً بأن الاشتراكيين هم (١) أعداؤك الألداء (ب) وحلفاؤك الطبيعيون ، وأن البلاد الاشتراكية والأقطار الرأسمالية تستطيع أن تعيش جنباً إلى جنب فى سلام ، وأن « انجائز » كان يقصد العكس تماماً حين كتب يقول إن قيام الاشتراكية فى بلد واحد مستحيل ؛ بل لقد علمك الشيوعيون من قبل أن تبرهن بطريقة « الاستنتاج المسلسل » أن كل من يخالفك هو صنعة من صنائع الفاشية لأنه (١) بمخالفته لرأيك يهدد وحدة الحزب (٢) وبتهديد وحدة الحزب يفسح المجال لانتصار الفاشية ومن ثم (٣) قد تصرف معك « موضوعياً » تصرف صنعة من صنائعها وإن كان « شخصياً » قد حطم كليتيك يوماً بالضرب المبرح فى معسكر الاعتقال ، وكانت لكلمة « صنعة » ولقظة « ديموقراطية » وعبارة « حرية » معان فى تقدير الحزب تختلف عن معانيها العامة المفهومة عند الناس ؛ وكلما تغيرت معانيها الحزبية تبعاً لتغير الخطط وتبدل السياسات ، أصبحت أساليب الجدل أشبه شئ فى لعبة الكروكيه « بملكة القلوب » حيث يتحرك الطوق حول الساحة وتبدو الكرات قنافذ حية ، مع فارق واحد ، وهو أنه عندما يفوت الدور أحد اللاعبين ، وتصيح الملكة « اقطعوا رأسه » ينفذ الأمر حقيقة وفعلاً ، فلنكنى ننجو بالأرواح كان علينا أن نصبح « غواة » فى لعبة الكروكيه !

(١) اسم ستالين فى الأصل .

وكان من أبرز معالم الحياة في الحزب يومئذ الإيمان « بالطبقة السكادحة » كلمة
 ودين ، واحتقار أهل الطبقة المستنيرة وامتهانها ، فقد كان هؤلاء « الدم » الخبيث
 و« الخراج » الملىء بالصدید ، وفلول المتعلمين المنحدرين من أصل بورجوازي ، وإذا
 كنا من أفراد الحركة وأعضائها ، فما دخلنا إلا لنتعذب ، لأنه حق من حقوقنا ،
 وكان هذا الاعتقاد يغرس في نفوسنا ليل نهار ، ويلقن لنا تلقيناً ، وما أطاق الحزب
 وجودنا ، وتسامح معنا ، إلا لأن لينين قال بهذا التسامح ونصح به ، ولأن روسيا
 لم تكن تستطيع أن تستغنى عن الأطباء ، والمهندسين ، والعلماء ، الذين ينتمون إلى
 الطبقة المتعلمة قبل الثورة ، ولا يمكنها أن تعيش في غناء عن الإخصائيين الأجانب
 الملاعين ، ولكننا مع هذا كله لم نكن موضع ثقة أو أكثر احتراماً في نظرهم من فئة
 « اليهود النافعين » في الرايخ الثالث الذين خلى بينهم ، ولم يذبجوا تذييحاً ، بل
 أعطوا اشارات مميزة حتى لا يساق بهم خطأ إلى حجرة من حجرات الاختناق بالغاز
 قبل أن يعتصروا اعتصاراً وتستخلص وجوه النفع فيهم استخلاصاً ، وكان « الآريون »
 في الحزب هم الطبقة السكادحة ، وكان الأصل الاجتماعي للأباء والأجداد عاملاً له
 خطره ووزنه عند طلب العضوية وخلال حركتي التطهير العادي الذي يجري مرتين
 في كل عام ، كشأن فكرة الأصل الآري عند النازيين ، كما كان البروليتاريون الأقحاح
 هم عمال المصانع الروس ، والصفوة المختارة منهم هم عمال مصانع « بوتيلوف » في
 مدينة ليننجراد ومنايع الزيت في باكو ، وكان العامل « المثالي » في كل ما قرأناه
 أو وضعناه من الكتب هو العامل العريض المنكبين الصريح الوجه والقسيمات ، الواعي
 كل الوعي ، المدرك كل الإدراك ، لكرامة طبقته ، الرقيب على دوافع حاسته الجنسية ،
 القوى الصموت الحار العاطفة ، ولكنه الخشن الغليظ عند الاقتضاء ، ذو القدمين
 الكبيرتين واليدين المشفقتين ، والصوت الجهشوري الذي يعينه على التغني بأغانى الثورة
 وإنشاد أناشيدها . أما « البروليتاريون » الذين ليسوا شيوعيين فهم أبعد ما يكونون

عنهم حقاً، لأنهم إما أن يكونوا منتمين إلى بروليتارية لامين^(١) أو إلى الأرستقراطية
العالية^(٢) وليس لأية حركة حياة بغير مثل من أمثلة البطولة ، وكان بطل خيلتنا
إيفان إيفانوفتش الذى يشغل فى مصانع « بونيلوف » .

وهيئات لفرد من الطبقة « المستنيرة » أن يصبح عاملاً كادحاً صمياً ، ولكن
المتعين عليه أن يحاول أن يكون أدنى منه وأقرب شىء إليه ، وقد حاول فريق منهم
تحقيق ذلك فأقلعوا عن استخدام رابطة العنق « الكرافت » ، وارتداء « العراقات »
التي ترتدى فى لعبة « البولو » وترك أظافرهم طوالاً سوداً ، ولكن الحزب لم يرقه
هذا ولم يقره ، بل عده « رقاعة » وتصنعاً وافتعالاً ، وجعل السبيل القويم ألا يكتب
المرء ولا يقول ولا يفكر فى شىء يعجز الكناس فى الشارع عن فهمه ، فجعلنا نلقى عنا
بضاعة العلم وحقائب التفكير ، كما يلقيها المسافر على ظهر باخرة فى ساعة الفزع ،
أو الخطر من الغرق ، ولم يبق لنا منها إلا القدر القليل المحدود من العبارات الشائعة ،
والجمل الثوابت كالكلشيهات والشذرات المقتبسة من « الماركسية » التي يتألف
من مجموعتها كلام ستالين وأشياعه فى المجال الدولى ، وأصبح الأخذ بنصيب من التعليم
البورجوازي ، والبروز بحصة من الثقافة ، والقدرة على رؤية مشكلة مامن عديد نواحيها
لا من ناحية واحدة — مصدر ندامة لصاحبها وباعث وخز وألم ، ورحنا نلقف
على أن نصبح واضحين الأذهان ، بسطاء العقول ، وأضحى « الاختصاص » العقلى^(٣) ،
ثمناً زهيداً فى سبيل الظفر شبه ولوقليل لما فعله بطل خيلتنا الرفيق إيفان إيفانوفتش

— ٥ —

ولنعد إلى سير الحياة فى الخلية .

فقد كانت الاجتماعات كما أسلفت عليك تبدأ بمحاضرة سياسية ، أو بمحاضرتين ،
لبسط الخطط ، وشرح العالم ، ثم تتلوها المناقشات ، وكانت ذات طابع خاص ، فقد

(١) Lumpin أو العمال الذين لم يؤتوا وعياً طبيعياً .

(٢) الأرستقراطية العالية أو العمال الذوات .

(٣) كالإختصاص فى الحراف حتى لا تبقى لهم حرية التفكير .

كان من القواعد الأساسية في روح النظام الشيوعي أن كل انتقاد يوجه إلى قرار اتخذته الحزب ، بشأن سياسة معينة ، أو تصرف من التصرفات ، في مسألة من المسائل ، يعد « تخريباً » ، ويوصف الناقد بأنه من « المنحرفين » أو « المنشقين » ، وكانت المناقشة مسموحاً بها جائزة قبل صدور القرار ، ولكن القرارات إنما تأتي من فوق ، وتهبط من السماء ، دون الاستئناس بآراء أية هيئة تمثل الدهماء ، أو عامة الأعضاء ، فليس لهؤلاء إذن نفوذ ما أو شأن في السياسة وتكييفها ورسم خططها ولا أمل لهم في التعبير عن آرائهم ، ولكن لا تنس أيضاً أن الزعامة محرومة من الوسائل التي تستطيع بها أن تقيس نفسية الجماهير وتتعرف وجهتها ، حتى لقد أصبح من الكلام السائر قولهم « إن الخط الأمامي ليس مكاناً للمناقشات » . أو قولهم « أينما يقف شيوعي ، فهو أبداً في الخط الأمامي .. » .

ولهذا كانت مناقشاتنا تدل دائماً على إجماع تام على رأي واحد ، وكان الشكل الذي تتخذه أن ينبري واحد في إثر واحد « فيتلو » كلاماً يختلف تعبيراً ، من ناحية الأساليب المأخوذة عن شوجاشفيلي — أي ستالين — والألفاظ الثوابت المحاكية لعباراته ، ولكنها تجتمع في الجملة على إقرار ما جاء في المحاضرة والتأمين على ما ساقه المحاضر فيها ، ولعل التعبير بكلمة « يتلو » ليس بالوصف الصحيح هنا ، فقد كنا نتحسس بألم بالغ في أعماق عقولنا لكي نجد مبرراً للخطوة المعروضة علينا ، ونعثر على آثار لأفكار وخواطر سابقة تثبت لنا أننا كنا من قبل نرى هذا الرأي المطلوب ، ونفكر هذا التفكير المعروض ، وكنا في هذه العملية المجهددة كثيراً ما نوفق ، ولعلنا أحسست الحيرة والدهشة حين ذهب معلمنا في بعض اجتماعاتنا ينبئنا أن الشاعر الذي سوف يتخذه الحزب في الانتخابات القادمة لمجلس النواب البروسي لن يكون بسبيل الملايين السبعة من العمال المتعطلين في ألمانيا ، ولا خطر « ذوى القمصان السود » ولكنه سوف يكون « الدفاع عن الطبقة الكادحة في الصين ضد عدوان اليابانيين القراصنة » .

ولكنى لم أعد أذكر حيرتى تلك ، أو يقف عندها خاطرى طويلا ، وإنما ذكر أننى كتبت رسالة صادقة بليغة فى موسم الانتخابات، دلت فيها على أن الحوادث التى تقع فى « شنغاي » أهم شأنًا فى عين الطبقة العاملة فى ألمانيا من الحوادث التى تجرى فى برلين ، وأذكر أيضاً الكف التى ربت على كتفى عقب تلك الرسالة من جانب مقر رئاسة المركز ، ولا تزال ذكرها تسعدنى ، وأنا لا أزال العاجز عن مغالبة هذا الإحساس .

وكان أعضاء الخلية من « العمال » يجلسون عادة فى الاجتماعات « مهوَّمين » يبدو النعاس على وجوههم ، وكانوا يصغون بأجفان مثاقلة من ريبة ، أو مفتحة قليلا من التشكك، إلى ما كان « المعلمون » يشرحونه كأسباب لمواقفتهم، وعوامل تؤيد إقرارهم ، ولكن لا يلبث بعد تردد يسير أن ينهض أحدهم فيردد بشكل غريب ولهجة تحدّ ظاهرة ، الأقوال السائرة التى وردت فى كلام الحاضر باعتبارها الشعار الذى ينبغى اتخاذه ، والبرنامج الذى يجب السير عليه ، دون أن يكلف نفسه مؤونة التغيير فى الألفاظ ، أو التبديل فى التعبير ، وكان الآخرون ينصتون إليه فى صمت رهيب ، فإذا فرغ من مقالته ، عاد إلى مجلسه وسط همهمة موافقة ، ومخافتة بتأمين ، وعندئذ يتولى « المعلم » تلخيص ما دار فى الجلسة ، ويقول إن الرفيق س ... هو الذى استطاع دون سائر الخطباء المتكلمين أن يضع الموضوع المطروح فى أحسن عبارة وأسلم تعبير .

وقد أسلفت أن صيف عام ١٩٣٢ كان فترة انتقال إذ كان الحزب يتأهب للعمل فى الخفاء ، ويعاود لهذا السبب تنظيم صفوفه ، وتكوين هيئاته وشعبه وخلاياه ، فقد كان من المحتمل بين عشية وضحاها أن يصدر أمر بإلغاء الحزب أو تحريم وجوده قانوناً فلا معدى عن الاستعداد لهذا الطارئ ، لأن جميع الخلايا إذا نحن أكرهنا على العمل ضد القانون سوف تتلاشى ، ويحل محلها تنظيم جديد يغمر البلاد كلها، ونعنى به « الجماعات الخماسية » السرية Groups of Five لأن الخلايا كانت عادة بين عشرة رفاق

وثلاثين رفيقاً ، وهى اكثره أعضائها لا تحسن العمل فى الحركة السرية ، وهى
الفرص أمام الخبيرين لكشف نخبها ، ومعرفة خافيتها .

وكان تقسيم « الكادرات » إلى جماعات تتألف من خمسة أفراد يستوجب
تنظيماً لا يتوافر فيه التركيز ، ولكنه أمان من الخطر ، وأقل ما يكون استهدافاً
للمجازفات ، إذ لا يعرف شخصية الأعضاء الأربعة ومحال إقامتهم غير «المسؤول» ، أو
الخامس فيهم ، وهو وحده الذى يتصل بالهيئة العليا التالية لهيئته فى الصرح الشيوعى
العام ، فإذا قبض عليه فلن يكون فى إمكانه غير الغدر بالأربعة الآخرين فى جماعته
والشخص الأوحد الذى كان على صلة به .

وقد اقتضى الاستعداد أن تظل الخلية مؤدبة عملها ، وأن يخصص سرّاً لكل
عضو جماعة خماسية ينتمى فى الوقت ذاته إليها ، وكان المراد من ذلك ألا تعرف أية
جماعة خماسية شيئاً عن تكوين الجماعات الأخرى ، والواقع أننا كجيران فى «المربع»
كنا نعرف أية جماعة كانت منعقدة سرّاً ، وفى شقة أى عضو . وفى الليلة التى أحرقت
فيها دار « الريشتاغ » ، حين وجه جورنج ضربته القاتلة إلى الحزب الشيوعى ، لم
تلبث تلك الجماعات الخماسية أن تناثرت وتفرقت ، وتداعى البنيان الدقيق كله فى
البلاذ ، وكان إعجابنا بالغاً ببراعة زعمائنا ودقة حيلهم للمؤامرة ، ولئن كان كل فرد
مناقداً قرأ كتباً ومؤلفات عن التمرد ووسائله الفنية ، والحرب الأهلية وأساليبها
الجهنمية ، فلم تلبث ملكاتنا الانتقادية أن اضطربت يومئذ واختلت إلى حد
جعلنا جميعاً حيارى مبهوتين لا ندرك حكمة تلك الخطة الجديدة وما قد يترتب عليها
من الأخطار والنكبات ، فإن الاستعداد لحركة سرية طويلة الأمد بتشكيل جماعات
صغيرة بعيدة عن التركيز ، كان معناه أن زعماءنا سلموا لا محالة بأن النصر واقع
للفاشيين ، وأن تجزئة « الكادرات » إلى وحدات صغيرة توحى بأن الحزب سوف
لا يلجأ إلى مقاومة صريحة مسلحة حيال صعود هتلر إلى ذروة السلطان ، بل كان
يستعد لمقاومات أو مناوشات متقطعة محدودة النطاق .

ولسكننا نحن معاشر الدهماء ، أو الصفوف ، لم نكن يومئذ ندري من ذلك شيئاً بل مضينا خلال ذلك الصيف المستطيل الخائق عام ١٩٣٢ نواصل معاركنا المألوفة مع النازيين ، فلم يكن ينقضى يوم دون مصرع واحد منهم أو اثنين في برلين ، وكانت ميادين هذا الصراع تلك الحانات الصغيرة المختنقة بسحائب الدخان ، التي تكثر في الجهات التي يقطنها العمال ، أو مشارب « الجعة » فقد كان بعضها ملتحق النازيين ، والبعض الآخر منتدانا نحن ومجتمعنا ، وكان دخول حانة غير الحانة الصحيحة معناه الوقوع في خطوط الأعداء ، وقد اعتاد النازيون في الفينة بعد الفينة أن يطلقوا الرصاص على حانة من حاناتنا ، على طريقة العصابات الأمريكية في شيكاغو ، إذ يمشى فريق من جنود العاصفة النازيين قبالة المشرب أو يمرون بالسيارة عليه بطاء فيطلقون النيران من خلال زجاج النوافذ ثم يتوارون مسرعين ، ولم يكن لدينا من السيارات القدر الوفير الذي كان لديهم ، فكانت ثاراتنا تقع ونحن في سيارات مسروقة أو مستعارة من العاطفين علينا والحادين ، وكان الذين يتولونها منا هم أعضاء رابطة الجنود القدامى الشيوعيين ، وكانت سيارتي أحياناً تعار لرفاق لم أشهدهم من قبل ولا رأيتهم في حياتي ، وكانت تعاد لي بعد بضع ساعات فلا أسأل أين كانت ، ولا يقال لي ماذا صنع بها ، وكانت السيارة صغيرة حمراء اللون ، مكشوفة من نوع « الفيات » موديل ٥٠٩ ، أي أنها لم تكن تناسب مطلقاً هذه الأغراض ، ولكن لم يكن أحد سوى في الخلية يملك سيارة حتى يعيرها ، وكانت بقية ما كان عندي من الماضي البورجوازي البائد فأصبحت أداة من أدوات « الثورة العالمية » ، وكنت أنفق نصف وقتي في الطواف بها عدة مشاوير ، وتأدية مختلف المهام ، من نحو نقل منشورات ، أو توزيع كتيبات ، أو اقتناء أثر سيارات نازية ، أعطيت لنا أرقامها من قبل ، أو أخرج بها أحياناً لحراسة بعض الرفاق في خرجتهم لعمل معين ، وحدث يوماً أن طلب مني نقل أدوات مطبعة يد بكامل أجزائها ولوازمها من إحدى محطات السكك الحديدية إلى مخزن تحت دكان بقال .

وكان أعضاء الرابطة الذين يحيثون لأخذ السيارة تمهيداً لغزواتهم المباغتة ، من الأشرار الذين يعيشون عادة في مواخير برلين و بؤرها الخفية ، وكنت أنبأاً بقرب مقدمهم بإشارة تليفونية أو رسالة شفوية من مقر رئاسة المركز ، ولكنى لم أشهد أشخاصاً منهم يأتون مرتين ، بل في كل مرة يأتى أناس مختلفون عن السابقين ، وأحياناً كنت أوامر بأن أتولى قيادة السيارة ، إذا كانت المهمة بسيطة أو قليلة الخطر ، فكنا ننطلق بها في رفق قبالة بعض الحانات التى يختلف النازيون إليها ، لمراقبة الحال ، أو نطوف بحانة من حاناتنا إذا جاءنا أحد خبرينا الذين يتجسسون لنا على النازيين فأبلغنا أن هناك هجمة مرتقبة علينا ؛ وكانت هذه المهمة ثقيلة على النفس ممجوجة ، فقد جعلنا نكمن عن كشب من الحانة مظفى الأنوار تاركين المحرك دائراً ، وكنت على مقرب سيارة ما أسمع قعقة « سقاطه الأمان » فى مدافع الركاب الذين أتولى قيادة سيارتى لهم ، مشفوعة بهمس فى أذنى أن « طأطى رأسك » ولكن لم يحدث أمانى مرة أن انتهى الاستعداد للإطلاق إلى الضرب فعلاً .

وحدث يوماً أن عهد الذين جاءوا لأخذ السيارة إلى التنكر فى « شقتى » قبل المسير ، فوضعوا شوارب مستعارة ومنساظير على أعينهم ، وارتدوا سترات سوداً ، ولبسوا على رؤوسهم قبعات مثثة الأركان ، ووقفت أرقبهم من نافذتى وهم منطلقون كأنهم سادات أكابر ، فى سيارة صغيرة حمراء ، أو جمع فى جنازة أو سيرموكب ، وقد عادوا بعد أربع ساعات من ذهابهم ، فغيروا ثيابهم ، وانصرفوا بعد أن شدوا على يدى فى صمت مصافحين .

وكانت التعليمات الصادرة إلى أن أقول إذا تمكن البوليس مرة من أخذ رقم السيارة ، خلال غزوة من تلك الغزوات ، أنها سرقت منى وأنى عثرت عليها ملقاة فى شارع مهجور .

وأحياناً كانت الإشاعة تسرى فى حيننا « الربع الأحمر » بأن النازيين منتفون مهاجمته كما سبق أن هاجموا أحياء شيوعية أخرى ، فكنا نقف لهم بالمرصاد ، ويتولى أعضاء الرابطة مهمة الرقابة والحراسة .

وحدث في ذات ليلة رهيبية أن حوت «شقتى» الصغيرة نحو ثلاثين فرداً ، وهم راصدون مدججون بالسلاح والمواسير والهراوات المصنوعة من الجلد «الباسطونيات» واتفق أن وصل في تلك الليلة بالذات صديق لى من « فيينا » يدعى « أرست » للمقام في برلين بضعة أيام ، وكان من العلماء الشباب ، رقيق العاطفة ، حياً ، منزوياً وإن كان حاد الذهن ، ألمعى الذكاء .

وبدت « الشقة » غائمة قائمة من كثافة سحائب التبع الملبدة في أفقها ، والقوم جلوس أو نيام في كل ناحية منها ، فوق السرر ، أو على أديم الأرض ، أو تحت البالوعة في المطبخ ، وسط المواسير الرصاص ، والهراوات وزجاجات الجمعة .

ولما جاء دورى للحراسة في الشارع ، اصطحبت صديقى معى ، فراح يسألنى : لم كل هذا الحشد في مسكنك ؟ ولم يكذب يسمع منى السر ، حتى مضى يقول « أنا عارف ، أنا عارف ، ولكن نبئنى ، ماذا أنت بهذا صانع بحياتك ؟؟ »

قلت بفرح وتهلل : « إننى أعاون في الاستعداد للثورة » .

قال : « إن الأمر لا يبدو لعينى كذلك ؟؟ ولست أدرى لماذا ، لأننى لا أعرف طبعاً كيف تعد الثورات وتتخذ لها الأهمية وتوفر المطالب ، ولكن المشهد الذى رأيته في مسكنك يلوح لى مشهد شرذمة من المساكين ، أو فول جيش مندحر » . وقد أصاب فيما قال ، فقد كنا نعد أنفسنا « طليعة » الثورة ، وإذا بنا فى الواقع « مؤخرة » حركة « عمالية » ممزقة متناثرة .

ولم تمض بضعة أسابيع حتى دبر « فون بابين » انقلابه ، وتمكن ضابط واحد وثمانية جنود من طرد الحكومة الاشتراكية وإقصائها عن الحكم ، ولم يبد الحزب الاشتراكي وقوامه ثمانية ملايين أو يزيدون ، شيئاً من المقاومة ، ولم يحدثوا يومئذ حدثاً ، بل لم نعد النقابات التى كان يشرف الحزب الاشتراكي عليها إلى دعوة العمال إلى الإضراب احتجاجاً ، ولكننا نحن وحدنا ، معاشر الشيوعيين ، الذين انضمنا منذ عام واحد إلى النازيين ، على تلك الحكومة الاشتراكية ذاتها ، نحن

الذين ما فتئنا يومئذ نقول إن الاشتراكيين هم أعدى أعداء الطبقة العاملة ... مضينا ندعو إلى الإضراب العام في الحال ، ولكن الدعوة لقيت أذاناً صماء في جميع أرجاء ألمانيا وربوعها ، فقد فقدت كلماتنا معانيها الحقيقية في نفوس الجماهير ، كما تفقد العملة المتضخمة قيمتها في الأسواق .

وهكذا خسرنا المعركة حيال هتلر قبل أن تبدأ ، وأصبح من الجلي بعد ٢٠ يولية عام ١٩٣٢ لكل إنسان سوانا أن الحزب الشيوعي الألماني ، وهو أقوى الأحزاب الشيوعية في أوروبا كلها ، لم يعد غير عملاق خصي كل كلامه الضخم وزهوه وثرثرته لا تعدو مجرد « تغطية » لإخفاء رجولته المفقودة ، وذكرته الضائعة !

واشتت صحف الحزب بعد اليوم الأول لحركة الإضراب الميئة في المهد تؤكد أن الدعوة إليه كانت وحدها نصراً متردداً للأصداء ، ما دام الحزب الاشتراكي نفسه قد وقف جامداً لا حراك به ، وذهبت تقول إن حزبنا بهذا الإجراء الذي اتخذته ، قد كشف عن خيانة زعماء الفاشية الاشتراكية وغدرهم .

ولم تمض أشهر أخرى حتى انتهى الأمر بنجية تامة ، وظهر في بضعة ساعات أن الأعوام التي انقضت في التدريب على المؤامرات والحركات الفنية والاستعدادات للطوارئ والخطوب ، كانت هباء منثوراً ، وجهداً ضائعاً ، بل تبين أن ذلك « العملاق » خارت ساقاه فانهيار كما ينهار « الجبار » الملقب في « المرافع » أو الكرنفال ، إذ لم يلبث « تالمان » زعيم الحزب ، وأكثر أعوانه أن قبض عليهم في المسكن التي حرصوا من قبل على إخفائها ، واعتقلوا بحملتهم في بضعة أيام .

وتفرقت اللجنة المركزية ، ونزح أهلها من البلاد ، وغمر الليل البهيم ألمانيا بأسرها .

واليوم ، بعد سبعة عشر عاماً ، لا يزال ذلك الليل البهيم مُرخياً عليها سدوله ... !

وأخيراً ، بعد أن تربع هتلر دسيت السلطان ، وألقى « تالمان » في غيابة السجن ،

وذهب ألوف من أعضاء الحزب صرعى ، وسبق بعشرات الألوف إلى معسكرات الاعتقال ، استيقظ الكومنترن وانتبه إلى تبعاته ، وجلس قضاة الحزب في خارج روسيا وداخلها ، مجلس الحكم على « العدو الكامن في الصفوف » وراحوا ينددون بهم ، قائلين عنهم إنهم « أعوان الفاشية وعصاباتا وصنائعها » لأنهم يهيمون ويتبرمون سرّاً بسياسة الحزب ويتسخطون على خطته ، وهى أن الاشتراكي لا يزال العدو رقم ١ للعمال في ألمانيا ، بل مضى أولئك القضاة يحكمون بأن الشيوعية لم « تنهزم » وإنما انسحبت انسحاباً فنياً اقتضته الظروف ، وحتمته الملايسات ...

* * *

ولا يخفى أن ذاكرة المرء تحيط الماضى دائماً بهالات من الخيال لتجميله ، ولكن حين يتخلى الإنسان عن عقيدة ما ، أو تنكشف له خيانة من صديق ، أو غدر من صاحب ، تنعكس العملية ، ويحدث النقيض ، فلا تلبث التجربة الأولى ، أو الماضى ، على ضوء ما انكشف أخيراً وظهر ، أن تفقد طهارتها ، وجمالها القديم وروعيتها ، وتصبح عند استعادة ذكراها سيئة الوقع ، أليمة ، معتمة ، وقد حاولت جهدى في هذه الصفحات أن أستحضر نفسيتى ذاتها التى كنت أحسها في ذلك العهد الذى أروى قصته ، ولكننى أعلم أننى فشلت في هذه المحاولة ، فلا تزال تعالبنى السخرية ، ويتملكنى الغضب والاستحياء ، ويلوح لى أن عواطفى في ذلك الحين تحولت اليوم إلى أضدادها ، وانقلبت إلى حياة أشبه بالحياة التى يحياها « المدمن » الملح على الخدرات ، وليس الذين وقعوا في أحبولة هذه « الخدعة » الكبرى التى ظهرت في عصرنا الحديث ، وعانوا من فجورها وأضرارها ، وخاضوا مواجهها وعذاباتها ، فاستسلموا لإدمان جديد وإلحاح على بخدر آخر ، من نوع مختلف ، أو قدر عليهم أن يعيشوا إلى الأبد في « خمار »^(١) دائم ، إلا المقابر المتحركة لأصحابهم القتلى وإخوانهم المضرجين ، بل هم المتخذون من أكفان زملائهم أعلاما وبنوداً . .

(١) الخمار على وزن دوار تأثير الخمر في الصباح .

ومن هنا رأينا كيف يتأبى هؤلاء المدمنون على كل علاج ويقاومون جاهدين
الدواء الذي يشفيهم من الداء ...!

وفي أوائل صيف عام ١٩٣٢ رخص لي أخيراً بجواز سفر إلى روسيا ، وقد ظفرت
به بناء على دعوة وجهت إلى من « الهيئة الدولية للكتاب الثوريين » للطواف
بها ووضع كتاب عنها ، واقترح أن يكون عنوانه « أرض السوفييت كما تراها عين
بورجوازية » ، وأن يكون هدفه أن يصف مسيوك ... المراسل « البورجوازي »
المعروف بتحيزه ضد السوفييت ، كيف زار تلك البلاد فلم يلبث أن عدل عن رأيه
الأول فيها وتحول إلى الإعجاب بها ، عقب مشاهدة ثمرات الإنشاء والتعمير خلال
السنوات الخمس الأولى ، وكيف أصبح « الرفيق ك ... » بعد أن كان بالشيوعية
من الكافرين .

وسافرت إلى روسيا ، قبل استيلاء هتلر على زمام السلطان في ألمانيا بستة أشهر
مزوداً بتوصية إلى الرفيق جوبنر الذي كان يومئذ يرأس قسم الدعاية في اللجنة
التنفيذية للشيوعية الدولية في موسكو ، كما زودتني هذه اللجنة بكتاب « تركية »
تطلب فيه إلى جميع السلطات السوفييتية مساعدتي على تأدية « مهمتي » كمندوب
من قبل « الهيئة الدولية للكتاب الثوريين » .

وكان كتاب هذه اللجنة في روسيا أشبه في قوة تأثيره « بمرسوم » أو قرار^(١) ،
فلا عجب إذاً هو ذل لي السفر والتجوال في تلك البلاد حراً طليقاً لا أجد عقبة أو
حائلاً ولا أحتاج في نقلتي وتطوافي إلى مرشد أو دليل ، كما أعانني على الظفر بتداكر
السكك الحديدية دون الوقوف في الصف ، والحصول على أما كن للنوم في « المضاييف »
الحكومية ، وعلى الطعام في المطاعم المخصصة للموظفين المدنيين ، بل لقد يسر لي
أيضاً دفع نفقات أسفاري ، من عدة الألوف من « الروبلات » التي اجتمعت لي في
نهاية مسامي .

(١) أو « ديكريتي » في الأصل .

وقد جرت الرحلة كما يلي :

كنت كلما وصلت إلى إحدى عواصم الأقاليم ، كمدينته «تفليس» مثلاً ، قصدت إلى دار الهيئة الدولية للكتاب الثوريين فأبرزت لها كتاب « التوصية » الذى كان معى ، وإذا بالسكرتير يبادر إلى إعداد المآدب والولائم والاجتماعات بالزعماء السياسيين وأفراد الطبقة المستنيرة فى المدينة ، وتعيين من يرافقنى ويوفر وسائل الراحة لى ، ويقدمنى إلى رئيس تحرير المجلة الأدبية ، ومدير شركة النشر الحكومية ، وهى فى تفليس تدعى شركة النشر التابعة لجمهورية « الكرج » السوفيتية .

وحين لقينى رئيس تحرير المجلة مضى يقول مرحباً بى إنه كان من أعز أمانيه منذ عدة سنين أن ينشر لى شيئاً بقلأى ، فلسفته صورة من قصة لى كنت قد نشرتها فى ألمانيا منذ حين ، فإذا بى ألتقى منه فى اليوم ذاته شيكا ببضعة آلاف روبل ، أرسله إلى الفندق الذى كنت أقيم به .

وفاتحنى مدير النشر فى أمر السماح له بنشر ترجمة الكتاب الذى انتويت وضعه ، وقدم لى «أورنيكا» مطبوعاً يتضمن صيغة « اتفاق » على النشر ، وبعث إلى بشيك ببضعة ألوف أخرى ، وكان معدل أجر العامل يومئذ مائة وثلاثين روبلا فى الشهر . وهكذا بعث حق طبع هذه القصة ذاتها لثمانى مجالات أو عشر فى المدائن المختلفة بين ليننجراد وطشقند ، وبعث حقوق طبع كتاب لم أضعه بعد لشركات طباعة روسية ، وألمانية وأوكرانية وكرجية وأرمنية ، وتقاضيت دفعات سلفاً تبلغ حدود ثروة كبيرة ومال لا يستهان به .

وهكذا وجدت تشجيعاً بالغاً من السلطات السوفيتية الرسمية ، كما وجد غيرى أشباهه ونظائره منها ، فلم يخالجنى يومئذ الشك فى أن روسيا السوفيتية هى جنة الكاتب ، وفردوس الأديب ، وأن ليس فى العالم بلد آخر أسخى منها على الفنان ولا أجزل عطاء ، ولا أوفر إكباراً وأحسن تقديراً ، ولم يخطر بخلدى يومئذ ، كماهى طبيعة البشر ، أن تلك العقود التى أبرمت معى ، والأموال التى صرفت مقدماً لى ، لم تتم معى

لسمعتي الأدبية ، وإنما جرت لأسباب أخرى ، إذ لم أكن إلى ذلك الحين قد أخرجت
كتيباً ، أو ظهرت لي في السوق مؤلفات ، بل كان اسمي لا يزال « نكرة » لا يعرفه
أحد من سخواً على بتلك الأموال لقاء قصة لم يقرأوها من قبل وكتاب لم يوضع بعد ،
وإنما كانوا في الواقع موظفين ينفذون « التعليمات » ، فإن الكتاب والناشرين والنقاد
الفنيين في بلد أصبح كل ما ينشر فيه ملكاً للدولة لا يلبثون أن يحسبوا هم أيضاً جزءاً
من الأداة الحكومية ذاتها ، فهي تستطيع أن ترفع كتاباً أو تضعه ، طبقاً للتعليمات
التي تصدر إليها من طريق الناشر ، بطبع عدة ألوف من كتابه ، أو مواراة كتبه
الماضية ، ومن طريق الناقد ، تستطيع أن تسميه « تولستوى » الجديد ، أو تصفه
بأنه أسخف السخفاء ، أو تجمع بين الوصفين ، في بضعة شهور .

وقلما يدري الكاتب الطارئ على روسيا شيئاً من ذلك ، أو يشعر به ، والقليل
الذي يحزره أو يتشكك فيه أو يستريب به ، لا يلبث الغرور أن يغالبه فيجعله
ينساه أو يتناساه ، إذ يبدو له من المسآدب والولائم التي تقام لتكريمه أن جميع الذين
يلقاهم فيها يعرفون كتبه عن ظهر قلب ، فمن أين يدري أن ذلك كله إنما اصطنع له
اصطناعاً ، ودبر لحادثته تدييراً ، إلا أن يكون فطنا إلى أبعد حد ، أو متشككاً فيهم
كل ما حوله ، ولا يصدق ما يحيط به من شيء .

فلتتصور مثلاً أن لجنة النشر عرضت على الكاتب توقيع اتفاق معه على كتابه
القادم ، وأعطته « عربوناً » يغطي عمولته في بيع مائة وخمسين ألف نسخة فإن كان
أمينا ، استحميا من هذا الإغداق قائلًا إن هذا القدر هو خمسة عشر ضعفا لعدد النسخ
الذي ينتظر الكاتب الغربي الذائع الصيت أن يحاسب عليه ويعطى عنه « عربوناً »
قبل انتهاء البيع ، ولكن الناشر عفتدئ سيبتسم ابتسامة ساخرة وينثنى يقول له هذا
هو ما يفعله الناشرون في البلاد « الرأسمالية » ولكننا هنا لا نفعل ذلك مع الكتاب
والمؤلفين ، ولا تنس أيضاً أن جميع هيئات الطباعة والنشر في الاتحاد السوفيتي ملك
للدولة ، وأن الفرد الواحد فيه أكثر شراء للكتب من الفرد العادي في أمريكا

بنسبة ٢٣٠ من مائة في المائة ، وأن هذه النسبة ستصل في نهاية مشروع السنوات الخمس الثانية إلى ٣٦٥ في المائة أو تتجاوزها بكثير ، فلا عجب إذا رأينا الكتاب المُكرَّمين في روسيا السوفيتية لا يسكنون في السطوح كما هو شأن الكتاب في البلاد الرأسمالية ، بل يقيمون في « شقق » ذوات غرفتين ، ولهم مغسل مستقل ، وحمّام بديع ، بنّاء السيارات الخاصة ، والزوارق الفخمة أو « الذهبيات » في موسم الصيف . وقد يستاء الكاتب القادم إلى روسيا من تلميح مدير النشر لسكنى السطوح ، ولكنه لا يلبث أن يهدأ ، قائلاً لنفسه إنه لا موجب لهذا الاستياء ، لأنه ليس سوى زهو صغير أولى به أن يترفع عنه فلا يني في توقيع العقد ، ويعود بعد أيام إلى بلاده فيعلن على رهوس الإشهاد أنه ليس في الدنيا بلد أكثر من روسيا السوفيتية تقديراً لأهل الفنون ولا أكبر إجلالاً لشأن الكتاب وأرباب الأقلام .

وأما المال فلا يستطيع أن يأخذه معه روبلات لأنه غير قابل للتحويل إلى العملة الأجنبية في الخارج ، ولكنه قد يشتري ببعضه سجاجيد من صنع « بُخَارَى » ويودع الباقي في بنك الدولة بموسكو ، فإن المرء ليشعر بشيء من اللذة إذا هو ترك بيضة تفريخ في بلد يشغل سدس مساحة العالم . ولكن في بعض الحالات الاستثنائية ترخص لدار الطباعة والنشر الحكومية أن تحول جزءاً من هذا المال إلى العملة المتداولة في بلد الكاتب الأجنبي وترسله إليه على أقساط شهرية ، وأعرف كاتبين من الألمان المبعدين يقيان في فرنسا ويتلقيان منذ سنين « شيكات » شهرية من هذا النوع ، وإن لم يكن لأحدهما كتاب مطبوع في روسيا إطلاقاً ، وإنما كانا من الناقدين المشتهرين في الحملة على الديمقراطية وفسادها ، ولم يكتب أحدهما كلمة نقد واحدة في حياته ضد النظام السوفيتي ، ولست أعني بهذا أنهما كانا يتقاضيان « رشوة » من الروس ، لأننا لا نعالج هنا الكلام في هذه الوسائل الساذجة وأمثالها ، وإنما نحن نتحدث عن الشعور الداخلي الخفي الذي يهمس لنا بأن الفاشيين في دنيا الرأسمالية حيتان مفترسة ، لا يهمهم ما يكتبه الكاتب ، مادامت كتبه رائجة في السوق ؛ بينما نرى

الناشرين في الاتحاد السوفيتي هم الشعب السوفيتي نفسه ، الذي لا يرتضى بالطبع نقداً يوجه إلى بلده الحر .

وإذا قيل إن روسيا جنة الفنان ، وفردوس الأديب ، فلا تنس أن في هذه الجنة أشجاراً « محرّمة » يقوم على حراستها ملائكة ذوات قلانس مديبة ، وتحمل سيوفاً مرهفة حداداً ...

— ٦ —

وأقت في الاتحاد السوفيتي عاماً كاملاً ، قضيت نصفه متجولاً طائفاً ، وأنفقت النصف الثاني منه في خركوف وموسكو منكشاً في وضع كتابي ، وقد صدرت منه فعلاً طبعة ألمانية في خركوف بعنوان مختلف عن العنوان الذي اقترح عليّ ، أما الطبعات الروسية والكرجية والأرمنية وغيرها فلم تشهد الضياء أبداً .

وانتهى بي المطاف في سفرى إلى المناطق الصناعية القائمة على طول ضفاف نهر « الفولجا » ثم جنوباً إلى أوكرانيا ، ومنها كان اجتيازي الجمهوريات القوقازية ، وأعني بها الكرج وأرمينيا وأذربيجان وباكوا ، حيث مضيت أعبر بحر قزوين وأخترق أراضي جمهوريات آسيا ، كتركمانستان وأزبكستان حتى وصلت إلى حدود الأفغان وانتقلت منها إلى طشقند وكرا كستان عائداً أدراجي إلى موسكو .

وكان ما شاهدته وعايينته بنفسى في تلك النقالات صدمة لى ، ولكنها في الواقع كانت صدمة بطيئة الأثر ، لا يبدو فعلها إلا بعد حين ، فإن تربيتى الحزبية قد زودت عقلى بمواجز واستحكامات مطاوعة وتحصينات مرنة تقيه الصدمات ، وترد عنه المؤثرات ، فلا يهز ما أراه أو أسمع شيئاً من فكرتى الأولى ، أو يزلزل اعتقادى أو يحول نفسى عما أشر به من قبل أدنى تحويل .

وكنت أتكلم الروسية بطلاقة لا بأس بها ، ولكنى على الرغم من سفرى بمفردى لم أجد مجالاً للكلام بها والتدرب على الحديث بأساليبها مع الناس ، خلا المعارف الرسميين ، وقد بدا لى أن المواطن الروسى العادى يشعر بأن ظهوره على أعين الملاء

وهو يتحدث بالروسية إلى أجنبيٍّ أمر معيب ، وفعلة خطيرة ، كلمس الأرض ، أو مصافحة المجذوم .

أما الذين كانوا يتحدثون معي في المطاعم أو مركبات السكك الحديدية فقد كانوا لا يخرجون في كلامهم عن اللوازم والعبارات المتكررة « والكليشيات » المعتادة في المقالات الافتتاحية في صحيفة « البرافدا » ، حتى ليخيل للمرء أنهم يرددون نصوصاً بأعيانها ، ويتلون قطعاً إنشائية محفوظة .

وقد سجلت ذلك كله عندي موافقاً مرتضياً ، لأنه بدا لي يومئذ كعلامة طيبة على يقظة بلشفية تامة وأخذ بروح النظام الثوري .

وشاهدت بعيني ما فعلته المجاعة في أوكرانيا خلال الفترة بين ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ، إذ أبصرت بأسر وعشائر تتسول في محطات السكك الحديدية ، وهم في أسمال بالية ، ورأيت النساء يرفعن إلى المركبات ولدانهن الساغبين ، وهم في منظرهم الأليم ، سيقان كالعصى ، ورءوس كبيرة كجراح الموتى ، و بطون ضامرة ، يلوحون أشبه « بالأجنة » أو « السقط » الموضوع في الزجاجات الملأى بالكحول ، وبدا الرجال بين تلك الجموع في أحذية ممزقة ، تلوح منها أطراف أقدامهم التي هراها الجليد .

وقيل لي إن أولئك هم « الكولاك » Kolak الذين رفضوا الزراعة الجماعية في البلاد فارتضيت هذا التعليل ، فهم إذن أعداء الشعب الذين آثروا التسول على العمل .

ورأيت الخادم التي كانت تشغل في فندق ريجينا الذي نزلت به في « خركوف » يغمى عليها من شدة الجوع وهي تنظف غرفتي ؛ وأنبأني المدير أنها قدمت أخيراً من الريف ، وأنها لم تتلق بطاقة جراتها إلى الآن ، بسبب بعض الإجراءات الفنية ، فلم يسعني إلا قبول هذا التفسير .

ولم أستطع أن أتجاهل بشجاعة ما رأيته على الحياة الأسبوعية في تلك الأصقاع من التخلف والانحطاط ، وما كان يلوح على الناس من الفتور والخلاء من الشعور

في زحمة الشوارع ، ومركبات الترام ، والقطر الحديدية ، ومشهد المساكن وسوء ما هي فيه إلى حد لا يكاد المرء معه يصدق عينيه ، مما جعل المدن الصناعية تلوح أشبه شيء « ببؤرة » واحدة مترامية المدى ، إذ كان كل اثنين أو ثلاثة أفراد يشاركون في حجرة واحدة ، يفصل جزءاً منها عن الآخر ملاءة أو غطاء منشور على حبل غسيل .

وتبينت ضالة الجرايات التي كانت توزعها الجمعيات التعاونية ، وعلمت أن سعر الكيلو من الزبد في السوق الحرة يوازي أجر العامل العادي في شهر كامل ، وثمن الخذاء أجر شهرين .

ولكني لقيت أن أقدر الوقائع تقديراً لا أنظر فيه إلى الظواهر ، ولا أراعي فيه التفكير الجامد والعقيدة الراسخة ، بل تنبغى فيه الموازنة ، والتمشي مع الزمن ؛ فإذا كان مستوى المعيشة منخفضاً كما رأيت ، فلا يصح أن أنسى أنه كان على العهد القيصري أدنى من ذلك وأشد انخفاضاً ، وأنه إذا كانت الطبقات العاملة في البلاد الرأسمالية أحسن حالاً منها في الاتحاد السوفيتي ، فإن هذه الموازنة بعيدة عن الصواب ، جامدة لا تتمشى مع الظروف وقرائن الأحوال ، لأن المستوى هنا في روسيا أخذ في الارتفاع ، بينما هو هناك مستمر في الهبوط ، وأنه لا تنقضي السنوات الخمس التي أعد لها المشروع حتى يتوازي المستويان ، وتتعاادل الحالتان ؛ فلا معدى إذن عن القول بأن كل مقارنة قبل أن يتم ذلك ويقع فعلاً ، هي مقارنة مضللة ، بل ضارة بالروح المعنوية في الشعب السوفيتي .

فلا عجب إذا أنا لم أقف عند قبول الجماعة الضاربة أطنابها في البلاد كأمر لا سبيل إلى تجنبه ، بل ارتضيت أيضاً حكمة الخطر المفروض على منفر الأجانب وتنقلهم في أرجائها ودخول الصحف والكتب الأجنبية إليها ، وكل ما يراوده تشويه حقيقة الحياة الروسية في الخارج .

وقد عجبت العجب كله في بداية الأمر ، عقب أن أقيمت محاضرة ، أن راح

السامعون يوجهون إلى أسئلة كهذه : هل سحبت بطاقة جرائتك عند ما تركت العمل في الصحف البرجوازية ، وركلت ركلاً من الغرفة التي كنت فيها مقياً ؟ وما هو متوسط عدد الأسر التي تموت في كل يوم من المجاعة في مدن فرنسا وأقاليمها ؟ وما هي الوسائل التي تذرّع بها رفاقنا في الغرب ولو إلى حين في قطع السبيل على الرأسماليين الذين راحوا يعدون العدة لحرب الوسايط ، ويستعينون عليها بالخنونة من الفاشيين الاشتراكيين في الطبقة العاملة ؟ ؟ ؟

وكانت هذه الأسئلة ونحوها تصاغ دائماً في الأسلوب الروسى الجديد الذى ابتدعه جوجاشفيلي^(١) ولكنى لم ألبث ان وجدت لها طبيعة لا غرابة فيها ، لأن فيها عنصراً يسيراً من الحقيقة ، ولكنها مبالغ فيها طبعاً من أثر الدعاية ومحاولاتها .

ولكنى كنت أقول لنفسى إذا ما تذكرت الدعاية وأقانيها إن هذه الوسيلة لا غناء عنها لنجاة الاتحاد السوفيتى ، ما دام قد أحيط بعالم كاره له ، ودنيا تمقته ولا تسيغه . وقد تبدو الأكدوبة الضرورية ، والغيبة التى لا بد منها ، والتخويف الذى لا مفر منه ، لمل الجماهير على التوقى من الوقوع فى الأغلاط ، والتهافت على المحافات ، والتصفية اللازمة للمعارضين ، والقضاء التام على الخصوم والمقاومين ، والتضحية المحتومة بجيل كامل لمصلحة الجيل الذى بعده — كل أولئك قد يبدو بشعاً منكراً ولكن كان من السهل قبوله وارتضاؤه ما دام المرء منطلقاً مع إيمانه ، سائراً على هدى عقيدته ؛ وهو ما حدث فعلاً مثله فى التاريخ ، ووقعت أشباه له ؛ فى تاريخ الكنيسة عبر القرون الوسطى جرى شئ منه ، وفى بيزنطة ، بل فى «الخلوة» على أيام الصوفيين أولئك الصوفيين ؛ وإن كان من الصعب فى عالم الإدمان والمدمنين أن يشرح أحد للغريب عنه الذى لم تحوه دائرة السحر ، ولم يجرب شيئاً من تجاربه ، هذا الذى بدا لى يومئذ مقبولا على علاقته ، لا بأس منه ولا ضير . . .

(١) ستالين كما مر بك .

وغادرت روسيا السوفيتية في خريف عام ١٩٣٣ ، ولكن بقيت في الحزب أربعة أعوام أخرى ونصف عام حتى أوائل ربيع ١٩٣٨ حين ترزّل إيماني زلزالاً شديداً ، وإن بقيت بطيئاً في إدراك الأثر الذي حدث في نفسي ، لكثرة الحواجز والاستحكامات التي كانت مقامة في أطواء جوانحي ، لاستيعاب كل صدمة ، وامتنع كل مفاجأة ، كما جاءت عدة أحداث خارجية ، وعرتني جملة أحاسيس ، فأعانتني على المضي في طريقي والبقاء في الحزب ، وأخرت الهزة الأخيرة ، والقطيعة الفاصلة .

وكان أهم تلك الأحداث انعقاد المؤتمر السابع للشيوعيين في عام ١٩٣٤ ، فقد وضع المؤتمر سياسة جديدة تنافي السياسة القديمة على خط مستقيم ، ولكن تتولى الزعامة ذاتها مهمة التنفيذ ، كما هي العادة ، وكانت الخطة الجديدة تقضي بوضع العبارات القديمة والكليشيهات الثابتة ، وكل ما كان يشير إلى صراع الطبقات ، ودكتاتورية البروليتاريا « في مخزن » الأشياء البالية ، والمخلفات المهلهلة ، والاستعاضة عنها بواجهة طريفة مبتكرة مزدانة بالأزهار والرياحين ، تدعى « الجبهة الشعبية للسلام ومناهضة الفاشية » ، وفتحت أبوابها على مصاريحها لكل الأخيار وسلمى النية من اشتراكيين وكاثوليك ومحافظين ووطنيين .

واقترض النهج الحديث الاستخفاف بالفكرة القائلة إن الشيوعيين ينادون بالثورة والعنف ، ووصفها بأنها كلام مزيف أريد به التخويف والتنفير منها ، ووشاية دسها على الشيوعية الرجعيون من طلاب الحرب والمحرضون على إثارة نيرانها .

وهكذا لم نعد ندعو أنفسنا « بلاشفة » ولا « شيوعيين » أيضاً ، بل بدأ الحزب ذاته يعبس ويتجهّم كلما سمع هذه الكلمة تجرى على ألسنة العامة وأفواههم قائلاً إننا لسنا إلا قوماً صرحاء أمناء محبين للسلام كارهين للفاشية ، ذادة عن الديموقراطية ومناضلين ..

واثنى الزعيم الشيوعي المحضرم ، ونعنى به مارسيل كاشان، في يوم ذكرى تخطيط «الباستيل» ، يعانق في قاعة بلييه في باريس ، وسط عدة ألوف من المهتافين والمتحمسين ذلك الثعبان الخبيث «ليون بلوم» الزعيم الفاشي الاشتراكي ، ويقبل خديه ، فما كان من نصف النظارة إلا أن بكوا ومضى نصفهم الآخر ينشد «المارسيليز» ويعقبه بالنشيد الدولي .

وهكذا اتحدت أخيراً الطبقة العاملة مرة أخرى ولم تلبث الجبهة الشعبية في انتخابات عام ١٩٣٦ التي جرت في كل من إسبانيا وفرنسا أن ظفرت بفوز مبین . وكان ذلك كله نتيجة مباشرة للتغيرات التي طرأت على سياسة روسيا الخارجية ، كدخول الاتحاد السوفيتي في عصبة الأمم ؛ وانتصار سياسة لتفينوف ، والميثاقين اللذين عقدا بينه وبين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ؛ واليوم ونحن نعود بالذاكرة إلى الماضي لتأمله بعين الحصر لا نلبث أن نشعر بأن عهد تلك الجبهة الشعبية كان مشوباً بالخيانة المستهترة ، والخديعة الجريئة المستنكرة ، التي كانت تختفي خلف واجهة حسنة ظاهرة ، وأن ذكرياتها ملأى بنتائج سيئة ، وأحداث وعبر مريرة ، وإن بدت يومئذ وقبل انكشاف حقيقتها قوية ذات سحر خلاب ، ولاحت بحجة غامضة ، كبعض التصوف ، أو المذاهب الدينية الغريبة .

أما في تقديري فقد كانت شهر العسل الثاني بيني وبين الحزب الشيوعي . وعند ما كنت مقياً في روسيا ، صعد هتلر ذروة السلطان في ألمانيا ، فلم ألبث في خريف عام ١٩٣٣ أن انضمت إلى أصدقائي في الحزب الذين كانوا يومئذ مقصيين في باريس ، وكان أصحابنا الذين يسكنون «الربع الأحمر» قد توافوا إليها ، خلا الذين استطاع الجستابو القبض عليهم ، وكان الناجون قد نزلوا في الفنادق الصغيرة المنتشرة على الضفة اليسرى لنهر السين .

وكانت السنون الخمس التالية أعوام شقاء لي ومسغبة ، لم يعزني عنها غير النشاط السياسي الذي غمرني موجته ، وكان مركز هذا النشاط وقطب رحاه صديقي «ويلي

منزهرج » ، وكان رجلاً قصير القامة ، بدينًا ، من أصل « بروليتارى » ، وقد أوتى شخصية لها فعل السحر أو أشد ، وفتنة مغرية فعالة بالغة . وفى عام ١٩٣٨ انشق على الكومنترن ، أى بعد خروجى بستة أشهر ، وقضى نحبه مقتولاً فى صيف ١٩٤٠ . ولا يزال قتلته مجهولين ، ولم يهتد أحد إلى أدلة قاطعة ، وإنما عرفت قرائن غير مباشرة ، ولكنها تتحد جميعاً اتحاداً واحداً ، كما تتجه إبرة المغناطيس إلى القطب .

وكان « ويلي » الشخصية الحمراء البارزة فى الحركة الدولية ضد الفاشية ، والبيانات التى أذيعت فى باريس ولندن عام ١٩٣٣ . ونهبت أذهان العالم كله يومئذ إلى فظائع الأحداث التى اقترفها الريخ الثالث .

وتلت ذلك سلسلة « الكتب السود » وهى طوفان من الرسائل والمناشير والصحف التى كان ويلي يقولى الإنفاق عليها وتوجيهها . وإن لم يظهر عليها اسمه . كما مضى يؤلف لجائناً « دولية » وينظم عقد مؤتمرات . ويقوم بحملات وحركات مختلفة . كما يخرج « الحاوى » أرناب من قبعته : كلجنة الترفيه عن ضحايا الفاشية . ولجان الإشراف والرقابة الديمقراطية . ومؤتمرات الشباب الدولية وما إليها . وكانت كل هيئة من هذه الهيئات تحوى جموعاً من أهل الخطر والمكانة . بين دوفات من الإنجليز . إلى كتاب كبار من الأمريكيين . والعلماء الفرنسيين . وكان أكثر هؤلاء لم يسمعوا باسم « مونزهرج » فى حياتهم ، وكانوا يحسبون أن الكومنترن لم يكن سوى « ببيع » اخترعه جوبلز وابتدعه .

والواقع أن مشروعاته أمست محيرة مذهلة . بعد التغيير الذى طرأ على الخطة العامة . تنفيذاً للقرار الذى اتخذته « المؤتمر السابع » وظهور فجر « الجبهة الشعبية » ؛ وهو الذى أشرف على تأليف « لجنة السلام » المناهضة للفاشية . وهى الحركة التى كانت تدعى « حركة أمستردام — بلييل » والتى كان يرأسها « باريوس » كما ألف « جمعية الكتاب » للدفاع عن الثقافة . ولجنة التحقيق فى أسباب الخلافات غير القانونية لنصوص

اتفاق الامتناع عن التدخل في مسألة أسبانيا ، وغيرها من الهيئات الدولية « الفطرية »
السريعة النمو ، والعاجلة الفناء ، كأعشاش الغراب .

فقد كان مونزنبرج عبقرياً في التنظيم والتنسيق والتسيير والترتيب ، وداعية
موهوباً من أكبر الدعاة لا يتردد في عمل يوحى الخاطر به ، ولا يتوسوس في وسيلة
من وسائله ، إلا كما ينتظر أن يتردد الرجل الذي يريد الاحتفاظ بمركزه وسط دسائس
الكومنترن ومكايده الموهوبة . ويوم يكتب تاريخ هذا الرجل ، سوف يكون من
أعجب الوثائق في كشف أسرار الفترة التي وقعت بين الحريين العالميتين ورفع السدول
عن خباياها العجيبة وخفاياها المدهشة .

وقد اشتغلت معه في بداية العام في المنفى بباريس ، وخلال محادثات الريشتاغ ،
وشيوع « الكتب السود » ، وعدت أعمل معه في الحرب الأسبانية ، وأخيراً في عام
١٩٣٥ بعد اختلافه مع الكومنترن . حين أصدرنا معاً صحيفة « دى زوكونفت »
وهي صحيفة مناقضة للنازية وغير معادية لستالين . أما الفترات التي تحلت تلك العهود
فقد قضيتها في العمل كصحفي طليق وتوليت تحرير صحيفة هزلية للحزب خلال الحملة
التي نظمت للاستفتاء العام في منطقة « السار » . ولكن الحزب وقفها عن الصدور
بعد العدد الأول لمجونها البالغ ، وهزلها المكشوف . واشتغلت في ملجأ لرعاية أطفال
العمال الشيوعيين الذين يعملون في الحركة السرية بألمانيا . وانتقلت منه إلى « وكالة
أنباء » يتولى إخراجها « إليكس رادو » الذي أصبح فيما بعد من أكبر رجال
الخبرات العسكرية الروسية في سويسرا ثم قضى عليه في روسيا عقب الحرب الثانية
وكنت مديراً لمعهد دراسات في الفاشية . كان بمثابة دار محفوظات وبحوث ضدها .
يشرف عليها الحزب الشيوعي ، ويتولى رقابتها الكومنترن ، ولكنه لا يمدحها بالمال .
وكان العام الذي قضيته في ذلك المعهد عاماً مليئاً بحماسة ومسغبة ، وسعادة أيضاً ؛ فقد
كانت الفكرة التي رمينا إليها من إنشائه إقامة مركز للبحث الجدى في دخيلة الحزب

القاشى وحققته . بعيداً عن الوسائل التى تتوسل بها لجان منزبرج وتشكيلاته ؛ وكنا نتلقى هبات ومعونات من نقابات العمال والجمعيات الأدبية والعلمية فى فرنسا ؛ وكنا نعمل جميعاً بلا أجر . وقد تبلغ ساعات العمل فى اليوم عشراً أو اثنتى عشرة أحياناً . وكان المكتب الذى استأجرناه رقم ٢٥ شارع بيفون يحوى لحسن الحظ مطبخاً . فكان أعضاء المكتب يتناولون فى كل ظهر حساء كثيفاً من نقيع الفول . وكان هذا هو غذائى الأوحده عدة أسابيع . وكنت يومئذ أسكن فى « طبقة » فى حى آهل بتلامذة « رايون دونكان » وهو حى « ميدون فال فليرى » . إذ كان هذا هو المسكن الأوحده الذى أستطيع فيه النوم دون دفع أجرة . وإن اقتضى السير على قدمى عدة أميال فى اليوم غادياً راحاً بين المكتب وذلك المسكن المجانى الحفير .

ولكن العمل كالعقار المؤثر ، وله فعل الخدر . وأن يستشعر المرء منا أنه إنما يعمل عملاً صالحاً وهو فيه الجهول ، ويفنى فيه عصارة نفسه ، وهو المضحى الذى لا يعرفه أحد — خير وسيلة وأقوى ذريعة لإرضاء الضمير أو « رشوته » .

ولم تلبث تصرفات العهد الجوجاشفيلى ^(١) ومساوى حكمه ، وأداة الكومنترن وشنائعها ، أن توارت ولم يعد شىء جديراً بالاهتمام منا غير محاربة النازية ودرء خطر الحرب ، ولم أكن أدري يومئذ أنها كانت محاربة « صورية » وأننا كنا فيها مجرد ظلال وأشباح .

وقد أعاننى عامل نفسى آخر على مواصلة العمل فى خدمة الشيوعية عقب عودتى من روسيا ، وهو الاعتقاد الذى كان يشاركنى فيه صفوة صحبى وخيرة أصدقائى الذين تركوا الحزب اليوم أو فصلوا منه فقد كنا معصوبى الأعين ، ولكننا لم نكون عمياناً ، ولم يكن أشد المتعصمين للشيوعية بيننا يستطيع أن يغفل عن الواقع الملموس أمامنا ، وهو أن حركتنا لم تكن تسيير بخير ، ولكننا مع ذلك لم نحاول يوماً أن ننحاجى

(١) أى عهد ستالين .

أو نتكشّف بما كان يخالفنا من الشعور بأن الحزب لا يحتاج إلى تطهير من الخارج ، بل هو أحوج ما يكون إليه من الداخل .

وأنت قد تستطيع أن تستقيل من ناد أو من حزب عادى إذا لم تعد سياسته تروقك ؛ ولكن الحزب الشيوعى كان شيئاً يختلف عن سائر الأحزاب كل الاختلاف ؛ فقد كان بمثابة المقدمة أو الطليعة من الطبقة الكادحة أو إرادة التاريخ ذاته مجسمة ماثلة ؛ فإن أنت خرجت عليه عددت طريداً أو منبوذاً « خلف الأسوار » ، ولن يكون لأى كلام تقوله أو عمل تحاوله أمل ما فى تغيير مجراه أو إحداث أثر فيه ، فمن الخير لك أن تبقى فى حظيرته ، مقفلاً فك خفياً مضضك ، مرتقباً اليوم الذى تصبح فيه روسيا والكومنترن بعد دحر عدوهما وانتصار الثورة العالمية ، على استعداد لأن يصبحا « ديمقراطيتين » ؛ وعندئذ يصح أن يدعى الزعماء للمحاسبة على تصرفاتهم ، من هزائم كان ممكناً تجنبها ، وتضحيات لم يكن شىء يستوجبها ، وحملة دسائس ومكائد قضت على خيرة رفاقنا وذهبت بأرواح الصفوة من إخواننا .

أما قبل هذا اليوم المرتقب ، فما عليك إلا أن تؤدى لهذه اللعبة حقها ، فتؤكد وتنق وتقول وتردد ، وتأكل كلامك أكلاً ، وتعلق بصقتك لعقاً ، فذلك هو الثمن الذى قضى عليك أن تدفعه لى تظل تشعر بأنك النافع المجدى ، ولى توفر على نفسك احترامها ...

— ٨ —

وفى الثامن عشر من شهر يولية عام ١٩٣٦ كان الجنرال فرنكو قد أعد العدة لإحداث « انقلابه » فذهبت لزيارة « ويلي منزنبرج » وطلبت إليه أن يساعدنى على الانضمام إلى جيش الجمهورية الاسبانية ، وكان ذلك قبل أن يتم تأليف « الفرقة الدولية » وكان معى جواز سفرى ، وهو جواز « مجرى » ، فنظر إليه ويلي نظرة شاردة ، ولم يكن يرتضى — وهو الداعية البارع — فكرة ذهاب الكتاب وحملة الأقلام إلى

الميدان وإضاعة وقتهم في حفر الخنادق ، وكانت مع جوازي بطاقتي الصحفية
كمراسل صحيفة « البسترلويد » في باريس ، ولم أكن كتبت لتلك الصحيفة
كلمة واحدة قبل ذلك ، ولكن كل صحفي مجرم يحترم يقيم في باريس يملك
ببطاقة صحفية من أية جريدة في الحجر ، حتى يستمتع بتذاكر المسارح والسينما
دون مقابل .

ولم يلبث أن خطف ضياء غريب على عين صديقي ، كما قد خطرت له
فكرة جديدة .

قال : « لماذا لا تقوم برحلة إلى مقر رئاسة فرنكو كمنسوب عن صحيفة
« البسترلويد » ؟ ؟ فإن الحجر تكاد تعد بلدا « فاشيا » وأكبر ظني أنهم مرحبون
بك متقبلوك بالعناق والأحضان » .

ورافقتني الفكرة أنا أيضاً ، ولكن تنفيذها لم يكن يخلو من بعض الحوائل
والعقبات ؛ فأولاً إن الجريدة ذاتها لن تسمح مطلقاً بإيفادي ، ولكن ماذا يمنع من
أن أسافر دون علمها ، وما حاجتي إلى إبلاغها النبأ ومكاشفتها بالنية ؟ ولست أحسب
أحدًا سيحفل بي في غمرة حرب أهلية كهذه بمراجعة أوراق اعتمادى والتثبت منها .
وثانياً أن بعض مراسلي الصحف الأجنبية الأخرى سيشتكون في الأمر ولا يصدقون أن
صحيفة مجرية فقيرة كهذه توفد مراسلاً خاصاً إلى أسبانيا ، ولكن هذه العقبة أيضاً
أمكن التغلب عليها ، فقد كان لي صحاب وأصدقاء في جريدة « النيوز كرونكل »
في لندن ، وكانت الكرونكل شديدة الحملة على فرنكو عنيفة في نقده ، فلا أمل
في السماح لأحد مراسليها بدخول المناطق التي قامت فيها الثورة ؛ ولشد ما اغتبط
رئيس تحريرها بالفكرة ووافق على أن أعمل بوصفي مراسلاً خاصاً لها إذا قدر لي
الوصول إلى أسبانيا الثائرة .

ولكنني عرفت كيف أدخل البلاد من طريق لشبونة إلى أشبيلية ، وإن كانت
سفرتي قد فشلت وشيكا فلم يكذب ينقضي اليوم التالي لمقامي في أشبيلية ، وهي مركز

رياسة فرنكو، حتى عرف أسرى، وانكشف للقوم أنني شيوعي، ولكنني استطعت
وسط الفوضى الضاربة في البلاد الخروج منها في عجلة بالغة من طريق «جبل طارق»؛
وقد تمكنت على قصر المقام من رؤية الطيارين الألمان والطائرات الألمانية في جيش
فرنكو وقواته ونشرت النبأ في جريدة «الفيوز كرونكل» وضمن رسالة منفصلة،
واستهدفت بذلك لنقمة فرنكو وحكومته، فلم ألبث حين اعتقلت بعد ستة أشهر من
ذلك التاريخ كمراسل مرافق للجيش الجمهوري أن أدركت أن خير ما يفعلونه بي هو
الإعدام رمياً بالرصاص دون مقدمات سيئة أو تمهيدات مؤلمة.

وقضيت أربعة أشهر في السجون الإسبانية بملقا وأشبيلية، وكان أكثرها في
السجن الانفرادي، وأنا طيلة الوقت موقن أنني سأعدم رمياً بالرصاص.

ولكنني في شهر يونية عام ١٩٣٧ بفضل تدخل الحكومة البريطانية وجدتني
فجأة مطلق السراح لم يشتعل مني الرأس شيئاً، ولم تتغير ملامح وجهي، ولا أثرت
المخاوف الملحة في نفسي؛ ولكنني عرفت شيئاً جديداً من الحقائق لم يلبث أن غير
نظرتي إلى الأمور، وأحدث انقلاباً في القيم عندي والموازين؛ وكان هذا الانقلاب
من العمق بحيث ظلت في الأيام الأولى من إطلاق سراحى مذهولاً لا أشعر بشيء.
وكان هذا التغيير يرجع إلى ثلاثة عوامل الخوف والشفقة والثالث يصعب وصفه. أما
الخوف فلم يكن من الموت ولكن من التعذيب والإذلال والوسائل البشعة في تنفيذ
الإعدام؛ وكان في السجن معي رفيق يدعى «جارسيا أتادل» أعدم شقاً عقيب
الإفراج عني. وأما الشفقة فعلى فلاح أندلسي وقروى من «كتلان» سمعتهما يبيكان
ويعولان حين سيق بهما ليلاً إلى الإعدام بالرصاص. أما العامل الثالث فهو حالة
نفسية ألفنا الحديث عنها في عبارات مستعارة من «الصوفية» وأمثالها من المذاهب،
حالة تنتاب المرء في لحظات غير منتظرة فتضفي على نفسه سكينته بالغة، وهي حالة لم
أكن شعرت بها من قبل، ولم أشعر بها منذ ذلك الحين.

ويقيني أن الدرس الذي يتعلمه المرء من هذه التجربة يختفي أبداً تحت ستار
رث ، وثوب مهلهل لا يحجب حقيقتها وهي أنها شيء بديهي ، وأمر مفهوم ، كقولك
إن الإنسان حقيقة ، ولكن البشرية « تجريد » ، وإن الناس في السياسة لا يمكن
اعتبارهم « وحدات » في عمليات حسابية لأنهم يقومون مقام « الرموز » كالصفر والرقم
« الدائر » ، وهو ما يحل بكل عملية حسابية ، وقولهم إن الغاية إنما تبرر الوسيلة إلا
في أضيق الحدود ، وإن الأخلاق لا محل لها ولا أثر في « الصلاحية أو المنفعة »
الاجتماعية ، وإن إيتاء الخير والبر ليس عاطفة « بورجوازية » صغيرة ، ولكنه القوة
الجاذبة التي تقيم الحضارة دائرة في فلكتها .

ولكن ليس ثمة شيء أسخف ولا أبعد عن أصالة الرأي من هذه الأقوال
والعبارات بسبيل أحاسيس لا يجدي فيها الكلام ، ولا هي في نطاق القول والتعبير ،
وإن كل كلمة من هذه الكلمات التوافه كانت متعارضة مع الإيمان الذي كنت
أحسه من ناحية الشيوعية ...

* * *

ولو كانت هذه القصة من نسج الخيال لانتهت عند هذا الحد ، ما دام الشخص
الأول في القصة قد ترك بعد تحوله الروحي صفوف أصحابه ورفاقه بالأمن ، وانطلق
في سبيله باسمًا بسمه هادئة مطمئنة . ولكنني حين نجوت من الهلكة ، لم أدر أنني لم أعد
شيوعياً ، فكان أول عمل عمدت إليه بعد أن جاوزت الحرس حدود جبل طارق ،
أن بعثت إلى الحزب ببرقية استهللتها ببيت من شعر شلر ، يقول فيه : « أيتها
الملايين أنني أعنتقك !.. » . بل أغرب من ذلك أنني أضفت قائلاً : « وقد شفيت
من جميع أوجاع البطن وأدوائه » . وكانت كلمة « أوجاع البطن » اصطلاحاً عاماً
يدور على ألسنة الشيوعيين . ومعناه « المخاوف » من خطة الحزب وسياسته .

وقضيت ثلاثة أشهر هادئة مع صحب لي وخطاء في بريطانيا ، عاكفاً على

وضع كتاب عن أسبانيا ؛ وبعد رحلة قصيرة إلى الشرق الأوسط موفداً من قبل جريدة «النيوز كرونكل» — وهي رحلة لا تدعو إلى قيام خلاف بيني وبين الحزب — بدأ الصراع بطوفة في أرجاء بريطانيا لإلقاء محاضرات عهد بها إلى «نادى الكتاب اليسارى» Left Book Club ، فكان كل سائل ينهرى بعد الفراغ من المحاضرة من بين المستمعين وأكثرهم من الشيوعيين ، فيطلب منى تفصيلاً لنشاط جماعة «البوم» ووجوه غدرها بالحزب وخيائته ، وهي شعبة منشقة من الشيوعية تتبع مبادئ تروتسكى فى أسبانيا ، وتعمل مستقلة طليقة من القيد ، حتى استهدفت لتهام الحزب لها بأنها من «صنائع فرنكو وعميونه» — يجد عندى الجواب حاضراً ، وهو قولى إننى لا أنكر أن سياسة هذه الشعبة المنشقة قد تكون ضارة بالقضية ، ولكنى على يقين بأنها ليست من الخونة إطلاقاً . ولشد ما دهشت أن يمضى الأمر بسلام عند هذا الحد ، ولم يحدث لى أذى أو ضرر بسببه . ولعل ذلك راجع إلى فتور الحزب الشيوعى البريطانى فى رفع أمر «المنحرفين» إلى الجهات الشيوعية العليا وكرامية كشف سترهم عندها .

وعلمت عندئذ أنه قد قبض فى حركات التطهير العامة التى جرت فى روسيا على زوج أختى وصديقين من أعز أصدقائى ؛ وكان نسيبى هذا يدعى الدكتور «أرنست أشر» ويشغل فى أحد مستشفيات الدولة فى جمهورية الفولجا الألمانية ، وكان عضواً فى الحزب الشيوعى الألمانى ، ولكنه لم يكن ذا نشاط سياسى ولا هو بالمعنى بالشيوعية أو الحافل بأمرها ، بل كان سليم النية غير مكترث ؛ وقد انتهى إلى سمعى أن التهمة التى وجهت إليه هى أنه «مخرب» جعل يحقن مرضاه بميكروب «الزهرى» (١) وأنه قد أفسد أذهان العامة بادعائه أن الأمراض السرية عضال مستعصية العلاج ، وأخيراً إنه بالطبع صنيعة دولة أجنبية .

(١) وكانت التهمة التى وجهت لى جاجودا رئيس الأوجبو السابق وثلاثة أطباء معه ، أنهم سموا الروائى الكبير مكسيم غوركى ببخار الزئبق .

ولم يعرف أحد ماذا صنعوا به منذ اعتقاله من اثني عشر عاماً ، ولم يهتد إنسان إلى أثره .

أما صديقاى الحيمان فهما أليكس ويزرج وزوجته « إيفا » . وسأقص عليكم قصتهما فى شىء من التفصيل الأسباب ستبدو لكم فيما بعد .
فقد كان أليكس طبيباً يشتغل فى المعهد الأوكراي للطب والمصطلحات الطبية ، وكنت أعرف الرجل وزوجته من عدة سنين ، وأقمت معهما ردحا من الدهر فى « خركوف » ، وقد ودعنى « أليكس » فى المحطة عند مغادرتى روسيا عام ١٩٣٣ ، وكانت كلمات الوداع التى قالها لى « مهما يحدث فلا معدى لك عن حمل العلم السوفييتى عالياً » ، وكان اعتقاله فى عام ١٩٣٧ كما علمت فيما بعد بتهمة استئجار عشرين شقيقاً ليكنوا لستالين وجانوفتش فى رحلتها التالية للصيد فى جبال القوقاز ، وأنه رفض التوقيع على اعتراف بالقعة ولم يثقل بين مختلف السجون ثلاثة أعوام سويًا ، حتى سلم أخيراً عقب إبرام ميثاق التحالف بين ربتروب ومولوتوف إلى « الجستابو » فى مدينة بوسست لينوفسك مع مائة آخرين من الشيوعيين النموسيين والألمان والمجريين ، ومن بينهم جريت نيومان زوجة الزعيم الشيوعى الألمانى هانز نيومان ، وأخت زوجة ويلى مونزنبرج ، والطبيب فسل هوتزمانز أحد أعوان العلامة بلاكت السابقين .

وقد نجا صديقى « إليكس » من شر الجستابو واشترك فى ثورة فرسوفيا ، ووضع كتابا سيكون قريباً فى متناول القراء الإنجليز .

وكانت امرأته « أيضاً » من المشتغللات بصناعة الخزف والأوانى الفخارية ، وكان اعتقالها قبل القبض على زوجها بهام أو نحوه ، وقد اتهمت أولاً بأنها رسمت الصليب المعقوف على أقداح الشاى التى وضعت تصميمها للمصنع الذى يتولى الإنتاج بالجملة ، ثم عادوا يتهمونها بأنها كانت تضع مسدسين تحت الوسادة ، وأن هذين المسدسين كانا معدين لقتل ستالين عند انعقاد الجمعية العامة للحزب ، وقد أمضت

ثمانية عشر شهراً في «لوبيانكا» حيث حاول «الأوجبو» تقديمها كاذبة نادمة في محاكمات بوخارين «الصورية» فعمدت إلى قطع شريان من شرايينها ، ولكنها أنقذت ، وأطلق بعد قليل سراحها بفضل مساعي قنصل النمسا في موسكو ، وكان بالمصادفة صديقاً لوالدتها .

وقد لقيتها عقب الإفراج عنها وإبعادها من روسيا في ربيع ١٩٣٨ ، وكانت مشاهداتها في السجون الروسية ، والأساليب التي يتبعها «الأوجبو» في انتزاع الاعترافات من الذين استهدفوا لنقمة ، مادة طيبة استعنت بها في كتابي «الظلام في الظهيرة» .

ووعدها أن أبذل كل ما في وسعي لإيقاظ زوجها اليكس ، وكان أينشتاين قد توسط من قبل في هذا الشأن فلم يسعني إلا أن أبعث ببرقية إلى ستالين توخيت فيها الألفاظ الدقيقة ، والعبارة المحكمة ، واستطعت الظفر عليها بتواقيع ثلاثة من أعلام الطب في فرنسا ، ومن فازوا بجائزة نوبل ، وهم بيران ولانجفان وجوليوت كوري ؛ كما بعثنا بصورة منها إلى النائب العام في روسيا وهو فيشنسكي ، طالبين إصدار بيان عن التهم الموجهة إلى وزير برج إذا كانت ثمة تهم وجهت إليه ، ومحامته عليها ؛ ومما يجدر بي ذكره هنا أن لانجفان وكوري كانا يعطفان على السوفييت ولم يلبثا أن انضما إلى الحزب الشيوعي ، ولكنهما لم يكونا راضيين عن القضاء في روسيا وأساليب المحاكمات وأداة العدالة لأنهما لم يسمعا يوماً عن إليكس ، ولم تكن بيني وبينهما معرفة وثيقة ، ولكنهما مع ذلك سلما في الحال بأن إليكس لابد من أن يكون بريئاً . وقد وقع البرقية أيضاً بولاني في مانشستر ؛ وكان العلامة «بلاكت» هو الطبيب الوحيد الذي اتصلت به ورفض توقيعها .

وقد ذكرت هذه الواقعة لأن الأستاذ بلاكت حاول من قبل جاهداً إنقاذ مساعده السابق «هوترمان» ، وهو صديق حميم لوزير برج . وأكبر ظني أنه خشي إذا هو وقع الاحتجاجيين أن يضيع الفرصة لإنقاذ ولو إحدى الضحيتين على الأقل .

ومغزى هذه القصة العابرة هو أن جوليت كورى وبلاكت وبقية أصحابنا الماركسيين الغضب لا يمكن أن يدعوا أنهم كانوا فى جهل مطبق بسير الأحداث فى روسيا، لأنهم يعرفون على أقل تقدير تفاصيل ما وقع لزميلين من زملائهم، ممن كانوا يدينون بالولاء الصادق للاتحاد السوفيتى وأنهما اعتقلا بتهم غريبة وظلا أعواما بلا محاكمة، ثم سلما فى النهاية إلى الجستابو؛ كما يعرفون أن هذه الحالات لم تكن استثنائية بل تحفظ الدوائر العالمية فى روسيا لديها تقارير موثوق بها عن مئات الحالات المماثلة لها، وهو ما ينطبق تماماً على ما عند جميع الكتاب والعلماء الذين اعتنقوا المبادئ الشيوعية؛ فما من أحد منهم إلا يعلم عن مصرع صديق له فى معسكرات السخرة القائمة فى الأصقاع الشمالية، أعدم رمياً بالرصاص بتهمة «التجسس»، أو توارى عن الأبصار فلم يعد أحد يعثر له على أثر. ولشد ما كانت أصواتنا تدوى غضباً كلما كشفنا عن تصرفات معيبة فى سير التحقيقات أو العدالة داخل بلادنا الديمقراطية، ولكنها فى روسيا لا ترتفع، إذا ما تخلص الروس من أحد من رفاقنا دون محاكمة أو إدانة؛ فقد كان كل منا يحمل جثة صديق أو صاحب فى «دولاب» ضميره، فلو جمعت تلك الجثث بمحملتها لتألفت منها مقابر عظام، وهياكل وجاجم أشد تشعباً من سرايب باريس وأقييتها.

وما أحسب بلداً فاق روسيا السوفيتية فى عدد الثوريين الذين طوَّح بهم فيه، أو استذلوا وسيق بهم مساق الرق والعبيد. وكان مشهد هذه الفضائع والأعمال المنكرة التى يقتربها رجال من ذوى الذكاء والألمعية والنية الحسنة فى عين رجل راج سبعة أعوام كاملة يجد الشفائع والمعاذير لكل حماقة ترتكب تحت علم الماركسية، وكل جريمة تقترب تحت لواء الشيوعية — أدعى إلى الاشمئزاز والنفور من الأعمال الوحشية التى يأتينا البسطاء والجهال والحقى.

وقد شاهدت بعينى مدى تلك «البهلوانية» الذهنية أو الرقص على الحبل الممدود حول ضمير الإنسان وشعوره.

فلم أكن أجهل مبلغ الجهد الذى يقضيه مد ذلك الحبل المرن المطاط إلى الحد الذى يجعله يَرْت أو يقطع .

وفى ذلك الحين الذى عرفت فيه أنباء القبض على أليكس استطاع رفيق آخر الفرار إلى باريس من ألمانيا حيث قضى خمسة أعوام سجيناً مع الأشغال الشاقة ، وكان قبل اعتقاله يشتغل فى فرع من « شبكة شيوعية » عمد الحزب إلى التخلص من زعمائه بتهمة التجسس .

وهكذا بلا تحقيق ، ولا أمل فى الدفاع عن النفس ، لم يلبث صديقى وامرأته أن اتهمتا بأنهما من صنائع الجستابو ، وظهرت صورهما فى صحف باريس مشفوعة بتحذير للناس من الاتصال بهما .

وكنت قد سمعت بأحداث كهذه ، من قبل ، فكنت أهز كتفى استخفافاً وأواصل « الرقص على الحبل » ومغالطة الضمير ، ولكن هذين الزوجين قد أصبحا حقيقتين فى عيني أكثر من القضية الشيوعية ذاتها ، التى يراد التضحية بهما من أجلها ، فاعتزمت أن أقف بجانبهما ذائداً مدافعاً ^(١) .

ولكن الحزب لم يفعل شيئاً حيالى ؛ فقد استغلنى ، حين زج بى فى السجن ، كشهيد فى سبيل الدعاية الشيوعية ، فلا معدى عن انقضاء فترة أخرى من الزمن قبل أن يتهمنى بأتى كنت صنعة فرنكو أو جاسوساً للميكادو ! .

وجاءت النهاية مفاجأة غريبة ، فقد طلب منى فى ربيع ١٩٣٨ أن أدلى بمحدث عن أسبانيا أمام جمعية الكتّاب الألمان المهاجرين فى باريس ، وجاءنى قبل إلقاء الحديث مندوب من الحزب فطلب منى أن أضع فيه فقرة أعلن فيها أن « اليوم » هم صنائع فرنكو وعملاؤه ، فرفضت .

وانعقد الاجتماع يومئذ فى دار جمعية الصناعات الفرنسية فى ميدان سان جرمان

(١) وقد دخلا الآن فى حياة جديدة باسمين جديدين ، وهما يقمان اليوم فى أحد الممتلكات البريطانية « الدومنيون » . والشئ بالشئ يذكر أقول إن الزوجة هى بعينها الفتاة التى اعتقلها الجستابو لجرد تفروها بكلمة « محسوس » كما ورد فى الصفحات الماضية .

دى بريه ، وكان المستمعون قرابة مائتين أو ثلثمائة من المهاجرين المستنيرين كان نصفهم من الشيوعيين .

وكننت أعلم فى أعماق نفسى أن هذه هى المرة الأخيرة التى سوف أظهر فيها أمام الجمهور كعضو فى الحزب الشيوعى .

وكان الموضوع يدور حول أسبانيا وموقفها ، ولم يكن يحوى كلمة انتقاد ما للحزب أو لروسيا ، ولكنه كان يتضمن ثلاث فقرات اخترتها عامداً ، وانتقيتها عن قصد ، لأنها كانت فى أعين العاديين من الناس كلاماً عاماً لا بأس منه ، ولكنها فى أعين الشيوعيين ستبدو بمثابة « إعلان الحرب » على الحزب .

وكانت الأولى منها قولى « لا يصح لحركة أو حزب أو شخص أن يدعى « العصمة » من الزلل » .

وكانت الثانية « أن تهدئة خواطر العدو حماقة لا تقل عن حماقة اضطهاد صديق يرمى إلى هدفك بالذات ولكن من طريق آخر » .

وكانت الثالثة اقتباساً من توماس مان ، وهو قوله « حقيقة ضارة خير من أ كذوبة نافعة ... » .

وكان هذا كافياً للتعجيل بالنهاية .

ولم أ كد أنتهى من حديثى حتى راح النصف غير الشيوعى من المستمعين يصفق إعجاباً ، بينما جلس الشيوعيون صامتين واجمين شابكى الأذرع على صدورهم ؛ ولم يكن تصرفهم هذا إيماء أو إيعازاً ، ولكنه كان تأثراً من تلك الكلمات البديهيّة التى قررت مصيرى ، وهو التأثير بعينه الذى كان مرتقباً أن يحدث لو أنك قلت على أسماع جمهور من النازيين إن الناس ولدوا جميعاً متساوين ، بغض النظر عن اختلافهم فى العنصر أو العقيدة .

ولم تمض بضعة أيام على هذا الحادث حتى كتبت خطاب استقالتى وبعثت به إلى لجنة الحزب المركزية .

* * *

وهذا هو الموقف الثانى الذى كان أولى بهذه القصة أن تنتهى عنده ، ولكن الواقع أن هناك مفاجأة ثانية دهمتنى ؛ فقد كان كتابى بمثابة وداع للحزب الشيوعى الألمانى ، وللكومنترن والعهد الجوجاشفيللى ، وإن ضمنته آية الولاء للاتحاد السوفىيىتى . فقد مضيت فيه أشرح معارضتى لهذا النظام ، وانتقضى لهذا النمو السرطانى البادى على هذه الأداة «البيرقراطية» ، وإهدار الحريات للمدينة المقررة ، وإن كنت قد أعلنت إيمانى بأن الأسس التى قامت عليها هذه الدولة المؤلفة من العمال والفلاحين لا تزال « ثابتة وطيدة » ، وأن تأميم وسائل الإنتاج ضمان كاف لعودتها إلى طريق « الاشتراكية » السليمة ، وأن الاتحاد السوفىيىتى على الرغم من كل شىء لا يزال يمثل الأمل الأواحد الذى بقى لنا فى هذا الكوكب الذى أخذ ينحل ويفسد ويحتل وشيكاً .

وهكذا رثّ الحبل الذى كان ملفوفاً حول ضميرى وانقطع البهلوان أخيراً عن الرقص عليه .

ولكن بقيت من تحته شبكة نجاة .

فلما هبطت وجدتنى فى جمع مختلط من بهلوانين وحواة قدامى فقدوا توازنهم «المنطقى» وتروتسكيين ونقاد يشاركون الشيوعية بوجودهم ، وشيوعيين «مستهترين» وساسة محدثين ، وجمهوريين جدد ، وأحرار وغيرهم ممن يزحفون وينتشرون فى هدف الشبكة متخذين أوضاعاً مختلفة .

وكنا جميعاً فى قلق بالغ ، معلقين فى الهواء ، أو هامئين على الوجوه فى « منطقة حرام » ، ولسكننا على كل حال لم نكن مضطرين إلى اعتبار أنفسنا « ملائكة ساقطين » .

وقد لبثت معلقاً على هذا النحو حتى حل ذلك اليوم الذى رفع فيه علم الصليب المعقوف على الميناء الجوى فى موسكو احتفالاً بقسوم ريبنتروب ، وراحت موسيقى الجيش الأحمر تعزف النشيد الألمانى ، فقد كان ذلك إيذاناً بالنهاية ، ولم أعد منذ ذلك

اليوم أحفل بأن يدعوني حلفاء هتلر خارجاً على الثورة ، أو منشقاً ، أو أيّاً ما يدعوني من الأسماء والصفات .

وقد حاولت في كتاب آخر لى أن أشرح تلك النظرية المنطوية على مغالطة ظاهرة ، وهى قولهم عن روسيا إن الأسس القائمة عليها لا تزال « سليمة لم تتأثر » ، وإن النظام الاقتصادى سيؤدى حتماً إلى حكم اشتراكى ؛ ولست معيداً هنا ذلك الشرح ، وليس غرضى من الإشارة إلى ذلك التعلّق الذى كان منى بآخر مرقّة من ثوب الشيوعية الذى ارتديته ، ثم رحت أنضوه عنى ، إلا التدليل على هذه الجبانة العقلية التى تأبى إلا ملازمة الإنسان المستنير ، حتى بعد زوال الغشاوة عن عينيه ، وانكشاف الخدعة لبصيرته ، للفكرة التى انخدع قديماً بها . فإن إدمان معاطاة هذه الأسطورة السوفيتية تستمكن من المدمن استمكناً يجعل من الصعب الشفاء منه كي إدمان الخدرات سواء بسواء . والمشاهد أن المدمن بعد إدراكه ما فى هذا العقار من غش لا يفتأ يتلهف على رشفة أخيرة منه ، حتى ولو شعشت بشيء من الماء ، أو قدمت إليه فى برشامة مختلفة واسم جديد ، ولا تزال سوق الكومنترن ملأى بأنواع متنوعة من « الماركات » ، ولا تخلو مطلقاً من عشرات الجرّع والبرشامات ؛ فقد ألف الكومنترن الاتجار بالكلام المزخرف ، والعبارات المنمقة ، كما ألف باعة الخمر المهربة والخدرات الاتجار بالأشربة المغشوشة والعقاقير المزيفة ، وكلما كان « الزبون » ساذجاً وعلى نياته ، أصبح من السهل أن يقع فريسة لكل نوع من الخدر يقدم إليه باسم « السلام » والتقدم والديموقراطية وما إليها .

لقد خدمت الحزب الشيوعى سبعة أعوام ، وهى الفترة ذاتها التى قضاه يعقوب عليه السلام فى رعاية غنم لابان لىكى يظفر بابنته « راحيل » ، ولما حان الظفر بها ، سيق بالعروس تحت جناح الليل إلى خيمة مظلمة ، ولكنه لم يقين إلا مع الصبح

أنه لم يقض ليلته مع «راحيل» الحسناء ، وإتمامها مع «إيسه» الدميمة الشوهاء :
وإني لأعجب هل تراه أفاق من الصدمة ، حين أدرك أنه كان ينام مع
أ كذوبة ، ويضاجع وهماً من الأوهام ؛ بل عجبى اليوم له ، هل تراه فيما بعد قد
آمن بأنه كان يوماً بها مؤمناً ، وهل ستتكرر الخاتمة السعيدة التي انتهت إليها تلك
الأسطورة القديمة ، فإن يعقوب بعد جهاد سبعة أعوام أخرى ظفر براحيل ذاتها ،
وأصبح الوهم حقيقة ملموسة ، فلم تلبث الأعوام السبعة أن بدت له قصاراً كأنها
بضعة أيام من فرط الحب الذي كان لها في جوانحه .

اجنازيو سيلوني

- ١ -

استطاع عدة أشخاص منا النجاة من الاعتقال في مساء أحد الأيام في شهر نوفمبر، عقب صدور « القوانين الخاصة » فقد لجأنا إلى « فيللا » صغيرة في إحدى ضواحي « ميلانو » كان قد استأجرها أحد رفاقنا من عهد قريب ، وكان رفيقنا هذا متنكراً في صورة « نقاش » .

وكانت أحياء العمال مهجورة ، والشوارع فيها مقفرة ، والحانات صامتة أو موصدة الأبواب ، والظلام مخيماً على الدور والأكواخ ؛ وهو مشهد أضفى على ذلك الوقت من العام ، كآبة غامرة ، ووجوماً أليماً .

وكان رجال الشرطة مدججين بالسلاح ، وقد راحوا يغيرون على الدور ، و « يكبسون » البيوت التي تحوم حولها الشبهات ، كأنها تحصينات للعدو ودور منيعة ، وكان عدد المعتقلين قد بلغ يومئذ حداً كبيراً ، وأخذ يزداد على الأيام ، كما عرفت أسماء جديدة ، واكتشفت دور أخرى من نتائج هذا التفتيش المستمر ، أو تقارير الجواسيس والأرصاد ، أو اعترافات المستضعفين من المقبوض عليهم الذين لم يقووا على الوعيد بالتعذيب .

وكان كثير من هذا ونحوه يجري في المدائن والأقاليم الأخرى ، وكانت الصحف المعارضة قد عطلت يومئذ ، والصحف التي لا تزال موالية الصدور مضطرة إلى الامتناع عن نشر شيء من أنباء الاعتقالات ، بل مضت بالعكس تنوه بما أثر الدكتاتورية الإيطالية ، وتنشر مدائح كبار ممثلي الديمقراطية في البلاد الأخرى وحسن تقديرهم لفضلها وجهودها .

ولكن التقارير المبنية على المعلومات التي جمعها رسل الحزب الشيوعي من ممثلينا

في أكبر المناطق ، وبعثوا بها إلى مقر حركتنا السرية ، لم تكن تدع مجالاً للشك في أن الدكتاتورية تنتوى القضاء على المعارضة ومحو كل أثر لها في البلاد .

وكان الشيوعيون هم وحدهم الذين أوتوا تنظيمًا سريًا بارعاً ، وإن كان رجال الشرطة في عدة أقاليم مجهولون هذه الحقيقة أحياناً ، ولكنهم بهذه « الكبسات » المتوالية استطاعوا تدمير شبكة مخابراتنا وتقطيع خيوطها وأوصالها .

وجاء فريق كبير من « الرفاق » الذين نجوا من الاعتقال يطلبون منا مأوى ثابتاً في مدينة غير مدينتهم ، وأوراقاً « مزورة » تمكنهم من الانتقال ، وتعينهم على معاودة النضال .

وأسمى الذين كانوا يعيشون منا بأسماء مستعارة حيناً من الدهر ، مخفين مظاهر نشاطنا غير المشروع تحت ستار ما ، في مركز أفضل من غيرهم ، وإن كنا جميعاً في خطر من أن يكتشف يوماً أمرنا ، أو من أثر غفلة تنسد من أحد المعتقلين فيمتدى بها رجال الشرطة إلى مكاننا ، وتفتح لهم مغاليق أسرارنا .

فلا عجب إذا كنت في ذلك المساء الذي أسلفت ذكره قد تلقيت فجأة نذيراً بالآ أعود فيه إلى البيت ، لأن قرائن الأحوال توحى بأن الشرطة يحومون حوله . وكنت مع آخرين في مثل ظروفى قد وجدنا ملاذاً مؤقتاً في تلك « الفيلا » الريفية التي يملكها ذلك « النقاش » ، فلم نلبث أن عمدنا بعد إقامة حرس حول الدار ، والتفكير فيما نحن صانعه إذا باغتنا البوليس ، إلى قضاء الليل جلوساً على المقاعد مستسلمين لمشيئة المقادير ؛ فقد كانت الدار خالية من الأثاث ولا تحوى غير مرقد واحد ، وكان معنا بجانب النقاش « المتنكر » وامرأته رجل آخر متمكر في زى سائح أسباني ، وطبيب أسنان « مزيف » ، وثالث ينتحل شخصية مهندس ، وفتاة ألمانية ، وطالب ؛ وكنا قد تعارفنا منذ عامين ، وإن ظلت علاقتنا طيلة هذه الفترة مقصورة على مجرد التعاون الفني في مختلف نواحي الحركة السرية وفروعها ، إذ لم يتسع أماننا الزمن ولم تسنح الفرص لنكون أصحاباً وأهل مودة ، بل كنا في الغالب نعرف

أصولنا ونشأتنا وعشائرنا ، لما تقتضيه ظروف حياتنا خارج دائرة القانون من الإحاطة بهذه ونحوها من المعلومات .

ولست أدرى سر هذا الأثر الباقي من تلك الليلة وأحداثها في حاضري إلى الآن ، ولكنى أذكر أن طبيب الأسنان انثنى يقول : لقد كنت ماراً بصالة « اسكالا » أصيل اليوم فوجدت صفوفاً مترامية من الناس يرتقبون أدوارهم لشراء تذكرة لدخول الحفلة التالية، فوقفت لحظة لأنظر إليهم وبدا لي أنهم جمع من المجانين . فانبرى السائح الأسباني يسأله قائلاً : ولماذا تعدهم مجانين ، هل تعتقد أن سماع الموسيقى ضرب من الجنون ؟

قال : ليس سماعها كذلك في الظروف العادية ، ولكن في أوقات كهذه كيف يرتضى الناس لأنفسهم التسلية واللهو بسماع الموسيقى ، لا بد من أن يكونوا مجانين . فعاد السائح الأسباني يقول : إن الموسيقى ليست في كل الأحوال مجرد تسلية ومحض لهو .

وأردف النقاش يقول : لو أن هؤلاء المجانين بالموسيقى شهدونا الساعة أو سمعوا بأمرنا أو علموا بعملنا ، لعدونا بدورهم في الغالب مجانين ، إذ ليس من السهل معرفة من هم المجانين حقاً ، وهذا علم من أشد العلوم مشقة وأصعبها أمراً . ولم يرق طبيب الأسنان هذا الجري الذي اتخذته الحديث فأجاب بعنف قائلاً: إن المرء لا يمكن أن يحازف بحياته وحرية في الجهاد ، كما نفعل نحن ، ثم يحاج ويناقش كأنه شخص فوق الجهاد وفي مرتبة أعلى من النضال .

فقال النقاش : إنك تستطيع أن تلقى بنفسك في بهرة الجهاد ، وساحة النضال ، وتركل خصمك وتضربه كيف تشاء ، ولكن لا حاجة مطلقاً بك إلى حاجته ومناقشته ، أليس الأفضل أن يبقى المرء على رأسه لأشياء أخرى أنفع وأجدى . وانبرى السائح الأسباني يقول : أليس جهادنا جهاد أفكار ومبادئ ، أو ليس هذا يقتضى تشغيل رموسنا وعقولنا ؟ ؟

وعندئذ ابثسم النقاش ومضى يقول : أى نعم ، يقتضى رأسى بالطبع وتفكيرى ، ولكنه لا ينبغى أن يقتضى منى عيني أيضاً وبصرى ، أو عبارة أخرى إننى لأفضل أن أبقي على عيني لأشهد ما يجرى وأبصر الأشياء عياناً .

وهنا قال طبيب الأسنان : أنا لا أفهم هذا الذى تقوله ، إن المخاطرة التى تتعرض لها بإقامتك معنا لا تبدو متناسبة مع العمل القليل الذى تؤديه ...

وسادت فترة سكون محير ، وكنا نشهد خلالها من الفائدة ثلاث سيارات ضخمة مملأى بالجنود وهى تجتاز الطريق العام ، فجاءت ربة الدار فأغلقتها وقدمت إلينا قهوة طيبة .

وعاد السائح الأسباني محاولاً إعادة روح « الانسجام » بين الرفاق فقال : إن جميع الطرق فى عصرنا هذا مؤدية إلى الشيوعية ، ولكن لا نستطيع جميعاً أن نكون شيوعيين بوسيلة واحدة ، أو من طريق واحد .

ومضى النقاش يقول : لقد جازفت بحياتى فى سبيل « الثورة العالمية » ، وإذا لم أجازف بعينى أيضاً ، فما ذلك إلا لىكى أحفظ لنفسى بحق رؤية ما يجرى لحياتى ومشاهدة ما سيحدث لها ، وإن كانت صاحبة لى من عهد المدرسة عمدت إلى التبتل فأصبحت « راهبة » ، ووهبت حياتها « للجنة » ، وأقصد اللجنة « السموية » ، حتى لا تلتبس مع جنتنا نحن ؛ وفى إمكانى أن أوكد لكم أننى لن أعدل عن هذه المجازفة بالحياة ، إذ ليت شعرى لماذا أعدل ، ولست أحسب أحداً منكم متشككاً فى شرفى وذمتى .

ولكن طبيب الأسنان راح يعلق بعنف على كلمات صاحبه بقوله : ولكن الثورة العالمية ليست لعبة يغلب عليها « الحظ » .

وأجاب النقاش قائلاً : إننى أعرف حق المعرفة أن الكسب فى اللعب ليس مرتبهاً « بالخط » ، ولكنه أيضاً إنما يعتمد على قوة اللاعبين وبراعتهم ، وعلى كل ما قرأنا عنه فى كتب المناهج المقررة فى مدارسنا ومعاهدنا الشيوعية ، وهذا هو سر

اشترأكى فى اللعب لا كغمار فحسب ، بل كلاعب أفضاً ، كلاعب متوفر بكليته ،
مجازف بجملة نفسه وحياته ، نعم بكليته ، عدا العينين كما قلت ...
وهنا قال طيب الأسنان : لست فاهماً .

ولكن النقاش مضى فى حديثه يقول : إننى بالاختصار أرفض أن أسير معصوب
العينين ، ولست أتردد فى القيام بأى عمل يعهد إلىّ به ، ولكن بعينين مفتحتين وبصر
مكشوف .

وانثنى السأخ الأسبانى يقول له : حسناً ، ولكن لا أفهم المراد ، ما دمت فى
الواقع جاداً فيما أنت مغامر من أجله مجازف فى سبيله ، واسمح لى أن أسألك : ألا
يجوز فى ظروف أخرى أن تجازف من أجل شىء آخر مختلف عن هذا كل
الاختلاف ، كالحرب مثلاً ، أو ارتياد القطب الجنوبى ، أو تمرىض المبروصين
والجذومين ، أو الاتجار بالريق الأبيض ، أو تزيف العملة ...؟؟

فاستضحك الآخر وانثنى يجيب قائلاً : ولم لا ؟ . ولكن لعل فى كل هذه
الأعمال ونحوها محال أن أظل مفتاح العينين ، مجتهد أن أفهم وأدرك .
وانثنت الفتاة الألمانية تقول : إن الإنسان يولد شيعياً ! .

ولكن النقاش عقب عليها قائلاً : ولكن الإنسان يصبح « رجلاً » .
واستدار إليه طيب الأسنان فقال : هل تستطيع أن تقول لنا ماهى الظروف
التي أدت بك إلى المجازفة بحياتك من أجل الشيوعية ؟
قال بجد : هذه قصة طويلة ، واسمح لى أن أكون صريحاً فأقول لك إن فيها
أشياء قد يدق فهمها عليك .

وعندئذ انبرت الفتاة الألمانية تقول له : نبئنى إذن بقصتك الطويلة غير المفهومة ،
وسنشرب القهوة ونظل أيقاظاً ، لنصغى إلى قصتك .

فنظر النقاش إلينا مبتسماً ، وراح يسألنا قائلاً : وهل تقصون أيضاً على قصصكم ؟؟
وانثنى طيب الأسنان فقال : « موافقون » ، فلنشرب القهوة ونسهر لنسمع .

ولكن صاحبنا النقاش أنشأ يحذرنا قائلاً : فكروا جيداً في هذا الأمر قبل أن أبدأ ، لأنه قد يكون من الخطر عليكم أن تتراجعوا ، بل من الخطر على كل واحد في حومة الجهاد ، وأنا ضمناً ، أن يبحث ويحلل الأسباب والدوافع ، ثم ينكص ويتراجع ، إذ متى بدأ اللعب فلا بد من انتهائه لأنك لا تستطيع أن تترك الرقص وأنت في وسطه .

وعاد السامع الأسباني يقول : ولكن أليس في إمكان المرء أن يفصل الجهاد عن الدوافع التي أدت به إليه ، وهل من الخطر أن يذكر الإنسان نفسه بالدوافع التي أفضت به إلى الشيوعية ؟؟

وهنا قالت الفتاة الألمانية : « الليل طويل » ، فهاموا نقصص قصصنا ، ونشرب القهوة ، ونظل أيقاظاً ساهرين ...

وهكذا قضينا الليلة يحاول كل منا أن يشرح لأصحابه سر اعتناقه الشيوعية وكيف اعتنقها ، ولم تكن شروحنا وافية شاملة ، ولكن لم يكذب يتنفس الصبح حتى أصبحنا جميعاً أصحاباً وأصدقاء ، ورحنا نقول حين تودعنا لنصرف : « حقاً إن جميع الطرق في أيامنا هذه مؤدية إلى الشيوعية » ...

وفي العام التالي قبض على طبيب الأسنان وعُذِّب ، ولكنه أبى أن يكشف عن أسماء أصحابه والمشاركين معه وقضى في السجن نحبه .

أما « النقاش » فقد ظل يؤدي واجباته السياسية إلى أن سقطت « الفاشية » وانتهت الحرب ، وأحسبه قد اعتزل بعدئذ الحياة العامة وأخذ إلى العيش في بيته . أما الفتاة الألمانية فلم يسمع أحد بها .

وقد خطرت ببالي فيما بعد تلك المكاشفات التي تبادلناها في ذلك الاجتماع الذي حوانا ؛ وكنت يومئذ قد شعرت بضرورة فهم تطورات الحركة التي اشتركت فيها وإدراك أسرارها والموازنة بينها وبين الدوافع التي دفعتني في الأصل إلى المساهمة فيها ؛ وقد استبد بي هذا الإحساس وأقلق بالي أيما إقلاق .

وإذا كان لعملى الأدبى الضئيل معنى أو مراد فهو بالتحليل والدراسة لا يعدو القول بأن الكتابة أصبحت عندى فى وقت من الأوقات ضرورة ملحة ، وحاجة قصوى إلى تخلص نفسى من شعور مسيطر على خاطرى ، ولازمة مستمكنة من إحساسى ، وإلى بيان حدود انفصالى من الحزب وتعيين مراميه وبواعثه ، وإن ظل ولائى مقيماً ، وارتباطى مستمراً فى أوسع نطاق ؛ ولم تكن الكتابة عندى فى يوم من الأيام ، ولا يمكن أن تكون ، متعة روحية هادئة ، أو لذة خيالية بديعة ، اللهم إلا فى بعض اللحظات الموقفة والظروف القليلة المواتية ، ولكنها أبداً جهاد أليم ، ونضال مستمر وصراع موحش متواصل ؛ وأما المتاعب والصعاب التى أعانيتها أحياناً فى محاولة التعبير عن خواجى ، وتصوير أحاسيسى فليست ناشئة من العوز إلى مراعاة قواعد الكتابة الحسنة ، بل مرجعها إلى تشبث ضميرى بأن تحترم نزاهته ولا يستخف بكرامته ، وأن أمضى جاهداً فى تضييد جروح خفية وعلاج آلام قد تكون مستعصية ؛ إذ لا يخفى أن مجرد الإخلاص لا يكفى إذا أراد المرء أن يكون صادقاً...

- ٢ -

وفى حفلة التأسيس لإنشاء الحزب الشيوعى الإيطالى عام ١٩٢١ فى مدينة لىغورن سقت معى إليه أ كثر الشباب الاشتراكيين الذين كنت أتمنى إليهم منذ عام ١٩١٧ ، فانضموا إليه ، وأعلنوا ولائهم له ؛ وكان موقفنا نحن الشباب الاشتراكيين خلال أعوام الحرب موقف الناقدین المستنكرين للديموقراطية الاشتراكية « الإصلاحية » ، فلم يثر انضمامنا إلى الشيوعية أية دهشة ، ولم يقابل بعجب .

وقد وجدتني فى تلك الليلة التى حدثتكم عنها ، ونحن فى ميلانو خلال شهر نوفمبر نتكاشف بماضينا ، مضطراً أن أصف لأولئك الصحاب كيف انضمت وأنا فى التاسعة عشرة من العمر ، ولا أزال يومئذ طالباً فى المدرسة ، إلى اشتراكية « رومر والد » ، وكيف مضيت أرجع بالذاكرة خطوة خطوة إلى عهد الشباب وأيام الحداثة والصبا ، وكيف كان لزماً علىّ أيضاً أن أقص أشياء عن طفولتى ، وأستكشف من

جديد أول نشأة فكرة المجتمع في خاطري ، تلك الفكرة التي اتخذت فيما بعد شكلاً سياسياً ، وبدت لي ، وأنا محاول استرجاعها في ذاكرتي ، أصيلة « راديكالية » صادقة ، إذ لم يكن يعقل أن ينضم فتى في السابعة عشرة ، وإبان الحرب العالمية ، إلى حركة ثورية ، تستهدف لاضطهاد الحكومة ونقمتها ، إلا إذا كانت دوافعه وبواعثه جدية مستمكنة من نفسه . .

وقد نشأت في إقليم جبلي بجنوب إيطاليا ، وكانت الظاهرة التي تركت أثرها في خاطري حين شببت عن الطوق ، هي تلك المفارقة البالغة ، الغامضة ، المنكرة ، بين الأسرة والحياة الخاصة المنظمة في الغالب النقية من الشوائب ، وبين الروابط الاجتماعية التي كانت في أكثر الأحيان « خامة » ملأى بالكراهية والغش والخديعة ؛ وكان الناس يعرفون عدة روايات وقصص مروعة عن الشقاء الذي كان يومئذ عاما في الولايات الجنوبية من إيطاليا ، واليأس المستولى على أهلها مما هم فيه من بأساء ومترية ؛ وقد رويت أنا نفسي طائفة من تلك القصص في بعض ما كتبت به ، ولكني لا أريد هنا أن أتعرض للأحداث التي أحدثت الاضطراب فيها وأدت إلى القلاقل ، بل أود أن أقتصر على وصف بعض الحوادث الصغيرة التي كانت تقع في الحياة اليومية ، فهي وحدها التي تبين الحياة المزوجة التي كان يحياها القوم الذين نشأت بينهم ، والتي كان مشهدي لها أحد أسباب الآلام المبرحة والعذاب النفسي الشديد الذي غمر أيام حدثتي .

كنت في الحول الخامس ، طفلاً صغيراً ، حين مضيت في يوم أحد أخترق الميدان الصغير القائم في قريننا ، مع أمي وهي تقتادني بجانبها ، ممسكة بيدي ، فشاهدت منظرًا قاسياً أليماً ، منظر سيد من سادات القرية يطلق كلبه الضخم على امرأة فقيرة تشغل « خياطة » كانت في تلك اللحظة خارجة من الكنيسة فإذا بها تخر على الأرض ، وتصاب بأذى بالغ ، ويتمزق ثوبها إرباً ، وكان الاستياء في القرية عاماً ، ولكنه مع ذلك بقي مكتوماً مكبوتاً ؛ ولم أفهم إلى الساعة كيف خطرت للمسكينة تلك الفكرة

الحزنة ، وهى إقامة دعوى على السيد واستعداد القضاء عليه ، فلم تكن النتيجة سوى سخرية العدالة منها ، وهى سخرية تضاف إلى الأذى الذى أصابها ، ولئن كان الناس كما قلت قد رثوا لها ، وراح خلق كثير يعينونها سرّاً ويؤيدونها ، فلم تجد ولا شاهداً واحداً يرضى أن يدلى بأقواله فى مصلحتها أمام القاضى ، ولا محامياً يتقبل المرافعة عنها ، بينما مضى محامى السيد الغطريف ، وأحسبه من المحامين اليساريين ، يواظب على حضور الجلسات ، ولا يتخلف عن المحجى إليها ، كما جاء شهود مرتشون عرضوا أنفسهم لسوء القالة بقصصهم على أسماع القاضى رواية غريبة لما حدث ، واتهامهم المرأة بأنها هى التى استفزت الكلب واستنفرتة ، فلم يسمع القاضى ، وكان رجلاً فاضلاً نزيهاً فى حياته الخاصة ، إلا أن يبرىء السيد ، ويحكم على المرأة بدفع المصاريف والأتعاب !!
وراح القاضى بعد بضعة أيام من صدور الحكم يعقذر عما حكم به ، وهو يزورنا فى دارنا ، بقوله : « لقد كان ذلك والله ضد إرادتى ، بل أؤكد لكم بشرفى أنتى آسف كل الأسف ، ولكن لو أنى كنت حاضراً الحادث كإنسان عادى لما استطعت أن أمسك عن لومه ، واستنكار تصرفه ، ولكنى كقاض ملزم أن أتقيد بأقوال الشهود فى القضية ، وكانت أقوالهم للأسف فى مصلحة الكلب » .

وجعل القاضى فى زهو يقول : « إن القاضى الصحيح هو الذى يستطيع أن يخفى إحساسه الشخصى ويبعد عن التحيز ، ولا يميل مع الهوى » . ومضت أمى تقول ، إنها صناعة شنيعة ، ومهنة منكرة ، فخير لنا أن نعيش فى دارنا بنجوة من ذلك ومنأى ، كما ألفت أن تقول لى : « يا بنى تكبر وتنمو ، كن أى شئ تريد ، إلا أن تصبح قاضياً .. » .

وأستطيع أن أذكر أحداثاً صغاراً كهذه ونحوها ، ولكن لا أحب أن يفهم أحد منها أننا كنا جهلاء لا ندرى شيئاً عن فكرة العدالة المقدسة والحق الواجب الاحترام ، أو أننا كنا ننظر إليها بعين الزاوية والاحتقار ، بل بالعكس لقد كانت العدالة والحق فى المدرسة والكنيسة والحفلات العامة ، موضع تقدير وإجلال ،

بوجه عام ، في غير تخصيص حادث بذاته ، أو مثل بعينه ؛ وأحسبني مضطراً لوصف أحوالنا بالدقة إلى انقول بأنها كانت قائمة على خديعة كنا جميعاً حتى الأطفال منا علمين بها ، ومع ذلك ظلت قائمة لأنها مبنية على شيء لا دخل له بجهل الأفراد وغباؤهم .

وأذكر مناقشة حامية جرت ذات يوم في فرقتي بين الطلبة الذين أدركوا الحُسلُم وأوشكوا أن يصبحوا « مكلفين » ، وبين قسيس « الأبرشية » ، وكان موضوع البحث معرض عرائس كنا قد حضرناه مع القسيس في اليوم السابق ، وهو عبارة عن مخاطرات طفل كان الشيطان يتعقبه ويعذبه ؛ وقد ظهر الطفل على المسرح في بعض المشاهد ، وهو يرعش من الخوف ويحاول في سبيل الفرار من وجه إبليس الاختباء تحت سرير في ركن من المسرح ، ولم يلبث إبليس أن أقبل يبحث عنه ولا يجد مكانه وإن ظل يردد قوله « ولكنه لا بد من أن يكون هنا ، إنني أجدر ريمه ، فلا أسأل هؤلاء الأخيار عنه » ؛ ودار نحونا نحن النظارة وهو يقول « يا أولادى الأعزاء ، هل رأيتم بالمصادفة هذا الولد الشقي الذي أبحث عنه مختمياً غنى في مكان ما » ، فانطلقت أصواتنا جملة واحدة ، وهى تقول :

كلا .. كلا .. كلا !

قال : وأين هو إذن ؟؟

فصحنا به قائلين : لقد انصرف ... ذهب إلى لشبونه . وكانت لشبونه في هذا الجزء الجنوبي من إيطاليا حيث نقيم لا تزال معدودة في أقصى أطراف الأرض . ولم يكن أحدهما حين ذهبنا إلى الملهى يتوقع أن يسأله الشيطان ، فلا عجب إذا كان سلوكنا على هذا النحو غريباً محضاً ، واعتباطاً من كل نواحيه ، وأعتقد أن غيرنا من الولدان في أية بقعة أخرى من بقاع العالم ، كانوا فاعلين عين ما فعلنا .

ولكن قسيس قريننا ، وكان من أفضل الناس وخيرهم علماً وثقافة ، لم يرتضِ عملنا مطلقاً ولم يسر له ، لأننا كذبنا فيه ولم نقل صدقاً ، حتى لقد ذهب يحذرنا ، وهو

قلق الخاطر مغموم ، قائلاً إنه لا يشك في أننا قلنا كذباً ونحن نريد منه خيراً ،
ولكنه كذب على كل حال ، ولا يصح للمرء أن يكذب .

فرحنا نسأله في دهشة : حتى ولو على الشيطان ؟؟

قال : الكذب إثم على كل حال .

فسأله أحدنا : ولو على القاضى ؟؟

فعنفه القسيس بجفوة بالغة ، وقال : إننى هنا أعلمكم مبادئ الدين ، لا الكلام
الفارغ ، وما يحدث خارج الكنيسة لا شأن لى به .

وانثنى يشرح لنا نهى الدين عن الكذب عامة ، والأمر بالصدق ، فى أبلغ
منطق وأحسن تعبير .

ولكن مسألة النهى « عامة » لم تتراهمنا نحن الأطفال ، فقد كنا نريد أن
نعرف : هل كان ينبغى لنا أن نقول للشيطان أين اختبأ الطفل أم لا .

وجعل القسيس يردد القول وهو قلق مرتبك : « ليست هذه هى النقطة ، إن
الكذب كذب على كل حال ، وقد يكون إثماً كبيراً ، أو متوسطاً أو عادياً أو صغيراً ،
ولكنه ذنب على السواء ، ومن واجبنا أن نحترم الصدق ونكبره .

قلنا : إن الصدق فى هذه المسألة بالذات هو أن الشيطان كان فى جانب ، والطفل
كان فى الجانب الآخر ، فأردنا أن نساعد الطفل . هذه هى الحقيقة الصادقة .

ولكن القسيس ظل يقول : ولكنكم قاتم كذباً ، وأعلم أنكم ما قلمتموه إلا لخير ،
ولكنه كان مع ذلك كذباً .

وأردت أن أنهى هذا النقاش ، فأبدت اعتراضاً جريئاً بالنسبة لسنى ، إذ قلت
افرض أن قسيساً كان فى مكان الطفل ، أفكان من الواجب أن نقول الحقيقة
للشيطان ؟؟

وعندئذ احمرَّ وجه القسيس وتحاشى الجواب ، وعقاباً على قحتى عاقبنى على البقاء
إلى نهاية الحصّة راكعاً فوق ركبتى بجانبه .

ولما فرغ من الدرس انثنى يسألنى قائلاً: هل أنت آسف؟

قلت: بالطبع... ولو سألتنى الشيطان عن عنوانك لأعطيته إياه في الحال...!
ولا ريب في أن حدوث نقاش كهذا في فصل مدرسى لم يكن مألوفاً، وإن كانت حرية المناقشات مكفولة في أفقنا «العائلى» وبين أصحابنا وخطائنا، ولكن هذه الحماسة الذهنية لم تثر حركة ولا أحدثت اضطراباً في أفق حياتنا الاجتماعية الرائدة البدائية المهينة...

- ٣ -

وكان هذا النظام الذى يدعونه «ديموقراطياً» قد أدخل من قبل ذلك العهد الذى أتحدث عنه تفاصيل ودقائق فنية جديدة على العلاقات بين المواطن والدولة، وهو «التصويت السرى» فى الانتخابات لأنه أحياناً، وعلى الرغم من أنه لم يكن فى ذاته كافياً لإحداث تغيير أساسى، قد أدى إلى نتائج مدهشة، بل فاضحة، إذا نحن نظرنا إليها من ناحية النظام العام؛ وائن كانت حوادث الانتخابات قليلة وفى ظروف وأوقات متباعدة، ولم تكن لها معقبات عاجلة، فلا تزال أليمة مزعجة.

فقد كنت فى السابعة حين جرت فى إقليمنا أول حملة انتخابية تعيها الذاكرة، ولم تكن لدينا فى ذلك العهد أحزاب سياسية، فلا غرو إذا لم يحدث إعلان ابتداءها اهتماماً كبيراً. ولكن لم يلبث الشعور العام أن ارتفع مدّه حين علم القوم أن «البرنس» سيكون من بين المرشحين. ولم تكن ثمة حاجة إلى إضافة الاسم أو اللقب لمعرفة من يكون هذا «البرنس» الذى سيتقدم إلى المعركة الانتخابية؛ فقد كان رب الضيعة الكبرى التى انحدرت إليه من وضع أجداده أيدىهم على مساحات واسعة من الأراضى المستصلحة فى القرن الماضى، والحقول المترامية على ضفاف بحيرة «فوكينو»، ولا تزال قرابة ثمانية آلاف أسرة أو على الأصح أغلبية السكان، فى خدمة الأمير إلى اليوم وفلاحة أراضيه التى تبلغ مساحتها أربعة عشر ألف هكتار.

وهكذا تنزل الأمير من عليائه ليطالب إلى الفلاحين أصواتهم حتى يكون
« نائبهم » في البرلمان !

ولم يلبث رجاله في المزرعة وصنائه أن اثنوا يقولون للناس في صراحة وسماحة ،
بالطبع : لن يرغم أحد على إعطاء صوته للأمير ، وبالطبع أيضاً ليكن مفهوماً أن أحداً
لن يرغم الأمير على قبول الذين لا يعطونه أصواته في العمل بأراضيه . نحن اليوم
نعيش في عهد الحرية الحقيقية المكفولة للجميع ... أنتم أحرار . والأمير أيضاً حر ...
ولكن إذاعة هذه المبادئ « الحرية » أحدثت ذهولاً عاماً بين معاشر الفلاحين
وقلقاً بالغاً . فقد كان الأمير أبغض مخلوق إلى نفوسهم في البلد كله ، كما هو طبيعي
ومفهوم ، وكان كرههم له ظاهراً ما دام القائم على ربوة عليائه ، وذروة إمارته ،
كبعض الملوك العظام وأرباب الضياع الدهاقين ، وما دام أحد من أولئك الزراع لم
يره إلى ذلك الحين ، ولم يشهده في يوم من الأيام .

وكانت اللعنات تتوجه إليه في غيابه ، وهي لعنات لا تجدى ، ولكنها ترضى ،
وتشفى النفوس من الغل والحقد الدفين .

ولكن ها هو ذا يتنزل من سمانه ، ويبدد السحب التي كانت تحجبه ، وينحدر
إلى آدميين . ويهبط إلى مخلوقات الله ، فلا معدى إذن لهم بعد الآن من قصر التعبير
عن شعور البغض والكره له على مجالسهم الخاصة وأحاديثهم ، والتأهب للترحيب به
واستقباله بمظاهر الخفاوة والتسكريم في الشوارع والدروب إذا تقدم ليطوف بين
الناخبين !

وكان أبى يبدو متأبياً على هذا النوع من المنطق ، كارهاً لهذا المظهر من السلوك ،
وكان أصغر أخوته ، وهم جميعاً من صغار المالكين والمستأجرين ، ولكنها رفض
الخنوع ، وأبى أن يتطامن إلى الأذعان والإمثال .

ففي ذات مساء جاء أخوته الكبار يلحون عليه في سبيل المصلحة المشتركة أن
يأخذ الأمر بالحكمة والسادا والأناة :

وكان ذلك المساء بالنسبة لى مليئاً بكبر العبر والدروس والعظات وإن لم يبد أحدهم اهتماماً بى ، لأن الكبار يحسبون أن الصغار لا يفهمون هذه الأشياء ، ولا يدركون هذه المسائل والأمور .

وقد سمعت الأخ الأكبر يقول لأبى فى معرض النصح والتحذير إن ترشيح الأمير نفسه مهزلة بلاشك وكلام فارغ ، لأن الانتخابات السياسية ينبغي أن تقتصر على المحامين وغيرهم من الكبراء ، ولكن مادام الأمير قد رشح نفسه لها ، فما علينا إلا أن نؤيد هذا الترشيح .

وأجاب أبى قائلاً : إذا كان ترشيح الأمير مهزلة ، فلست أفهم لماذا تؤيده . فقال أخوه الأكبر : لأننا كما تعلم أجراؤه وتابعوه .

وأجاب أبى بقوله : نعم ، ولكننا ليس كذلك فى السياسة ، نحن فيها أحرار . فأجابه إخوته قائلين : نحن لا نزرع سياسة ، بل نزرع الأرض ، ونحن كزراع أو كمالٍ عليه .

قال : ليس فى عقود الإيجار شيء ينص على السياسة ، وإنما تنص العقود على زراعة بطاطس وبنجر وغيرها ، فنحن إذن أحرار كناخين . .

قالوا : وسيكون وكيل الدائرة هو الآخر حراً فى ألا يجدد هذه العقود ، أى أننا مضطرون إلى الوقوف بجانبه .

قال : لا يمكننى أن أعطى صوتى لإنسان مجرد أنتى مكره على إعطائه له ، بل أشعر بإذلال .

قالوا : إن يعلم أحد شيئاً عن تصويتك ، فإن إعطاء الأصوات يجرى بطريقة « سرية » فى الصناديق ، وفى استطاعتك أن تكون حراً كما تشاء ، ولكن فى أثناء الحملات الانتخابية يتحتم علينا أن نكون جميعاً فى صفوف مؤيديه .

قالى : كان يسرنى أن أفعل لولا أنتى أستحي منه . صدقونى إننى من أمر كهذا شديد الحياء والاستنكاف .

وحاول أعمامى تسوية الخلاف مع أخيهام بشيء من التوفيق بين الرأيين فتم الاتفاق على ألا يقف أبى فى صف الأمير ، ولا فى صفوف منافسيه .

واشترك فى إعداد العدة لطواف الأمير بأرجاء دائرته الانتخابية كل من السلطات المدنية ورجال البوليس والشرطة المسلحين بالقرابينات « الخفر » وعمال دائرة سموه وموظفيه .

وتفضّل الأمير فى يوم واحد وتعطف بالمرور على القرى الكبيرة فى دائرته ، دون أن يقف لحظة بها أو يلقي خطاباً انتخابية .

وقد ظلت ذكرى هذه الزيارة ماثلة فى أذهان أهل بلدنا فترة طويلة من الدهر ، لأنه جاء فى سيارة ، وكانت تلك هى المرة الأولى التى شهد فيها القوم السيارات ، بل إن كلمة « سيارة » ذاتها لم تكن قد وجدت بعد مكاناً لها فى لغتهم اليومية ودارج كلامهم ، حتى لقد راح الفلاحون يدعونها « مركبة بلا جواد » وشاعت فى مجالسهم حكايات وحركات عن القوة المحركة « الخفسيّة » التى حلت فيها محل الخيل ، والسرعة الشيطانية التى تستطيع أن تصل إليها ، والأثر المدمر الذى تحدثه بالرأحة المتخلفة عنها فى مزارع السكروم وعرائشه .

وقد خرج الناس عن بكرة أبيهم فى ذلك اليوم للقاء الأمير على الطريق الذى سيمر منه موكب ، وظهرت بوادر عدة على إعجاب القرويين به ، وحبهم له ...

لقد ارتدوا أحسن ما عندهم من ثياب ، وكانوا فى حماسة ظاهرة لا يخفى أمرها على اللبيب ، ووصلت « المركبة الخالية من الجواد » متأخرة ، واخترقت صفوف الحشود المتراصة صافرة مدوية زائرة ولم تقف ، بل لم تتأد فى مسيرها ، تاركة فى أثرها سحابة كثيفة بيضاء من الدخان .

وأقبل عمال الدائرة يشرحون لمن يريدون بياناً قائلين إن هذه المركبة بلا جواد إنما تسير بالبخار الذى يحدثه « البنزين » فلا تقف إلا حين ينفسد هذا الزيت منها ،

فهى ليست كاخليل كل ما يحتاج المرء إليه لوقفها عن المسير لا يتجاوز شد اللجم ، إذ ليست لها أعنة . فهل رأيتم لها بالله عليكم عناناً أو لجاماً ... ؟!

و بعد يومين وصل من روما شيخ قصير القامة يضع منظاراً على عينيه ، ويمسك بعضاً سوداء اللون وحقيقية ثياب صغيرة ، ولم يكن أحد من القوم يعرفه ، فقال إنه « طيب عيون » وإنه مرشح نفسه للنيابة عن الدائرة إزاء الأمير ، فالتف به جمع قليل من الناس فضولاً ولهفة على معرفة خبره ، وكان أكثرهم من النساء والصبيان ، الذين لا حق لهم فى الانتخاب ، وكنتُ بين الصبيان الذين أحاطوا به وقد بدوت فى « بنطلونى » القصير متأبطاً كتب المدرسة .

وطلبنا إلى الشيخ أن يخطب فينا .

قال : ذكروا آباءكم أن التصويت سيكون « سرياً » هذا هو كل ما أقوله لكم .
وانثنى بعد ذلك يقول : « إننى رجل فقير ، أرتق من طب العيون فإن كان أحدكم يشكو أذى من عينيه عاجلته بلا مقابل » .

فسقنا إليه امرأة عجوزاً تباع الخُصْر وتُشكو من ألم فى عينيهما فمسحهما وأعطاها « قارورة » صغيرة لتقطر قطرات منها فيهما وشرح لها طريقة الاستعمال ، وأنشأ يقول لنا ، وكنا جمعاً من الغلمان : ذكروا أهلـكم بأن إعطاء الصوت سيكون « سرياً » .
وانصرف .

ولكن فوز الأمير فى الانتخاب كان مؤكداً بدليل الحشود الحاشدة التى رحبت به فى طوقه الانتخابية ، حتى لقد راح رجال الإدارة وموظفو الدائرة يعلنون مقدماً البرامج الموضوعة للاحتفالات القادمة بفوزه المنتظر ونصره المؤكد .

أما أبى فقد نفذ الاتفاق الذى تم بينه وبين إخوته فلم يؤيد أحداً من المرشحين المتنافسين ، وإنما عمل على أن يتم تعيينه عضواً فى لجنة فرز الصناديق .

وما كان أشد دهشة الناس ، وأكبر ذلتهم ، حين تبين أن أغلبية كبيرة من

الناخبين أعطت أصواتها لذلك الطبيب الخامل الجهمول ولم تعطها لصاحب السمو
الأمير الخطير ، اعتماداً على سرية الانتخاب .

لقد كانت النتيجة فضيحة بالغة ، وإن كانت « الإدارة » قد سمّتها
« خيانة منكرة » .

ولكن هذه « الخيانة » كانت عامة فلم يستطع موظفو زراعات الأمير أن
ينتقموا من أحد بالذات .

وعادت الحياة في القرية بعد ذلك سيرتها الأولى ، ولم يسأل أحد نفسه ، لماذا
تبدو إرادة الشعب هكذا على فترات متقطعة ؟؟ وما ضررها لو أنها بدت ثابتة مستقرة
حتى يتم تنظيم الحياة العامة ويتوائم تهذيبها وبناء كيائها من جديد ؟؟
ولكن لا يحسب أحد عند تحليل هذه الحادثة التي سردها أن العائق الأكبر في
هذا السبيل هو « الخوف » ، فإن قومنا لم يعرفوا الخوف يوماً في حياتهم ولا كانوا
الهيّابين المنزوين ، بل بالعكس لقد أحالتهم قسوة المناخ ، ووطأة الكدح ، وشدة
التنازع على البقاء ، والصراع على الرزق ، من أكثر الناس جلاً وأشدّهم مراساً ،
وأقواهم شكيمة وبأساً ، في كل إيطاليا وروبعها المختلفة ، حتى لتجدن في تاريخ
إقليمنا أحداث الثورات العنيفة المدمرة الوحشية على قصر آجالها ، أكثر تردداً فيه
من حوادث الانتخابات والمفاجآت السياسية في نتائجها النهائية ، وقد يستطيع هؤلاء
القوم المتهنون الذين يُدّاسون بالأقدام أن يتحملوا أشدّ الحن والمساءات بلا ضجّر
ولا شكاة ، ولكنهم قد ينفجرون يوماً ويشيرون ثورة عرصة في أوقات غير مرتقبة
وظروف فجائية لم يكن أحد يحسب لها أقل حساب .

وكان في قريتنا على العهد الذي أتحدث اليوم عنه قرابة خمسة آلاف نفس ،
ويتولى أمر النظام فيها نحو عشرين جندياً بقيادة « ملازم » ، ويكفي هذا العدد الكبير
من رجال الحفظ في قرية صغيرة للدلالة على المعنى المنطوي عليه ، ولم يكن ثمة تعاطف

بين جنود الجيش ورجال الحفظ خلال الحرب العالمية الأولى، لأن هؤلاء كانوا يعملون في المناطق الخلفية وراء الجيش والقوات المحاربة، ويقال إن بعضهم كان يتدخل كثيراً في أمر زوجات الجنود المحاربين في الجبهة وشؤونهم المالية. والمألوف في القرى والداكر أن تعطى الإشاعات التي من هذا القبيل أهمية بالغة، وتضرب عليها الأمثلة الخاصة، والقرائن الشخصية، فقد حدث في ذات مساء أن وقع شجار بين ثلاثة جنود من الجيش كانوا عائدين أخيراً من الجبهة وبين بعض رجال الحفظ، فلم يكن من هؤلاء إلا أن قبضوا عليهم واستاقوهم إلى المحقر.

وكان هذا الإجراء سخيفاً من البداية وأنفي ما يكون للرجولة والكرامة، ولكنه لم يلبث أن انتهى بتصرف أسوأ وإجراء أسخف، إذ عمد الضابط قائد الدرك إلى إلغاء إجازات الجنود الثلاثة وإعادتهم إلى الجبهة.

وكنت صديقاً حميماً لأحدهم، وقد استشهد فيما بعد في المعارك، فجاءتني أمه تنتحب وأنبأتني الخبر، فتوسلت إلى العمدة والقاضي، والقسيس، أن يتوسطوا في الأمر فكان جوابهم جميعاً أنه خارج عن دائرة اختصاصهم.

وعندئذ لم يسعني إلا أن أقول لهم: إذا كان الأمر كذلك فلا سبيل أمامنا غير

« الثورة » !

وكنا قد ألفنا أن نفوه بهذه الكلمة البغيضة في أحاديثنا إذا أردنا أن نصف مظاهرة صاحبة لا أكثر ولا أقل؛ فقد حدثت «ثورتان» من هذا القبيل في قرينتنا خلال أعوام الحرب، فكانت الأولى منها ضد المجلس القروى بسبب جرایة الخبز، وكانت الأخرى ضد الكنيسة لنقل مركز الأسقفية إلى بلد آخر.

أما الثالثة التي سأورد الآن قصتها، فقد انحدرت مع التاريخ باعتبارها «ثورة» من أجل أولئك الجنود الثلاثة، فقد تقرر أن يتولى حرس مسلح مرافقتهم إلى القطار في الساعة الخامسة مساءً، ولهذا أعدت العدة للقيام «بالثورة» قبل هذا الموعد بنصف

ساعة ، وتم الاتفاق على أن تكون أمام « الشكنات » ، ومن الأسف أنها اتخذت دوراً أكثر جدية مما كان في الحسبان .

فقد بدأت مزاحاً ، وكنا ثلاثة غلمان البادئين بها .

وفي اللحظة المتفق عليها ذهب أحدنا إلى برج الناقوس وراح يدقه دقات متواصلة وهي الإشارة المعروفة في البلد بأنها إيذان بحريق كبير أو خطر داهم ، وأما الآخران فقد انطلقا يستقبلان الفلاحين المقبلين لينبئاهم بحجية الخبر .

وكان القرويون قد سمعوا قرع الناقوس على هذا النحو ففزعوا من رنينه ، ووقفوا عن العمل في الحقول وانطلقوا سراعاً إلى القرية مروّعين ، ولم تمض لحظات حتى اجتمع حشد صاخب منهم أمام « الشكنة » ، وراحوا يسبون ويشتمون ويرشقون الجنود بالأحجار ، وما لبثت النيران أن أطلقت في الفضاء ، وظل القوم محاصرين الشكنة إلى ساعة متأخرة من الليل ، وقد اشتد هياج القرويين وتناهى بهم الحنف ، فأقبلوا يهجمون على المعسكر ويحطمون منه النوافذ والأبواب ، ويقتحمون المكان اقتحاما ، وإذا بالجنود يلتمسون الفرار إلى الحقول تحت جنح الظلام .

وأما الجنود الثلاثة فقد نسي القوم أمرهم كل النسيان فلم يلبثوا أن تسللوا إلى بيوتهم دون أن يشعر بهم أحد .

وهكذا وجدنا نحن الغلمان أنفسنا سادة الموقف ليلة كاملة .

وانثنى الغلمان الآخران يسألانني قائليين « والآن ماذا نحن فاعلون ؟؟ »

وكان نفوذى فيهما يرجع إلى معرفتي « اللاتينية » دونهما .

قلت : إن القرية ستحتل في الصباح بمئات من الجنود المسلحين ورجال الشرطة والدرك القادمين من « أفيزانو » وسلمونا وأكويلا ، وربما من « درنة » أيضاً .

فعادا يسألان قائليين : وماذا سنفعل نحن الليلة قبل قدومهم ؟ .

قلت وأنا أحزر ما في خاطرها : إن ليلة واحدة بالطبع لا تكفي لإقامة نظام جديد في القرية .

قالا : ألا نستطيع أن نستغل الموقف ، وننتفع بذهاب القوم إلى المراقد ، فننادى بالاشترائية ونقيمها فعلا .

ولعلمهما كانا لا يزالان متحمسين هائجين من الصخب الذى حدث فى المساء ، أو لعلمهما كانا فعلا يعتقدان أن فى الإمكان إحداث حدث ما فى تلك الليلة بالذات ، وإن لم يصارح أحدهما بذلك ولا اقترحه .

وقال أحدهما أخيراً : لا أظن فى استطاعة أحد أن يفعل شيئاً كهذا فى ليلة واحدة ، حتى وإن كانت القرية فى النوم غارقة ، ولكن الشئ الوحيد الميسور هو أن ننام فى فراشنا الليلة قبل أن نذهب إلى السجن .

وكنا مكدودين متعبين ، فرأينا هذه النصيحة معقولة ومقبولة فعملنا بها ..

وكان تكرار حوادث العنف الماثلة لهذا الحادث وما يعقبها حتماً من اعتقالات ومحاكمات وأنعاب قانونية وأحكام بالسجن — من شأنه أن يزيد الفلاحين رغبة وتشككاً واستهزاء بالسلطات ، وكرهية للإدارة ورجاها فلم تلبث « الدولة » أن أصبحت فى نظرهم شرأ مستطيروا ، وداء لا دواء له ، وجعل كل فرد طيب يريد النجاة بجلده يتجنب ما استطاع الاتصال بالدولة ، أو الاحتكاك بها ؛ بل أصبحت الدولة علماً على الغش والنصب والظلم والاحتساب ، فلا سبيل إلى تغييرها ، لا بالقوة ولا بالقانون ، فإذا نالها يوماً شئ من القصاص أو الانتقام ، فما ذلك إلا تدبير من الله ورحمة من لدنه .

— ٤ —

وحدث فى عام ١٩١٥ زلزال عنيف لا مثيل له فى عنفه فدمر شطراً كبيراً من إقليمنا وقتل فى ثلاثين ثانية قرابة خمسين ألفاً .

وقد عجبت لقومى كيف تقبلوا هذه الكارثة المروعة بهدوء كأنها حادث مألوف ومضوا ينظرون إلى تعليقات علماء طبقات الأرض له ، وتفسيراتهم المعقدة فى الصحف

السيارة بعين الاستخفاف والاحتقار ، فقد ألف الناس في إقليم كقليمنا حيث تبقى المظالم المتعددة بغير عقاب ، أن يعدوا الزلازل المتكررة مجرد ظواهر طبيعية لا تحتاج إلى تعليل ، بل لقد كان عجبهم ألا يقع منها الكثير ، ولا تتوالى منها الكوارث ، ففي الزلازل يهلك الأغنياء والفقراء والعلماء والجهلاء والحكام والمحكومون على السواء وهنا أيضاً سر جلد الإيطاليين المعروف حين تواجههم نكبات الطبيعة ومحنها ، وعلّة قوة احتمالهم للمصائب والقوارع والخطوب .

ولا يخفى أن الزلزال يحقق مايقول به القانون ولا ينفذه فعلا ، ونعني به «المساواة العامة بين الناس» .

وحدث أن عجوزاً من جيراننا لبثت دفيئة تحت الأنقاض في دارها ، وكانت ربة «مخبز» عدة أيام ، ولم يكن قد أصابها من الزلزال سوء ، وإن دمر الدار تدميراً ، لأنها لم تدرك أن المصائب عام ، وإنما ظنت أن بيتها وحده هو الذي تداعى ، إما من عيب في بنائه ، أو لعنة دعا بها داع عليها ، فكان زهولها بالغاً ، حين جاء جماعة من المنقذين لإخراجها من بين الأنقاض ، حتى لقد رفضت الخروج بتاتا وأصرّت على البقاء ، ولكنها لم تن أن هدأت ، وثابت إليها قوتها ورغبتها في الحياة وإصلاح البيت بعد تداعيه ، عندما قيل لها إن زلزالا قد وقع وإن عدة بيوت وأكواخ قد تداعت كما تداعى بيتها .

وقد بدا لقومنا الفقراء في هذه البقعة من العالم أن مصاب الزلزال كان أهون من المصائب الذي وقع بعده ، فإن البرنامج الذي وضعته الحكومة لاعادة القرية اقترن من بداية التنفيذ بدسائس لا تحصى وسرقات واختلاسات واحتيالات لا تعد ، وصاحبه من الغش والنصب ما صاحبه .

وجاءني أحد معارفي وكانت إحدى المصالح الحكومية قد فصلته من العمل يشرح لى أموراً ومسائل كثيرة عن تصرفات جنائية كان كبار المهندسين في المصلحة يأتونها .

فلم أعجب مما سمعت ، ولكني تأثرت ، فبادرت بنقلها إلى بعض أهل النفوذ
من كنت أعرف عنهم النزاهة والاستقامة حتى يستطيعوا التشهير بأولئك الجناة .
ولكن أصحابي الموقرين أكدوا لى صحتها ، ولم يحاولوا إنكارها ، وإنما راحوا
ينصحون لى بالألا « أحشر نفسى فيها ، وألا أتدخل فى هذه الأمور ونحوها » فائلين
بلمهجة الإشفاق إنك لا تزال شاباً فى مقتبل العمر ، ولا بد لك من إتمام دراستك ،
وأمامك مستقبلك تحرص عليه ، فلا تشغل إذن نفسك بما لا يعينيك ...
وقلت : من الخير بلاشك أن يأتى التشهير بهم من قوم كبار مثلكم أهل نفوذ ،
لا من شاب مثلى فى السابعة عشرة .

فما كادوا يسمعون هذا القول حتى بهتوا وراحوا يقولون « إننا لسنا مجانين ،
مالنا ولهذا ، نحن فى حالنا ، فلا ندخل فيما لا يعيننا » .

فذهبت إلى بعض القساوسة المحترمين وحدثتهم بالخبر ، كما أفضيت به إلى بعض
الأفراد الذين عرفت فيهم الشجاعة والإقدام .

فكانوا جميعاً يعترفون بأنهم بتلك التصرفات المعيبة عارفون ، ولكنهم يرجون
منى ألا أضع إصبعى فى الشق ، بل ينبغى أن ألتفت إلى دراستى وأتنبه إلى نفسى
وأحرص على مستقبلى .

قلت : بكل سرور ، ولكن أليس فيكم رجل يرتضى فضح أولئك اللصوص .
فكان جوابهم فى سخرية « لسنا مجانين ، إن هذه المسائل وأشكالها ليس لنا
شأن بها » .

وعندئذ مضيت من عجب أسائل نفسى : أليس من الخير حقاً أن أتولى بمعاونة
فريق من الغلمان والشباب تنظيم ثورة جديدة تنتهى بحريق رهيب يأتى على مكاتب
أولئك المهندسين الفاسدين المرتشين ، لولا أن ذلك الصديق الذى نبأنى بتفاصيل
تصرفاتهم ذهب يقول لى إن إشعال حريق فى مكاتبهم من شأنه أن يذهب بالأدلة
عليها والبيئات .

وكان الرجل أكبر سناً وأكثر تجربة ، فاقترح على أن أسعى في نشر فضائهم في بعض الصحف السيارة .

قلت : وأية صحف تحسبها ترضى النشر ؟

قال : إن هناك صحيفة واحدة قد يهمها نشر هذه الفضيحة ، وأعني بها الصحيفة « الاشتراكية » .

وعندئذ عكفت على كتابة ثلاث مقالات ، هي أول ما كتبت في حياتي ، وقد ضمنتها تفاصيل تصرفات مهندسي الدولة في إقليمنا وبعثت بها إلى جريدة « أفانتي » وإذا بها تنشر المقالين الأولين منها في الحال ، ولم يكد القراء يطالعونها حتى بدا الاهتمام بالأمر بالغاً . ولكن لم يحدثنا أثراً ما في الأوساط الحكومية .

ولم يظهر المقال الثالث ، وعلمت فيما بعد أن اشتراكياً كبيراً توسط لدى هيئة التحرير .

وتبين لي أن شبكة الغش والخداع والاحتيال أوسع مدى مما بدت لي أول مرة وأن الفساد المتصل بها قد امتد إلى « الاشتراكية » ذاتها ، وإن كانت الفضيحة الجزئية التي ظهرت فجأة في الصحف كافية لرفع عدد من القضايا أو تأليف « لجنة تحقيق » .

ولكن شيئاً من هذا أو نحوه لم يحدث .

ولم يحاول المهندسون الذين قلت عنهم إنهم لصوص ومختلسون ، وقذفتهم بهم معينة ، أن يبرئوا أنفسهم مما اتهموا به علانية ، أو يصدروا تكذيباً عاماً .

ومضت فترة ارتقاب لما عسى أن يفعلوه ، وإذا بالقوم يعاودون أعمالهم كأن لم يحدث شيء ..

وقد عد الأبرار والراغبون في الخير ، هذا الطالب الذي أقدم على هذا التحدي الجريء فتى قوياً شجاعاً .

ولا يصح أن ننسى أن الفاقة الضاربة أطنابها في الأقاليم الجنوبية من إيطاليا لا تدع مجالاً فسيحاً للعمل أمام الشباب الذين تخرجهم المدارس ألوفاً في كل عام ، فلا عجب إذا كان كل هم الشباب الظفر بعمل في الحكومة ، ولا يخفى أن وظائفها لا تحتاج إلى قسط غير مألوف من الذكاء ، وإنما كل ما تطلبه الخفوع والاستخذاء ومجاراة السياسة القائمة ؛ فلا عجب إذا رأينا فتيان الجنوب الذين نشأوا في الجو الذي وصفته لكم ينزعون بطبيعة الحال ، إذا هم أوتوا ولو نصيباً يسيراً من الشعور بآلام البشرية ومظالمها ، إلى التمرد والثورة والفوضى . وأما الذين لا يزالون على أبواب الشباب فهم يعدون الانخراط في سلك الوظائف الحكومية استسلاماً وخضوعاً وامتثالاً لعقولهم وإزاء بأرواحهم . وهذا هو الذي جعل الناس يقولون « فوضويون في العشرين ومحافظون في الثلاثين » .

ولا ننس أيضاً أن التعليم الذي يلقن في المعاهد العامة والخاصة منها على السواء لا يتوخى تقوية الأخلاق وغرس مكارمها في النفوس .

وقد قضيت الأعوام الأخيرة من عهد الدراسة والطلب في معاهد كاثوليكية خاصة ، وكان تعليم اليونانية واللاتينية فيها على أحسنه ، ورياضة الشباب على حسن الأخلاق وكريم العادات والخلال سهلة صريحة واضحة ، ولكن تعليم الحقوق الوطنية والتدريب على ممارستها كان مزمياً إلى حد يؤسف له ، وكان معلمو التاريخ لدينا ينقدون صراحة الآراء والنظريات الرسمية ، وكان تاريخ النهضة وأبطالها أمثال مازيني وجاريبالدی وفيكنتور عمانويل الثاني وكافور موضع سخريه وانتقاص ، كما كان أدباء العصر من نحو كاردوتشي ودانوزيو محل امتهان وإزاء .

ولم تكن هذه الطريقة في التعليم تخلو من فوائد ، لأنها تروض أذهان الشباب على روح النقد وصناعته ودقائقه ، ولكن معلمينا الدينين كانوا يريدون أن يعدونا للامتحانات الحكومية ، وكانت شهرة مدارسهم ونجاحها قائمين على حسن نتائجها ،

فلا عجب إذا هم راكحوا يعلموننا أيضاً ويوصوننا بأن نكتب في الامتحانات عكس ما كانوا يلقنونه لنا ، ونقيض ما كانوا بالأمس يحاولون إقناعنا به .

ولكن الممتحنين الموفدين من قبل وزارة المعارف لاختبارنا شفويًا ، والعارفين بأننا قادمون من هذه المعاهد الخاصة ، كان يروقهم أن يوجهوا إلينا أسئلة في الموضوعات الجدلية ثم يمتدحون بتحكم الطريقة الحرة التي تتبع في تعليمنا ؛ فكان الكذب والنفاق والرياء في هذا كله ونحوه من الوضوح بحيث يؤثر أسوأ الأثر في نفس كل فتى أوتى بالسليقة والقطرة أقل نصيب من احترام الثقافة وتقديرها ؛ ولكن لم يكن ثمة مفر مع ذلك من أن ينتهي الطالب في الأغلب الأعم إلى اعتبار الشهادات والوظائف التي سيظفر بها بعد التخرج ، أسمى حقائق الحياة وأعلىها ذروة ...

وقد ألف الدكتور ف . ج ، وهو طبيب في قرية مجاورة لقرينتنا ، أن يقول إن الذين ولدوا في هذا الإقليم تعساء حقًا وعاثرو الخطوط ، فليس أمامهم شيء وسط ، فإما أن يتمرّدوا ويثوروا ، وإما أن يصبحوا في الجريمة شركاء .

وقد تمرد هو وأعلن أنه يدين بالمبادئ الفوضوية ، ومضى يلقي خطابًا «تولستويّة» على الفلاحين ، ولكنه لم يلبث أن أصبح ضحكة الإقليم كله ، فقد تبرم به الأغنياء ، واحتقره الفقراء ، ولم يكن يشفق عليه سرًا إلا قليل .
وانتهى الأمر بفصله ، وقضى نحبه ... جائعًا ساغبًا !...

— ٥ —

وإنني لأشعر بأن هذا الذي مضيت أقصه على الناس في هذه الصفحات يبدو من الإيجاز بحيث يدنو من حدود الاختصار ، ويلوح تكلفًا شاقًا ، ومجرد إجهاد ، فإن عرضت له اليوم فلست أريد أن أنفيه ، ولا أبني أن أقسم على صدق ما جاء فيه ، لأن كل ما يمكنني أن أقوله هو أنني أضمن إخلاصي في سرده ، ولا أضمن نزاهته وموضوعيته ، وإنني أحيانًا لأعجب وأدهش كلما عدت بالذاكرة إلى

ذلك العهد البعيد حتى ليكاد يلوح قبل التاريخ ، عهد العيش الذي تقاسمته ومعاصري
وأهل بلدى ، كيف أصبحوا لا يذكرون منه شيئاً ، أو إذا ذكروا منه فلا يتجاوز
ذكرهم إلا النزر اليسير ، من خلال سحب النسيان وغمام الغموض ، بينما أراهم
يذكرون ظروفًا لا أهمية لها ، ولا تنطوى على أية دلالة أو خطر ، فهل كان هؤلاء
المقاصرون إذن « شركاء » فى الجريمة ، وهم لا يشعرون ... ؟؟

وكثيراً ما أسأل نفسى بأى قدر أو فضيلة يأتى على المرء حين من الدهر يختار فيه
بين أن يكون مشتركاً فى الجريمة أو يكون متمرداً ناثراً؟؟ . ومن أين لبعض الناس
هذا الذى أوتوه من الأنفة وإباء الضيم والسخط على المظالم ، حتى وإن وقعت للغير
وأصابت الآخرين ، بل من أين لهم ذلك الإحساس الفجائى بالإثم إذا هم يوماً جلسوا
إلى مائدة حافلة بأطياب الطعام بينما غيرهم يكادون يهلكون جوعاً ، وأين لهم ذلك
الرضى بالفقر وإيثار السجن على المهانة والخنوع ... ؟؟

لست أدرى ، ولا أحسب أحداً يدرى ، فإن أكمل الاعترافات وأبلغها قد
تصبح عند نقطة معينة مجرد إيراد الوقائع ، ولا تكون جواباً ، وكل من فكر يوماً
فى أمر نفسه أو أمور سواه ، لا بد قد أدرك كيف تروح بعض القرارات سرداً عميقاً ،
وكيف تصبح بعض الأقوال غريبة كل الغرابة ، مجهولة الأسباب والعلل والمؤثرات .
وكانت فى ثورتى النفسية وتمردى نقطة يتلاقى عندها الكره والحب ، أو نشأة
الوقائع التى بررت غضبى وسخطى ، والدوافع التى أثارتها ، والبواعث التى حفزتها ،
من ظروف الإقليم ذاته الذى ولدت فيه . ولعل هذا هو أيضاً السر فى أن كل ما اتفق
لى من قبل أن أكتبه - ومن يدرى لعل كل ما سأكتبه - متصل مباشرة بذلك
الإقليم ، أو على الأصح بذلك الجزء منه الذى يمكن أن يشاهد من مسقط رأسى .
وهى مسافة لا تتجاوز ثلاثين أو أربعين كيلو متراً عن كلا الجانبين ، رغم كثرة
أسفارى ، وطول مقامى فى الخارج . فهو إقليم كبقية ولاية « ابروزى » بجملتها ،
فقير فى تاريخه ، ويكاد يكون بأسره مسيحياً فى تكوينه ، ومتخلفاً من عهد القرون

الوسطى فى نشأته . فليس فيه من أبنية تستحق الذكر غير الكنائس والأديرة . ولم ينبغ من أهله عَبرٌ عديد القرون والأجيال إلا القديسون والمثالون والنحاتون فى الصخر . وما برحت ظروف العيش فيه على الدهر قاسية شاقة ، وكان الألم طيلة الزمان مقبولا عند أهله كأول ناموس من نواميس الطبيعة ، فلا غرو إذا هم رحبوا « بالصليب » وأجلوه وأكبروه ، لأنه رمزُه وإشارته؛ وأصبحت « الفرنسيسكانية » والمذهب الفوضوى على مر السنين المظهرين الغالبين على غيرها من مظاهر التمرد والثورة من جانب النفوس الحية المتحمسة الشفافة فى هذه البقعة من الدنيا . ولم يستطع الدخان المتصاعد من رماد « التشكك » أن يخنق يوماً فى قلوب المعذبين ، والى كادحين ، والناقمين ، الأمل القديم فى ملكوت الرب على الأرض وقيام الخير مقام القانون ، ذلك الحلم القديم الذى كان يترأى لجُيُوسا كيمو دافورى ، والأمنية التى كانت تجول فى نفس البابا سيلستينو^(١) ، وإنها حقيقة على أكبر جانب من الأهمية والخطر لأنها فى بلد قاحل مكدود مستئس منهوك القوى كبلدنا ، يبلغ فى الواقع مبلغ الغنى ، ويقع موقع الثراء ، بل هو فى الحق مدّخر عجيب بالغ العجب ، واحتياط صبر لا ينفد ، وإن كان معاصر الساسة جهلاء بوجوده ، ورجال الكنيسة والإكليروس هيايين منه وجلين ؛ وقد لا يعرف أين يجده غير الأبرار والقديسين . ولكن الأمر الأوحد الذى ظل دائماً أشق شئ علينا ، بل يكاد يكون ضرباً من المستحيل فى تقديرنا ، هو البحث عن الوسائل المعينة على الثورة السياسية لقيام مجتمع حر منظم .

ولكننى ظننت أننى وحدى الذى اهتديت إليه حين انتقلت إلى المدينة ووقع لى أول اتصال بالحركة العالمية ؛ وكان انتقالى نوعاً من الهرب ، وخروجاً من عزلة لا نطاق ، ونجاة من وحدة لا تحتمل ، والتماساً « للأرض الثابتة » ، أو اكتشافاً لقارة جديدة ؛ ولكن لم يكن من السهل التوفيق بين نفس متمردة على الواقع الأليم فى البيئة

(١) بعض رجال الدين الذين كانوا يحلمون بهذه الأمنية الخيالية ، كما هو مدون فى تاريخ القديسين المسيحيين القدامى .

الاجتماعية، والمظالم القديمة المتأصلة فيها، وبين المطالب «العلمية» التي تقتضيها عقيدة سياسية مقررة الخطوط مبينة المعالم والأصول؛ ولم يكن انضمامي إلى الثورة العالمية في نظري مجرد تعهد أوقعه، و«استمارة» أذيلها بامضائي، فأصبح عضواً في حزبها، وفرداً منتمياً إلى هيئة سياسية قائمة، بل كان اعتناقاً، واندماجاً كلياً، وثقافياً تاماً. وكان إعلان المرء أنه أصبح «اشتراكياً» أو أمسي «شيوعياً» يعدل في تلك الأيام الأولى الإلقاء بنفسه في مهاب الريح، والقطيعة بينه وبين الأهل، والتشرد في الحياة، والخلاء من الرزق. وإذا كانت النتائج المادية قاسية ألّمة، فلا تزال رياضة الروح عليها أشق وأقسى؛ فقد كان عالمي الذي أعيش فيه، عالم «القرون الوسطى» الذي ورثته وتأصلت جذوره في أعماق نفسي، ومنه استوحيت في الواقع الحوافز إلى التمرد، والانبعاث إلى الثورة — قد بدأ يهتز من القواعد، كأن زلزالاً قد أصابه وهزة أرضية قد مسته، فلم يلبث كل شيء أن أصبح في «البوتقة»، وأمسي مشكلة من المشاكل ومعضلة معقدة، فالحياة والموت، والحب والبغض، والخير والشر، والصدق والكذب، قد تغيرت معانيها أو فقدتها بتاتاً؛ وقد يسهل على المرء أن يستهدف للخطر أو يلقي بنفسه إليه، إذا هو لم يعد وحده، ولم يبق منقطعاً عن سائر الناس؛ ولكن من ذا الذي يستطيع أن يصف الأثر النفسي الأليم الذي يحدثه إلغاء الإيمان بخلود الروح البشرية وبقائها إلى أبد الآبدين. وكان من أشق الأمور على خاطري أن أبحث في هذه المسألة مع أحد من الناس، ولو أنني ناقشت فيها رفاقي في الحزب لجعلوها موضع سخرية مني ومثار استهزاء، ولم يعد لي يومئذ أصدقاء آخرون، فلا غرو إذا اتخذ العالم كله في عيني شكلاً آخر، وإن جهل الذين حولي ما عراني، ولم يفطن الناس لما كان يعتمل في خاطري.

حقاً ما أحوج الناس إلى الإشفاق والرثاء...

وكانت ظروف الحياة التي يضطر الشيوعيون إلى النزول على حكمها بسبب غزوة «الفاشية» للدولة، واستئثارهم بالحكم والسلطان، شاقة كل المشقة، وفيها كل العنت

والحرج ، وإن ساعدت مع ذلك على صحة النظريات التي كان الشيوعيون ينادون بها ، ومن شأنها أن تهيبُ الفرصة لخلق نوع من النظام لا يتمشى مع العقلية الشيوعية بحال من الأحوال .

وقد اضطرت أنا أيضاً إلى رياضة نفسى عدة سنين على العيش غربياً في بلادى ، ولا مفر للمرء من انتحال اسم غير اسمه ، وفصم كل علاقة قديمة بأسرته وأصحابه ، واتخاذ حياة كاذبة لإزالة كل ريبة تخوم حوله ، أو ظن بأنه مشترك في نظام هدام . وأصبح الحزب هو الأسرة والمدرسة والكنيسة والشكنة . أما العالم المتراعى خلف ذلك كله ، فلا معدى عن تدميره وإنشائه من جديد ؛ وكان النضال النفسى الذى يجعل كل مجاهد متصلاً بالجماعة ، أشبه بذلك النضال الذى يشاهد في بعض الملل والنحل والمذاهب الدينية أو الكليات الحربية ، مع تشابه النتائج ، وتماثل المعقبات ؛ فكانت كل تضحية مقبولة مرتضاة كمساهمة شخصية من الفرد في ثمن « خلاص الجماعة » . ولا تنس أيضاً أن الروابط التي كانت تربطنا بالحزب جعلت تنمو على الأيام وتزداد توثقاً ، لا على الرغم من المخاطر والتضحيات التي تقتضيها ، بل بسببها ؛ وهذا هو سر فتنة الشيوعية لعقول فريق معين من الشباب ، والمستنيرين ، وسريعي التأثر ، وكرام النفوس الذين يؤلمهم أشد الإيلام ما يرونه من معاييب الحياة البورجوازية وعيبتها وفسادها ؛ فكل من يحسب أنه قادر على انتزاع أحد من خيرة الشباب وأكثرهم رزانه وجداً ، من مخالف الشيوعية ، واجتذابه إلى « الصالونات » الدافئة ، والقيعان البديعة ، للعب « البليارد » ، إنما يطاوع فكرة خاطئة عن نفسية البشر .

- ٦ -

فلا عجب إذا لم تؤثر في خاطري الأزمات الداخلية الأولى التي أصابت الشيوعية الدولية ، ولم أتحرك لها ، أو أعابها ؛ وكانت تلك الأزمات قد نشأت من أن الأحزاب التي استمسكت بالدولية الجديدة ، عقب قبول الشروط الواحد والعشرين التي وضعها

لينين للدخول في حظيرتها ، لم تكن في الواقع متجانسة ، وإنما كل ما كانت مشتركة فيه لا يعدو كراهية الحروب الاستعمارية ونتائجها ، وإجماعها على اعتناق الأفكار الإصلاحية التي كانت الدولية الثانية ترددها ؛ أما ما عدا ذلك فقد كان كل حزب منها صورة صادقة لمدى تطور بلاده وتفاوته في التقدم والرقى . ومن هنا ظهر التباين البالغ في وجهات النظر بين البلشفية الروسية التي أنشئت في أفق كانت الحرية السياسية والفارق في السكيان الاجتماعى غريبين عليه ، وبين الجماعات الاشتراكية اليسارية في الدول الغربية ؛ فلا غرو إذا كان تاريخ الدولية الشيوعية هو تاريخ الانشقاقات والدسائس ، وصلف الهيئات الروسية المتزعمة الموجهة وكبرائها على سائر الأحزاب الأخرى المنتمية إليها ، التي تريد أن تستقل بالرأى ، وتعبر عن حرية التفكير ، مما اضطرها واحداً بعد واحد إلى مقاطعة الدولية الشيوعية وتحطيم صلاتها بها ، سواء منها الجماعات العاطفة على التقاليد والصور والأوضاع الديمقراطية والبرلمانية ، كفريق « فروسار » ، وفريق « بول ليفي » الذي كان يُؤثرُ الأخذ بالقانون ويعارض أشد المعارضة في محاولات إحداث الانقلابات ، والعناصر الحرة التي فتنتها الديمقراطية السوفييتية والتي يتزعمها « رولاند هولست » ، والنقابات الثورية التي لا تقر الخضوع « لبيروقراطية » الحزب الشيوعى ولا ترضاه والتي يتولى قيادتها أمثال بيير مونات ، وأندريه نين ، والفريق الذى يأبى قطع التعاون مع الديمقراطية الاشتراكية والذي كان الأعضاء البارزون فيه براندييه وبرنجولف وتاسكا ، والفريق اليسارى المتطرف الذى لم يكن يرضى القيام بأية حركة وصولية أو استغلالية ، والذي كان يوجهه أمثال بورديجا ، وروث فيشر و بريس سوفارين ..

وهكذا وقعت تلك الأزمات الداخلية فى أفق بعيد كل البعد عن أفق فلم أشارك فيها ولم يكن لى بها اتصال ؛ ولست أقول ذلك متفاخراً ، بل بالعكس أقوله محاولاً شرح الموقف لا أكثر ولا أقل .

وقد أحسست يومئذ بنفور بالغ ، واشمئزاز شديد ، من تحول الدولية الشيوعية على

ذلك النحو السريع إلى بيروقراطية مستبدة وطغيان ، وإن كانت هناك أسباب ملحة جعلتني أتردد في الخروج ، كتضامني مع الرفاق الذين غيَّبوا في السجون والصحب الذين استشهدوا ، وانتفاء وجود حزب آخر في إيطاليا يناهض الفاشية ، والانحطاط السياسي بل التدهور الأدبي العاجل الذي عرا فريقاً كبيراً من الذين غادروا قبلي صفوف الشيوعية وحظيرتها ، وأخيراً التعلل بأن الطبقات الكادحة في الغرب قد تستطيع إصلاح «الدولية» وتردها سيرتها الأولى ، إذا ما حدثت أزمة داخلية يوماً في داخل النظام السوفييتي وصميم نطقه .

وقد سنحت لي في الفترة بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧ فرص كثيرة للسفر إلى موسكو والاشتراك كأحد أعضاء وفد الحزب الشيوعي الإيطالي ، في المؤتمرات التي كانت اللجنة التنفيذية تعقدها ، فكان أشد ما يرهبنى من أمر الشيوعيين الروس ، من أمثال لينين وتروتسكي وغيرهما من ذوى الشخصيات البارزة ، تجردهم التام من السباحة في قبول الآراء والأفكار التي تتعارض مع آرائهم وأفكارهم ، فلا يكاد أحد يجروء على معارضتهم حتى يعد في نظرهم « خائناً » و « وصولياً » ومأجوراً ، إذ لا يستطيع هؤلاء الروس أن يتصوروا وجود خصم حسن النية ، أو مجادل صادق الطوية ، لأن تغليب الاعتبارات الأدبية أو الأخلاقية في الجدل والنقاش على الذكاء يعد في أعين هؤلاء الذين يوصفون بأنهم «ماديون» «عقليون» ، شذوذاً في الشعور واختلافاً في موازين الإحساس والوجدان ؛ ولا أحسب شيئاً يمكن أن يقارن بهذه الخواص التي عرف بها الروس ، إلا محاكم التفتيش في القرون الوسطى .

وقد حدث لي وأنا أعد العدة للعودة من موسكو عام ١٩٢٢ أن التقيت باليكسندرة كولونتاج ، فأنثت تقول لي : إذا قرأت يوماً في الصحف أن ستالين اعتقلني بتهمة سرقة الملاعق الفضية من الكرملين ، فاعلم أن هذا معناه أنني قد اختلفت معه في شيء يتصل بسياسته الزراعية ، أو خطته المتعلقة بالهضة الصناعية .

وكانت كولونتاج قد اكتسبت نزعة التهمك من الغرب فلم تكن تستخدمها إلا

في حديثها مع بعض أهلها ، ولكن في تلك السنين المليئة بالحماسة ذاتها ، تلك السنين التي انقضت في بناء كيان النظام الجديد ، ولم يكن هذا النظام يومئذ قد استولى على الحياة الفكرية في البلاد ، كان من أشق الأشياء التفاهم مع شيوعي روسي على أبسط المسائل وأوضحها في أعيننا ؛ ولم يكن وجه المشقة في الاتفاق ، ولكنه كان من ناحية التفاهم على الأقل والمطارحة وتجاذب الآراء ، إذا عرض النقاش لمعانى الحرية في نظر الغربي أو في عين العامل ، حتى لقد قضيتُ يوماً عدة ساعات أحاول أن أشرح لإحدى المشرقات على دار الطباعة الحكومية كيف أنه من العار عليها أن ترتضى تثبيط هم الكتاب الروس وتسمح بأن يعيشوا في جو من الترهيب والتخويف ، ولكنها لم تستطع أن تفهم مرادى ، فاضطرت إلى ضرب بعض الأمثلة ، قائلاً إن الحرية تقتضى السماح بالشك ، والوقوع في الخطأ ، والإذن للناس بالبحث والفحص والتجربة وقول نعم أو لا لأية سلطة كائنة من تكون أدبية ، أو فنية ، أو فلسفية ، أو دينية ، أو اجتماعية ، أو سياسية أيضاً .

ولكنها لم تكذب سمع هذا القول مني حتى غمغت فزعة مروعة تقول : ولكن هذا معناه « مناهضة الثورة » .

وكأنما أرادت أن تسند ظهرها قليلاً وتستدرك فاشتتت تضيف قائلة : إنا لنحمد الظروف على أننا لا نملك الحرية التي تملكونها ، ولكن لدينا بدلاً منها « المصحات » .

ولما لاحظت عليها أن التعبير بلفظة « بدلاً » ليس له معنى فإن الحرية ليست سلعاً تتبادل ، أو متاعاً للمقايضة ، وأنني شاهدت مصحات في بلاد أخرى ، استضحكت قائلة : إنك تريد المزاح معي اليوم .

وعندئذ تراجعت أمام صراحتها فلم أجرو على معارضتها ، وكان مشهد الحماسة التي يبديها الشاب الروسي في السنوات الخمس الأولى لبداية إنشاء عالم جديد ، كنا جميعاً نرجو أن يكون أكثر إنسانية من العالم القديم ، يبعث الخاطر على الاقتناع التام

بصدقه ، واليقين الكلى بقوة أثره ، ولكن ما كان أشد ألم الخيبة ، وأبلغ المرارة ، حين مرت السنون ، وانقضت الأعوام ، وعزز النظام الجديد كيانه ، واتخذ بنيانه الاقتصادي ، وانقطع الهجوم المسلح عليه من الخارج — فقد رأينا أن ذلك الأمل الموعود لم يتحقق ، وأن الرجاء في قيام « ديموقراطية » صحيحة شاملة لم يتم ، وإنما شهدنا في مكانه « دكتاتورية » تلج في العنف ، وتشتد في الكبح ، وتسرف في السكبت والاضطهاد .

وفي ذات مساء مضى صديق من خيرة أصدقائي ، وهو « لازارشاتزكى » رئيس جماعة الشبان الروس الشيوعيين يكشفني بأنه في الحق حزين لأنه ولد متأخراً ، وكان يتمنى لو أنه جاء إلى الحياة أبكر مولداً ، ليشهد ثورة ١٩٠٥ ، أو يحضر ثورة ١٩١٧ .

قلت مواسياً : ولكن لا تزال ثمة ثورات منتظرة ، وستظل الحاجة إلى الثورات قائمة ، حتى في روسيا ذاتها .

وكنا في الميدان الأحمر غير بعيدين من ضريح لينين .
قال في لهفة : ومن أى نوع ، وكم يطول بالمرء ارتقابها ؟؟
فأشرت إلى الضريح ، وكان لا يزال مصنوعاً من الخشب ، وكنا في كل يوم نشهد أمامه حشوداً لا تنقطع من الفلاحين الفقراء المهلهلين يمرون به صفوفاً متراسة .
وانثيت أقول : أ كبر ظنى أنك تحب لينين ، وأنا أيضاً قد عرفته ، ولا تزال صورته ماثلة في خاطري ، وأعتقد أنك لا بد معترف معي بأن هذا الاعتقاد الخرافي الذي يأتى إلا أن يظل جثمانه قائماً تحت هذا الضريح الخشبي هو إهانة لسيرته ، وانتقاص من ذكره ، وعار يلحق مدينة ثورية كموسكو هذه ؟؟ .

وقصارى القول أننى رحمت أقترح عليه أن نأتى بصفيحة أو اثنتين من البنزين ، فنحدث « ثورة صغيرة » على ذمتنا ، بأن نشعل النار في هذا الضريح المهيمن .
والحق أقول إننى لم أكن أتوقع منه قبول اقتراحى ، وإنما كنت أنتظر أن نضحك قليلاً بسبيله .

ولكنى رأيت صديقى يصفرّ ويرعش رعشة شديدة ويتوسل إلىّ ألا أقول كلاماً مروعاً كهذا له ولا لسواه .

وقد انقضت عشرة أعوام على هذا الحادث وإذا بهم يبحشون عنه بتهمة اشتراكه مع « زينوفيف » ، ولكنه عمد إلى الانتحار بإلقاء نفسه من الطبقة الخامسة في المسكن الذى كان يقيم فيه .

ولطالما شهدت حشوداً حاشدة من الناس ، ورأيت جنوداً تسير فى شكل عرض مخترقة ذلك « الميدان الأحمر » ، ولكن منظر الانفعال الذى بدا على صديقى الشاب ، وسماع صوته الراعش ، وقوله الراجف من فرط الرعب ، لا يزال فى ذاكرتى أقوى من كل تلك الصور والمشاهدات ، ولكن لعل السرفى ذلك أن هذه الذكرى ، من ناحية « موضوعيتها » أكبر شأنًا وأشدّ خطراً ، وأبلغ دلالة .

وليس من السهل متابعة تاريخ الدولة الشيوعية من البداية إلى النهاية ، لأن محاولة متابعته غير مجدية ، إذ كيف يستطيع المرء أن يفصل بين الغث والسمين ، أو يفرق بين القسيم والقافه ، فى المناقشات غير المنطقية التى كانت دائرة الرحى فى مؤتمراتها واجتماعاتها ، وأى الخطب أولى بأن تترك للفيران تقرضها ، وأيها أحق بالنقد ، وتوصية العقلاء والأذكياء والمستنيرين بقراءتها ودراستها .

لست أدرى ، وقد يكون اختيارى عند بعض الناس منفرأ ، وقد لا تروقهم آرائى فى شأنها .

فقد حدث يوماً فى اجتماع شعبية خاصة متفرعة من اللجنة التنفيذية أن دار النقاش حول الإنذار النهائى الذى أصدرته اللجنة المركزية لمقابلات العمال البريطانيين محدرة فيه فروعها المحلية من تأييد الحركة التى تقوم بها الأقلية ، ويتزعمها الشيوعيون ، وإلا كان عقابها الإقصاء ؛ فقد انبرى مندوب الحزب الشيوعى البريطانى يشرح الأضرار الخطيرة التى ستنتج من كلا التحذيرين ، فإن أحدهما سوف يؤدى إلى القضاء على حركة الأقلية ، والآخر سيجرب عليه إخراجها من النقابات ؛ وإذا بالمندوب الروسى

« بياتنسكى » يتقدم باقتراح خيل إليه أنه فى مثل وضوح « بيضة كولومبوس » وبداهته ، إذ انثنى يقول : إنه من المتعين على الفروع أن تعلن أنها ممثلة للأمر الصادر ، ثم تفعل بالعكس تماماً ...

وهنا قاطعه المندوب البريطانى بقوله : « ولكن هذا غش ومين ! » .

وإذا بهذا الاعتراض الوجيه يقابل بعاصفة من الضحك ، بل بضحك صريح مستطيل لا أحسب المكاتب القائمة التى تضم الدولية الشيوعية قد سمعت من قبل له نظيراً أو تردد مثله يوماً فى أرجائها .

وما لبثت « النكتة » أن شاعت فى جميع نواحي موسكو ، لأن هذا الرد « المضحك » الغريب الذى لا يتصوره أحد من الروس نقل بالتليفون حالاً إلى ستالين ، وأثار موجات جديدة من الجون والضحك فى كل مكان .

ولكن الواقع أن هذا التهم العام أو الضحك المدوّى الذى أثاره ذلك الاعتراض البارع من المندوب البريطانى قد أضفى عليه كل معانيه الصحيحة ؛ فلا عجب إذا ظلت عاصفة الضحك التى قوبلت بها تلك الكلمات القصيرة الصريحة الساذجة غالبية فى خاطرى على سائر الخطب الطوال الثقيلة الظل الخائفة التى سمعتها فى مؤتمرات الدولية الشيوعية واجتماعاتها ، ولا غرو إذا هى بقيت فى ذاكرتى نوعاً من الرمز ، ومثلاً سائراً .

وكانت زورائى لموسكو كما أسلفت قليلة ، مقتصرة على مهمتى كعضو فى الوفد الإيطالى الشيوعى ، فلم أكن يوماً فى صميم نطاق الدولية ولا « كسينة » من لبناتها ، ولكن فى وسعى أن أتابع الفساد السريع الذى تطرق إليها من ملاحظة ما جرى لبعض معارفى الذين كانوا منتمين إليها . ولعل « جاك دوريو » أبرزهم جميعاً ، فقد كان أول عهدى بلقائه فى موسكو عام ١٩٢١ ، وكان يومئذ شاباً متواضعاً حبيباً أثاره رغبة صادقة وعاطفة رقيقة ؛ ولعل لين عريكته ، وسلامة فطرته ساعدا على اختياره للدولية

الشيوعية وإشاره على سواء من الشيوعيين الفرنسيين الشباب ممن كانوا أذكي منه وأكثراً علماً .

وكان يقضى الأعوام مترقباً الفرص ، متأنهاً على التقدم والتبريز ، وإذا به على مر الأيام يزداد شأنًا ، ويرتفع مكانة في حظيرة الدولية الشيوعية ، وكنت كلما التقيت به على السنين أراه قد تغير ، فأصبح مشككاً مستهتراً مستخفياً متحولاً بسرعة إلى « الفاشية » في نظراته السياسية إلى الناس والدولة ..

ولو استطعت يوماً أن أتغلب على نفورى الطبيعى واشمئزأى لوضعت ترجمة لحياة « جاك دوريو » وجعلت مدارها الحديث عنه « كشيوعى مجاهد ينقلب فاشياً » . وقد التقيت ذات مرة به فى موسكو عقب عودته من مهمة سياسية فى الصين ، فراح يقص علينا أنا وبعض الأصدقاء حديثاً مقلقاً عن أغلاط الدولية الشيوعية ومساوئها فى الشرق الأقصى ، ولكنه فى غداة اليوم التالى مضى فى الخطاب الذى كان يلقيه أمام اللجنة التنفيذية فى جلستها العامة يؤكد العكس على خط مستقيم . وقد أسر إلى بعد الاجتماع وهو يبتسم ابتسامة مترفعة قائلاً : لقد كان ذلك منى حكمة سياسية .

وقد أوردت هذا المثل لأنه لم يكن حادثاً فردياً ، بل كانت له نظائر وأشباه . وقد حملته التغييرات الداخلية التى حدثت بعدئذ فى الحزب الشيوعى الفرنسى على ترك الدولية الشيوعية ، وهيات له الفرصة ليظهر نفسه علناً على حقيقتها ، ويبدد صراحته بلونه الصحيح .

ولكن كثيرين سواء ممن لا يختلفون فى الجوهر عنه وبقوا على رأس الأحزاب الشيوعية فى مختلف البلاد كبالميرو تولياني الإيطالى ، تناولوا هذا الضرب من الرياء ، وتحدثوا عن هذا الانحطاط الخلقى الذى شاع بين رجال الدولية الشيوعية ، حتى لقد رأينا تولياني يصف ذلك كله فى الخطاب الذى ألقاه أمام المؤتمر السادس ويطلب أن

يؤذن له في ترديد كلمة « جوثه » عند ما حضره الموت وهى قوله : « على بالنور ...
مزيداً من النور ! » .

وكانت تلك الخطبة فى بعض معانيها أشبه بصيحات « الأوز » ، فقد لبث عاماً
بعدها أو عامين يحاول جهده استملاء ضميره والسير على أصداء وجدانه ، والتوفيق بين
عضويته كشيوعى ، وبين المصارحة بآرائه ؛ ولكنه فى النهاية اضطر إلى الأذعان
والامتنال .

وقد شعرت الدولية الشيوعية إلى جانب خلافاتها الداخلية بسبب تنافر تكوينها
وعوزها إلى التجانس ، بوطأة المتاعب التى تحدثها لها الدولة السوفييتية أيضاً ، إذ تبين
عقب وفاة لينين أنها لا يمكن أن تتجنب القدر الملائم لكل ديكتاتورية ، والمصير
المحتوم لكل طغيان ، وأغنى به الضيق التدريجى فى هرمها السياسى ؛ إذ تبدأ تضيق
شيئاً فشيئاً حتى تبلغ الذروة ، كما هو شكل الهرم ، ولم يلبث الحزب الشيوعى الروسى
الذى عرف كيف يكتم أنفاس الأحزاب الأخرى ، ويسد السبيل على كل بحث أو
نقاش فى الأندية والاجتماعات السوفييتية ، أن لقي المصير ذاته وإذا بآراء أعضائه
تتوارى وتتلاشى وشيكا أمام سياسة الحزب وخططه ، فأصبح كل خلاف فى رأى
داخل الهيئة أو الجماعة ينتهى حتماً إلى القضاء على الأقلية ومحوها بالفعل من الوجود .
وهكذا رأينا الثورة التى أطفأت أعداءها تنتهى بالتهام أبنائها المحبين .
ولم يعد « الآلهة العِطَاش » يرتضون هدنة ولا يقبلون هودة ولا سلاماً ...

— ٧ —

وفى شهر مايو عام ١٩٢٧ اشتركت مع تولياني كممثلين للحزب الشيوعى الإيطالى
فى الدورة غير العادية التى عقدتها اللجنة التنفيذية التى اتسع يومئذ نطاقها ، وجاء
تولياني من باريس حيث كان يتولى سكرتيرية الحزب السياسية ، وجئت أنا من
إيطاليا حيث كنت مشرفاً على حركة المقاومة السرية .
والتقينا فى برلين وسافرنا معاً إلى موسكو .

وكانت الدعوة في الظاهر قد وجهت للمناقشة على وجه الاستعجال في التوجيهات التي ينبغي تقريرها لإرشاد الأحزاب الشيوعية في نضالها حيال الحرب الاستعمارية المرتقبة ، ولكن الاجتماع كان في الحقيقة للشروع في « التخلص » من تروتسكي وزينوفيف اللذين كانا لا يزالان عضوين في اللجنة التنفيذية للدولية الشيوعية .

وكانت الدورة العامة قد سبقت هذا الاجتماع وتولت اللجنة الرئيسية التي تضم رؤساء الوفود والهيئات الكبرى إعداد التفاصيل ، كما هي العادة ، اجتناباً للمفاجآت . وقد أصر تولياني على مرافقتي له في هذه الجلسات رغم القيود الموضوعة لتحديد الذين يحق لهم حضورها ، والتي تعطيه وحده الحق فيه بالنيابة عن الوفد الإيطالي .

ولكنه كان يتوقع مقدماً أن تظهر بعض « المضاعفات » في هذه الدورة ، فأثر أن يستعين بممثل الحركة السرية ، وشعرت في الجلسة الأولى التي حضرناها أننا جئنا متأخرين كثيراً .

وكان الاجتماع منعقداً في مكتب صغير بمركز رئاسة الدولية الشيوعية ، برئاسة الألماني « تالمان » ، فلم يكده يفتتح الجلسة حتى شرع في قراءة مشروع قرار ضد تروتسكي يراد عرضه على الجمعية العامة .

وكان هذا المشروع يحوى استنكاراً شديداً لبعض تصرفات تروتسكي ، ومن بينها خطاب بعث به إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي في روسيا ؛ وكان الوفد الروسي في ذلك الاجتماع الخاص مؤلفاً على غير العادة ، فقد ضم ستالين وريكوف وبوخارين ومانيلسكي .

وعلى أثر الانتهاء من تلاوة مشروع القرار انثنى تالمان يسأل الحاضرين هل هم موافقون عليه .

وهنا لاحظ « أوتومار كوزيفين » الفنلندي أن صيغته لم تكن قوية إلى الحد الكافي ، ومضى يقول : ينبغي أن يقال فيه صراحة إن هذا الخطاب الذي أرسله تروتسكي إلى المكتب السياسي يتنافى كل التنافي مع روح الثورة وأساليبها ، ويقوم دليلاً ساطعاً على أن الشخص الذي كتبه لم يعد مشتركاً في شيء مع الطبقة العاملة .

ولم أر أحداً آخر يطلب الكلمة ، فنهضت بعد استشارة تولياني فاعتذرت
بأنى قد وصلت متأخراً ولهذا لم يتح لى الاطلاع على الكتاب الذى يرد استنكاره .
وعندئذ اثنى تالمان يقول بصراحة : إذا أردت الحق فلا أخفى عنك أننا أيضاً
لم نطلع عليه ...

وأثرت ألا أصدق سمعى ، وعدت أكرر اعتذارى بعبارات أخرى ، فقلت :
قد يكون كتاب تروتسكى فعلاً مستحقاً للائمة والاستنكار ، ولكن لا خفاء فى
أننى لا أستطيع أن أستنكره قبل أن أطلع عليه .

فعاد تالمان يكرر قائلاً : ونحن هنا ، وأغلبية الوفود الممثلة فى هذا الاجتماع ، لم
نطلع على الكتاب ، اللهم إلا أعضاء الوفد الروسى .

وكان تالمان يتكلم بالألمانية ، فنقلت كلماته إلى ستالين ، وترجمت إلى الفرنسية
ليفهمها اثنان أو ثلاثة منا .

وكان الرد الذى نقل لى غريباً لا يكاد يصدق ، فلم يسعنى إلا أن أدور بعينى
إلى المترجم فأقول له : مستحيل أن يكون تالمان قد قال هذا ، فأرجوك أن تردد عبارته
كلمة كلمة ...

وعندئذ تدخل ستالين .

وكان واقفاً فى ركن من الحجرة ، وهو يلوح الوحيد الذى ظل محتفظاً بهدوئه التام .
وأنشأ يقول : إن المكتب السياسى للحزب رأى أنه ليس من المناسب ترجمة
كتاب تروتسكى ، وتوزيعه على أعضاء الوفود ، لما فيه من مزاعم عن سياسة
السوفييت (١) .

(١) وقد نشر تروتسكى نفسه نص ذلك الكتاب فيما بعد ضمن كتاب موجز أسماه « مشاكل
الثورة الصينية » . وقد تبين منه أنه لا يحوى أية إشارة إلى سياسة السوفييت ، ولكنه كان
هجوماً منطقياً معقولاً على السياسة التى انتهجها ستالين والدولية الشيوعية فى الصين .

وقد رأيت ستالين فى خطاب ألقاه يوم ١٥ أبريل سنة ١٩٢٧ أمام مجلس السوفييت فى
موسكو يحرق الخور فى مديح شيانج كاي تشك ويؤكد ثقته الشخصية بالكونمونتاج ، وكان ذلك
قبل أسبوع من تنكره هو وحزبه للكونمونتاج وطرد الشيوعيين منه بين عشية وضحاها وتذيع
عشرة آلاف من العمال فى شنغهاى وألف آخرين بعد شهر آخر فى « ووهان » ، فلا عجب إذا كان
ستالين يريد تجنب النقاش فى مسائل كهذه ويحاول حماية نفسه خلف ستار من الظن .

وعندئذ سألتى تالمان : هل اقتنعت بهذا التفسير ؟

قلت : إننى لا أنزع فى حق المكتب السياسى فى الاحتفاظ بأى وثيقة أو مستند طى الكتمان ، ولكننى لا أفهم كيف يطلب من الآخرين استنكار وثيقة لا يعرفون عنها شيئاً .

فلم أكد أقول هذا حتى اشتد الاستياء ، وتناهى الغضب على وعلى تولياني الذى كان يبدو موافقاً على ما قلت .

وكان أشد الحاضرين غضباً العضو الفنلندى الذى أسلفت ذكره ، وآخر من البلغار ومجرباً أو اثنين .

فقد راح كوزينين يصيح وهو محمر الوجه « لم نر من قبل ولم نسمع بأنه لا يزال فى حصن الثورة العالمية صغار بورجوازي من هذا الطراز » .

وقد فاه بعبارة « صغار بورجوازي » بلهجة التحقير والاشمئزاز .

وكان ستالين الرجل الوحيد الذى ظل ملازماً السكينة والهدوء .

فقد أنشأ يقول : إذا انفرد مندوب واحد بمعارضة مشروع القرار فلا ينبغى عرضه .

وسكت لحظة ثم أردف قائلاً : لعل رفيقينا الإيطاليين لا يعرفان شيئاً عن موقفنا الداخلى ، ولهذا أقترح تأجيل الاجتماع إلى الغد وتكليف أحدنا بالاجتماع فى المساء مع رفيقينا الإيطاليين ليشرح لهما الحالة .

وقد عهدت اللجنة إلى المندوب البلغارى « فاسيل كولاروف » بهذه المهمة الثقيلة .

ولكنه أنفذها بلباقة وروح طيبة إذ دعانا إلى تناول الشاى فى غرفته بنفسه . « لو كس » ، ولم يلبث عقب اجتماعنا أن دخل فى هذا الموضوع الشائك رأساً ، بلا مقدمات ، فقال وهو يبتسم : لنكن صرحاء .. فهل تظنان أنى قرأت ذلك الكتاب ؟ كلا ... لم أقرأه ... وفى وسعنى أن أصارحكما الحقيقة ، فأزيد على ما قلت أن

الكتاب نفسه لا يهمنى . أتريدان أيضاً أن أزيد ، إذن فلأصارحكما القول إننى لن أقبل قراءته حتى وإن وافانى تروتسكى ذاته سرّاً بنسخة منه ؛ فياخيلىّ إن المسألة ليست مسألة وثائق ومستندات ، ولست أجهل أن إيطاليا هى من قديم العهد بلد الجامع العلمية ، ولكننا لسنا هنا فى مجمع علمى ، إنما هنا فى غمرة «صراع» على النفوذ والسلطان بين فرعيين متنافسين من الزعماء الروس ، فأى الفريقين ينبغى أن نناصر ؟ هذه هى المسألة ، فلا دخل إذن للوثائق والمستندات .

«وليس المسألة مسألة البحث عن حقيقة تاريخية بشأن فشل ثورة قامت فى الصين وأسباب إخفاقها وعوامل حبوطها ، ولكنها مسألة نزاع محتمل بين جماعتين متعاديتين عدا لا هوادة فيه ، وما على المرء إلا أن يختار بينهما ، وأنا قد اخترت ، وأجمعت النية على أن أف بجانِب الفريق الأغلب ، وأكرر أمامكما القول بأننى مع الغالبية ، مهما تغل الأقلية أو تفعل ، وأى أسانيد أو وثائق قد تتقدم بها ضد الأغلبية ، فإن الوثائق لا تهمنى ، لأننا لسنا هنا فى مجمع .»

وراح يصب الشاى فى الأقداح ويتفحصنا فخص المعلم لتلميذين صغيرين من تلاميذه العصاة المتعنتين ، وانثنى يسألنا وهو يوجه الكلام إلى خاصة : «هل هذا الكلام واضح أم لا ..؟» .

قلت : كل الوضوح ، من غير شك .

قال : وهل أقنعكما ؟

قلت : كلا ..

قال : ولماذا ؟؟....

قلت : إن الرد على هذا السؤال يقتضىبى أن أشرح لك أسباب وقوفى موقف المعارض من « الفاشية » .

وعندئذ تظاهر كولا روف بالغضب ، فبادر تولياني إلى شرح ما قلته فى لهجة أكثر اعتدالاً وإن لم تكن أقل صراحة .

قال : إن المرء لا يستطيع أن يحكم هل يقف بجانب الأغلبية أم بجانب الأقلية مقدماً ، إذ لا بد من معرفة الأساس السياسى للمسألة قبل القطع بشيء .

وكان كولاروف يستمع لنا وهو يبتسم ابتسامة الشفقة والرثاء .

قال وهو يصحبنا إلى الباب : « أتما لا تزالان حديثين ولم تدركا بعد ما هى السياسة وما خطبها ومطالبها ... » .

وتسكور فى غداة اليوم التالى المشهد ذاته فى الاجتماع عند استئنافه ، فقد شاع فى المجلس جو غير مألوف من الحدة والاضطراب العصبى .

وانثنى ستالين يسأل كولاروف : هل شرحت الموقف لرفيقيـنا الإيطاليين ؟

قال بلهجة التوكيد : « أوفى الشرح » .

فعاد ستالين يقول : « إذا انفرد مندوب بمعارضة مشروع القرار المطروح فلا يمكن إحالته على الجمعية العامة ، إذ لا ينبغى اتخاذ قرار ضد تروتسكى ما لم يتوافر فيه الإجماع » .

وهنا دار بعينيه نحونا وراح يسأل قائلاً : فهل رفيقانا الإيطاليان موافقان على المشروع .. ؟

قلت بعد استئذان صاحبي توليأتى : « قبل أن نبحث فيه يجب أن نطلع على الوثيقة » .

وانبرى ألبير ترانت العضو الفرنسى ، وجول هامبرت دروز السويسرى ، فأعلنا هذا رأى كذلك^(١) .

وعندئذ انثنى ستالين يقول : « ليسحب إذن المشروع » .

ولم نلبث أن شهدنا المنظر العصبى ذاته الذى جرى فى اليوم السابق ، وما تخلله من غضب وهياج وانفعال من كوزينين وراكوزى وبيير والآخرين .

(١) ومما يذكر هنا أنهما انتهيا بعد بضع سنين إلى الخروج من الدولة الشيوعية .

وقال تالمان في التعقيب على موقفنا « الفاضح » : إن اتجاه نشاطنا في إيطاليا ضد الفاشية هو على الأرجح ضلال مبين ، وإنه إذا كانت الفاشية لا تزال راسخة القدم فيها إلى الآن ، فاللائمة علينا ، والخطأ خطونا ؛ ولهذا أرى أنه لا معدى من عرض سياسة الحزب الشيوعى الإيطالى لغربلتها وتنقيتها من الشوائب .

وقد تم ذلك فعلاً ، وتبين لأولئك الرقباء المتعصبين أن سلوكنا « المتوقح » مرجعه إلى التوجيه الفاسد الذى كان يتجهه فى السنين الماضية « أنطونيو جراموشى » والذى كانت تشوبه الروح البورجوازية الحقيرة وتلوئه تلويثاً .

ورأى توليأتى أنه من الحكمة أن يرسل كتاباً إلى المكتب السياسى للحزب الشيوعى الروسى يشرح فيه سبب موقفنا فى اجتماعات اللجنة التنفيذية .

وقد مضينا فى ذلك الكتاب نقول : إن أحداً من الشيوعيين لا ينازع فى سابقة فضل رفاقنا الروس ، ومكانهم الرفيع فى زعامة الدولية الشيوعية ، ولكن هذا الفضل يفرض عليهم واجبات معينة ، فلا يصح لهم ممارسة حقوقهم بطريقة ميكانيكية أو تعسفاً واستبداداً .

وتلقى « بوخارين » الكتاب وبعث فى طلبنا عاجلاً ، وطلب إلينا سحبه حتى لا نزيد موقفنا السياسى سوءاً على سوءه .

وتلت هذا الحادث أيام أحسست فيها بخيبة الأمل ، ومرارة الإخفاق ، أيام أسف وكمد حتى لقد مضيت فيها أسائل نفسى : هل إلى هذا الحد سقطنا ، وهل أولئك الذين قضوا نحبهم ، والذين يموتون اليوم فى غيابات المحابس ، قد ضحوا بأنفسهم من أجل هذا ونحوه . . ؟ ونحن معاشر المتشردين الهائمين على وجوههم ، الذين يعيشون مستهدفين للمخاطر معرضين للبلاء والأذى ، إنما فعلنا ذلك بأنفسنا من أجله ... ؟ ولم يلبث حزنى أن بلغ ذلك الحد البعيد الذى يشل الإرادة وتنهار عنده المقاومة .

وقبل أن أغادر موسكو جاءنى عامل إيطالى ليتحدث معى ، وكان الرجل قد

لجأ إلى روسيا منذ سنين هرباً من حكم بالسجن مدة طويلة أصدرته إحدى المحاكم
الفاشية ، وأعتقد أنه لا يزال إلى اليوم شيوعياً .

جاءني هذا الرجل يشكو من الأحوال المهيمنة التي تحيط بحياة العمال في المصنع
الذي يشتغل فيه بموسكو ، وقال إنه لا يرى بأساً من تحمل النقص في الأغذية والمواد
الأخرى ، لأن علاجها قد يتعاضد جهود الأفراد ، ويشق على المداوين ، ولكنه
لا يفهم لماذا يبقى العمال تحت راحة إدارة المصنع ، وليس لهم أحد يحميهم أو يرفع
مصالحهم ، ولا يدري أيضاً لماذا تكون حالهم أسوأ من حال إخوانهم في البلاد
الرأسمالية ... أخفأ أن أكثر حقوق العمال التي طالما سمع بها ، وظلما وصفت في أزهي
الصور وأعجب الألوان ، مجرد أقوال وكلمات نظرية .

وفي برلين وأنا عائد من مهمتي في روسيا قرأت في الصحف أن اللجنة التنفيذية
للدولية الشيوعية قررت تعنيف تروتسكي على كتاب كان قد أعده بسبيل الأحداث
الآخيرة في الصين .

فقصدت إلى مكاتب الحزب الشيوعي الألماني وسألت تالمان عن سر هذا الذي
جاء في الصحف السيارة قائلاً بكل بساطة : « وأنت تعلم أن هذا كذب محض » .
ولكنه مضى يشرح الأمر قائلاً : إن اللائحة الداخلية تعطى الرئاسة في المسائل
المستعجلة حق اتخاذ أي قرار باسم اللجنة .

وكنت قد قرأت في الصحف خلال الأيام القليلة التي أقمتها في برلين منتظراً
الفراغ من إعداد أوراق المنتحلة وجوازات المصنوعة ، أن الأحزاب الشيوعية في
أمريكا والمجر وتشيكوسلوفاكيا استنكرت كتاب تروتسكي أشد الاستنكار .

فقلت لتالمان : هل معنى هذا أن الكتاب المحجوب قد ظهر أخيراً .

قال : كلا ، ولكنني أرجو أن يكون المثل الذي ضربته هذه الأحزاب قد أبان
حقيقة النظام الشيوعي وخافية أمره .

وكان في عبارته هذه جاداً ، فلم يحاطها التهم ولا مازجتها سخرية ، بل اقترنت
بجد محزن يناسب كابوس الحقيقة التي انطوى عليها ، ويلائم مرارتها البالغة .

- ٨ -

وكنت مضطراً لأسباب صحية إلى أن أقصد رأساً إلى مصحة سويسرية وأنقطع
عن كل عمل سياسي .

ففي ذات يوم التقيت بتوليأتى في قرية لا تبعد عن الموضع الذي كنت أستشفى
فيه ، وراح يشرح لى بصراحة وجلاء الأسباب التي حملته على التصرف الذي آثره
قائلاً في إيجاز إن حالة الدولية الشيوعية لم تعد في الحق مرضية ولا مقبولة وإن جهودنا
ونياتنا الصادقة عاجزة عن تحسينها أو تغييرها لأن هناك ظروفًا تاريخية تعترض السبيل
ولا معدى عن مراعاتها . إن أنظمة الثورة العمالية ليست عرفية ولا تحكيمية ، ولكن
إذا هي لم تتفق مع أمانينا فالويل ويلنا ، والسوء واقع علينا ، إذ أين لنا أن نذهب ،
وأى بديل منها نختار ، وماذا بقى لنا؟ ألا تنظر إلى النهاية التي انتهت إليها الشيوعيون
الآخرون الذين خرجوا على أحزابهم ، وهلا تدبرت حال الديموقراطية الاشتراكية
وما هي فيه من بلاء وسوء ؟ .

ولم تكن اعتراضاتى على هذه الحجج متمسكة ولا مقنعة ، لأنها كانت حججاً
سياسية بحتاً ، بينما كان الانفعال البالغ الذي ثار في أعماق نفسى من التجارب
والمشاهدات الأخيرة شيئاً آخر لا يمت إلى السياسة بسبب .

إن هذه الأوضاع التاريخية الصلبة الجامدة التي ينبغى لنا أن ننحنى لها ، ليست
إلا صورة جديدة من الحقيقة الأليمة التي ثرنا عليها وأعلننا أننا اشتراكيون استنكاراً
لها ، وألماً منها ..

فلا عجب إذا أنا أحسست كمن أصيب بضربة موجعة هوت فوق رأسه ، فظل
قائماً على ساقيه وراح يمشى ويتكلم ويشير ، وهو لا يشعر ، ولا يدرى مما حدث
شيئاً ...

ولكنى على الأيام أفتت ، وكانت الإفاقة بطيئة رحية أليمة شاقة ، وإلى اليوم لا أزال أفكر ملياً فيها محاولاً أن أفهم ما لم أكن قد فهمته ، وأن أدرك ما لم أدركه . وإذا كنت قد ألفت كتباً ، فما كان ذلك إلا محاولة منى حتى أفهم وأدع الآخرين يفهمون .

ولست على يقين مطلقاً أننى وصلت إلى نهاية جهدى . وفى الحق لقد كان يوم خروجى من الشيوعية يوماً حزيناً أليماً لنفسى ، كأنه يوم حداد بالغ على شبابى الضائع ، وأنا كما تعلمون منحدر من بلد يطول فيه الحداد أكثر من أى بلد سواه . وليس من السهل على المرء أن يتخلص من عمل رهيب باهظ كالاشتغال بأمر الحركة السرية فى الحزب الشيوعى ، فإن شيئاً منه لا بد عالق بنفسه مهما يحاول الخلاص ، تارك أثره فى خلقه وكيانه طيلة الحياة .

وفى وسع المرء أن يتدبر حال الشيوعيين الذين خرجوا من الخطيرة ، فهم يؤلفون طائفة بذاتها كما يؤلف القساوسة السابقون أو الضباط القدامى .

وقد أصبح عددهم كبيراً ، حتى ليلعب اليوم مبلغ الفرقة أو اللواء .

وقد قلت من عهد غير بعيد لتوليأتى مازحاً « إن الصراع الأخير سيكون بين الشيوعيين ، والخارجين على الشيوعية » .

ولكنى عقب تركى الحزب رأيت أن أجتنب الانحدار إلى طائفة من تلك الطوائف المتعددة التى أصبحت تنظم الذين خرجوا على الشيوعية وغادروا صفوفها ، ولم أشعر بندامة قط على ما كان منى لأننى أعلم المصير الذى سيجرى على تلك الطوائف والأشتات ، ويجعل منهم جماعات صغيرة تتمثل فيها جميع عيوب الشيوعية الرسمية ومساوئها وتعضبها وانحصار السلطة فى أيديها ، دون أن تتوافر لها ما توافر لهذه الشيوعية من صفات ومزايا تستمدّها من كثرة أشتاتها وأنصارها بين العمال الكادحين .

وقد رأينا منطق المعارضة بأى ثمن وكيف يقود فريقاً كبيراً من الشيوعيين المنفصلين بعيداً عن نقطة ابتدائهم ، وتؤدى بهم أحياناً إلى « الفاشية » .
وقد أدى بى التفكير فيما خضته من الخطوب ، إلى تعميق الدوافع التى دفعتنى إلى الانفصال ، حتى تكون أبعد كثيراً من دوافع الظروف التى حملتنى بآدى الرأى عليه .

ولكن إيمانى بالاشتراكية الذى لا أتردد فى القول بأن حياتى كلها شاهد عليه ، باق إلى اليوم ، بل هو الآن أقوى وأبلغ حياة فى نفسى منه فى أى يوم مضى .
وقد عاد من ناحية جوهره إلى ما كان حين ثرت أول مرة على النظام الاجتماعى القديم ورفضت التسليم بالقدرية ، وآمنت بوجود امتداد الدوافع الأدبية والخلقية من الجوالذى تنحصر فيه ، وهو جو الفرد والأسرة ، إلى أفق البشرية عامة ، ووجوب قيام أخوة فعالة فى العالم ، للتدليل على سمو الإنسان فوق النظم الاقتصادية والاجتماعية التى ترهقه .

وعلى مر السنين رحت أضيف إلى هذه كلها الإيمان بكرامة الإنسان واحترامه بما يحاوله دائماً لى يمتاز المسافة القائمة دونه ، ويحقق ما هو كامن فى أعماق قلقه الدائم ، ولهفته الأبدية .

ولكنى لا أعتقد أن هذا النوع من الاشتراكية ، مقصور على تفكيرى وحدى ، خاص بى دون سوائى؛ فإن الحقائق التى أسلفت عليكم ذكرها ، أقدم عهداً من الماركسية العمالية التى أولدها الرأسمالية الصناعية ، ولا تزال من موارد وحيها ، وينابيع إلهامها ، وأشد حوافزها سلطاناً ؛ وقد سبق لى أن أبديت مراراً رأى فى العلاقات بين الحركة الاشتراكية ، ونظريات المذهب الاشتراكى ذاتها ؛ وقلت إن هذه العلاقات ليست صلبة ولا جامدة مطلقاً ، فإن النظريات قد تصبح بفضل تطور الدراسات الجديدة . « موضحة بالية » أو تطرح ظهيرياً فلا يعنى أحد بها ، ولكن الحركة تظل قائمة وتبقى مستمرة ماضية فى وجهها ، وإن كان من الخطأ ومجافاة الصواب فيما يتصل بالنزاع القديم

بين معاشر النظريين ، و بين الذين يتولون علاج الحركة العالمية وتوجيهها ، أن أوضع
في صف الأخيرة ، وضمن أفرادها ، لأنى لا أومن بالاشتراكية فى ارتباطها بنظرية
خاصة ، ولكنى أنظر إليها كمذهب وعقيدة وإيمان ؛ وكلما ادعت النظريات
الاشتراكية أنها قائمة على أسس « علمية » كانت أضعف شأنًا ، وأهون خطراً ، وأدنى
إلى الزوال ؛ ولكن « القيم » الاشتراكية هى الثابتة الباقية ، أن كنت للأسف أرى
الفارق بين النظريات والقيم لا يزال غير معترف به إلى الحد الكافى ، مع أنه فارق
أساسى بالغ الخطر ، إذ يستطيع المرء على مجموعة من « النظريات » أن يؤسس مدرسة
أو يقيم مذهباً ، ولكن على مجموعة من « القيم » يستطيع أن يؤسس ثقافة ،
وحضارة ، وأسلوباً جديداً من الحياة يجمع بين الناس ويؤلف بين صفوفهم ...

ريتشارد رايت

- ١ -

فى يوم ثلاثاء تلقيت دعوة من جماعة من الشبان البيض عرفتهم فىا مضى حين كنت أشغل فى إدارة البريد ، إلى لقائهم فى أحد الفنادق القائمة فى الجانب الجنوبى من مدينة شيكاغو للبحث فى أحوال العالم وشؤونه .

وقد اجتمعنا فى الموعد المضروب وكنا عشرة فتيان ، ورحنا نأكل ساندوتش ، ونشرب الجمعة ، ونتجاذب أطراف الأحاديث .

وقد أدهشنى أن أعرف أن كثيراً منهم انضموا فعلا إلى الحزب الشيوعى ، فمضيت أتحداهم سافراً ، وأورد على أسماعهم حكايات ونوادر عن الشيوعيين الزنوج الذين شاهدتهم فى المنزهات العامة ، وما كان يقال لى عن تهريجاتهم ، وهى أنها ليست تهريجات ، بل « مناورات » وأن لا بأس منها ولا ضير ، ولكنى كنت من هذا القول فى شك مبين .

وفى ليلة خميس بعد ذلك الاجتماع لم يلبث شاب يهودى يدعى « صول » أن فاجأنا بقوله إن مجلة صغيرة تدعى « السنندان » ويتولى تحريرها « جاك كونزوى » قبلت منه قصة قصيرة ، وأنه قد انضم إلى جماعة ثورية من الفنانين سمت نفسها « نادى جون ريد » .

وألح صول علىّ فى حضور اجتماعات هذا النادى .

قال : إننى على يقين من أنك ستحبها .

قلت : لست أريد أن أندمج فى هيئة ما .

قال : إنهم يستطيعون أن يعاونوك على الكتابة .

قلت : لا أحد يستطيع أن يعلمنى كيف أكتب ، أو ماذا أكتب .

قال مدحفاً: تعال وشاهد ، لأنك إن تخسر شيئاً .

وكنت أشعر يومئذ أن معاشر الشيوعيين لن يخفلوا بنسأ نحن الزوج ، فقد كنت متشككاً ، حتى لأوثر أن أسمع رجلاً أبيض يقول إنه يكره الزوج ، لأنه قول أعتقده صحيحاً دون تردد ، على أن أسمعهم يقول إنه يحبهم ، لأنى لا أستطيع أن أصدقهم .

ففى ذات مساء أحسست مللاً من القراءة فاعتزمت الذهاب إلى نادى « جون ريد » لمشاهد ليس أكثر ، فقصدت إلى حى « لوب » وعثرت على رقم النادى ، وصعدت سلماً مظلماً إليه ، ولم تكن الظواهر مغرية ، حتى لقد سألت نفسى أى شىء فى الأرض يمكن أن يحدث فى مثل هذا الموضع المظلم ويكون له خطر وشان ؟؟

ورأيت من خلال النوافذ القائمة فوق رأسى حيطاناً وجدراناً قائمة ، حتى وقفت بباب كتب عليه « نادى جون ريد » ، ففتحتته وإذا بى فى أغرب حجرة شهادتها فى حياتى .

فقد انتشرت الأوراق وأعقاب اللقائف على أديمها ، وصفت فى جوانبها المقاعد لصق الجدران ومن فوقها تبدو ألوان براقاة تلوح منها صور حشود من العمال يحملون أعلاماً خفاقة ، وقد فغرو أفواههم متصايحين هاتفين ، وامتدت منهم السيقان فوق مختلف المدائن والبلاد .

وسمعت صوتاً مرحباً يقول « هالو ! » .

فدريت بعينى لأتبين مَنْ المرحَّب ، فأبصرت رجلاً أبيض يتنسم لى . قلت : لى صديق من أعضاء هذا النادى طلب منى أن أزوره هنا واسمه « صول » .

قال : أهلاً وسهلاً ، وإن كنا الليلة هادئين ، ليس لدينا شىء غير جلسة صحفية ، فهل ترسم .

وكان الرجل أشيب قليلا وله شارب .
قلت : كلا ، ولكنى أعالج الكتابة .
قال مقترحاً : فلتحضر إذن الاجتماع الذى تعقده الليلة هيئة تحرير مجلتنا « الجبهة
اليسارية » .

قلت : لا أعرف شيئاً عن « التحرير » .

قال : فلتتعلم إذن .

فحملت البصر فيه متشككاً .

قلت : لست أريد أن أثقل عليكم .

قال : إننى أدعى « جريم » .

فنبأته باسمى وتصالحنا .

وذهب إلى حجرة صغيرة وعاد يحمل رزمة من المجلات وهو يقول « إليك بعض
الأعداد الماضية من مجلة « الجماهير » فهل اطلعت يوماً على شىء منها ؟ » .
قلت : كلا .

قال : إنها تنشر لطائفة من خيرة الكتاب فى أمريكا .

وقدم لى أيضاً مجموعة من مجلة تدعى « الأدب الدولى » وهو يقول : وفى هذه
المجلة بحوث لأندريه جيد ، ومكسيم غوركى ..
فأكدت له أننى سأقرأها .

وأخذنى إلى مكتب وقدمنى إلى شاب يهودى قائلاً : إنه ينتظر أن يصبح من
أكبر الرسامين فى البلاد ، وإلى آخر سوف يصبح من أكبر المعاصرين فى الموسيقى ،
وإلى كاتب سوف يخرج للناس أحسن القصص فى هذا الجيل ، وإلى فتى من اليهود
سيضع فيلماً يصور فيه احتلال النازى لتشيكوسلوفاكيا ، وقال إننى أنعرف الساعة
إلى رجال ونساء سأعرف لهم خطرهم على السفين ، وستوثق بينى وبينهم أحسن
الصلات وأقوى الروابط والوشائج فى حياتى .

وجلس في ركن أستمع لهم وهم يتباحثون في شؤون مجلتهم « الجبهة اليسارية » .
ومضيت أسائل نفسي : أترام يتأدبون معي لأني زنجي .. ؟ ؟
ورأيت أن أدع الهدوء والمنطق لي مرشداً حيال هؤلاء القوم .
واقترحوا عليّ أن أكتب شيئاً لمجلتهم ، فقلت إنني سأفكر في الأمر .
ولقد لقيت بعد هذا الاجتماع فتاة إيرلندية تشتغل في وكالة لنشر الإعلانات ،
وأخرى تعمل في الإصلاح الاجتماعي ، وثالثة تتوفر على التدريس ، واجتمعت أيضاً
بزوجة أستاذ كبير في الجامعة ، وكنت في سالف أيامي قد اشتغلت خادماً لأمثال هؤلاء ،
فلا عجب إذا شعرت بشيء من التشكك ، وحاولت أن أتعمق في البحث عن الدوافع
التي حملتهم على لقاءى ، والترحيب بي ، ولكني لم أهتد من بحثي إلى أى عارض من
أعراض « التسنُّزُل » في هذه المعاملة التي رأيتها منهم .

- ٢ -

وأويت إلى دارى كثير التفكير ، والتأمل ، أحاول معرفة مدى الصدق
والإخلاص في هؤلاء الغرباء الذين التقيت بهم ، مسائلنا نفسي هل هم حقاً يحترمون
الزواج ويرتضونهم ؟
والتمت فراشى واستلقيت وعكفت على قراءة تلك الأعداد ولشد ما دهشت
أن وجدت أن في هذا العالم فعلاً بحثاً منظماً عن حقيقة حياة المظلومين والمضطهدين
والمنبوذين ؛ ولطالما عجبت من قبل حين كنت أستجدي الخبز من الموظفين ، وتساءلت
هل سيأتي حقاً يوم يتحد فيه طريكو القانون عملاً وتفكيراً وشعوراً فيصبجون قوة
يعتد بها ، ويتوافر لهم سلطان لا يغض أحد منه .
واليوم قد أدركت أن ذلك فعلاً حادث في سدس الأرض ، إذا أبصرت
الكلمات والعبارات الثورية تقفز من صفحات هذه المجلات وتصدمني بقوة بالغة .
ولم يستأثر بمشاعري منها النواحي الاقتصادية من الشيوعية ، ولا قوة النقابات
ونفوذها العظيم ، ولا أعمال الحركات السرية وأساليبها ؛ ولكن كل ما أخذ عيني

منها ، واستولى على خاطري ذلك التشابه الملموس بين أحوال العمال في مختلف
الأمصار ، واحتمال توحيد صفوف الأقوام المتماثلين في الحياة والألم والعذاب ، وإن
افترقوا أقطاراً ، وتباينوا شعوباً وقبائل ، فتكون منهم قوة واحدة ؛ وقيل لى إن محنة
الزئوج واحدة في هذا الأفق الثورى وحده ملجأ وملاذاً وقيمة فعلية ودوراً مضطلع به ،
وأحسست من جانب هذه المجلات والصحائف نداء حار قوياً يدعو المعذبين فى
الأرض ويتصل بالأمم ، ويلمس أحاسيسهم الخفية ويساعدهم ؛ ولم أجد خلاها
أثراً لشنشنة المبشرين ، وثرثرة الدعاة والمروجين ، فلم تقل واحدة منها « اقتدوا بنا ونحن
نحبكم أو قد نحبكم » ، ولكنها جميعاً راحت تقول « إذا أوتيت من الشجاعة ما يكفى
لكى تصارحوا الدنيا بحقيقة أمركم ، فلن تجدوا حينئذ أنكم وحدكم ، ولن تشعروا
بأنكم فى معزل أبداً » .

لقد رأيتها جميعاً تدعو الحياة إلى الإيمان بالحياة ..
وأوغلت فى القراءة إلى موهن من الليل .

وطلع الفجر علىّ وأنا لا أزال ممعناً فى القراءة ، ولكنى لم ألبث أن قفزت من
سرقدى ، ووضعت الورق فى مكانه من الأداة الكاتبة شاعراً لأول مرة فى حياتى
أننى مستطيع أن أوجه القول إلى آذان واعية ، فأكبت على نظم قصيدة نائرة ،
متمرتدة غير مقيمة بالأوزان والبحور ، راسماً صوراً سوداً لأيدى وأذرع تعمل وتجاهد
وترفع الحراب وتمشق السلاح ، ثم تنشخب أخيراً حتى يغلبها الموت ؛ وأحسست أن
هذا الكلام الذى صغته يربط بين البيض والسود . ويدمج محناً وخطوباً بمحن
مثلها وخطوب .

وإذا بى أسمع حركة إنسان فى المطبخ ، وصوت أمى تنادى : « ريتشارد » ماذا
بك ، أنت مريض ؟ ؟

قلت : كلا ، بل أطلع .

وفتحت أمى الباب ووقفت تحملى البصر فى كومة المجلات الملقاة فوق الوسادة ،
ثم انشئت تقول : ما أحسبك تبدد النقود فى شراء هذه المجلات كلها ؟

قلت : كلا ، لقد أعطيت لي ...

فراحت تطلع بساقيها الكسيتين إلى الفراش وتناولت عدداً من مجلة « الجماهير » وكانت على غلافه صورة كاريكاتورية بمناسبة « يوم أول مايو » .

ووضعت منظارها على عينيها وراحت تطيل النظر في تلك الصورة ، ثم صاحت
فرعة : « يا آلهي ما هذا ؟؟ » .

قلت : ماذا يا أماء ..؟؟

قالت وهي تدفع بالمجلة إلى يدي وتشير إلى صورة الغلاف : ما هذا الذي أراه ..

وما خطب هذا الرجل المصور في هذا الرسم الخفيف ...؟؟

فوقفت أتأمل الصورة ، وهي بجاني ، وكانت تلك الصورة من ريشة رسام شيوعي ، رسم فيها صورة عامل مشتمل ببذلة الشغل المهلهلة ، وممسك بقلم أحمر ، وقد جحظت منه العينان ، وفغر فمه حتى أصبح يعرض وجهه كاشراً عن أسنانه ، متوتر الرقبة كأن عروقها الجمال ، ومن خلفه جمع من الرجال والنساء والأطفال بشعي السحنة ، وهم ممسكون بالمراوات والأحجار والجاريف .

وانثنت أُمي تسألني قائلة : « ماذا يهم هؤلاء الناس بأن يفعلوا ؟؟ » .

قلت متغايياً : لا أدري .

قالت : أهذه مجلات شيوعية ؟؟

قلت : نعم .

قالت : وهل يريدون أن يفعل الناس هذا .

قلت : والله ... وترددت فلم أستكمل .

فبدا الاشمئزاز والاستنكار على وجه أُمي ، فقد كانت امرأة رقيقة المشاعر ، كل مثلها الأعلى في المسيحية والمسيح ، فكيف أستطيع أن أقول لها أن الحزب الشيوعي

ريدها على أن تسير في الشوارع هاتفة صاخبة منشدة ؟؟

ومضت تسأل : ماذا يظن الشيوعيون إذن بالناس ؟ ؟

قلت متلعماً : إنهم لا يعنون هذا الذى ترينه فى الصورة .

قالت : وماذا يعنون إذن ؟؟

قلت : إن هذا الرسم « رمزى » .

قالت : ولماذا لا يصارحون الناس بما يريدون .

قلت : لعلمهم لا يعرفون الوسيلة .

قالت : وعلام إذن ينشرون هذا .

قلت معترفاً ، وأنا فى عجب لا أدرى من ذا الذى أستطيع أن أقنعه إذا لم أستطع إقناع أى : إنهم لا يعرفون إلى الآن كيف يخاطبون قلوب الناس ويتحدثون إلى أرواحهم .

قالت وهى تضع المجلة ، وتتولى منصرفه : « إن هذه الصورة كافية لأن تذهب بعقول الناس وتردهم مجانين » .

ووقفت لدى الباب وأردفت تقول : « لا أحسبك مختلطاً بهؤلاء الناس ، أليس كذلك ؟؟ » .

قلت متعجباً : « إننى أطلع فقط يا أمه ... » .

ولم تكذب أى تنصرف حتى انثنت أفكر فى عجزى الظاهر عن مواجهة تحديها البسيط ، وعدت ألقى نظرة أخرى على غلاف مجلة « الجماهير » فتبين لى أن هذه الصورة الرمزية لا تصور مشاعر العامة ، فتصفحت موضوعاتها مرة أخرى فلم ألبث أن اقتنعت بأن كثيراً مما حوته لم يكن سوى ما حسب « الرسامون » أنه مؤثر فى نفوس الناس ، وما ظنوه كفيلاً بأن يكسب الأنصار ، ويأتى بالأشباع والمريدين ، وأدركت أن معاشر الشيوعيين قد وضعوا خططاً ، ورسوموا تصميات ، ولكن لا تزال تعوزهم اللغة ، ولا يزالون يفتقرون إلى التعبير .

ها هنا إذن شىء أستطيع أن أكشف عنه ، وأصارع به ، وأسد المفاقر إليه . فقد بدا لى أن الشيوعيين أسرفوا فى تبسيط الحن والآلام التى يعانىها الذين يريدون أن يتجهوا صفوفهم ويقعوا جموعهم ، وأنهم فى محاولة كسب الجماهير ، نسوا

التعبير عن معنى حياة الجماهير ، وتصوروا الناس تصوراً خيالياً محضاً لا يمت إلى الحقيقة ، فلأحاول أنا أن أصحح هذا المعنى ، أو أرده إلى حقيقته ، فأحدث الناس عامة عن تضحية الشيوعيين الذين يجاهدون في سبيل تحقيق الوحدة البشرية في هذا العالم . وقبل رئيس تحرير مجلة « الجبهة اليسارية » قصيدتين ساذجتين لى لنشرهما ، وبعث باثنتين إلى جاك كونزوى رئيس تحرير « السندان » وأخرى إلى مجلة « الجماهير الجديدة » ، التي حلت محل « الجماهير » .

ولكن الشكوك كانت لا تزال تخامر خاطري .

قلت : لا ترسلها إذا رأيت أنها ليست جيدة .

قال : إنها جيدة فعلاً .

قلت : هل تفعل ذلك لتحملني على الانضمام ؟

قال : كلا . إن قصائدك لا تزال « خاما » ولكنها نافعة لنا ، ألا ترى أننا

جديدون جميعاً في هذا الأمر الذي نضطلع به ، إننا نكتب مقالات عن الزواج . ولكننا لا نرى زواجاً مطلقاً ، إننا بحاجة إلى مادتك .

وحضرت عدة اجتماعات في النادي فراقفتي من نشاطه سعة نطاقه وجديته . وكان النادي يطالب الحكومة بتهيئة أعمال للرسميين والفنانين والمتعطلين ، ويتولى كذلك تنظيم المعارض والمتاحف ، وجمع الأموال لنشر مجلة « الجبهة اليسارية » : وإيفاد عشرات من الخطباء لحضور اجتماعات النقابات .

وكان أعضاؤه متحمسين ديمقراطيين لا يفترون عن الحركة والتفاني والإيثار ، فكانت استجابتي لهم أنني عولت على أن أعرف معاشر الزواج بحقيقة الشيوعيين ، وخطرلى أن أكتب سلسلة صور قلمية للزواج الشيوعيين ، ولكنى لم أكشف أحداً بنيتي ، ولم أكن أدري أن مطمحى هذا كان ساذجاً غريباً في ذاته .

— ٣ —

ولم أكد أحضر بضعة اجتماعات حتى أدركت أن هناك حرباً انقسامية مريعة

بين جماعتين من الأعضاء ؛ وكان كل اجتماع مقترنا بصخب بالغ ، ونقاش عنيف .
ولاحظت أن فئة قليلة من « الرسامين » هي التي تتزعم النادى وتسيطر على
سياسته ، وأن جماعة الكتاب الذين يحيطون بمجلة « الجبهة اليسارية » متآفقون
من زعامة الرسامين منكروها عليهم .

وكانت مصالحتي من البداية مع المجلة ، فلم يسعنى إلا أن أقف في صف الكتاب .
وما لبث أن حدث تطور عجيب ، فقد راحت جماعة « الجبهة اليسارية » تعلن
أن الزعامة الحاضرة لا تمثل رغبات النادى واتجاهاته ، فتقرر عقد جلسة خاصة ،
وتقدم مشروع قرار باعادة انتخاب سكرتير ينوب عن اللجنة التنفيذية ، وعند ما
رشتت أسماء لهذا المركز كان اسمى من بينها ، ولكنى رفضت معلناً الأعضاء أنني
أجهل أغراضهم إلى حد لا يصح معه ترشيحى .

واستمرت المناقشات طيلة الليل ، وأخذت الأصوات فى ساعة مبكرة من الصباح
بطريقة رفع الأيدي ، وإذا بى الفائز فى الانتخاب .

وقد عرفت فيما بعد حقيقة ما جرى ، فقد أجمع فريق الكتاب فى النادى على
الانتفاع بى فى سبيل إخراج الرسامين الأعضاء فى الحزب الشيوعى من زعامة النادى ،
ومضوا بغير علمى ولا موافقتى يواجهون الحزب بزنحى مثلى ، وهم يعلمون أنه من
الصعب على الشيوعيين أن يرفضوا التصويت فى مصلحة رجل يمثل الأقلية العنصرية
الكبرى فى الشعب ما دامت المساواة بين البيض والسود أحد مبادئ الشيوعية
وتعاليمها الأساسية .

ولم ألبث بوصفى زعيماً للنادى أن علمت بطبيعة هذا النزاع القائم فيه وخافيته ؛
فقد ذهب الشيوعيون خفية ينظمون فى النادى حزباً صغيراً من أعضائه المنتمين إلى
الحزب الشيوعى ، واتفقوا على الاجتماع خارج النادى للبحث فى الخطة السياسية التى
ينبغي له اتباعها .

وكان المؤلف فى اجتماعات النادى أن قوة الحجة هي وحدها التى تحمل

الأعضاء غير الحزبيين على تأييدهم في الانتخابات ؛ وكان جوهر النزاع تدمير الأعضاء الذين لا يمتنون إلى الحزب الشيوعي من المطالب المسرفة التي يطلب الحزب من النادي تنفيذها من طريق هذه « الفئة » أو ذلك الحزب الضئيل .

فقد كانت مطالبتهم النادي بالأموال والخطباء ورسامي اللافتات والإعلانات كثيرة إلى حد يهدد مجلة الجبهة اليسارية بالاحتجاب ؛ وكان فريق كبير من الكتاب والأدباء الشباب قد انضموا إلى النادي أملاً في نشر ما يكتبونه في هذه المجلة ؛ وعند ما أبلغ الحزب النادي من طريق هذه الفئة أن المجلة ستقف عن الصدور لم يلبث الكتاب أن رفضوا الأخذ بهذا القرار ، فعد تصرفهم على هذا النحو إجراء عدائياً نحو الحزب وسلطته .

وقد حاولت إقناع أعضاء الحزب بوجوب ترك مدى واسع من حرية العمل للنادي ، ولكن محاولتي لم تزدد النزاع إلا احتداماً ، والخصومة إلا صرامة واشتداداً ؛ وجاءني عندئذ من يبلغني بأنني إذا أردت الاستمرار في العمل كسكرتير للنادي فمن المتعين عليّ أن أنضم إلى الحزب الشيوعي ، فقلت إنني أؤيد كل سياسة من شأنها تعزيز مكانة الكتاب والفنانين فقبلوا هذا الرأي مني ووقعت طلب الانضمام إلى العضوية .

وفي ذات ليلة حضر اجتماعنا شاب يهودي وعرفنا بنفسه فقال إنه يدعى «الرفيق يونج» من أهل « ديترويت » ، وإنه عضو في الحزب الشيوعي ، ونادى جون ريد فيها ، وإنه اعترم المقام في شيكاغو .

وكان النتي قصير القامة متلظفاً فاحم الشعر ، كثير الاطلاع ، متدلي الشفتين ، جاحظ العينين ، فلم يسعنا غير الترحيب به ، لقلة حيلتنا في تنفيذ مطالب الحزب الشيوعي ؛ ولكنني لم أستطع أن أفهم حقيقة شخصية هذا الشاب وخافية شأنه . إذ جعل كلما وجهت إليه سؤالاً يتولى بوجهه ويغمغم بكلام غامض مضطرب ، فرأيت

أن أحيل أوراؤه إلى الحزب لمراجعتها وعينته عضواً في النادي ، واعتقدت أن لا بأس منه ، ولا غبار عليه إلا أنه فنان غريب الأطوار .

ولكنه عقب ارفضاض الاجتماع واجهني بمشكلة ، فقد ذهب يقول إنه لا يملك مالا ويطلب أن يؤذن له في المبيت في النادي حتى حين ، فأذنت له لاعتقادي صدقه وإخلاصه ؛ وإذا به بعد قليل يصبح من أشد أعضاء النادي حماسة ، وأكسبهم للإعجاب العام ، وكان رسمه في أعين خيرة الفنانين بديعاً ، وإن كنت لا أدري وجه الإبداع فيه .

ولم أتلق عنه تقريراً من الحزب الشيوعي ، ولكنني رأيته عاملاً نزيهاً مجداً ، فلم ألق بالآلئ إلى شيء من ذلك ، ولم أعتقد أن إغفال الحزب إرسال تقرير عنه ينطوي على أمر خطير بأي حال من الأحوال .

ففي أحد الاجتماعات الليلية طلب يونج أن يعطى الكلمة ، ولما حل دوره نهض للكلام وراح يحمل أشد حملة عرفها النادي في كل تاريخه على رسام من خيرة رساميها وهو فنان يدعى « سوان » ، فبهتتنا مما سمعنا ، إذ ذهب يتهمة بالخيانة والغدر والوصولية والتعاون مع البوليس ، والتشيع التروتسكي ؛ ولكن أكثر أعضاء النادي اعتقدوا بطبيعة الحال أن يونج لعضويته في الحزب الشيوعي إنما كان يحاهر برأى الحزب واعتقاده .

ومن فرط الدهشة والحيرة اقترحت على المجلس إحالة أقوال يونج على اللجنة التنفيذية للبت فيها ، فاحتج سوان على اقتراحي ، وكان احتجاجه في محله ، إذ قال إنه قد هوجم علناً ، ومن حقه أن يدافع عن نفسه علناً كذلك .

وأخذت الأصوات فوافق الأعضاء على السماح له بالكلام ، وانبرى يفند تهيم يونج الصارخة ، ولكن الأغلبية ظلت حائرة لا تدري هل تؤمن بقوله أم لا ، فقد كنا جميعاً نحبه ، ولا نعتقد أنه موضع اتهام ، ولكننا لا نريد أيضاً أن نغضب الحزب . ولم تلبث أن نشبت معركة كلامية ، وأخيراً نهض الأعضاء الذين لازموا الصمت

طيلة الأخذ والرد ، احتراماً للحزب ، وطلبوا منى سحب التهم الخرقاء التي وجهت إلى سوان .

ولكنى عدت فاقترحت وجوب إحالة الأمر إلى اللجنة التنفيذية ، وعادوا فخذلوا هذا الاقتراح ؛ فقد بدأوا يستريبون بدوافع الحزب وأغراضه ويخشون أن يحال الأمر على اللجنة وأكثرها من أعضائه فنقر التهم التي وجهها «يونيغ» وهو عضو فيه . وسألني بعد ذلك وفد منهم : هل لي يد في هذه التهم التي كلفها الشاب اليهودي لذلك الفنان ؛ فشعرت من هذا السؤال بحرج أليم ، وأقسمت أن لا علاقة لي ببتانا به ؛ ورأيت أن أنهى هذه المهزلة فما زلت به أسأله عن أذن له في هذا الطعن الذي وجهه إلى سوان حتى أجاب قائلاً : « لقد طلب منى أن أظهر الحزب من الخونة » . قلت : ولكن « سوان » ليس خائناً .

قال وقد جحظت عيناه ، وارتعشت معالم وجهه من الانفعال : لا بد من التطهير . ولم أجد بأساً من حماسه الثورية ، ولكنى اعتقدت أنها متطرفة أكثر مما يجب .

وزداد الموقف حرجاً .

فقد أبغضني وفد من الأعضاء أنهم سيستقبلون إذا لم تسحب الاتهامات التي وجهت إلى سوان .

فكتبت إلى الحزب الشيوعي أسأله لماذا صدرت الأوامر بمعاينة سوان ، فجاءني الرد منه يقول إن الأوامر لم تصدر بذلك إطلاقاً .

فعمجت للشاب اليهودي : ماذا تراه يقصد ، ومن الذي حرضه ؟ وأخيراً طلبت إلى الأعضاء أن يسمحوا لي بأن أضع الأمر أمام زعماء الحزب . وقبلوا اقتراحي بعد نقاش عنيف .

وفي ذات مساء اجتمع عشرة منا في مكتب أحد زعماء الحزب لنسمع يونيغ وهو يكرر الاتهامات التي وجهها إلى سوان ، وكان هذا الزعيم يلوح مترفعاً لاهياً متفكهاً

بالحدث ؛ وقبل أن يبدأ يونج الكلام ، أشار إليه الزعيم أن يفعل ، فإذا به ينشر بين يديه أوراقاً وصفحات ، ويعدد منها تهماً سياسية جديدة تفوق في بشاعتها التهم التي سمعناها في النادي منه .

فحدثته بنظري ، وقد شعرت بأنه قد اقترف خطأ عظيماً ، ولكنني كنت أخشاه لأنه مستمتع بنفوذ جهة سياسية يخاف بأسها ويخشى شرها .

ولما فرغ الفتى من اتهاماته ، انبرى الزعيم يسأله : هل تسمح لي بالاطلاع على هذه الأوراق؟؟

قال : بلا شك ، ومد يده بنسخة منها قائلاً : ولك أن تحفظ هذه النسخة لديك ، فإن لدى عشراً منها « بالكاربون » .

قال : ولماذا نسخت هذه الصور العشر؟؟

قال : خيفة أن تسرق مني .

وانثنى سوان يقول : إذا أخذت تهم هذا الرجل مأخذ الجد فستقتيل وأفصح النادي علناً .

وهنا صرخ يونج قائلاً : هل رأيتم ، إنه يشتغل مع البوليس !

وعندئذ غلبني الاشمئزاز ، واستولى الضجر على نفسي ، ولكن لم ينته الاجتماع إلا بعد أن تعهد الزعيم الشيوعي بأن يدرس الأوراق دراسة دقيقة ، ويقرر هل يصح أن يحاكم سوان عليها أم لا .

وكنت على يقين أن هناك خطأ ما ، ولكنني لا أستطيع إدراك كنهه أو اكتشافه .

وفي ذات أصيل ذهبت إلى النادي لأتحدث طويلاً إلى يونج ولكنني لم أجده فيه ، فانتظرت إلى اليوم التالي ، ولكنه لم يظهر ، وظللت أسبوعاً أترقبه فلا أهدى إليه ؛ وجعل الأعضاء يتساءلون أين ذهب ، ولا يصدقونني حين قلت لهم إنني لا أدري أين مكانه ، ولا أعلم هل تراه مريضاً أو قبض البوليس عليه .

وفى ذات يوم تسللنا أنا والرفيق « جريم » إلى النادى وفتحنا حقائبه ؛ ولشد ما بهتتنا بما رأينا ، فقد وجدنا أولاً رقاً طويلاً يبلغ طوله عشرين ياردة ، وهو مؤلف من صفحات بعضها لصق بعض ، وتحوى رسوماً تبين تاريخ البشرية من وجهة نظر الماركسيين ، وقد كتب على الصفحة الأولى منها « سجل مصور لتاريخ التقدم الاقتصادى » .

قلت : هذا بحث عظيم ، ومطمح دراسة عالية .
فأجابنى جريم قائلاً : يظهر أنه بحاثته .

ووجدنا أخيراً كتاباً عليه عنوانه فى « ديترويت » وفيه يسأل كاتبه عن أبناء العضو المحترم وأحواله .
وبعد بضعة أيام جاء كتاب يقول :

« سيدى العزيز

« رداً على كتابكم نحيطكم علماً بأن المستريونج كان مريضاً فى هذه المصححة وهرب منذ بضعة شهور وقد عثرنا عليه وأعدناه لمعالجته من المرض العقلى الذى يعانىه .. » .

فكأنما دهنتى صاعقة ، أحقاً ما قرأت .

ولكن الواقع واضح صريح .

فيا للعجب ! أى ناد هذا الذى نديره إذا كان مجنون قد دخل حظيرته وساعد على إدارته ، أ كنا إذن مجانين مثله فلم نستطع أن نكتشف مجنوناً بيننا على هذا النحو...؟؟

وعندئذ تقدمت باقتراح يرمى إلى سحب جميع التهم التى وجهت إلى سوان ، وأقر الأعضاء اقتراحى ، واعتذرنا للرجل ؛ ولكنى ظلت شيوعياً معذبا محترق الخاطر ، وإن مضيت أدير النادى وأشرف عليه .

وطلب الأعضاء المنتمون إلى الحزب الشيوعي في النادي أن أشير على « الخلية » التي أنتمى إليها بأن تسمح لي بتأدية العمل في النادي وقضاء كل الوقت في مباشرته ، كما طلبوا مني أن أقدم إليها تقريراً عن وجوه نشاطي من تأليف وتنظيم وخطابة . وقد فعلت .

وكانت الخلية هي الوحدة الأساسية للحزب الشيوعي والعضوية فيها إلزامية لا مفر لعضو منها .

وكانت اجتماعاتها تعقد في بعض الليالي سراً ، خوفاً من كبسة البوليس . والمألوف ألا يقع غدر أو تحدث خيانة في هذه الاجتماعات ، ولكن لا يصح للمرء ما دام قد أصبح شيوعياً أن يستهدف لأنظار الشرطة .

وذهبت إلى أول اجتماع خلّيتي في حي الضفة الجنوبية وقدمت نفسي إلى المنظم الزنجي .

فقال وهو يبتسم : « أهلاً وسهلاً أيها الرفيق ، يسرنا أن يكون كاتب بيننا » .

فقلت : لست كاتباً ولا بد ...

وبدأ الاجتماع .

وكان الحاضرون قرابة عشرين زنجياً .

وجاء دوري للكلام ، فأخرجت مذكراتي ، ومضيت أشرح لهم كيف كان انضمامي إلى الحزب والقصائد التي نشرتها والرسائل التي كتبها ، والعمل الذي أؤديه في النادي .

ولما انتهيت من تقريرى انتظرت أن يكون ثمة تعليق عليه ، فإذا السكون نحيم ؛ فدرت بعيني في القوم ، فإذا هم مطرقو الرؤوس ، ولكنني لمحت ظل ابتسامة على فم امرأة زنجية .

ومضت دقائق .

وإذا بتلك المرأة ترفع رأسها وتنظر إلى « المنظم » وإذا به يخفق ضحكة تغالبه ؛
وعندئذ ضجت المرأة ضاحكة حتى كادت تستلقي من فرط الضحك لولا أن
راحت تدفن وجهها بين راحتيها .
فوقفت محملاً مبهوتاً .
أترانى قلت شيئاً مضحكاً ...؟؟
قلت : ما الخبر ..؟؟

فشاع الضحك في المجلس ، ولكن المنظم — وكان يلعب بقلمه الرصاص طيلة
الوقت — لم يلبث أن رفع رأسه وراح يقول : لا شيء أيها الرفيق ، إنه ليسرنا أن
يكون بيننا كاتب .
فعاد القوم يضحكون .

قلت لنفسى من فرط العجب : أى قوم هؤلاء ، لقد قدمت تقريراً جدياً
معقولا فإذا بهم يقابلونه بالضحك والتهاتف والابتسام .
واثنيت أقول مرتبكا قلقاً : لقد فعلت كل ما فى وسعى أن أفعل ... وقد
أدركت أن الكتابة ليست عملاً أساسياً أو ذا بال ، ولكنى أستطيع أن أساعد
وأعاون إذا هيا تم لى الوقت ، وأفسحتم لى المجال .
قال : إننا نعرف أنك تستطيع أيها الرفيق .
وكانت لهجته أشد ترفعاً من لهجة البيض ، فغضبت واشتد بى الحقنق .
لقد كنت أظن أنتى بهؤلاء القوم عليم ، ولكن تبين لى عندئذ أنتى
كنت مخطئاً .

وأردت أن أدخل معهم فى نزاع ، وشجار على هذا المسلك المعيب نحوى ،
ولكنى رأيت من الحذر والحيلة أن أتحدث عنه أولاً مع بعض الناس .
وقد علمت فى الأيام التالية من التحرى والاستقصاء أننى قد بدوت عنصراً
غريباً فى أعين أولئك الشيوعيين السود ، بل لشد ما ذهلت وعجبت أن سمعت

أنهم دعوني أنا الذي لم أتلّق من التعليم أكثر من « الابتدائي » في مصاف
« المستنيرين » .

ولم أكن من قبل قد سمعت شيئاً عن معنى « المستنير » الذي أرادوه ، ولا
علمت بهذا التعريف الذي به عرفوه ؛ وقد كنت أظن أنهم سيرفضون انضمامي إليهم
بدعوى أنني لا أدري كثيراً في « السياسة » ، أو لعلهم قائلون إن مسألتى تحتاج إلى
بحث وحالتى تقتضى التحقيق .

ولكنهم اكتفوا بالقهقهة ساخرين .

وما كان أشد كمدى حين علمت أن الشيوعيين السود في خليقتى استدركوا
على حذائى اللامع ، وقبضى النظيف ، وربطة العنق التى ارتديتها ، بل إن لهجتى
في الكلام بدت لهم شيئاً غريباً عنهم وأمرأً مستكراً .
وقال أحدهم « إنه يتكلم بلغة الكتب » .

وكان هذا وحده كافياً للحكم علىّ إلى الأبد بأننى « بورجوازى » لا أكثر
ولا أقل ...

— ٥ —

وفى عملى المتصل بالشيوعية عرفت رفيقاً زنجياً يدعى « روس » كان متهماً
« بالتحريض على الشعب » .

وكان « روس » هذا مثال المهيّج الشديد النفوذ في الجماهير ، وكان مولده في
الولايات الجنوبية ثم هاجر إلى الشمال ، وكانت حياته صورة الآمال الساذجة ، والخيبة
المريّة التى تغالب نفس القروى المنحدر إلى الحضر ؛ فكان المتشكك المستريب وإن لم
يكن المتهجّم النازع إلى العدوان ، فهو مجموعة من ردائل وفضائل اختلطت في نفس
إنسان يجاهد مكفوف البصر أو معصوب العين بين جماعتين ، ويناضل أعمى بين
يئتين مختلفتين ، رجل يعيش على هامش ثقافة ؛ حتى لقد بدا لى أنني مستطيع إذا
عرفت دقائق قصته ، وماضى حياته ، أن أصور بعض المتاعب والمشاق التى تلازم

التوفيق بين أهل القرى وبين الحياة في المدن ، والعيش في بيئة متحضرة ، وأننى
مستطيع أن أعرف الناس بحياته أكثر من معرفته هو بنفسه .

ورحت أفاتح «روس» في أمسى وأشرح له الخطة التى انتويتها ، فكان المتلطف
المتودد ، ودعانى إلى بيته ، وعرفنى بأمراته اليهودية وابنه الصغير وأصحابه .
ولبثت ساعات أتحدث إليه شارحاً مرادى طالباً إليه ألا يبوح لى بشئ
يريد كتمانہ .

وقلت له : إننى أريد أن أعرف النوازع التى نزع بك إلى الشيوعية .
ولم تلبث الإشاعة أن سرت فى الحزب بأننى أخذت أدون مذكرات عن حياة
«روس» وإذا بأحداث غريبة تقع ، فقد جاءنى مثلاً شيوعى من الزوج ذات ليلة
وأنا فى دارى وطلب منى أن أخرج معه إلى الشارع ليتحدث معى على انفراد . ولح
لى تلميحاً عن مصيرى أثار به مخاوفى .

قال بلهجة جدية : اسمع يا رايث ، إن المستنيرين لا يجدون محلاً فى الحزب
ولا يصلحون له .

قلت محتجاً : ولكنى لست منهم . إننى أكنس الشوارع لأصيب قوتى .
وكانت إدارة الترفيه قد كلفتنى أخيراً كنس الشوارع لقاء ثلاثة عشر دولاراً فى
الأسبوع .

قال : ولو ... فإن لدينا مذكرات عن مختلف المتاعب التى عانىها فى الماضى من
معاشر «المستنيرين» . ويقدر عدد الذين يبقون منهم فى الحزب بثلاثة عشر فقط
فى المائة .

قلت : ولماذا يتركون الحزب ما دمت تصر على تسميتى «بالمستنير» ؟

قال : أكثرهم يذهبون من حيث أتوا مختارين .

قلت : ولكنى لن أذهب .

قال بلهجة رهيبة وتلميح له معانيه : ولكن بعضهم يطرد طرداً .

قلت : بأية تهمة ؟

قال : معارضة سياسة الحزب .

فعدت أقول : ولكنى لست معارضاً فى شىء .

قال : سيطالبونك بالتدليل على ولائك له .

قلت : وكيف ؟

قال : إن للحزب وسائله الخاصة فى اختبار الناس .

قلت : هذا كلام لا أسيغه .

قال : كيف تفعل إزاء مراقبة البوليس ؟

قلت : لا أفعل شيئاً ، لأنهم لم يحتكوا يومابى ، ولم أجد منهم عنتاً .

قال وهو يشير إلى زنجى شيوخى معروف « بالشغب » : هل تعرف إيفانز ؟؟

قلت : نعم ، لقد اجتمعت به .

قال : هل لاحظت أنه مصاب بأذى .

قلت : نعم ، كان رأسه مضموداً .

قال : إنه أصيب بذلك الجرح فى مظاهرة ، وكان البوليس هو الذى اعتدى

عليه ، هذا هو الدليل على الولاء للحزب .

قلت : هل تعنى بهذا أن أعرض لضرب البوليس وإصابة رأسى لجرد التدليل

على ولائى ؟؟

قال : لست أعنى شيئاً . إننى إنما أشرح لك وأفسر .

قلت : وماذا يحدث إذا أنا تلقيت ضربة من يد البوليس فأحدثت لى ارتجاجاً

فى المخ ، وافرض أننى لم أعالج منها بعد ذلك ، فهل أستطيع أن أكتب ، وماذا

أقت الدليل عليه فى هذه الحال ؟؟

فهز رأسه واثنى يقول : لقد اضطر الاتحاد السوفيتى إلى التخلص من كثير من

المستنيرين بقتلهم رمياً بالرصاص .

فصحت أقول : يا لله .. هل تعرف ماذا أنت قائل ؟ إنك لست في روسيا ،
إنك واقف الآن في أحد شوارع شيكاغو ، ومع ذلك تتكلم كمن هو تائه ضال
في موكب .

قال : هل علمت بما جرى لروتسكى ؟

قلت : نعم ، لقد أبعدوه عن روسيا .

قال : وهل تعرف لماذا؟؟

قلت : والله .. وأمسكت محاولاً ألا أكتشف عن جهلى بالسياسة لأننى فى
الواقع لم أكن متقبلاً تفاصيل النزاع بين تروتسكى والحزب الشيوعى فى روسيا ،
ولكنى مضيت أقول : الظاهر أن الحزب اتخذ قراراً فعمد هو إلى مخالفته .

ولكن محدثى صاح بى متضجراً برماً ، إنه أبعد لنشاطه المناهض للثورة .
وقد علمت فيما بعد أن جوابى ذلك لم يكن مرضياً ، ولم يُصْغَ فى قالب مقبول ،
ولاعبارة من العبارات الجارية على الشفاه المليئة بالحق على تروتسكى واستنكار فعلته .
قلت : أعرف ذلك ، ولكنى لم أقرأه فى حياتى ، فما هو موقفه من الأقليات؟؟
قال : لماذا تسألنى .. أنا لا أقرأ تروتسكى .

قلت ، اصغ لى ، إذا وجدتنى أقرأه فما معنى ذلك عندك؟؟

قال بلهجة المستاء المتضايق : أيها الرفيق ، أنت لا تفهم .

وهكذا انتهى بيننا الحديث .

ولكن تلك العبارة الأخيرة « أيها الرفيق أنت لا تفهم » ، لم تكن آخر مرة
أسمعها وإن كنت خالى الذهن لا أعرف أنهم يعتقدون أننى ضال مخطئ ، والواقع
أننى لم أقرأ شيئاً مما كتبه تروتسكى ، بل العكس هو الصحيح ، فقد شاقنى كتاب
« ستالين » ، « المسألة القومية والمسألة الاستعمارية » .

وفى الحق لم يستأثر بخاطرى من كل التطورات التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى
غير الوسيلة التى اتخذها للسير بعشرات من الشعوب المتخلفة إلى الوحدة الوطنية ،

والتضامن القومى ، كما قرأت من قبل كيف كان الشيوعيون يوفدون خبراء لغويين إلى أقصى أرجاء روسيا ليستمعوا إلى شكوى الشعوب التي ظلت قروناً تعاني طغيان القياصرة وعسفهم ، ويحاولوا فهم رطاناتهم ، مما حذقوه من علم الأصوات ، واللهجات ؛ وكان أول ما هز يومئذ عاطفتى اطلاعى على جهد أولئك الخبراء في تدريب أولئك الأقوام على الكلام ، وتنظيم لغة لهم ، وإدخال الصحافة على حياتهم ، وإنشاء معاهد في ربوعهم النائية ؛ وقرأت كيف كانوا يشجعون تلك الشعوب المنسية المهملة على الاحتفاظ بثقافتهم القديمة ، واستخلاص معان ومشاعر لا تقل عمقاً عن المعاني والمشاعر التي تسود الأمم الراقية ذاتها من عاداتهم العتيقة وتقاليدهم ، وكنت أعجب في نفسى للفارق الظاهر بين هذا كله وبين سخرية الأمريكيين بالزواج ووترفعهم عنهم .

وإذا كان هذا هو شأنى ، فما معنى هذا النذير الذى تلقيته من ذلك الشيوعى الأسود ؟ ولماذا يستراب بى ، وتحوم الشبهات حولى ، لمجرد أنى أردت أن أكشف عن مناقص حياة الزوج وسوء ما هم فيه ، لىكى أبين العمق الكامن فى تلك الأقوام المهملة ، والمآسى التي ترجع إلى أبعد العصور وأقدم الأزمنة ، ولىكى أصور الشمس والجبال والبحار القائمة فى فاقة أمريكا الزنجية ، للتخللة عيشهم الضنك ، وحياتهم الشقية . أى خطر لعمرى فى تصوير مدى التشابه والتماثل بين آلام الزوج ، ومأساة الشعوب الأخرى .

- ٦ -

وفى ذات صباح كنت جالساً مع « روس » فى بيته ، وقد جاءت زوجته ، وابنه ، فاشتركا فى المجلس ، وأنشأت أدون مذكرات ونقطاً فى حماسة على أوراق صفراء أمانى ، وإذا يجرس الباب يندق ، ودخل زنجى شيوعى يدعى « أوتجرين » وهو طويل القامة ، عبوس الوجه ، أشبه بالجندى فى خشونته وعريض منكبيه . فقدمنى رب الدار إليه وإذا به يهز رأسه بحفوة ويقول بغير تمهيد ولا مقدمات : ماذا يجرى هنا ؟؟

وعندئذ مضى « روس » يشرح له خطتي . وكلما أوغل في الشرح ، راح وجهه
« أوجرين » يزداد عبوساً وتجهماً .

ولم يجلس حين قدمت إليه زوجة روس مقعداً ولم يستمع إليها ، بل انثنى يسألني
قائلاً : ماذا أنت ناو أن تصنع بهذه المذكرات ؟ ؟

قلت : أرجو أن أنسج منها قصصاً .

— وماذا تسأل أعضاء الحزب عنه ، وأى شيء منهم تستفسر ؟ ؟

— عن ماضيهم بوجه عام .

— ومن الذي أشار بهذا عليك ؟

— لا أحد ... لقد جاء من وحي خاطري .

— هل كنت يوماً عضواً في أية جماعة سياسية أخرى ؟ ؟

— اشتغلت مرة مع الحزب الجمهوري .

— أقصد أية هيئات ثورية ؟

— كلا ... ولماذا تسأل ؟

— وأى عمل تؤدي ؟

— أكنس الشوارع للظفر بالقوت .

— إلى أية مرحلة من التعليم وصلت ؟ ؟

— الابتدائية .

— ولكنك تتكلم كمن تجاوزها .

— قرأت كتباً ، وعلمت نفسي بنفسي .

— لا أعرف .

قال ذلك وتولى غني معرضاً .

قلت : ما هي الحكاية ؟ ؟

قال : لمن أريت هذه المذكرات ؟

قلت : لم أرها لأحد ؟

ورحت أعجب في نفسى لهذه الأسئلة ، ومن سذاجتى ، ظننت أنه يصلح
أيضاً كنموذج لهذه الصور القلمية التى اتقويت رسمها .

قلت : أحب أن يكون لى حديث معك .

قال بجفوة : لا أرى داعياً ...

وأمام جفوته لم ألع .

ورأيته يدعوا روس إلى غرفة مجاورة ... فظلت فى مكانى مستشعراً ذنباً
لا أدريه ، ولكن لم تكدمضى لحظات ، حتى عاد فخدجنى ببصره فى صمت ،
وانصرف .

وانثيت أسأل روس : ماذا يظن هذا الرجل أنه أوتى ؟؟

قال : إنه عضو فى اللجنة المركزية .

— ولكن لماذا يفعل هكذا ؟

— هذا طبعه أبداً .

وسادنا سكون طويل .

وأخيراً انثنى روس يقول : إنه يجب لك ما الذى تريد أن تصنعه بهذه
المذكرات .

فنظرت إليه ، وبدا لى أنه هو أيضاً قد أخذ يرتاب ، ويحاول إخفاء الخوف
البادى على محياه .

قلت : إننى معفيك من أن تقول لى شيئاً لا تريد أن يعرف عنك .

والظاهر أن قولى هذا خفف من رييته فى تلك اللحظة ، وإن كانت بذور الشك
قد نبئت فى أعماق نفسه .

— وأحسست أن الأرض تميد بى ... أترانى مجنوناً ؟؟ أم ترى أولئك القوم
مجانين ... ؟

وانبرت زوجته تقول : اسمع يا ريتشارد ، إن « روس » يخشى التهم ، فإن هذا

الرجل يمثل الدفاع العالى الدولى عن هذه المنطقة من المدينة ، فمن واجبه أن يكون على بينة من الذين يحاول الدفاع عنهم ، فلا غرو إذا هو أراد أن يعرف هل أعطاك روس شيئاً قد يستخدم ضده فى المحكمة .

فلم أحر قولاً .

قلت : ما الذى يظنه بى ؟ ؟

فلم تجب ... ولم يفه زوجها بينت شفة .

فصحت من الغضب ، يا لكم من قوم ضالين ! وضربت المنضدة بجُمُوع كفى ، فاستحيا روس وتأثر وقال متعلماً : إن « أوجرين » ليس إلا رجلاً مفرطاً فى الحذر والحيلة .

قلت : وهل تثق أنت بى يا روس ؟ ؟

قال مرتبكاً : نعم .

لقد جلسنا نحن الزنجيين متقابلين ينظر كل إلى صاحبه خوفاً ووجلاً . وكان كل منا جائعاً ، يعتمد على الصدقات لكى يأكل ويصيب مضجعاً ، ولكن كان كل فى نفسه أشد ريبة بالآخر منه بالذين تولوا صب حياتنا فى قالبها ، وأرادوا أن نكون جياعاً شُرّداً هائمين .

ولم أكف عن تدوين مذكرات عن حياة « روس » ، ولكنه ما لبث على مر الأيام أن ازداد تسكماً وتحفظاً فى ردوده ، حتى أشفقت عليه ورثيت له ، ولم أحاول محاجته إذ كنت أعلم أن التشجيع والحث والحض لن تزيل المخاوف من نفسه ، وإنما قنعت بالجلوس والإصغاء إليه والاستماع لأصحابه وهم يتحدثون عن محن الزوج فى الجنوب ، وتدوين مذكرات فى خاطرى ، غير مجترى على أن أوجه سؤالاً مخافة أن أقذف به الرعب فى قلوبهم .

وما لبثت أن زحمت خاطرى برواياتهم وأحاديثهم عن ماضى حياتهم ، رغم مخاوفهم ، وعدلت عن كتابة التراجم التى كنت أتوئها ، واكتفيت بكتابة

سلسلة من القصص الصغيرة مستخدماً المادة التي ظفرت بها من روس وأصحابه ، بانياً عليها من عندي ، ناسجاً من خيالي ، متحدثاً خلالها عن اقتحام جماعة من الغلمان السود أملاك رجل أبيض والمحكمة العرفية التي تلتها .

وقد نشرت القصة بعنوان « غلام كبير يغادر مسقط رأسه » في قصيدة من الشعر ؛ ولكن ظهورها جاء متأخراً كثيراً عما ينبغي ، فلم تحدث أثراً في نفوس الشيوعيين الذين كانوا يتساءلون عن سر هذا النزوع في التصوير .

وانتهى العمل الذي كلفني تأديته إدارة الترفيه ، فأصبحت متعطلاً أبحث عن عمل ولا أتهدى إليه ؛ فجعلت أقترض نقوداً لكي أغدو إلى عملي في النادي وأعود منه ، ووجدت غرفة في السطوح لتقيم فيها أمي وخالتي وأخي خلف سياج للسكك الحديد في زقاق معزول حتى عاد رجال إدارة الترفيه فعيموني في نادى الشبان « بساوث سايد » لقاء أجر زهيد لا يكاد يكفي لقوت أسرتي ، أو يسد مفقر أهلي . وأثيرت يومئذ مشاكل سياسية فأحيط بي ، وأقضت مضجعي ؛ فقد اتهم الحزب الشيوعي صديقي « روس » الذي كنت أحاول أن أصور حياته بأن له « ميولاً ضد الزعامة » وجنوحاً نحو « التعاون الطبقي » و « اتجاهات انشقاقية » ؛ وهى عبارات وهمية غريبة لم يسعنى إلا أن فغرت فى حين سمعتها من فرط الدهشة والروع ؛ وأشيع أيضاً أننى سأتهم بأمثال هذه التهم وأشباهها ، لأن المعتقد أننى قد تأثرت سياسياً به . وفى ذات ليلة جاء جمع من الرفاق الزنوج إلى بيتى وأمروني بألا أتصل بروس . قلت : لماذا ... ؟ ؟

قالوا : إنه عنصر غير سليم ، ألا تقبل هذا القرار ؟ ؟

قلت : أهذا قرار من الحزب ؟ ؟

قالوا : نعم .

فعدت أسأل : إذا كنت متهماً بأمر ما فلا يسعنى إلا النزول على هذا القرار ، ولكنى لم آت أمراً .

قالوا : أيها الرفيق إنك لا تفهم ، ألا تعلم أن أعضاء الحزب لا ينتهكون قراراته .

قلت : ولكن قراركم لا ينطبق على ، ولن أسكن إليه .

قالوا : إن موقفك غير جدير بثقتنا .

فتولاني الغضب .

قلت منفجراً وأنا أنهض من مجلسي وأشير بذراعي إلى « الطقيسة » الحقيرة التي أعيش فيها : انظروا ، أى شيء هنا يخيفكم ، وأنتم لا تجهلون أين أشتغل ، وتعلمون ما هو أجرى ، ولا يخفى عليكم أحد من صحابي ، فما هو وجه الخطأ بالله عليكم وماذا أعاب به ؟ ؟

فانصرفوا باسمين بسمه لا مرح فيها ولا مجانة ، وهو ما يوحى بأننى لن ألث أن أعرف أين وجه الخطأ الذى أسأل عنه .

ولسكنى وجدت شيئاً من الترفيه يخفف عنى هذه المنغصات وهو انشغالى بعملى فى نادى الشبان ؛ فقد كان العلمان السود ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة والعشرين يأتون فى كل يوم إلى النادى للسباحة والرسم والمطالعة ، وهم جميعاً متشردون هيم^١ أشقياء ، أخلياء من كل ثقافة ، أو علم ، أو تربية روحية ، ممن يتهبأون للأمراض أو السجن أو الإصلاحية أو الكرسي السكهر بأى المعد لتنفيذ الأحكام بالإعدام ، فكنت أفضى الساعات مصغياً لأحاديثهم عن الطائرات ، والنساء ، والمدافع ، والسياسة والجرائم والمجرمين ؛ وكانت تعبيراتهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم قوية زاهية الألوان فكنت أحفظ فى جيبي قلماً رصاصاً ودفترًا صغيراً لأدون فيه ما أسمع منه ؛ ولم يكن أحد منهم يخشى الناس على هذا النحو الذى يشعر به الكبار حتى ليخيل إليهم أن كل إنسان جاسوس ؛ فليت معاشر الشيوعيين الذين استرابوا بدوافعى وأوجسوا خيفة من نوازعى ، عرفوا أولئك الأحداث ، أو فطنوا إلى ما يخطر ببالهم من أحلام ، أو دروا المصائر التى ترتقبهم على الأيام .

لقد خطر ذلك ونحوه لى ، فخيل لى أننى لن أستطيع أن أصور للشيوعيين هذه المآسى التى أشاهدها فى نادى الشبان .

ولم تلبث واجباتى الحزبية أن تدخلت فى جهودى ، وحالت دون مواصلة التعبير عن خواطرى، وتصوير جوانحى وأفكارى ، فقد قرر النادى عقد مؤتمر يضم جميع الكتاب اليساريين فى الولايات الغربية الوسطى ، وقد ناصرت الفكرة وناديت بوجوب ترك المؤتمر يدرس مشا كل المهنة ومسائلها ، ولكن رأى لم يقابل بالرضى ، وقال القوم إن المؤتمر سيعالج المسائل السياسية دون سواها .

وعندئذ طلبت إليهم أن يعرفونى ماذا ينتظر إذن من معاشر الكتاب والمؤلفين هل يراد منهم أن يضعوا كتباً ؟ أو يبدوا نشاطاً سياسياً ؟ فكان الجواب « كليهما » ؛ يكتب الكتاب بضع ساعات فى اليوم، ويتقضى البقية فى الشوارع مع الرقباء والعسس . وانهقد المؤتمر .

وحضره أحد الزعماء فى الحزب كمستشار .

وكان السؤال الذى طرح للمناقشة : ماذا ينتظر الحزب من النادى ؟؟
وكان الرد الذى أدلى به الزعيم يتراوح بين أعمال التنظيم وتأليف القصص والروايات .

وكانت حجتي أنه إما أن يشتغل المرء بالتنظيم ، وإما أن يضع قصصاً .
ولكنه قال : إن عليه أن يؤدى كلا الأمرين ، وكان رأيه فى المؤتمر هو الغالب .
وأخذت الأصوات على مصير مجلة « الجبهة اليسارية » التى طالما اشتغلت لها ، وكتبت فيها فتقرر العدول عن إصدارها ، وتركها تختفى من الوجود .
وتبين لى عندئذ أن النادى موشك على النهاية ، فنهضت لأشرح وجهة نظرى الحزنية ، وطلبت « حل النادى » ، فلم تلبث دعوتى أن سميت « دعوة إلى التردد والهزيمة » وجلبت على غضب ذلك الزعيم وحقه البالغ .
وانتهى الأمر باتخاذ عدة قرارات بشأن الصين والهند وألمانيا واليابان ، والأحوال المتعلقة بعدة أقطار وبلدان أخرى .

ولكنه لم يقرر شيئاً على الإطلاق بشأن الكتاب وما يكتبون .
وما لبثت الآراء التي أعلنتها في المؤتمر أن رُبِطَتْ بالشبهات التي أثيرتها في أوساط
الشيوعيين الزنوج ؛ وتحقق الحزب يومئذ أن هناك عدواً له خطراً بين ظهرانيه وخصماً
مبيناً بين صفوفه ، وأخذ القوم يتهايمون بأنني أسعى في تأليف هيئة سرية لمعارضة
الحزب ومناوآته ؛ وكنت على يقين أن نفي الاتهام لا يجدي ، وأصبح من المؤلم أن
ألاقي شيوعياً في الطريق ، أو يحتويني مكان ما معه ، لأنني لا أعرف ماذا سيكون
موقفه مني .

وعلى أثر ظهور قرارات المؤتمر، دعى نادى جون ريد إلى عقد جمعية عامة ، وتم
اجتماعها في صيف عام ١٩٣٤ وحضرها الكتاب اليساريون جميعاً في مختلف الولايات
المتحدة ، ولكن لم تكد جلساته تتوالى حتى شعر الكتاب بحيرة وارثباك واستياء ،
فقد كان أكثرهم شباباً متحمسين يحاولون الإحسان ويقبلون التجديد ، ولكن لم
يبق منهم أحد في طمأنينة من أمره ، أو يدري ماذا يرتقب الحزب منه .

وجاء هذا المؤتمر الثاني فلم يخرجوا منه برأى ، ولا رأوا فيه توحيداً أو تضامناً .
وقبل أن يرفض الاجتماع ، وتختم جلساته ، حضرت اجتماعاً تمهيدياً للبحث في
مصير الأندية ، واجتمع عشرة منها في غرفة واحدة بأحد الفنادق ؛ واشد ما عجبت أن
رأيت زعماء مجلس إدارة النوادي يؤيدونني في انتقاداتي للطريقة التي اتبعت في
إدارتها وتنظيمها ، فقولتني الحماسة ، وظننت أن الأندية موشكة أن تدخل طوراً
جديداً ، وتواجه حياة أفضل من هذه الحياة التي كانت تحياها .

ولكنني ما عثمت أن ذهلت حين سمعت شيوعياً في المجلس يعلن حل الأندية .
فقلت : لماذا نحلها ؟؟

وقيل لي لأنها لا تخدم سياسة « الجبهة الشعبية » الجديدة .
فقلت : إن في الإمكان علاج هذا ومداواته ، بجعل الأندية أصح أفقاً ، وأوسع
نطاقاً ، وأصلح حالاً .

قال صاحبنا : كلا ، بل يجب تنظيم هيئة أكبر وأفضل ، هيئة يصح أن يندمج فيها جميع كتاب الأمة وأرباب الأقلام فيها .

وقيل لى أيضاً إن السياسة التى رسمتها « الجبهة الشعبية » هى الآن أسلم نظرة إلى الحياة وأصح تفكيراً بسبيلها ، فلا ينبغي أن تبقى الأندية بعد اليوم .

قلت : وما مصير الكتاب الشباب الذين دعاهم الحزب إلى الانضمام لتلك الأندية ، ولا يصح ترشيحهم لعضوية الجبهة طبقاً لشروط إنشائها . فلم أتلق رداً .

وقلت لنفسى إن هذا كله خطأ وتخط ، فقد عمد الحزب فى سبيل إحداث تغيير فى سياسته وخططه إلى إلقاء إحدى هيئاته فى اليم ، وتنظيم هيئة جديدة تجمع أناساً جديدين .

ووجدتني أناقش وحدى ، والكل ضدى ، والأغلبية لى خصم مبين . وانكشف لى أمر آخر لم أكن قد تبينته من قبل ، وهو أن الذين وافقونى لم يؤيدونى ؛ وعلمت فى ذلك الاجتماع أنه من الحتم على المرء ، إذا قيل له إن هذه هى سياسة الحزب ، أن يمثل فلا يعارض حتى وإن حدثه العقل ، وأوحى المنطق إليه ، أن رغبة الحزب ليست من الحكمة فى شيء ، بل بالعكس ستضر فى النهاية بمصالح الحزب ومستقبله .

ولم تكن الشجاعة هى التى حملتنى على معارضته ، ولكن الواقع أننى لم أكن أعلم وسيلة غير تلك الوسيلة ، ولم أكن أنصوّر رغم مولدى فى أحضان الكراهية الشائعة فى الجنوب ، ألا يباح للمرء المصارحة برأيه ، والمجاهرة بقوله ؛ ولقد قضيت ثلث الحياة متنقلاً من مكان مولدى إلى الشمال ، جواباً أخا سفر وترحال ، لأنحدث حراً ، وأتكلّم بما أريد ، وأهرب من وطأة الخوف . وهأنذا أواجه الخوف مرة أخرى .

وتقرر قبيل إرفض الاجتماع عقد مؤتمر آخر من الكتاب الأمريكيين فى

مدينة نيويورك خلال الصيف التالي عام ١٩٣٥ ؛ ولكنى قابلت هذا القرار بفتور ،
وأجمعت النية على أن أقف وحدى وأكتب فى معزل ، وأجاهد بمفردى .
وخشيت يومئذ أن تكون القصص التى وضعتها من قبل غير متسقة مع
التيار الجديد .

فهل يتحتم على أن أعدل عن أفكارى وألتمس خواطر أخرى وتفكيراً جديداً .
ولكنى لم أستطع .

إن ما كتبته هو ما أراه وأؤمن به ، وأعيش عليه ، وأحسه ، فمن ذا الذى يستطيع
أن يغير نظره وإيمانه ، واتجاهه وحواسه ومشاعره...؟؟

— ٨ —

وحل ربيع ١٩٣٥ ، وتقدمت الخطط التى وضعت لعقد مؤتمر من الكتاب
« أشواطاً » . ولسبب مجهول — من حسن حظى — طلب منى الشيوعيون الحليون
حضوره ، وتقرر إيفادى إليه « كمندوب » فأخذت إجازة من « نادى الشبان » ،
وانطلقت إلى نيويورك مع المندوبين الآخرين .

ووصلنا فى المساء وقيدنا أسماءنا فى قوائم الوفود التى ستحضر المؤتمر .
وانعقدت الجلسة الافتتاحية فى كارنجى وطلبت مكاناً للنزول فيه ، فإذا بأعضاء
نادى جون ريد فى نيويورك ، وكلهم من البيض ، يقفون حياءى مرتبكين لا يدرون
كيف يجيبون .

وانتظرت حتى انتحى أحدهم بآخر وجعلا يتباحثان فى الوسيلة التى يتسنى بها
إعطائى أنا الشيوعى الأسود القادم من شيكاغو مكاناً أبيت فيه ؛ وكنت خلال
الرحلة قد نسيت أننى زنجى ، وانشغل خاطرى بمحاولة حل مشاكل الكتاب
اليساريين والتفكير فى مصيرهم .

ولكن فى موقفى هذا حياءى أولئك الشيوعيين البيض ، وهم يتناقشون ويتحدثون
عن لون بشرتى وسواد أديمى ، لم ألبث أن شعرت بأشمزاز شديد .

وعاد الرجل الذى انتحى بصاحبه ليحدثه ؛ فقال لحظة : أيها الرفيق فسأجد لك مكاناً .

قلت : أو ليست لديكم أمكنة أعدتموها لنا قبل قدومنا ، فإن هذه المسائل ونحوها بطبيعة الحال تنظم مقدماً .

قال بإخلاص وصراحة : أى نعم ، ولدينا بضعة عناوين هنا ، ولكننا لا نعرف أصحابها . أظنك فاهماً .

قلت وأنا أصرف بأسنانى : نعم ، فاهم .

قال وهو يربت على ذراعى لتهدئة خاطرى : أرجو أن تنتظر لحظة واحدة ، سأوجد لك شيئاً .

قلت وأنا أحاول إخفاء غضبى حتى لا يبدو فى صوتى ولهجتى : اسمع ، إننى لا أريد أن تتعب نفسك .

قال وهو يهز رأسه متشبثاً : كلا ، إنها مشكلة ، ولكننى سأحلها .

قلت نافذ الصبر : لم يكن يصح أن تكون مشكلة .

فاستدرك قائلاً : لم أكن أقصد ذلك .

فلعنت وسببت فى سرى .

وما لبث الجمع الواقفون عن كשב منا أن لاحظوا شيوعاً أبيض يحاول إيجاد مكان لينام فيه شيوعى أسود ، فكادت أحترق استحياء وخجلاً .

وما هى إلا لحظات حتى عاد الشيوعى الأبيض مضطرباً يتصبب عرقاً .

قلت : هل وجدت شيئاً .

قال وهو لاهث : كلا ... لم أجد بعد ، ولكن انتظرنى لحظة ، فإنى سأدعو

بعض الذين أعرفهم لمحدثتى فى التليفون .

قلت وقد شعرت بساقى تتخاذلان : أرجوك أن تنسى هذه المسألة فإنى سأجد

محلاً ، ولكننى أريد أن أضع حقيبتى فى مكان ماريتما ينتهى الاجتماع الليلة .

قال وهو يحاول إخفاء يأسه : هل تظن حقاً أنك واجد مكاناً .
قلت : طبعاً .

ولكنه ظل غير واثق ، وكان يريد فعلاً أن يساعدني ولا يدري كيف ، وتناول حقيقتي فوضعها في غرفته وأوصد عليها ، وانطلقت أذرع الطريق حائراً لا أدري أين أبيت .

لقد وقفت عند الناصية ، في مدينة عظيمة كنيويورك هذه ، أسود البشرة ، فقيراً ، لا أكاد أملك مالاً ، مبهوماً ذاهلاً ، مشغول الفكر ، لا بمشاكل الحركة الأدبية في أمريكا ، بل بمشكلة الاهتداء إلى منام وحمام .

وقدمت أوراق اعتمادى في قاعة كارنيجي ، وكانت غاصة بالناس ، ولم أكد أستمع للخطب النارية ، والكلمات الهجومية التي دارت في الجلسة الأولى حتى سألت نفسي من الدهشة والألم : لماذا ترانى جئت ؛ وخرجت من المجلس إلى الشارع أتأمل الوجوه . فلم ألبث أن التقيت بعضو في نادى شيكاغو فابتدئني بالسؤال قائلاً : ألم تهتد إلى مكان إلى الآن ؟؟

قلت : كلا ، ويبدو لي أنه يحسن بي أن أجرب النزول في أحد الفنادق ، ولكنى لست في حال نفسية تسمح لي بأن أناقش كاتب فندق في مسألة العنصر واللون .

قال : شيء ثقيل حقاً ... ولكن انتظر لحظة .

وانصرف مارقاً ، وعاد بعد دقائق بامرأة شحيمة بيضاء وتولى تعريفنا ، وانشئت هى تقول : تعال بت عندنا الليلة .

فمشيت معها إلى مسكنها وعرفتنى بزوجها ، فشكرت لهما ضيافتهما ، ومضيت لأنام في « عشة » بالمطبخ .

واستيقظت في السادسة ، وارتديت ثيابى ، وطرقت الباب لأشكرهما وأودعهما ؛ وخرجت إلى الطريق فجلست على متكأ وأخرجت ورقاً وقلماً ، وحاولت أن أدون

نقطاً ومذكرات بما سأتولى الدفاع به عن الأندية ، ولكن مسألتها لم تبدل خطيرة ، وإنما الأمر الخطير هو : هل يقدر للزنجى يوماً أن يعيش ولو نصف عيش الآدمى فى هذا البلد اللعين ... ؟

وجلس فى المؤتمر طيلة الاجتماع فى ذلك اليوم ، ولكنى لم أتاثر بما سمعته فيه ؛ والتمست حين جن الليل سبيلى إلى حى « هارلم » المخصص للزنج ، ورحت أقطع أفارىز وطرقاً ملأى بصور الحياة الزنجية ومشاهدها . وأدهشنى كلما سألت المسارة عن فنادق الزنج فى الحى أن أسمع أن ليس فيها فنادق لهم .

وظللت أسير على غير هدى ، حتى انتهى بى المطاف إلى فندق شاهق نظيف يخرج منه زوج ، ولا يرى فيه بيض ، فدخلته مطمئناً ، ولكنى تهيبت حين رأيت الكاتب الجالس إلى منضدته رجلاً أبيض ، فترددت ، ولكنى تقدمت فقلت : أريد غرفة .

قال : ليس هنا .

قلت : أليس هذا هو حى « هارلم » ؟

قال : ولكن هذا الفندق للبيض فقط .

قلت : أليس فى الحى فندق للسود .

قال : جرب « جمعية الشبان » لعلك واجد فيها مكاناً .

ولم ألبث أن اهتديت إلى جمعية الشبان الزوج المسيحيين أودلك الحصن الذى أقيم لإيواء السود ، فظفرت فيها بغرفة وتناولت حماماً ونمت اثنتى عشرة ساعة ، ولما استيقظت لم أجد روحاً للذهاب إلى المؤتمر ، فاستلقيت فى فراشى مفكراً ، وإذا بخاطرى يهتف بى قائلاً « ينبغى أن تذهب وحدك ... ينبغى أن تعرف مرة أخرى كيف ... » .

وارتديت ثيابى وحضرت الجلسة التى كان مقرراً فيها البحث فى حل الأندية .

وبدأت الجلسة ناشطة متحمسة، وانبرى كاتب شيوعى من أهل نيويورك يلخص تاريخ الأندية ويتقدم باقتراح حلها؛ وبدأت المناقشة، فنهضت فشرحت الأهداف التى كان الكتاب الشباب والناشئون يمثلونها فى قيام هذه الأندية والمعانى السامية التى كانت تنطوى عليها فى تقديرهم، وطلبت الإبقاء عليها، ثم جلست وسط سكوت تام. وانتهت المناقشات، وبدأ أخذ رأى.

وارتفعت الأيدى مؤيدة مشروع الحل.

ونودى على الذين يعارضون فيه، فرفعت يدى، وأنا أعلم أن موقفى هذا سيعمل بأنه معارضة للحزب، ولكنى قلت ليذهب الحزب إلى الشيطان!

- ٩ -

ووجدتني بعد حل الأندية طليقاً من كل قيود الحزب وصلاته، فتحاميت الذهاب إلى « الخلية » خشية تقديمى إلى المحاكمة والتأديب، ولكنى كنت على بينة من التهم التى كان الشيوعيون يتراشقون بها، من بعض الزوج الذين جعلوا أحياناً يزورونى فى البيت غير مكترئين بالتعليقات التى كانت تستوجب منهم الابتعاد عن العناصر المريية والأفراد الذين تحوم الشبهات حولهم.

وما كان أشد دهشتى حين علمت من أحدهم أن « بودى نيلسون » اتهمنى بأننى أحاول إعادة « الرجعية ».

وكان نيلسون هذا هو الزنجى الذى حدد مركز الزوج فى النظام الشيوعى، وخطب فى الكرمليين، وتكلم أمام ستالين نفسه.

قلت : ولماذا يدعونى نيلسون هكذا، ويصفنى بهذا الوصف ؟؟

قال صاحبي : إنه يقول إنك « بورجوازى » منحط صغير الشأن.

قلت : وما معنى هذا الذى يقوله عنى .

قال : إنه يزعم أنك تحاول إفساد الحزب بأفكارك .

قلت : كيف ؟؟

فلم يجب ...

ونويت يومئذ أن أقطع ما بيني وبين الحزب ، ورأيتني مضطراً إلى تركه ؛ فقد اشتدت الحملات عليّ ، وكثرت المطاعن في حقّي ؛ وكما وجدني نيلسون صامتاً لا أعير تهمة اهتماماً أسرف وأوغل في سبابي واتهامي ، فقال عني إنني « مستنير ابن زنا » ، ووصفني مرة أخرى بأنني « تروتسكي أثيم » ، وزعم أنني من خصوم الزعامة ، وأنني أنادي باتجاهات مضادة ، وأن لي نزعات « صاروفيمية » أو « ملائكية » ، وهي عبارة يراد بها أنني قد انسحبت من نضال الحياة لأنني أعد نفسي ملكاً طاهراً معصوماً من الزلل .

وكنت يومئذ أشتغل طيلة النهار وأكتب إلى نصف الليل ، فأصبت بـعلة صدرية شديدة .

وفما كنت معتكفاً في فراشي دق الباب في صباح يوم من الأيام وفتحته أحمي ، فإذا بالطارق « أوجرين » جاء يسألني ماذا أنا فاعل بالمعلومات التي كنت أجمعها من الرفاق ، فحملت فيه البصر وأنا راقد في فراشي ، إذ أدركت أنه كان يعدني خصماً بارعاً ، وعدواً أميناً للحزب ، فلم تلبث نفسي أن امتلأت مرارة وكداً .

قلت بجفوة : ماذا تريد ، ألا ترى أنني مريض ؟

قال : لدى رسالة من الحزب حملنيها إليك .

ولم أكن من غيظي الكظيم قد حييته عند دخوله ، وهو كذلك لم يبادثنى بها . ولم يبتسم أحدنا بل مضى يحيل البصر في غرفتي الحقيمة فبادرته قائلاً بسخرية : هذا هو مسكن المستنير ابن الزنا !

فوقف يتأرنى بعينيه ، وهما لا تطرفان ، فلم أطق وقفه حيالي كالحجر ، فاضطرت أدباً إلى مجاملته بقولي « اجلس » ، فتخشبت كتفاه .

ومضى يكلمني بلهجة الضابط الخشنة : إنني في عجلة .

قلت : وما هذا الذى تريد أن تنبئني به ؟

قال : هل تعرف « بودى نيلسون » ؟

فتولتني ريبة ... أترانى أمام شرك سياسى ؟

قلت محاذراً : وما دخله فى الأمر ؟

قال : إنه يريد لقاءك .

فازددت تخوفاً وريباً ، قلت : لماذا ؟

قال : إنه يريد أن يتحدث إليك عن عملك فى الحزب .

قلت : أنا مريض ولن أستطيع لقاءه ، حتى أتماثل .

فوقف هنيهة ثم تولى عنى منصرفاً .

ولما صح صدرى وزالت علتى التمت موعداً مع بودى نيلسون .

وكان قصير القامة ، زنجياً ، لا يفترقه عن الابتسام ، كثيف الشفتين ، ما كر الحركات ، خيث النظرات ، يبدو عصبياً ، واعياً مخفياً تأثيره وانفعالاته ؛ وكان يتكلم بعبارات قصار مهزوزة قافزاً فى حديثه من فكرة إلى أخرى ، كأنما يشغل عقله بحركة آلية ، لا تتم عن أى إجهاد ، وكان يشكور بواحتى ليشخر على فترات متقطعة ، وإن استطاع تنظيم نطقه بقناول رشفة من زجاجة ويسكى بجواره من لحظة إلى أخرى ؛ وكان كثير الأسفار حتى لقد جاب نصف الأرض متنقلاً ، وكان حديثه مختلطاً ببعض رطانات المدن الغربية ولهجاتها المختلفة .

وكان لقائنا فى شقته ، ومضيت أصغى إليه باهتمام ، وألاحظ حركاته وسكناته بدقة ، لأننى كنت أعلم أننى أواجه عالماً من أعلام الشيوعية الدولية .

قال وهو يشخر : هالو .. رايت ، لقد سمعت عنك !

وأرسل وهو يشد يدى مصاحفاً ضحكة مدوية بغير سبب ظاهر ، فلم أدر وهو يقهقه على هذا النحو هل تراه موجهاً ضحكته نحوى أو أراد بها أن يخفى اضطرابه .

قلت : أرجو أن يكون ما سمعته عنى خيراً .

فعاد يضحك ويشير إلى مقعد قائلاً: اجلس ... نعم . لقد قالوا لي إنك تكتب .
قلت : بل أحاول .

قال وهو ينفخ بمنخره : إنك تكتب ، فقد قرأت لك ما كتبته في مجلة
« الجماهير » الجديدة عن « جو لويس » .. مادة طيبة ، أول مقال سياسي عن الرياضة
في مجلاتنا ... ها .. ها .. !

وجعل يضحك ، وانتظرت ، وكنت أتوقع أن ألقى رجلاً من أصحاب الأفكار
فإذا هو غير ذلك .

قلت لعله رجل أفعال ، لا رجل أقوال ، ولكنه لم يدل على أنه كذلك أيضاً .
قال مهاجماً : لقد نبئت أنك صديق « لروس » .

فتمهل قبل الجواب ، فقد كان توجيه السؤال تلميحاً ، وكنت أعلم أن
« روس » موشك أن يقضى عليه الحزب بتهمة « مناهضة الزعامة » ، وإذا جاء
سؤال كهذا عن رجل مهدد بالإقصاء من عضو بارز في الهيئة الدولية الشيوعية فلا
معنى له إلا أنه يريد أن يسألني بطريق غير مباشر هل أنا مخلص للحزب أم لا .
قلت بصراحة : إن روس ليس بصديقي خاصة .

قال وهو يضحك ليخفف من النذير القاسي الذي يبدو على سؤاله : إذا لم يكن
روس صديقك ، فكيف عرفته كل هذه المعرفة الوثيفة ؟؟

قلت : لقد كنت أكتب عن حياته ، فعرفته كما يعرفه سواي .
قال : سمعت بهذا أيضاً . واستضحك مرة أخرى ، وقال دعني أدعك اختصاراً
وبلا كلفة « دك » ؟؟ ها .. ها !

قلت : امض في حديثك كما تشاء .

قال : يا دك .. إن روس من « القوميين » .

وسكت لحظة حتى تخف وطأة الاتهام ؟ فقد أراد بهذه العبارات أن يقول إن
روس « متطرف » في حملاته وهجومه ، ثم أردف يقول ضاحكاً متهماً ساخراً :

ونحن معاشر الشيوعيين لا تروقنا هذه « القومية » الزنجية ، ولا نريد التهويل في شأنها .

قلت : ما مرادك بهذا ؟

قال مصارحاً : لسنا نريد الإعلان عن روس

قلت : إننا نتكلم عن شيئين مختلفين . يلوح لى أنكم فى قلق من تنويعى بروس والكتابة عنه لأنه خصمكم السياسى ، ولكنى لا أنظر مطلقاً إلى السياسة فيما أتناول من حياته ، وأقصه على الناس من ماضيه ، وإنما كل ما فى الأمر أن الرجل بدا لى مثلاً للزنجى المهاجر فى عدة جهات من أخلاقه ونفسيته ، وقد بعثُ فعلاً قصة تقوم على حادث وقع له فى الحياة .

فهاج هائج ، ومضى يسألنى قائلاً : أى حادث ؟؟

قلت : محنة أصابته وهو فى الثامنة عشرة .

قال وهو يهز كتفيه : أوه .. لقد كنت أظنه حادثاً سياسياً .

قلت : إننى أصارحكم أنكم مخطئون ، إننى لا أقصد محاربتكم بما أكتبه ، إذ ليست لى مطامع سياسية ، هذا هو ما ينبغى أن تكونوا على يقين منه ، كل ما أريده هو تصوير الحياة الزنجية .

قال : وهل انتهيت من الكتابة عن روس ؟؟

قلت : كلا ، ولكنى تركت الفكرة ، حين رأيت أعضاء الحزب مسترييين بى ويخشون أن يتحدثوا لى عن ريتهم .

فضحك وانثنى يقول : اسمع « يادك » إننا فى عَوَزٍ إلى القوى ونواجه أزمة خطيرة .

قلت : ليس هذا غريباً ، فإن الحزب لا يفتأ يواجه أزمات .

فتلاشى ابتسامه وحدجنى بنظرة وهو يقول : هل أنت بنا مستخف ؟

قلت : كلا ، ولكن هذه هى الحقيقة ، فى كل أسبوع ، وكل شهر لكم أزمة .

قال وهو يعود إلى الضحك والقهقهة والنخير : إنك لخلق ماجن ، ولكن
أمامنا عملا لا بد من قضائه ، إننا شارعون في تغيير الخطط ، إن الفاشية هي الخطر
الذي يهددنا الآن بل يهدد الناس جميعاً .
قلت : أنا فاهم .

قال وهو ينخر من الربو : ومن المتعين علينا أن نهزم الفاشية وقد تباحثنا في أمرك
ونحن عارفون بمقدرتك ، ونريد منك أن تعمل من أجلنا لأننا مصممون على أن
نخرج من المدى الضيق الذي نعمل فيه إلى السعى في إبلاغ رسالتنا إلى الكنيسة
والطلبة والأندية وأصحاب المهن العليا والمتوسطين .

قلت برفق : لقد سموني أسماء كثيرة ، وعتوني بعدة نعوت ، لقد سبونى وشتمونى
كما شاءوا ، فهل هذا هو الخروج من المدى الضيق ؟؟
قال : انس ذلك .

وكان ذلك منه اعترافاً ، بل تلميحاً أيضاً بأن الشتم والسب سيستمران إذا أنا
لم أطعه .

قلت بصراحة : لست أدري هل أصلح لما تبغون أم لا .

قال : إننا نريد أن نعهد إليك بمهمة خطيرة .

قلت : ماذا تريدون منى أن أفعل ؟؟

قال : نريد منك أن تنظم لجنة تحارب الغلاء .

فقلت : الغلاء ! وماذا أعرف أنا عنه ؟؟

قال : شيء سهل .. تستطيع أن تتعلم وتعرف .

وكنت يومئذ أشتغل بتأليف قصة وقد بلغت نصفها ، وها هو ذا يريدنى على

أن أحارب ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، فلا عجب إذا رحلت أقول لنفسى إنه
لا يحترم ما أنا ماض فيه .

قلت : اسمع أيها الرفيق نيلسون ، إن الكاتب الذى لم يضع إلى الآن شيئاً

حسناً خليقاً بالقراءة هو بالطبع كاتب مشكوك في مقدرته ، وأنا اليوم من هذه الطبقة ، ولكنى أعتقد أننى على الكتابة قدير ، ولست أطلب حظوة خاصة ، ولكنى شارع فى كتاب أرجو أن أفرغ منه فى سبعة أشهر أو نحوها ، فدعنى أقنع نفسى بأننى مخطئ فى محاولتى أن أكون كاتباً مجيداً وعندئذ سأكون معكم قلباً وقالباً .

قال : وهو يتحرك فى مقعده ويلوح بيده كأنما يدود عنه حشرة تطن فى أذنه : اسمع يادك .. يجب أن تتعلم كيف تخاطب الجماهير وتلهس نفوسهم . قلت : لقد اطلعت على شيء مما نشرته ، ألا تراه كافياً للتدليل على أننى إنما تنقصنى الفرصة .

قال : إن الحزب لا يدخل شعورك الخاص فى اعتباراته . قلت : بصريح العبارة : لعل الحزب لا يعتقد أننى منه . قال شاخراً ناخراً وهو يتأرنى بعينه : كلا . لا تقل هذا ... إنك صريح أكثر مما ينبغي .

قلت : عيبى أننى أضع الأشياء كما أشعر بها ، وأريد أن يكون تصرفى معكم مستقيماً فقد أصابنى من الحرب ما أصابنى . وضحك نيلسون وأشعل لفاقة .

وقال وهو يهز رأسه : إن عيبك هو أنك اختلطت كثيراً بمعاشر الفنانين البيض فى الجانب الشمالى ، حتى لتتكلم كلامهم ، وتتحدث حديثهم ، ولكن المتعين عليك أن تفهم قومك وتسايرهم .

قلت : وأنا مدرك أننى لن أستطيع فى الحقيقة الحديث معه : أظن أننى قد عرقهم وفهمتهم . وأحسبني قد تنقلت فى ثلاثة أرباع ديارهم فى الحى الجنوبى . قال : ولكن ينقصك أن تشتغل معهم .

قلت : لقد كنت أشتغل مع روس فاتهمت بأننى جاسوس ...

قال وقد غير لهجته إلى الجذ والحزم : اسمع يادك .. إن الحزب قرر أن تقبل هذه المهمة .

وعند هذا الكلام سكت .. فقد عرفت المراد ، فإن القرار هو أسمى تكليف يتلقاه عضو في الحزب ، والتمرد على تنفيذه هو بمثابة التدليل على عجزه عن العمل ، والتوهين من قدرته وسلطته .

وكنت في أعماقي مقراً هذا الأمر من حيث المبدأ ، إذ كنت أعرف أنه من المستحيل على العمال أن يبلغوا حداً من القوة والسلطان السياسى ما لم تتوافر لهم وحدة ؛ فقد جعلهم الظلم الذى حاق بهم من قديم الزمان ، والانتقام الذى ظلوا قروناً يعانون ويلات ، والخبيثة والضلال والفساد والفوضى التى تنافستهم عدة السنين ، قوماً مستخفين مستهترين كما كنت أنا نفسى من قبل ، وتبين أخيراً أن وسيلة «الوحدة» التى توسلت الشيوعية بها هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق النظام ، وروح الضبط والربط بين صفوفهم .

وبمعنى هذا كله بإيجاز أن نيلسون سألنى : هل أنت شيوعى حقاً أم لا ؟ وكنت أريد أن أكون شيوعياً ، ولكن على طريقي ، بل كنت أريد أن أكيف إحساس الناس وأوقف نفوسهم . ولكنى لم أستطع أن أقول ذلك لنيلسون ، لأننى لو قلته لشخر فى وجهى ونخر ، فاكتميت بأن أقول : سأولى تنظيم اللجنة المطلوبة ثم أعهد بها إلى رجل سواى .

قال بحزم : ألا تريد أن تؤدى هذه المهمة .

قلت بثبات : كلا .

قال : أى عمل تريد أن تعمله إذن فى الحى الجنوبى ؟؟

قلت : أريد أن أنظم شئون الفنانين الزنوج .

قال : ولكن الحزب لا يريد هذا الآن .

فنهضت من مجلسي وأنا أعلم أنه لا ينوي تركي أنصرف إلا بعد أن أنظم اللجنة التي يريدّها .

وقد هممت بأن أقول له إنني قد انتهيت من علاقتي بالحزب ، ولكنني لم أكن على استعداد لمواجهة هذه الخاتمة .

وخرجت من لدنه غاضباً من نفسي ، وغاضباً من الحزب ، على السواء .
وإذا كنت قد كسرت قرار الحزب ، فإنني أيضاً لم أقبله كلية ، فقد تهربت وأفلت محاولاً أن أوفر وقتاً للكتابة ، ووقتاً للتفكير ...

— ١٠ —

وكانت مهمتي تتطلب مني حضور الاجتماعات إلى ساعة متأخرة من الليل ، والاشتراك في المناقشات ؛ والتوفر مع غيري من الشيوعيين على إرشاد أهل الحى الجنوبيّ وقيادتهم إلى الطريق السويّ ؛ وقد بحثنا في مشكلة المساكن ، والوسائل المثلّي لحمل البلدية على السماح بجلسات علنية لسماع شكوى الزوج من أحوالهم المعيشية .
وقد جلست أقرض بأسناني من المضض والكمد ونحن جلوس نبحث في تحديد تسمية اللحم الخنزير ، متمنياً لو أني كنت عندئذ في مسكني مخلصاً للكتابة والتفكير .
وكان نيلسون أبرع مني وأكثر ذكاء ، فقد راح يواجهني قبل أن يتهيأ لي المجال لمواجهة ، فدعاني ذات ليلة إلى لقائه مع « صديق » .

ولما وصلت إلى الفندق الذي عينه لي في الحى الجنوبي بادر إلى تعريفني برجل قصير أصفر اللون ، يقلد في مظهره نابوليون ، ويضع منظاراً فوق عينيه ، ويرمز شفتيه كمن هو مشغول بالتأمل والتفكير ؛ وكان يحتال في مشيته ، ويتكلم ببطء وتدقيق محاولاً أن يحمل كلماته وألفاظه من المعاني أكثر مما تحمله ، حتى ليتحدث عن أتفه الأشياء بأرفع العبارات وأضحكها ؛ وعلمت منه أنه يدعى « سميث » ، وأنه من واشنطن وأنه يمتزج القيام بتنظيم « قومي » لتوحيد جميع الهيئات الزنجية حتى تتوحد الخطط والأعمال .

وكنّا جلوساً إلى مائدة متقابلين ، وأحسست أنهما سيعرضان عليّ اقتراحاً
كأخر حيلة فإذا لم أقبله قام العداء صريحاً بيني وبين الشيوعيين .
وأنشأ « سميث » يقول فجأة بلهجة « درامية » : اسمع يا رايت ، ما رأيك
في السفر إلى سويسرا ؟ ؟

قلت : أحبه ، ولكنني مرتبط هنا بعمل في الوقت الحاضر .
وانبرى نيلسون يقول : يمكنك أن تتركه ، فإن هذا السفر أهم وأخطر شأنًا .
قلت : وماذا أفعل في سويسرا ؟ ؟
فقال « سميث » : ستذهب كرَسُول موفد عن هيئة الشباب ومنها تستطيع أن
تسافر إلى الاتحاد السوفيتي .

قلت ، بصراحة : هذا هو أحب شيء إلى نفسي ، ولكنني أخشى ألا أستطيع
إذ لا يمكن أن أترك العمل الذي أؤديه الآن .
وجلسنا نتبادل النظرات وندخل صامتين .
ورحت أسأل « سميث » قائلاً : هل حدثك نيلسون عن رأيي ؟ ولكنه لم يجب
بل حلق البصر في وجهي طويلاً ، ثم بصق وهو يقول « رايت .. أنت مجنون ! » .
فنهضت ، وأعرض هو بوجهه عني ، ولو أن انفعالا يسيراً آخر انتابني في تلك
اللحظة على فرط غضبي لما ترددت في استعمال قبضة يدي في وجهه .
وضحك نيلسون وشخر .

قلت وأنا أعرش من الغضب : هل يحق لك أن تشتمني هكذا ... ؟ ؟
ووقفت أتذكر كيف كنت في أيام حداثتي أقاتل حتى تنزف الدماء ... إذا
وجه إنسان لي كلاماً من هذا القبيل ، ولكنني لم أعد اليوم صبيّاً ، بل رجلاً ينبغي
أن يملك أعصابه ، ويتغلب على انفعالاته .
ورفعت قبعتي إلى رأسي ومشيت إلى الباب ، وأنا قائل لنفسي هدي رويك ،
ولا تترك الغضب يستحوذ عليك ... !

وقلت مخاطباً الرجلين : وداعا ... !

وحضرت الاجتماع التالى الذى عقدته « الخلية » ، وطلبت الكلمة فاعطيت
لى على الأثر ، وكان نيلسون حاضراً ، وكذلك كان إيفانز وأوجرين .
ولما حان دورى للكلام نهضت فقلت :

« أيها الرفاق ... »

« لقد ظلت خلال العامين الماضيين أشغل مع أكثركم ، ولكنى وجدتني
فى فترة ما أواجه حرجاً فى علاقتى بالحزب ورابطتى ، ولهذا الحرج قصة طويلة لا يهمنى
أن أنلوها الآن عليكم لأنها لا تحقق هدفاً ، ولا تجدى نفعاً ، ولكنى أصارحكم أننى
وجدت حلاً لهذا الموقف وإنى لمقترح الليلة أن يحذف اسمى من قوائم الحزب ورجاله ،
ولا تضطرنى خلافات نظرية إلى هذا القول الذى قلته اللحظة على أسمعكم ، ولكن
الواقع أننى إنما أريد ألا أرتبط بعد اليوم بقرارات الحزب وأوامره ، وأحب أن
أحتفظ بعضويتي فى تلك الهيئات التى تعمل تحت نفوذ الحزب وإشرافه ، ممثلاً
لبرائجه المتعلقة بها ، ومذعناً لخططه . وأرجو أن تقبل كلمتى هذه بالروح ذاتها التى
قبلت بها ؛ ومن يدرى لعلى فى يوم من الأيام مستطيع أن أجتمع بالزعماء وأتحدث
إليهم عن المهمات التى أقوى على تأديتها وتنفيذها على الوجه الأكمل ... »
وجلست وسط صمت عميق .

وأرسل السكرتير الاجتماع نظرات مروعة نحو نيلسون وإيفانز وأوجرين .
وسأل السكرتير الجمع : هل يريد أحد مناقشة هذا البيان الذى أدلى به رايت ؟؟
وهنا انبرى نيلسون يقول : أقترح تأجيل مناقشته إلى وقت آخر .
وأخذت الأصوات فى الحال على اقتراحه وتقررت الموافقة عليه .
ودرت بعينى فى أرجاء القاعة التى خيم عليها السكون ، ومددت يدي لأتناول
قبعتى ، وانشيت أقول : أحب أن أنصرف الآن ...
فلم يقل أحد شيئاً .

ومشيت إلى الباب ، وخرجت إلى جوف الليل ، وأحسست أن حملاً ثقيلاً
انزاح عن كتفى .

لقد أصبحت حرّاً ...

وقد تصرفت تصرفاً لبقاً مستقيماً لا غبار عليه ، فلم أغضب ، ولم أثر ، ولم أفه
بكلمات نابية ، ولا هاجمت أحداً ، ولا حنثت بعهدي أو يميني .

وفي الليلة التالية جاءني في البيت زنجيان شيوعيان وادعيا أنهما يجهلان ما حدث
في الاجتماع ، ففضيت في هدوء تام أشرح لهما ما جرى .

فقالا وهما يكشفان عن سرز يارتكما: إن قصتك للحادث لا تتفق مع رواية نيلسون .
قلت : وماذا يقول في روايته ؟ ؟

قال : إنه يقول إنك مؤتمر مع جماعة من أتباع تروتسكى ، وإنك دعوت فريقاً
من الأعضاء في الحزب الشيوعى إلى الاقتداء بك والخروج من الحزب .

فصحت مبهوراً : هذا ليس بصحيح ... فإن كل ما قلته هو أننى طلبت إسقاط
عضويتي ولم أثر حولها أية مسائل سياسية .

وجلست أفكر ملياً ، وأنا أسائل نفسى : ما معنى هذا كله ؟ ؟

ودرت نحوهما قائلاً : أريد أن يكون انفصالى من الحزب جلياً واضحاً ، فإذا
أبى نيلسون إلا الضى في خطته هذه استقلت .

قالا : إنك لن تستطيع أن تستقيل .

قلت : ماذا تعنيان ؟ ؟

قالا : لا يملك أحد الاستقالة من الحزب الشيوعى !

فنظرت إليهما وضحكت .

قلت : هذا كلام مخرفين .

قالا : إن فى إمكان نيلسون أن يقصيك علناً ويقطع الأرض من تحت قدميك

إذا أنت استقلت ، وسيظن الناس أن فى إخراجك من الحى الجنوبي شيئاً ارتكبته
أو خطأ اقترفته .

فعرانى الغضب .

هل بلغ الحزب من الضعف والشك فى ذاته بحيث لا يقبل ما قلته فى اجتماع
« الخلية » ، ومن هذا الذى يضع هذه « التكتيكات » ، ويرسم هذه الخطط
والتصميمات ... ؟ ؟

ولكنى فجأة هدأت ، إذ أدركت ما هنالك .

لقد أدركت أن هذه هى التكتيكات السرية الخفية التى كان يلجأ إليها
الشيوعيون فى حركتهم السياسية على عهد القيصرية فى روسيا القديمة .
فقد رأى الحزب أنه مضطر إلى القضاء أديباً على مجرد أنى لا أريد الارتباط بقراراته .
وتبين لى عندئذ أن زملائى إنما يمثلون رواية غريبة لا علاقة لها مطلقاً بحقيقة
ظروفهم ومحيطهم .

قلت : نبئنا نيلسون أننى والله لحارب به إذا هو أراد حربى ؛ أما إذا هو ترك هذا
الأمر يقف عند هذا الحد ، فلا ضير ، وسيكون مجنوناً إذا ظن أننى لن أحارب به علناً
ولن أناصبه العدا .

ولم أتحقق مما إذا كان كلامى هذا قد وصل إلى نيلسون أم لم يصل ، ولكنى
لم أر ضجة تثار حولى فى الجامع ، وإن ثارت بين صفوف الحزب ذاته عاصفة هوجاء
ضدى ، ففيل عنى « خائن » وشخصية متحولة متقلبة ، وإنسان فقد إيمانه .

ويعلم الله أن رفاقى عرفونى من قبل على حقيقتى ، وعرفوا أسرتى ، وعرفوا
صحابتى ، وإملاقى الأليم وفائقى ، ولكنهم لم يستطيعوا يوماً التغلب على خوفهم من
الطريقة الاستقلالية التى كنت أعمل بها وأعيش ، وهى نزعة تأصلت فى نفسى ،
واختلطت بروحى ودمى .

- ١١ -

ونقلتنى إدارة الترفيه من نادى الأحداث إلى المسرح الاتحادى للزنج لأتولى
قسم النشر فيه والإعلان .

وكانت تمر بى أيام يعضى فيها الجوع بأنياب حداد ، من أثر المطاعن والمثالب المستمرة التى دأب عليها الرفاق كلما ورد ذكرى فى المجمع ، ولا كتنى ألسنة الناس ، ولكنى كنت أتعزى حول التهم المتبادلة ، والحملات المتكررة ، والثارات ، والانتقامات وأشباهاها .

وكان المسرح الاتحادى الزنجى الذى عينت للدعاية والنشر له قد أخرج طائفة من الروايات العادية بعد صياغتها فى الأسلوب الزنجى وحشوها بمشاهد تمثل الغابات والخزعبلات وما إليها ، فكانت المرأة البيضاء التى تتولى إدارته ، وهى عجوز من طراز المبشرين والمبشرات ، تتناول رواية من الروايات التى تحوى أشخاصاً من البيض ، وتدور حوادثها فى القرون الوسطى فتعيد إفراغها فى شكل يتفق مع حياة الزوج فى الجنوب مع زيادة تتصل بالحياة الأفريقية ومشاهدها . وأما الروايات العصرية التى تتناول الحياة الزنجية من النواحي الواقعية ، فكانت ترفضها بحجة أنها مثار جدل ، ومحل مناقشات وخلاف فى رأى .

وكان المسرح يحوى قرابة أربعين ممثلاً وممثلة من الزوج ، وكلهم متلف على دور يؤديه ، متشوق إلى شخصية يندمج فيها ، وكلهم متذمر ساخط . وقد فكرت فى الأمر ملياً ، فأحزنتنى أن أرى هذه المواهب المضيعة ، وأدركت أن هناك مجالاً فسيحاً لإنتاج رواية زنجية جديرة بالتمثيل ، ولكن أحداً لا يحفل بذلك ولا يهتم ، ومضيت أدرس الموقف ، وأعرض الأمر على أصدقاء لى من البيض يتولون مراكز كبيرة فى الإدارة المشرفة على سير التقدم الاجتماعى ، وطلبت إليهم تغيير هذه المرأة البيضاء ، وأفكارها الغربية بانسان آخر يعرف الزوج حق المعرفة ، وله بالمسرح خبرة حسنة فوعدونى أنهم فاعلون .

ولم ينقض شهر حتى نقلت المديرية البيضاء ، وانتقلنا بالمسرح من الحى الجنوبى إلى حى « اللوب » فى المدينة ، ووقع اختيارنا على مسرح من الدرجة الأولى . ونجحت فى ترقية يهودى من أهل المواهب يدعى شارلز ديشيم للتعيين فى مركز « المدير » .

وعقدت معه عدة محادثات وضعت خلالها النقاط الرئيسية لما ينبغي أن نفعله ،
واللحقت في أن يكون أول ما نخرجه حفلة من ثلاث روايات قصيرة ، كل منها فصل
واحد ، ومن بينها رواية « أشودة إلى الشمس المشرقة » التي وضعها « پول جرين »
وهي فصل واحد شعري قوى رهيب يعالج أحوال الزوج في الجنوب وكيف يعيشون
جماعات مصفدة في السلاسل ، مقرنين في الأغلال .

وأسعدني ما جرى وطبت نفساً بما تم ، فقد رأيتني أخيراً في مركز يسمح لي
بالتوجيه والاقتراح والإرشاد ، ورؤية ما أشير به منفذاً كما أريد ؛ وكنت مقتنعاً بأن
أمامنا فرصة نادرة لبناء مسرح زنجي صحيح لا زيف فيه ، فضيت أنظم الدعوة
إلى اجتماع عام ودعوت ديشيم إليه ، وعرفته بالفرقة الزنجية وقلت لهم في تعريفه إنه
رجل يعرف المسرح وسيتقدم بهم إلى إخراج روايات ودرامات جديدة بديعة .

وألقي ديشيم كلمة في الاجتماع قال فيها : إنه لم يأت إلى المسرح ليدير دفته ، بل
ليعاون الزوج على إدارته بأنفسهم ؛ وكان كلامه سهلاً بليغاً فتأثروا به ونهضوا
مصفقين له هاتفين .

وهم من نهر بول جرين ،

وعندئذ وزعت نسخاً من « أشودة إلى الشمس المشرقة » على أفراد الفرقة
جميعاً ، ووزع ديشيم الأدوار ، وعين موعداً لقراءتها معهم ، وجلست أستمع
بسماع ما هم قارئوه ، ولكنني لم ألبث أن فوجئت بأمر أليم ، فقد مضى الزوج
يتلغشون ويتعثرون في قراءة أدوارهم ، وأخيراً كفوا عن القراءة جملة واحدة ، وبدا
العرب على وجه ديشيم ؛ ونهض زنجي منهم فقال : « اسمع يا مستر ديشيم إننا نعتقد
أن هذه الرواية ليست لائقة ، ولا نريد أن نمثل مسرحية كهذه أمام الجمهور
الأمريكي ؛ ولست أعتقد أن شيئاً من هذه الأحوال التي وصفت فيها قائم فعلاً
في الجنوب ، فقد عشت فيه دهرًا فلم أر العمال مصفدين في الأغلال . . يا مستر ديشيم ،
إننا نريد رواية تحببنا إلى الجمهور وتكسبنا مرضاته .

فسأله ديشيم قائلاً : أي نوع من الروايات تريدون ؟ ؟

— وظهر أنهم لا يعرفون ، فذهبت إلى المكتب لأرجع إلى ملفاتهم ، فتبين لي أن أكثرهم قضوا حياتهم في تمثيل روايات هزلية رخيصة ، لأنهم ممنوعون من تمثيل الروايات الجدية ؛ فلا عجب إذا هم اليوم يرموا بهذا النوع خاصة ، وكرهوا أن يظهروا في مسرحيات قد لا يرضون بها الناس ، وهم لهذا حائزون لا يعرفون أى نوع يؤثرونه على سواه .

وشعرت — ولو إلى حين — أن البيض قد يكونون على حق في اعتقادهم أن الزنوج أطفال لا ينمون ولا يكبرون .

وأبلغ ديشيم الفرقة أنه على استعداد لإخراج أية روايات تريد الظهور بها ، ولكن القوم ظلوا جلوساً كالقيران المروعة ، لا يملكون قولاً يعبرون به عن رغباتهم المبهمة ومطالبهم الغامضة .

ولما ذهبت إلى المسرح بعد أيام ، بهت أن وجدت الفرقة قد أعدت « عريضة » تطلب فيها إخراج ديشيم ، وتطلب منى توقيعها .

ولكنى رفضت التوقيع .

قلت : ألا تعرفون يا قوم صديقيكم من عدوكم .

فحماقوا الأبصار صامتين .

ودعوت ديشيم وعقدنا اجتماعاً .

قال : وماذا ترانى أفعل ؟

قلت : نترضاهم وتستشيرهم ، دعهم يشعروا أنه من حقهم أن يتظاهروا من الأمر الذى لا يروقهم .

ورأى ديشيم النصيحة فى محلها ، فجمع أفراد الفرقة وقال لهم : إنه يحق لهم إذا شاءوا أن يقدموا أية عرائض ضده ، ولكنه يرى أنه فى الإمكان تسوية أى خلاف بينه وبينهم بكل سهولة ورفق .

وعندئذ انبرى أحدهم يسأله قائلاً : من الذى أنبأك أننا سنقدم عريضة ؟

فنظر ديشيم إلى وتلعثم فلم يجر جواباً .

وصاحت فتاة سوداء في الجمع قائلة : « إن في المسرح جاسوساً ! » .
وعقب ارفضاض الاجتماع جاءني وفد منهم إلى مكنتي فأخرجوا مديهم من
جيوهم وأشهروها في وجهي قائلين : اخرج من هذه الشغلة بسلام وإلا فتحنا لك
بطنك بهذه السكاكين ! .

فتحدثت في التليفون إلى أصدقائي البيض في إدارة التقدم الاجتماعي فقلت لهم :
انقلوني في الحال إلى عمل آخر وإلا مت قتيلاً !
ولم تنقُص أربع وعشرون ساعة حتى أخذنا أنا وديشيم أوراقنا وتصافحنا ومضى
كل منا في سبيله .

وقد نقلت إلى فرقة تمثيل نموذجية للإشراف على الدعاية لها ، واعتزمت أن أحتفظ
بخطاى وأرائى لنفسى ، أو أن أدونها عندى فلا أحاول نقلها إلى حيز التنفيذ .

- ١٢ -

وفى ذات مساء زارنى فى البيت جمع من الزوج الشيوعيين ، وطلبوا أن يتحدثوا
سراً معى ، فأخذتهم إلى غرفتى وأغلقت الباب .

قالوا : اسمع يادك ... إن الحزب يريد منك الحضور إلى الاجتماع فى يوم الأحد .
قلت : لماذا ، وأنا لم أعد عضواً ؟

قالوا : لا بأس من هذا ، ولكنهم يريدون منك أن تحضر .

قلت : إن الشيوعيين لا يكلموننى إذا لقيتهم فى الطريق ، والآن يطلبون منى

حضور اجتماع لهم ، فما السر فى ذلك ؟؟

فحاولوا التهرب منى .

قلت : إذا لم تقولوا لى فلن أحضر .

فتشااوروا بينهم متهمسين وأخيراً قرروا أن يفصحوا .

قالوا : إن روس سيحاكم فى هذه الجلسة .

قلت : وعلام الحاكمة ؟؟

فعددوا لى جملة اتهامات سياسية زعموا أنه مدان فيها .

قلت : وما شأنى أنا فى هذا كله ؟؟

قالوا : ستعرف إذا حضرت .

فهبجت الريبة فى خاطرى ، أترأى يحاولون جر قدمى إلى محاكمة لإبغادى .

قلت : لست بالساذج إلى هذا الحد ، إن هذه المحاكمة قد تكون لى .

فأقسموا أن لانية لديهم فى محاكمتى ، وإنما كل ما يريد الحزب هو أن

أشاهد محاكمة « روس » حتى أعرف « ماذا يكون مصير خصوم الطبقة

الكادحة وأعدائها » .

وتولانى ، وهم يتحدثون معى ، ذلك الحب القديم لمشاهدة شىء جديد ، وقامت

فى نفسى اللهفة على مشاهدة تلك المحاكمة ، ولكنى لم أشأ أن أجازف مخافة أن أقع

فى الفخ ، وأكون أنا الشخص الذى تراد محاكمته .

قلت : استمعوا لى .. إننى برىء من التهم التى وجهها إلى نيلسون ، فإن ظهرت

فى هذه المحاكمة فقد أبدو غير برىء

قالوا : كلا .. لن يحدث شىء من هذا .. فهلا جئت ؟

قلت : ليكن . ولكن .. اسمعوا .. إذا أنا خدعت فلن أسكت .. بل سأقاوم

وأناضل ... إننى لا أثق بنيلسون ، ولست سياسياً ، ولا أعرف كيف يقضى المرء

الساعات فى حيك الدسائس ونسج اللوامرات .

وجرت محاكمة روس فى أصيل الأحد التالى .

ووقف رفاق من الشيوعيين حول قاعة الاجتماع فى خفية حراساً ورقباء ، وعين

آخرون منهم على الأبواب وفى الدهاليز والشوارع المجاورة .

ولما وصلت أفسح لى الطريق .

وكانت أعصابى مرهفة متوترة

وكانت القاعدة المتبعة أنك إذا حوak اجتماع من هذا النوع فلن تستطيع الانصراف منه حتى ينفض ، خشية أن تذهب إلى البوليس فتتم عنه .

وكان روس المتهم جالساً وحده إلى منضدة في صدر القاعة ، وهو شاحب متجههم الوجه ؛ فلم ألبث أن شعرت برثاء له ، ولكني لم أتمالك نفسي من الشعور بأنه يلوح راضياً عن مجلسه هذا مستريحاً إليه ، فاعل ذلك في عينيه خروج إلى النور ، وأن الخروج إليه خير من البقاء في ظلام دامس وحياة معتمة .

ولم يلبث خاطري في محاولة معرفة سر كراهية الشيوعيين للطبقة المستنيرة أن عاد بي إلى القصص والروايات والكتب التي قرأتها عن الثورة الروسية ؛ فقد كان فريق قليل من السادات على عهد روسيا القديمة ، وجمع محدود من المتعلمين والتكبريين وأهل الصلف والخيلاء يشغلون ملايين من الفقراء والجوهرات ، في خدمة ضياعهم ، وطاعة أمرهم ، والنزول على حكمهم صاغرين ، فلا عجب إذا علق بأذهان الشيوعيين حين جاء أوانهم ، وأقبل عهدهم ، أن الخيانة قرينة العلم ، وأحسوا أن لا أمان « للمستنيرين » والمتعلمين .

ولكن لم يلبث الشيوعيون أن تبينوا أن في العالم الغربي عنصراً آخر يخيفهم ويزعج بالهم وأعنى به عنصر « العصاميين » من الكتاب وأهل الأدب ، وأن الزنجي ذاته الذي يحيط به الجهل والاستغلال ، كما كان شأني ، يستطيع إذا أوتي الإرادة والعزم والرغبة الصادقة أن يتعلم القراءة ويفهم العالم الذي يعيش فيه . وهذا هو العنصر الذي لم يستطع الشيوعيون أن يفهموه .

وبدأت المحاكمة في جوهادي ، وبطريقة غير رسمية ، حتى بدا القوم وكأنهم جماعة من الجيران جلسوا للحكم على جار لهم سرق دجاجة أو فرخاً ، وكان مسموحاً لكل إنسان أن يطلب الكلمة ، فإذا طلبها أعطيت له ، وتركت الحرية مطلقة لمن يشاء كلاماً ، وإن كان للاجتماع كيان خاص يبعث على الدهشة ، كيان يماثل في عمقه الرغبة ذاتها التي تحدد الناس إلى العيش معاً ، والحياة في ظل الوحدة والوثام ، والجنوح إلى السكينة والسلام .

ونهبض أحد أعضاء اللجنة المركزية فوصف الموقف الدولي في منطق رصين ،
بغير انفعال وقول معزز بالوقائع ، ورسوم صورة بشعة ، ولكن بارعة ، لعدوان
« الفاشية » في ألمانيا وإيطاليا واليابان .

وقد أقنعني الباعث الذي حمل القوم على ابتداء المحاكمة على هذا النحو ، فقد
تبين لي أنه كان من المتعين عليهم أن يبينوا الأثر المترتب على الجنايات التي اقترفتها
روس في نظرهم ، ومدى صلتها بالبشرية وأثرها العام ، واقتضى هذا تصوير الإنسانية
المعذبة في صورة حية بارزة المعالم ، وكانت الصورة فعلاً حقيقية . ولست أظن في العالم
كله هيئة أقدر من الحزب الشيوعي على معرفة دقائق العمال ومعايشهم ، ولا أكثر
خبرة بتفاصيلها وجزئياتها ، لأن مصادرها مستقاة رأساً من العمال أنفسهم .

وعمد الخطيب الثاني إلى شرح الدور الذي يضطلع به الاتحاد السوفيتي ، فقال
إنه الدولة العالمية الوحيدة في هذا العالم ، ومضى يصف كيف يحيط الأعداء بها من
كل جانب ، وكيف تحاول « تصنيع » كيائها ، ويعدد التضحيات التي تبذلها لمعاونة
العمال في العالم على شق طريق إلى السلام من ناحية السلامة الجماعية .

وكانت الوقائع المبسطة في المجلس صحيحة إلى حد ما ، ولم يقل أحد شيئاً خلال
ذلك كله عن المتهم الذي جلس يستمع كبقية المجتمعين ، لأن الوقت لم يكن لإدماجه
هو وجرأته في هذه الصورة البارزة لنواحي الصراع العالمي ومعامله .

فقد اقتضى المقام أولاً التعميم وبسط الحقائق المجردة أمام المستمعين حتى
يستطيعوا أن يقيسوا على أساسه ، حكمة تصرفهم أو خطئ عملهم على السواء .

وأخيراً نهض خطيب فتكلم عن الحى الجنوبي في مدينة شيكاغو وسكانه
الزنج ، وما يعانونه من آلام ، وما يقاسونه من حرمان ، رابطاً ذلك كله بالصراع
العالمي وأحداثه . وتبعه خطيب آخر فشرح المهمة التي يتولاها الحزب الشيوعي
في ذلك الحى ، وانتهى من ذلك ونحوه إلى إدماج الصور الثلاث . الصورة العالمية
العامة ، والصورة القومية الخاصة ، والصورة المحلية بالذات ، في « مأساة » شاملة

لصراع معنويٍّ يشترك فيه كل فرد من المجتمعين ، ويحمل كل مستمع منه نصيباً .
وقد استغرق هذا التصوير الدقيق الشامل أكثر من ثلاث ساعات ، ولكنه
على كل حال بث في قلوب الحاضرين معنى جديداً للحقيقة والواقع ، معنى يتصل
بحياة البشرية ودنيا الأرض والناس . ولست أعرف هيئة في العالم كله أقدر من الحزب
الشيوعي على إشعار الناس معاني الأرض والبشرية والحياة الدنيا ، اللهم إلا إذا
استثينا الكنيسة وأساطيرها الأولى وخرافاتها المتعددة .

وقبيل المساء بدأت اتهم تكال لروس ، لا من جانب الزعماء أنفسهم ، بل
على ألسنة أصحابه وأهل مودته بالذات ، الذين يعرفونه أكثر مما يعرفه الآخرون !
لقد كان اتهمهم إياه تدميراً له ، بل صواعق هوت عليه .

وبدا الرجل ذابلاً ذائوياً من فرط ما أصابه .

ولم تعد مشاعره تقوى على مغالبة وطأة هذا الموقف وحرجه .

فقد رأى الذين تولوا اتهمه إنما تكلموا عن طواعية ، واتهموه عن اختيار ، فلم
يبعثهم عليه تخويف ، ولا حملهم عليه إرهاب . .

لقد مضوا بكل ما أوتوا من حرية يعينون وقائع ، ويذكرون تواريخ ، ويشرحون
مشاهد ، حتى راحت أغلاطه وآثامه تنكشف في رفق ، وكومة مساويه وأخطائه
وضلاته تتحلل وتتناثر بقوة لا تدحض ، ومنطق ليس لمثله من تفنيد .

وجاءت اللحظة التي يتولى روس فيها الدفاع عن نفسه ، وكنت قد نبئت أنه انفق
مع صحاب له على الشهادة في مصلحته ، ولكنني في تلك اللحظة لم أره يستنصر أحداً
أو يدعو شهيداً له ، يزود عنه ، وإنما نهض زاعشاً ، وحاول أن يتكلم فخانه الكلام ؛
وكان السكون يسود المكان ، سكون كصمت القبور وسكينة الأجداث .

وبدا الذنب مسطوراً على كل قطعة من أديمه ، وراحت يدها ترتجفان ،
فأمسك بحافة المنضدة ليتوازن على ساقيه فلا تحذله ركبته .

وانمحت شخصيته من الوجود ، وفقد شعوره بالذات ، ولولا أنه ارتضى هذا

المشهد الذى حطمه ، واشترك فى هذه الرؤية التى دمرته ، لما بلغت به الذلة هذا الحد ،
ولما نضائل وخنق كل هذا التضائل والخنوع .

قال بصوت خفيض عميق النبرات : « أيها الرفاق ! إننى مدان بهذه التهم
كلها ... » وأجهش بالبكاء .

لقد انتحب ، ولم يكرهه أحد على القول ، ولم يسمه أحد عذاباً حتى يعترف
هذا الاعتراف .

ولم يوعده أحد ، ولم يهدده ، بل كان طليقاً حراً ، يستطيع الخروج من القاعة فلا
يخضر بعد اليوم اجتماعاً شيوعياً آخر مدى الحياة ...
ولكنه لزم مكانه ، ولم يشأ منصرفاً ، ولم يرد خروجاً .

إن هذه الرؤية التى طالعتها ، رؤية عالم متحد ، استقرت فى أعماق نفسه فلن
تفارقه إلا إذا فارقه الحياة .

ومضى يتكلم ، فوصف كيف أخطأ ، وشرح كيف ضل ، ووعد أن يصلح ما
أفسد ، وينيب بعد ضلال .

وقد بدا لى وأنا فى مجلسى ذاك أن خلقاً كثيراً من الناس يظنون أنهم خبروا الحياة ،
ولا يريدون أن يصدقوا ما قيل لهم عن محامكات « موسكو » ولكن ليتهم كانوا
حاضري محاكمة « روس » ، هذه المحاكمة العجيبة المدهشة ، إذن لصدقوا ما كان
يساورهم الشك فيه ، وأمنوا بما كانوا له من قبل مكذبين .

إن ورس لم يخدع لسكى يحمل على الاعتراف .

ولكنه إنما أوقظ !

ولم يدفعه الخوف من الحزب ، وإنما دفعه الخوف من العقاب الذى كان سيتقاضاه
من نفسه إلى الحديث عن خطاياهم .

لقد تكلم من قبله الخطباء ، فمازالوا به حتى أبدلوه من عينيه عينين أخريين لينظر بهما
إلى جرائمه ، ويشهد بهما ذنوبه ، ثم جلسوا ليستمعوا إليه وهو يقص عليهم ما فعل ،
ويروى لهم ما كان منه .

لقد تلاشى فيهم جميعاً واتحد واندمج ، بغض النظر عن العنصر واللون ؛ فقد كان قلبه قلوبهم ، وكانت قلوبهم قلبه ؛ وحين يصل أمرؤ إلى هذا الحد من القرابة من الناس ، والتلاشى في الغير ، أوحين يبلغ المرحلة من هذه «الوحدة» أو «الوحدانية» أو عندما تجعله المحاكاة كذلك ، بعد أن ينفصل عنهم بأخطائه ، وينحرف عنهم بآثامه وأغلاظه ... عندئذ يحس أن لا معدى له عن النهوض بدافع من أعماق الدوافع المعنوية في هذا العالم ، ليقول على رموس الأشهاد : إننى مذنب ، فاعفروا لى ما فرط منى ... إننى التائب المنيب ..

لقد بدا لى هذا المشهد ، رائعاً مجيداً ؛ ولكن لأن الحزب أنكرنى ، وكان أعمى جاهلاً لحقى ، لم أثبت أن أحسست أنه مشهد منكسر ، ومنظر بشع ... !

إن عماقتهم عن معيشتهم المحدودة ، وحياتهم التعسة المقبورة ، للظلم البالغ الذى عانوه زماناً طويلاً قبل أن تأتى الشيوعية أو قبل أن يستمعوا لوعودها ، حملتهم على الظن بآنى مع أعدائهم عليهم ، وآنى خصم من خصومهم ؛ فإن الحياة الأمريكية أفسدت إحساسهم إفساداً أعجزهم عن التمييز بين الصديق والعدو ، والتفريق بين الحليف والخصم المبين .

ولو أنهم أوتوا سلطاناً فى الدولة لاتهمونى علناً بالخيانة العظمى وحكموا بإعدامى . وكنت على يقين أنهم كانوا يشعرون بسبب هذا العمى الأسود الذى منوا به ، أنهم فى ذلك على صواب ، وأنهم لم يخطئهم فيه السداد .

وأحسست عندئذ أننى لا أستطيع البقاء إلى النهاية ، وشعرت برغبة ملحة فى الخروج إلى الشارع ، والإفلات من هذا التوتر البالغ الذى استولى على أعصابى واستمكن منى .

فنهضت ومشيت إلى الباب .

والعترضنى أحدهم فهز رأسه منذراً بالآ أنصرف حتى تنتهى المحاكاة .

قال : لا يمكن أن تنصرف الآن .

قلت غضباً ، وقد علا صوتى من فرط الحنق أكثر مما كنت أريد :
إننى خارج !

ولسكنه وقف يحملق فى وجهى ملياً .

وجاء رفيق آخر يهرع نحونا .

وتقدمت خطوة إلى الأمام ، فلم يكن من هذا الأخير إلا أن أشار لصاحبه أن
يخلى بينى لأنهم لا يريدون إحداث ضجة ، ولم أكن أنا أيضاً أريد إحداثها ،
فتنحيا لى أمر .

ورحت أهيم فى شوارع شيكاغو المظلمة ، ومضيت إلى مسكنى حزيناً مهموماً ،
وجعلت أقول لنفسى مرة أخرى ، إنه ينبغى أن أروض خاطرى على العيش بمعزل
والحياة بمنأى .

— ولم أستشعر أية غضاضة أو مضض من تنكرهم لى ، وإقصائى عنهم ، ولا قامت
بنفسى رغبة فى قضاء أيامى مردداً ما فعلوا بى شارحاً للناس ما أتوه .

ولعل ما تعلمته فى أيام حداثتى هو الذى أنقذنى من اتخاذ هذا المسلك الذى
لا جدوى منه ولا نفع فيه .

ورقدت فى فراشى تلك الليلة وأنا أقول لنفسى « سأكون لهم ، وإن لم يكونى لى » !

— ١٣ —

ومن المسرح النموذجى الاتحادى نقلت إلى المشروع الاتحادى للكتاب وحلة
الأقلام فمضيت أحاول كسب قوتى من وضع التقاويم وكتب « الدليل » ، وكان
كثير من الكتاب المعينين فى هذا المشروع أعضاء فى الحزب الشيوعى ، وقد بروا
بما تعاهدوا عليه من الامتناع عن الكلام مع « الخونة الناكثين يعهد الطبقة العاملة »
فكنت أجلس فى المكتب بجوارهم ، ويتفق موضعى فى المطاعم بجانبهم ، وتحتوينى
المصاعد معهم ، هابطين أو مرتفعين ، فكانوا يشيخون عنى بوجوههم ، ولا يوجهون
إلى كلمة واحدة .

وقد رقيت بعد بضعة أشهر مشرفاً على المقالات ، وإذا بي أصطدم بمتاعب سياسية
ففي ذات صبح دعاني المدير إليه في مكتبه .

قال : اسمع يا رايت ، من هم أصدقاؤك هنا في معشر الكتاب والحررين .

قلت : لا أدري ، ولكن لماذا تسألني ؟؟

قال : يجب أن تعرف من هم ولا تبطئ .

قلت : ماذا تعني !

قال : إن بعضهم يطلب فصلك بدعوى العجز وقلة الكفاية .

قلت : ومن هم أولاء ؟؟

فراح يذكر لي عدداً من رفاقي القداى .

أى والله ، لقد وصل بهم الحقد إلى هذا الحد ، لقد حاولوا انتزاع اللقمة من
فمى انتزاعاً .

قلت : وماذا تنوى أن تفعل بشكواهم ؟؟

قال ضاحكاً : لا شيء ، وأظننى فاهماً ما يجرى هنا ، ولن أدهم يفلحون في

طردك من هذه « الشغلة » .

فشكرته ونهضت لأمشى إلى الباب ، ولكنى وقفت لأواجهه ، إذ بدا لي في

لهجته ما يريب .

قلت : في هذه « الشغلة » ، ماذا تعني بهذا القول ؟؟

قال : هل تريد أن تفهمنى أنك لا تعرف ؟

قلت : أعرف ماذا ؟؟ إننى لا أدرك من هذا الكلام شيئاً .

قال : لماذا خرجت من المسرح الزنجى ؟

قلت : لقيت فيه متاعب ، لقد طردنى الزنوج منه .

قال بتهمك : ألا ترى أنهم كانوا في ذلك مدفوعين .

فعدت إلى مجلسى ، وقد تولاني القزع ، ونظرت إليه مبهوتاً .

قال : لا تخف من شيء هنا ، وامض في عملك .

فغمغمت أقول : لا أكاد أصدق ما تقول .

قال : انس ما جرى بيننا .

ولكن جرى ما هو أدهى .

ففي ظهيرة يوم من الأيام أغلقت منضدتي وهبطت في المصعد ، ولما وصلت إلى الطبقة الأولى من المبنى ، شاهدت صفًا من المعينين للتجوال والمراقبة يروحون في الشارع ويفقدون ، وكان كثيرون منهم يحملون لافتات ، وفيهم صحب لي قدماء ، وهم يهتفون مطالبين برفع أجور الفنانين والكتاب .

وفيا كنت أجتاز الباب سمعت صوتًا ينادى باسمي قائلاً : ها هو ذا رايت التروتسكى اللعين ...

نحن نعرفك يا ...

أرايتم الخائن ... ها هو ذا ... !

وخيل لي لحظة أنني لم أعد حيا ... فقد وصل الأمر بي إلى سماع اسمي مقترنًا باللعنات في شوارع المدينة الثانية بين كبرى المدن الأمريكية .

لقد هزني هذا الحدث هزة لم أشعر بمثلها في يوم ما .
ومرت الأيام .

ومضيت أؤدي عملي كعضو مجلس الإدارة المنتدب من النقابة التي ساعدت على تنظيمها ، وكان الحزب قد حاول جاهداً المعارضة في انتخابي لتولى الإدارة ، بل لقد راح رفاقي القدامى في محاولتهم القضاء على نفوذى في النقابة ، يحاولون القضاء على النقابة ذاتها .

وقبيل حلول أول مايو عام ١٩٣٦ قرر أعضاء النقابة الاشتراك في الموكب العام . وفي صباح ذلك اليوم تلقيت تعليمات مطبوعة عن الموعد والمكان اللذين سنجتمع فيهما للانضمام إلى العرض العام .

وفي الموعد المضروب بادرت إلى الموضع فتبين لي أن الموكب ابتداءً فعلاً ، وحاولت الاهتمام إلى أعلام نقابتي فلم أعثر عليها وجعلت أذرع الشارع ذهاباً وجيئة سائلاً عن قومي فلا أجد هادياً .

وأخيراً رأيت زنجياً يقول لى : آه ... إن نقابتكم صرت منذ خمس عشرة دقيقة
فان كنت تبغى المسير ، فادخل الصف فى أى موضع تشاء .

فشكرته ورحت أخترق الجماهير المتظاهرة ، وإذا بى فجأة أسمع منادياً ينادينى ،
فدرت بعينى لأرى من المنادى فوجدت عن يسارى قسم الحى الجنوبى مصطفىاً
يهم بالمسير .

ودعانى صديق قديم قائلاً : هلم إلينا .

فدنوت منه .

قال إذ دانيتيه : ألسـت سائراً فى الموكب ؟ ؟

قلت : لقد فانتى اللـحاق بنقابتى .

قال : يا أخى وماله ... إلحق بنا .

قلت : وقد تذكرت زيارتى الأخيرة لمركز الحزب وموقفه منى ، لا أدرى هل
أفعل أم لا ...

قال : هذا يوم أول مايو ... ادخل فى الصف !

قلت : أنت عارف ما جرى .

قال : هذا لا يهم ، كل إنسان اليوم فى الموكب مشترك ، فهزرت رأى قائلاً :
خير لى ألا أفعل .

قال : أخائف أنت ، هذا يوم أول مايو !

واجتذبنى من ذراعى فأدخلنى فى الصف بجانبه ، فوقفت أتحدث إليه ،
وأسأله عن عمله وعن أصدقائنا .

وإذا بصوت يصيح : اخرج من صفوفنا !

فدرت بعينى ، وإذا بى أرى شيوعياً من البيض يرأس قسماً من الحزب ، ويدعى

« سائى بيرى » وهو فتى نحيف حليق الرأس .

قلت : إن هذا يوم أول مايو ، وأريد أن أسير فى الموكب .

فعاد يصيح بي : اخرج !

قلت : لقد دعيت إلى الانخراط في الصف .

والتفتُ إلى الشيوعي الزنجي الذي دعاني ، ولم أشأ أن أُلجأ إلى العنف ، ونظرت

إلى صديقي فإذا به يشيح عني لأن الخوف تملكه ، فلم أدر ماذا أنا فاعل .

قلت : إنك طلبت مني أن أنضم .

فلم يجر جواباً .

قلت ، وأنا أجذبه من ردن ثوبه : قل له إنك أنت الذي دعوتني ، ولكن

« ساي بيرى » عاد يصيح بي قائلاً : « إنني أطلب منك للمرة الأخيرة أن تخرج

من صفوفنا » .

فلم أتحرك ... وإن كنت قد أردت ، ولكنني كنت في تلك اللحظة نهباً مقسماً

لدوافع جياشة منعتني من الحركة ، وشتت قواي .

وجاء شيوعي آخر من البيض لمساعدة « بيرى » ودنا هذا مني فأمسك برقبتي

وراح يجرني جراً ، ولكنني قاومت وإذا بهما يمسكان بي ، فحاولت التملص منهما

وأنا أصيح بهما « اتركانني ! » .

ولكن الأيدي تكاثرت عليّ ، فاحتملتنى من الموضع الذي جمدت فيه ، وشعرت

بأنني معلق في الفضاء ، ولكنني أنقذت نفسي من الارتطام بالقشبت بطرف الإفريز

حين سقطت على يديّ .

ونهضت متراخياً واستويت على ساقيّ ، بينما وقف بيرى وصاحبه يحملقان البصر

في وجهي ؛ وتبين لي أن الصفوف الشيوعية من البيض والسود راحت تنظر نحوي

بأعين باردة مستنكرة متجاهلة شأني .

ولم أكأكد أصدق ما جرى ، وإن ظلت يداي تدميان وينبعث منهما ألم موجه .

لقد اعتدى عليّ في الطريق العام شيوعيان من البيض ، ووقف الزنوج عن

كشَبِ ينظرون .

ولم أستطع الانصراف من ذلك الموضع ، وخلا ذهني من كل فكرة أو خاطر .
ولكنني لم أشعر بنزوع إلى العدوان .

فقد كبرت ، وفارقت عهد الطفولة من زمان بعيد .

وبدأت صفوف الحزب الشيوعي الضخمة تتحرك فجأة ، رافعة أعلامها الحمر
التي تحمل شارة المطرقة والسندان ، رمز الثورة ، مرفوعة خفاقة فوق الرؤوس ، ومضى
دوى الطبول يتردد في الفضاء ، والعقائر ترتفع متعالية بالأغاني والأناشيد ، والأرض
تهتز من وطأة الأقدام اهتزازاً .

وسرت قبالي مواكب من رجال متجهين السحنات ونساء عابسات مكفهرات ،
بين بيض وزنجيات ، مستفيضين في الطريق على أعين الجماهير .

وتابعت المواكب إلى سرة المدينة — حى «اللوب» — ثم انعطفت إلى المتنزه
العام — جراند بارك بلازا — فجلست فوق مقعد خشبي .

جلست لا أفكر ، جلست عاجزاً عن أى تفكير .

ولكنني أحسست إلهاماً خفياً يولد في أعماقي ، وينبثق في أغوار نفسي .

فقد توالى عليها موجات من أخيلة ، تعاقبت وتدافعت لتؤلف اتجاهاً واحداً ،
ويجتمع منها إحساس واحد .

لقد اثنت أقول لنفسي ، إنهم عُمىُ الأَبصار ، لقد أعماههم أعداؤهم بكثرة
ما ألحوا عليهم به من الظلم ، وفرط ما احتملوه على أيديهم من البغي والظفیان .

وأشعلت لفاقة من التبغ ، وسمعت أغنية يتماوج بها الفضاء :

« انهضوا يافريسات المجاعة ... ! » .

وعندئذ تذكرت الروايات التي وضعتها ، تلك الروايات التي خصصت فيها
للحزب الشيوعي أدوار مجد وبطولة وشرف ؛ وقد سرني أننى فرغت منها ، ولم تعد
بحاجة إلى مراجعة أو تهذيب ؛ نعم ، لقد سرني أنها انتهت ، لأننى أحسست في أعماق
قلبي أننى لن أستطيع بعد اليوم أن أكتب بذلك الأسلوب الذى كنت أكتب

به ، ولن أشعر بذلك الشعور الحاد المرهف الذى كنت أستشعره ، ولن أعبر بعد الآن
عن الأمل الوثاب الغلاب فى النفس ، ذلك التعبير الحماسى البليغ الذى كنت أعبر به
من قبل ، ولن أعود أسلم بالإيمان تسليماً^(١) .

وطرقت سمعى نغمات نشيد تقول ...

« إن علماً أفضل ...

... يوشك أن يولد » !

وكانت المواكب لا تزال سائرة ، والأعلام لا تزال خفاقة ، والعقائر لا تكف
عن إنشاد .

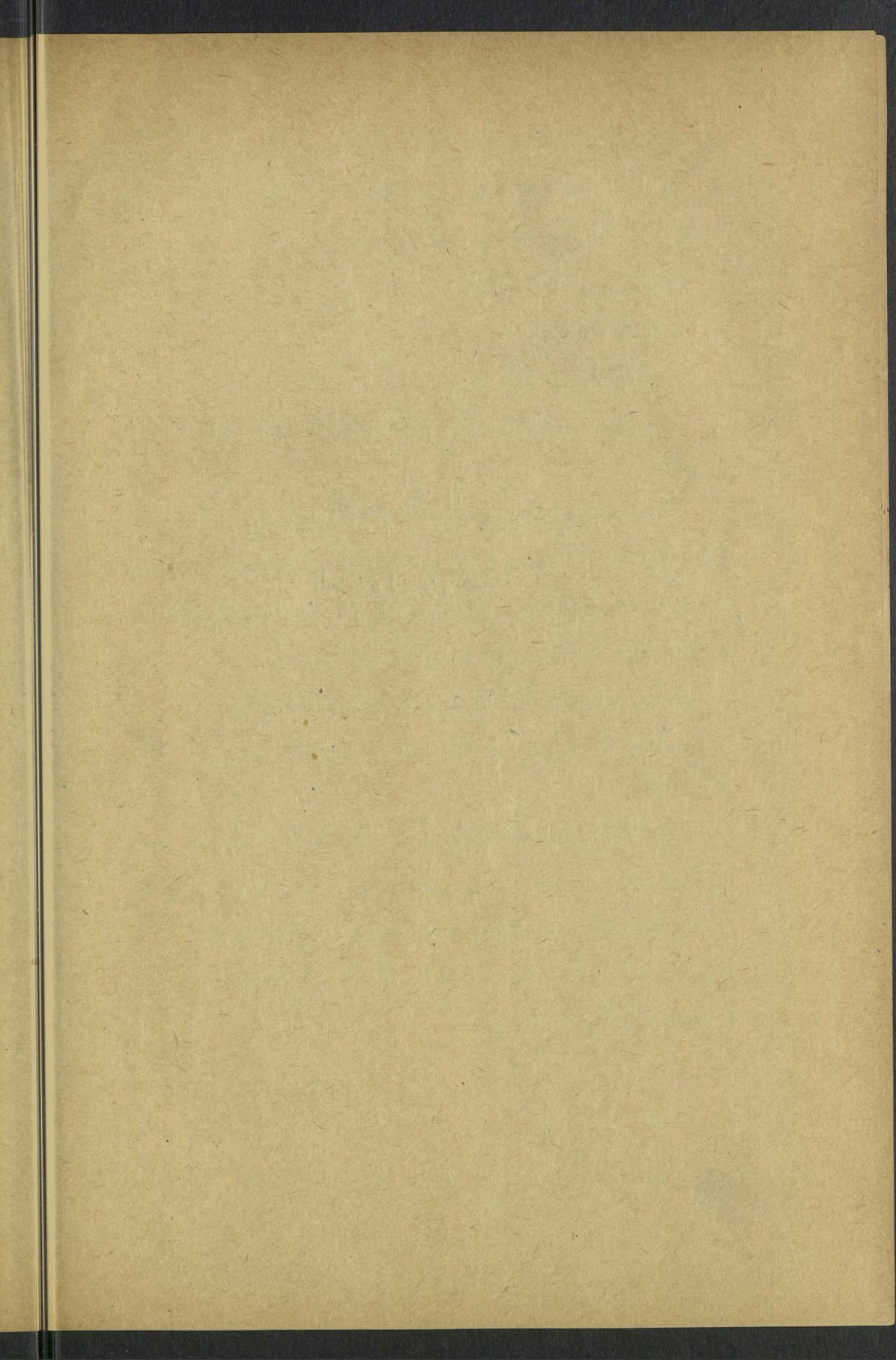
واتخذت سمتى إلى البيت وحيداً ، أى والله ، وحيداً منفرداً ، أحدث النفس
قائلاً لها إن القلب الإنسانى هو فى كل هذه القارة الأمريكية العظيمة المترامية ، العامل
الوحيد الذى قلما يفهمه الناس ، وإن الوسيلة التى تذلل للمرء أن يعيش عيشة إنسانية ،
هى الهدف الذى قلما يلتمسونه ، والمرمى الذى قلما يتوخونه .

ولسكن لعلى مستطيع أن ألقى شرارة فى وسط هذا الظلام البهيم ...
وسأحاول لا لأنى أريد ، بل لأنى مضطر أن أفعل إذا أردت أن أحيأ ، وأيئت
إلا أن أعيش .

سألقى كلاماً فى وسط هذا الظلام ، وأبعث بألفاظ فى فحمة ، ثم أنتظر الصدى .
فإن تردد ، بل إن بدا خافتاً ، ألقىت بكلام آخر ، أقص به ، وأسير وأناضل ،
فى سبيل إشعار الناس بمعنى اللفظة والحرص على الحياة ، اللفظة التى تعض جوانحننا
بأنيابها الحداد ، وإبقاء العنصر الإنسانى الذى لا سبيل للتعبير عنه ، حياً مائلاً
فى القلوب والأرواح ...

(١) انظر المقدمة . فقد اقتبس كروسمان هذه الفقرة من حديث « رايت » .

القسم الثاني
العابدون من بعيد



أندريه جيد

مقدمة بقلم « إيفيد ستاركى »

في عام ١٩٢٠ استولى على أندريه جيد تطور بالغ المدى ؛ فقد انتقل من دور المفكر المنطوى على نفسه الذى عرفناه فى مؤلفاته الباكورة ، إلى دور الفيلسوف الهادئ الذى عرفناه فى كتبه الأخيرة ؛ فقد انصرف عن تعذيب نفسه ، وعدل عن إلحاحه القديم على تقصى الدوافع إلى الجريمة والإثم ، وأصبح الرجل الذى ظن أنه قد اكتشفه أخيراً فى أعماقه ، وهو القائل « إننى أدع للمتناقضات جميعاً مداها فى نفسى تفعل بها ما تشاء » . وقد تخلص بالانطلاق من الصراع النفسى الذى كان متشبثاً به ، ومن إدمان التحليل الشخصى ، إلى البحث الموضوعى ، لا من ناحية مشكلة الجريمة والإثم والحرية الشخصية وحدها ، بل من مختلف النواحي والجهات .

وفى شهر يولييه عام ١٩٢٥ ، بعد فراغه من كتابه « المالىسون الضالون » ، نرح إلى أفريقيا ، ولم يعد منها إلا بعد عام من سفره ، وقد استبشع ما رآه فى المستعمرات الفرنسية الاستوائية من استغلال السادات البيض لأهلها الزوج ؛ وحين رجع إلى وطنه كتب يقول « إن حزناً شديداً لن يفارقنى بعد اليوم » ؛ وكتب بعدئذ إلى صديقه « شارل دى بو » يقول : « لست أود الظفر بالسعادة لنفسى فحسب ، بل أريد أن يصل إليها الغير كذلك ، وهذا هو السر فى أن شعورك بالسعادة ليس شيئاً مذكوراً ، فإن السعادة هى إسعاد الآخرين » .

وهكذا أصبح أندريه جيد نصير الضحايا والمستبدلين ومعاشر المجرمين والجناة .. فهو يطالب الناس لهم بمعاملة أكثر عطفاً مما هم فى المجتمع واجدوه ، ونصير النساء ، فهو يطلب لمن المساواة بالرجال ، وبخاصة المساواة الروحية ، وأهل المستعمرات ، فهو

يدافع عن قضيتهم في كتابين وصفها فيهما عشب عودته من أفريقيا ، وها « رحلة إلى الكونغو » ، و « العودة من بحيرة تشاد » ، وأخيراً « معاشر المحرومين في الجماعة الإنسانية من كل امتياز » . وقد اعتنق عندئذ المبادئ الشيوعية وقصد إلى روسيا . وقد رأيناه يعلن أنه كان شيوعياً في أعماق قلبه طيلة الحياة ، وهو لا يدري ، حتى في الفترة التي كان فيها أشد ما يكون مسيحية .

وقال في « يومياته » إن ما أعجبه في روسيا هو إلغاؤها تلك الكلمة التي حكمت على آدم بالشقاء ، وهي « بعرق جبينك تأكل خبزك ... » .

وكان هذا التحول لوناً جديداً في فكرة « الحرية الشخصية » لديه ؛ فقد كتب في عام ١٩٣١ خلال المقدمة التي وضعها لكتاب « أنطوان دي سان اكسبيري » ، وهو « سرقة ليلية » يقول : وإني لشاكر للمؤلف إلقاء ضوءاً على حقيقة متناقضة في ظاهرها ، وإن كانت لها أهمية نفسية كبيرة عندي ، وأعني بها أن سعادة الإنسان ليست في حريته ، بل في قبول « الواجب » .

فقد كان هذا التحول الملحوظ عدولاً عن المعنى الشخصي الفردى للحرية ، ذلك المعنى الذي شرحه منذ ثلاثين عاماً مضت في كتابه « الأغذية الأرضية » ، إلى مراح أخيراً يتحدث عنه بقوله عنها « الحرية المتهمة لا الحرية المهيمنة » ^(١) أو « حرية السيد لا حرية العبد » .

وقد رأيناه في مسرحية « أوديب » التي وضعها عام ١٩٣١ يبين في شخصية « البطل » ذلك الدمار الكلي الذي يصيب المرء حين لا يقر شيئاً غير نفسه ، ولا يرضى سوى ذاته ، ويجعل الحرية الشخصية غالبية على كل شيء عداها .

فقد بدأ « أوديب » في تلك الرواية مزوداً بكل المزايا التي يعتقد « جيد » أن لا غناء للفرد الحر عنها ، وظهر في البداية محتالاً فخوراً سعيداً لا تعوقه علاقات الأسرة

(١) المتهمة : أى التي يمتنها المرء ويستخدمها . وأما المهيمنة فتفتح الميم ، فمن المهانة أى الذلة والإذلال .

ولا محول دونه التقاليد والعادات المرعية ، وحيداً بنفسه منفرداً بذاته ، ولكنه في النهاية ينقلب مهزوماً مدحوراً ، لأنه إنما يحاول الاستغناء .

وقد اضطر « جيد » بعد هذه الهزيمة ، أوهذا الإفلاس ، إلى الاعتراف بأن الإنسان إذا عَسَىَ بنفسه عن الله مهزوم لا محالة ، مقدور عليه الفشل والانتحار ، إلا إذا هو استعاض عن الله بفكرة أخرى ، أو عقيدة غير عقيدته .

لقد رأينا أوديب في النهاية يرفض الله ليؤمن بالإنسان ، كما شهدنا « جيد » ذاته يتطلع إلى الشيوعية ، ويعتقد أن الحرية ليست كافية في ذاتها ، بل إنها لتدمر نفسها ، إذا هي لم ترتبط بمثل أعلى لا يمتد إلى « الأنانية » ولا صلة له بحب الذات ، أو إذا هي على الأقل لم ترتبط بواجب ما .

لقد دار جيد يومئذ بعينه ملتمساً شيئاً من الالتزام ، وناحية من نواحي المسؤولية وظن أنه واجدها في الشيوعية .

لقد ظن أنه سوف يجد فيها ، مع الخدمة المثالية التي توافرت لها ، والنظام المتين الذي يلزمها ، أوفى تعبير للإنسان ، وأصح صورة للحرية ، وهو في ذلك القائل « إن أكبر انتصار للفرد هو تخليه عن فرديته » كما قال فيما بعد في كتابه « الأغذية الأرضية الجديدة » عام ١٩٣٥ « إن كل مخلوق بشري لا هدف له إلا نفسه يعيش في فراغ أليم ... » .

ولم يكن اهتمامه بروسيا تطوراً جديداً أعراه ، فقد كان يشتغل في وضع كتاب عن « ديستوفسكي » ، قبل نشوب الحرب الأولى ، وألقى في سنة ١٩٢٢ سلسلة محاضرات عنه بمناسبة ذكره المؤوية ، وقد تخيل يومئذ أنه قد بدأ يشهد من خلال الظلمة الدامسة التي غزت روسيا منذ قيام الثورة بريقاً من أمل وشعاعاً من رجاء ، فقد بدت روسيا له مضحية بذاتها لخلاص العالم وإنقاذ البشرية ، وإن كان بعد عشر سنين من ذلك التاريخ عاد يرى أنه من الجائز أن يكون هذا الخلاص قد تحقق بالفعل ، وكان إلى ذلك العهد قد عرف بين الناس بأنه الكاتب الذي لا يريد أن يتورط ، ولا أن يتحيز ،

فإذا به المتورط بغير حرص ولا هوادة في الإيمان بحل الشيوعية لمشا كل العالم ومتابعه فكان ذلك منه نوعاً من التحول الديني ، أو هو تحول عاطفي أكثر منه ذهنياً ، حتى لقد كتب في يومياته يقول أشعر بأنني لست أخاً إلا لمن دخلوا الشيوعية من طريق الحب . . . وعاد في عام ١٩٣١ فكتب قائلاً ، أود أن أرفع صوتي في العالم عالياً بعطفي على الاتحاد السوفييتي ، وأرجو أن تسمع صرختي وأن يكون لها أثرها وأتمنى أن يطول بي العمر حتى أرى هذا المجهود الجبار مقتصرًا ، هذا المجهود الذي أرجو من أعماق قلبي أن يكمل بالنجاح ، بل هذا المجهود الذي أود أن أعمل له وأساهم فيه . .

وكان على استعداد للتضحية ببعض قداسة فرديته ، ولكنه لم يكن يرى لذلك ضرورة ملجئة .

ومضى في سنة ١٩٣٢ يقول إنني لا أرى ثمة سبباً يدعو إلى وقوع اصطدام بين الفردية والشيوعية ، فسأظل مقتنعاً بالفردية ، ولكن من الخطأ أن يحاول بعض الناس إقامة فارق بين الشيوعية والفردية أو يظن أنهما على طرفي نقيض ، وأن الاعتقاد الثابت بأنه في الإمكان أن يكون الإنسان بل في الواقع يتحتم أن يكون « شيوعياً » وفردياً في آن واحد ، لا يمنعه من التنديد « بالامتيازات » وحظوات « الوراثة » وجملة الأغلاط المقترنة « بالرأسمالية » التي لا يزال عالمنا الغربي متعلقاً بها والتي تسوق به قسداً إلى الدمار ، وعساك تسأل لماذا أنا متلهف على الشيوعية مستشعر الحنين إليها؟ والجواب أنني مؤمن بعدالتها ، ولأنني متألم من المظالم القائمة التي يزداد ألمي منها اشتداداً حين أراي أنا نفسي الحظوظ الممتاز ، ولأن النظام الذي نعيش تحته يلوح لي أنه لا يحمي الناس من شر ضروب الاستغلال وأسوأها ، ولأنني لا أرى بين معاشر « المحافظين » إلا أشياء ميتة أو في طريق الموت ، ولأنه يلوح لي من الخطل البالغ التعلق بأمور أخذت أيامها ، ونعمت بالخطوة في زمانها ، ولأنني مؤمن بالتقدم وأفضل ما سيكون ، على ما قد كان ، أفقتسألونني لماذا أحن إلى الشيوعية ... ؟؟

وأقول لكم إنني أحسن إليها لأنني مؤمن بأننا سنتمكن بها من بلوغ أسمى حدود الثقافة ولأن الشيوعية هي التي تستطيع ، بل في الواقع يجب ، أن تجلب إلينا نوعاً جديداً ، بل نوعاً أفضل من الحضارة .

وكان « جيد » يعتقد أن الشيوعية المفهومة على وجهها الصحيح توجب تشجيع « القيم » الفردية حتى يتسنى لها الظفر من كل فرد بأحسن ما لديه .

وقد بعث في عام ١٩٣٥ رسالة إلى الشيوعيين في مؤتمر الكتاب السوفييت يقول فيها « على الطريق السلطاني » للتاريخ ، ذلك الطريق الذي يتحتم على كل بلد ، وينبغي لكل أمة ، أن تستقيم إن عاجلاً أو آجلاً ، قد تولى الاتحاد السوفيتي الزعامة ، وسار في الطليعة ، وسط مظهر رائع ، وفي مشهد مجيد ، فهو اليوم يضرب لنا المثل على المجتمع الجديد الذي كنا نحلم به ، ولا نجرؤ على الأمل فيه ، ومن المهم في عالم العقل والذهن أن يعطى الاتحاد السوفيتي المثل الطيب ، ويرسم القدوة الحسنة ، وقد أصبح لزاماً عليه أن يدلل لنا على أن الفكرة الشيوعية العليا ليست كما يجب أعداؤها أن يرسموها ، مجرد « طوبى » كقرية من قرى النمل ، بل من واجبه اليوم أن تنشئ في عالم الفنون والآداب « فردية شيوعية » ، إذا سمحتم لي أن أربط بين هاتين الكلمتين على هذا النحو ، وإن كان الخطأ المألوف أن يظن أنهما على طرفي نقيض ، وليس من شك في أنه لم يكن بد من انقضاء فترة من الزمن في حمل الجماهير على الإيمان ، وحفز الكافة إلى الدخول أفواجا في الحضيرة ، ولكن الاتحاد السوفيتي قد اجتاز الآن هذا الدور ، فلا سبيل إلى انتشار الشيوعية اليوم إلا بمراعاة طبائع كل فرد وخواص فطرته . فإن المجتمع الذي يتشابه فيه الأفراد عامة غير مطلوب ، بل أريد أن أقول إن تحقيقه ضرب من المستحيل ، والأدب الأخرى ، فكل صاحب فن هو بالضرورة « فردى » مهما تكن أراؤه الشيوعية من القوة ، ومهما يكن تعلقه بالحزب مكيناً ، لأن « فرديته » — أو استقلاله الذاتي — هي وحدها التي تمكنه من تأدية عمل نافع ، وإسداء خدمة للمجتمع ؛ واعتقد أن ذلك الخوف الذي لا يعترى

غير العجزة والأوكال ، وأعنى به الخوف من التلاشى فى الجماهير ، هو خوف أحمق ، وإشفاق سخيف ، وفرع لا يخلو من خطر .

إن الشيوعية بحاجة إلى شخصيات قوية ، كما أن هذه الشخصيات واجدة فى الشيوعية حبثها وقوتها وبأسها ... » .

وقد طُلب إلى « جيد » فى الاجتماع الذى عقدته فى باريس عام ١٩٣٥ « رابطة البحث عن الحقيقة » أن يدافع عن آرائه فقال : إننى أعتقد أن المسيحية بما أوتيت من توفيقات وضروب تسامح ، وتيسيرات ، قد أفلست ، وقد سبق أن كتبت ، بل أنا أعتقد اعتقاداً جازماً ، أن المسيحية لو أنها عمت الدنيا حقيقة ، ونفذت حقاً تعاليم المسيح ، لما احتجنا اليوم إلى « الشيوعية » ولما قامت فى العالم مشكلة اجتماعية مطلقاً . وقال بعدئذ بسبيل البحث فى الشيوعية ومناقشة مبادئها : إذا كنت لم أجد تناقضاً بين مركز الجماعة ومركز الفرد ، فما ذلك إلا لأن التناقض ليس إلا نظرياً ومنتحلاً مفتعلاً ، وهذا ما أصبحت من أمره على يقين ، فلم يكن « ماركس » هو الذى قادنى إلى الشيوعية ، فقد حاولت جهدى قراءته ؛ ولكن جهدى ذهب سدى ، وإن ظلت على المحاولة مثابراً ، ولكن لم يبق فى نفسى خالصة من الشك فى أن نظريته ليست هى التى أحالتنى إلى صف الشيوعية ، وإنما الذى قربنى منها ، ونادانى إليها من أعماق قلبى هو المركز « الممتاز » الذى أستمتع شخصياً به ، فقد بدا لى هذا أمراً لا يرتضيه العقل ، ولا يمكن التسامح فيه أو احتماله ، واتفق لى يوماً أن أتحدث مع أحد الذين نجوا من نكبة الباخرة « لافورجونى » فقال لى إنه كان موقفاً فى الظفر بمكان له فى زورق من زوارق النجاة كان يحوى عدداً من الركاب المنقذين ، ولو أن الزورق احتمل راكباً آخر فوق هذا العدد لانتقل وهوى فى اليم مغرقاً ، وأن الذين وقفوا نجياً على ظهر الزورق مسلحين بالمدى والبلطات راحوا يقطعون بها أيدي الذين كانوا يحاولون التعلق بجوانبه ، والوثوب من اليم إليه ..

وقد أصبح الشعور بأننى واحد من أولئك الذين احتوهم الزورق وتهيات لهم

النجاة ، بيناراح الذين من حولى غرقى فى البحر هالكين ، إحساساً لا أحتمل تصويره ،
وصورة لا أستطيع قبولها ، والناس يجادلوننى ، ولكنى لست من الخبرة بحيث أجيب
الجواب المقنع ، وأرد الرد الذكى البديع ، ولكنى لا أزال متشبثاً بأمر واحد ، وهو
أننى لا أستطيع أن أرتضى مكاناً فى زورق لا نجاة به إلا لعدد محدود من الناس ،
ولو أنى ضمنت على الأقل أن الذين أنقذوا هم الخيرة والأحسن ، لهات الخطب ،
ولكن الذى يغضبنى أشد الغضب أن يقول لى أحد الناس : ما الذى يدعوك إلى
الشكوى والتذمر ، يجب أن تسلم بأن الركوب فى زورق النجاة مريح !..

وهكذا أصبح « جيد » يستحى أن يكون إنسانا مكفول الموارد ، خجلان من
أنه لم يحتاج يوماً إلى العمل بيديه ، أو لم يضطر إلى الحصول على قوته بعرق جبينه ،
بل لقد أمسى ذلك كله فى نفسه شعوراً بالذلة والمنقصة .

وقد ذهب إلى روسيا على أمل أن يستطيع الاتحاد السوفييتى أن ينتج أبدع
أزاهر الحضارة دون حاجة إلى استرقاق العقول ، واستعباد الأذهان ، ودون
الانحدار بأية طبقة إلى درك العبودية والرق ، أو حرمان أحد من منافع الحضارة
وخيراتها .

ذهب إلى روسيا وهو يدرك أن العالم الجديد المنشود قد يتطلب التضحية بكثير
مما هو فى ذاته طيب ، وأن القيم الأخلاقية والأقيسة الفنية قد تتوارى ، ولو إلى
حين ، فى سبيل الظفر بكسب اجتماعى موقوت أو ربح مادى ، ولم يكن يمانع فى أن
الإنسان لا يمكن أن تتحسن أحواله أدبياً وذهنياً ، إلا إذا أزلنا المساوىء الاجتماعية ،
وقضينا على الأغلاط والعيوب ، والاستغلال ، وغَيَّرنا النظام الاجتماعى كل التغيير ،
وأصبح الرجل الذى كان إلى ذلك العهد يتحاشى أن يدين بمعتقد من المعتقدات أو
يعتق مذهباً من المذاهب ، على استعداد لقبول « الماركسية » حتى حين ، وإن كان
مدركاً حق الإدراك أنها قد تكون خطرة كأية عقيدة سواها ، إذا أمعن المرء فى
اعتناقها ، وأفرط فى أخذها مأخذ الجد ، بل لم يكن « جيد » ليعارض فى قول

القائلين إن الماركسية إذا تيسر التدليل على صلاحيتها وجدواها وتسنى إثبات أن لا غناء عنها ، في سبيل قيام النظام الاجتماعى الجديد ، فلا بأس عندئذ من قبولها ، ولا ضير مطلقاً في ارتضاؤها . وهو في ذلك القائل قد يكون من الحكمة والصواب التضحية ببعض روائع الفنون إذا كان في التضحية بها تحقيق هذا الهدف ، وإن كان على مر الأيام قد عاد يرى أن الثمن كان فادحاً ، وقد تبين له في عام ١٩٣٧ أن ليس ثمة فارق بين ما رآه مكتوباً على الجدران بأحرف غلاظ في إيطاليا ، وما كان قد سبق له أن شاهده في روسيا ، بل كانت الشعائر والكلمات السائرة واحدة فيهما ، وهى « آمنوا ، وأطيعوا ، وناضلوا .. » حتى لقد كتب يومئذ في « يومياته » يقول: إن هذه العبارات المكتوبة على الجدران في إيطاليا كان يمكننا أن تكون منقوشة سواء بسواء على الجدران في موسكو ، فإن الروح الشيوعية لم تعد متعارضة مع الروح « الفاشية » أو مختلفة في شيء عنها .

وقد اعتقد جيد فيما بعد أن حلم السوفييت وأمله المنشود ، ونعنى به قيام دولة « دكتاتورية » كان مثلاً أعلى قاهراً باغياً ، لا يسمع فيه عن وجود أقليات مسترقة مستعبدة ، بل يفكر فيه الجميع تفكيراً واحداً ، وهو أدهى وأنكى ، وهو في ذلك يقول: وعندما يغنى التخت كله غناء موحداً ، لا يبقى ثمة معنى للكلام في « الانسجام » وتنتفي مسألة « التوافق النغمى » !

وظهر بعد الحرب تطور آخر في فكرة الفردية والحرية عند « أندريه جيد » ، وهذا المظهر هو الانحراف عن فكرة الحرية السكلية الطليقة غير المقيدة بتبعة أو مسئولية ، تلك الفكرة التى كان ينادى بها في شبابه ، والعدول أيضاً عن فكرته الأخرى ، الحرية المتهنة ، أو الحرية الخادمة — لا الحرية المهيمنة أو الذليلة ، التى كان يقول بها في كهولته ، فقد مضى أخيراً يقول إن الحرية المطلقة تدمر الفرد والمجتمع إذا لم ترتبط أوثق الارتباط بالتقاليد والنظام ، ولم يعد يومئذ يطالب بإحداث تغييرات أساسية ، وإنما كتب خلال الحرب في كتابه « محادثات وهمية » يقول إنه

إذا كانت الحضارة لا تعتمد إلا على الذين يضعون نظريات انقلابية أو ثورية فسوف تنقرض وتفتى. لأن بقاء الثقافة حية يقتضى قيام تقاليد مستمرة متطورة على الأيام.

وقد رأيناه فى أحدث كتبه ، وهو « تيزيه » عام ١٩٤٦ يصف كيف يستطيع الفرد القوى الواسع الخيلة الشجاع أن يعود سالماً من « التيه » إذا هو تعلق بالخيط الذى كان يربطه بالماضى ؛ وليس يخلو من الفائدة أن نلاحظ التطور الذى طرأ على فكرة هذا الكتاب منذ بدأ يفكر فيه قبل إخراجِه بثلاثين عاماً ؛ فقد كان يومئذ يرى أن الخيط الذى كان يربط « ثسيوس » « بأريادن » جعل يسحبهِ عائداً به إلى ماضيه ، إلى الموضع الذى جاء منه وإلى النساء اللاتى سيظللن إلى الأبد بمثابة « الفرملة » للدافع الذى يدفع الرجل منا إلى التقدم والمضى فى طريقه ؛ ولكنه عاد فيما بعد ليتخيل « ثسيوس » وهو يدخل « التيه » غير مطمئن إلا لشيء واحد ، وهو خيط إخلاصه المستمكن من أعماق نفسه ؛ وأخيراً رأيناه يصوره مستطيعاً الإياب لسبب واحد ، وهو تشبهُه بالخيط الذى كان يربطه بماضيه ، خيط العادات والتقاليد . وقد راح « يادلوس » يقول له وهو منطلق إلى « التيه » عد إليها — ومراده بذلك أريادن رمز « التقاليد » — وإلا ضاع الباقي كله ، وضاع معه كل ما هو خير ... إن هذا الخيط هو الحلقة التى ستربطك بالماضى ، عد إليه ، وثب إلى نفسك ، إذ لا شيء يمكن أن ينبت من لا شيء ، فمن ماضيك ومن حاضرك ينشأ مستقبلك ، ويتجسم مصيرك ...»^(١)

وقد رجع « جيد » إلى الفكرة ذاتها فى المحاضرات التى ألقاها بسبيل ذكرى « پرايس » فى أكتفورد خلال شهر يونيه عام ١٩٤٧ ، فقد اقتبس من شعر « فرجيل » الأبيات التى يصف فيها « إينياس » وهو هارب من « طروادة » وهى تحترق مع أبيه الشيخ وهو محتمله فوق كتفه ، قائلاً فى تفسيرها إنها ينبغى أن تحمل على حمل الرمز

(١) يشير هنا إلى أسطورة يونانية عن الملك « ثسيوس » وكيف أحبه « أريادن » ابنة الملك مينوس ، وبخيط عرفت كيف تخرجه من « التيه » .

والاستعارة ، فإن إنياس لم يحمل أباه على كتفيه فحسب ، وإنما كان يحمل الماضي بحملته ؛ ونحن بالمثل هاربون من الحضارة المحترقة حاملين ماضيها المسيحي ، لأن حضارتنا المسيحية قائمة على قدسية روح الفرد ونفسه البشرية ، وكان من المتعين علينا أن نحرس عليها من الفناء .

وقال جيد في محاضرته إنه قد تبين له أن الحضارات التي جاءت من قبل إنما قامت ثم على الدهر انقرضت ، ولكنه لا يعتقد أن حضارتنا مقضى عليها بالفناء إذا نحن ارتضينا التبعية الملقاة علينا من جانب تقاليدنا وماضيها ؛ وقد تكون مدينة الثقافة الغربية محترقة ، ولكن في إمكاننا مع ذلك أن نحافظ على أعلى ما فيها من جوهر ، ونحرس على أعز ما فيها من صميم .

وقال إنه لا يزال ينادى « بالفردية » غير نادم ، ولا يفتأ يستنكر بكل ما فيه من قوة تلاشى المسؤولية الفردية في الحكومة أو السلطة المنظمة ، أو تواريتها في عملية التخلص من الحرية ، الذي أصبح عصرنا يؤسم بطابعه ؛ وقد مضى ينكر أيضاً المذاهب الحديثة ، ونظرية الأدب المرتبط بالعقائد والمثل العليا المختلفة ، ولا يؤمن بالنظريات العديدة التي سياتى عليها زمن تتواری فيه ، فلا يبقى لها من أثر ، كما اختفى من قبل أمثالها على مر السنين ، وإنما ظل الفرد وحده هو القابض لا فناء له ولا انقراض .

كان هذا هو اتجاه تفكيره في عام ١٩٤٧ ، ولكن قبل هذا العهد بخمسة عشر عاماً ، حين كان يناصر الشيوعية ، جعل يقول في « يومياته » إن تحولى إلى الشيوعية يشبه الإيمان بدين أو اعتناق ملة ، فإن كياني كله قد اتجه نحو هدف واحد لا ثانى له ، وكل خواطرى أصبحت تعود بى حتى على كره منى إليه ؛ ويلوح لى فى هذه الحال السيئة التي وصل إليها العالم الحديث أن خطة الاتحاد السوفيتي هي البشير بالنجاة . إن كل شيء حولي يقنعني بصحة هذا الرأي ، ويغريني بقبوله ؛ أما حجج خصوصي فلا تقنعني ، ولكنها تغضبني ، ولو اقتضى نجاح الاتحاد السوفيتي مني بذل حياتي لبذلتها في سبيله غير متردد . وأنا أكتب هذا في سكينه نفس ، وهدهوء عقل ،

وإخلاص تام ، لحاجتي الشديدة إلى ترك هذه الشهادة من بعدى على الأقل إذا عاجلنى الموت قبل أن أزيد الأمر بياناً ، والتعبير شرحاً وجلاء ... !

وقد سافر إلى روسيا في شهر يونيه عام ١٩٣٦ وهو مفعم الخاطر آمالاً ، ولكن تلك الآمال لم تلبث أن خابت ، فعاد من روسيا يقول لقد كانت رحلتى إلى روسيا السوفيتية أليمة ، فقد أتيتها نصيراً متحمساً ، ومتشيعاً مقتنعاً مؤمناً ، لكنى أعجب بمشهد عالم طريف ، ودنيا جديدة . وقد عرضوا علىّ للإغرائى وكسب رضائى ، كل الامتيازات التى أمقت قيامها فى العالم القديم وأجتويها أشد الاجتواء .

ولم يصل جيد إلى « الشيوعية » من طريق « ماركس » ولكنه وصل إليها من طريق « الإنجيل » ، فإذا به عند مقامه فى روسيا لا يجد فيها من هذا الإنجيل شيئاً ؛ وقد احتفل به فى كل موضع نزل به ، وأحيط بترحيب بالغ فى كل مكان احتواه ، لأنه كان كسباً عظيماً للقضية الشيوعية ، بوصفه أكبر كاتب أوربى فى عصره ، ولما عرف عنه من أنه رجل نزيه ومفكر أمين صادق النزعة ؛ وقد أغدق الروس عليه بجميع المناسم والامتيازات التى تشاهد فى الحضارة الحالية المتدهورة ، ولكنه لم يكن بحاجة إلى إحراق البخور له والتسبيح بحمده والتناهى فى تكريمه لأنه لم يذهب إلى الاتحاد السوفيتى ابتغاء مغنم مادى ؛ ولشد ما ريع حين رأى فى كل مكان تلك الهوة السحيقة القائمة بين المنعمين والمحرومين ، ورأى ذلك الاسترقاق الفكرى ذاته الذى كان ينفر منه فى أوربا ويستنكره ؛ وتبين الكتب التى وضعها بعد رجوعه ككتاب « عودة من روسيا السوفيتية » ، وكتاب « على هامش رحلتى إلى روسيا ^(١) » مدى خيبة الأمل التى أحس بها وانقشاع الغشاوة التى كانت على عينيه ؛ وقد رأيناه فى هذين الكتابين يبدى إعجابه بالشعب الروسى ذاته ، ويظهر المودة والعطف ، فقد فتنه مشهد الوجوه الباسمة ، ومرأى الولدان الناعمين السعداء ، ومراكز الرياضة واللهو ، والإقبال البالغ على التعليم ، وجو الأمل الذى يعيش الشعب فيه ؛ ولكنه بهت

(١) نشر فى بريطانيا بعنوان « أوتبى من روسيا » و « خواطر أخرى — عن رحلتى » .

لمشهد ضروب الظلم التي بدت لعينيه ، والنصيب الضئيل الذي تتلقاه الجماهير من أهل
الفاقة لقاء صبرها وقوة احتمالها وجلدها ، وساءه منظر أفراد الشعب في ثيابهم البالية
وأطوارهم البادية ، ورداءة السلع المعروضة في إلحوانيت ووقوف الناس ساعات طويلة
صفوفاً حتى تحين أدوارهم في سبيل شرائها ، كما نفرت نفسه كل النفور من انمحاء
كل أثر في البلاد لحرية النقد والرأى .

ومن هذين الكتابين ، وبموافقة جيد نفسه ، استطعت أن أضع القصة التالية ..

أندريه جيد

قصته كما يرويها بنفسه

روى «هوميروس» في شعره كيف جاءت «ديميتر» Demeter الإلهة العظيمة في سبيل هيامها وضلتها في المدائن للبحث عن ابنتها ، إلى بلاط الملك «سيلوز» متنكرة في زي مريض ، فلم يعرفها أحد ، ولم يدرك القوم خافية أمرها ، وعهدوا إليها بوليد جديد لكي تكفله وهو الوليد «ديموفون» Demophoon فكانت عاداتها إذا الليل جن ، وغُسلت الأبواب ، وهجع كل من في القصر وتولاهم السبات ، أن ترفع الطفل من مهده الدافئ الوثير ، فتضعه عارياً في فراش من جذوات فحم متأججة ، بقسوة ظاهرة ، وإن كان مبعثها في الواقع حب عظيم ، ورغبة ملحة في تحويل الوليد إلى إله معبود .

وكانت إذا ألفت به على ذلك الفراش المستعر ، تمنو بحب عليه ، كأنما تمنو على صورة مجسمة للبشرية المرتقبة ؛ وكان الوليد يحتمل حرارة النار ، ووقدة الجذوات صابراً ، حتى أصبح قوياً شديد البأس باهراً مجيداً ، إلى حد يفوق كل أمل ، ويجاوز كل حلم .

ولكن «ديميتر» لم يقيض لها استكمال تلك التجربة الجريئة ، فقد دخلت «ميتانيرا» أمه ذات ليلة عليها في غرفة الوليد لتطمئن عليه ، فلما شهدته على تلك الحال ، دفعت بالمرية جانباً وألقت بالجذوات بعيداً ، طارحة معها تلك الفضائل الخارقة التي كانت تطويه على هذا الضرب من التأديب ، وأنتزت الطفل مضحية بالإله ... !

ومنذ بضع سنين كتبت عن حبي للاتحاد السوفيتي وإعجابي ، لما يجري فيه من

تجربة منقطعة النظير ، ألهم التفكير فيها مشاعري وأثار في صدى أ كبر الآمال ،
إذ رجوت أن تسفر عن تقدم عظيم وخير كثير ، ودوافع تغمر العالم كله ، وتسرى
في الدنيا بأسرها ؛ وكان بديعاً أن يحيا المرء في هذه الآونة من الزمن ليشهد هذا
الميلاد الجديد ويهب حياته كلها له ، فلا عجب إذا أنا مضيت في أعماق جوانحي
أربط مصيرى باسم الثقافة والأدب والفن بمصير ذلك الاتجاه .

وقد أعلنت بعد أربعة أيام من وصولي إلى روسيا في جفازة جوركي في الميدان
الأحمر بموسكو أن مصير الثقافة مرتبط في تقديري بمصير الاتحاد السوفيتي ، وقلت
إن الثقافة قد ظلت زمناً طويلاً وقفاً على الطبقة الممتازة ، وكان تطورها يقتضى أوقات
فراغ ، فكانت فئة من المجتمع تكذب وتكذب ، لكي يتيسر لعدد يسير من البشر
الاستمتاع بالحياة ، بينما كانت حداثق الثقافة ، ورياض الفنون والآداب ملوكاً خاصاً
مسوراً محتجزاً لا أمل في دخوله إلا لأذكي الأذكى ، وأشد المستنيرين الذين وجدوا
في الطفولة ما يقيمهم شر الفاقة ، وتيسر لهم من الحداثة ما يحميهم ألم الحاجة والحرمان .
ولست أنكر طبعاً أن الثقافة لا تقتن حتماً بالثراء ، وأن أمثال مولير وديدروه وروسو
في الأدب الفرنسي قد نهضوا من عُرض الأمة ، وارتفعوا من صفوف الشعب ،
ولكن قراءهم كانوا أهل نعمة ، وإخوان لهم وفراغ . وحين هزت «ثورة أكتوبر»
جماهير الشعب الروسي وأيقظتهم من رقدتهم قال القائلون في الغرب ، واعتقد الناس
في كل مكان ، أن هذه الموجة الدفافة ستكتسح الفنون جميعاً ، وذهبوا يتساءلون
قائلين ألا يصبح الأدب خطراً بالغاً إذا هو لم يعد بعد اليوم مزية تختص بها طبقة
دون سائر الطبقات ؟؟ وكان الجواب عن هذا الاتهام هو أن الكتاب في مختلف
ربوع العالم ودوله إنما اتحدوا وتضامنوا بدافع الاعتقاد الجازم بأنهم يؤدون واجباً
لا بد منه . ولسنا ننكر أن الثقافة مهددة بخطر ، ولكن هذا الخطر ليس آتياً من
هذه القوى الثائرة المتمردة ، بل هو بالعكس آت من جانب الذين يحاولون إخضاع
تلك القوى ، وتحطيم بأسها ، وخضد شوكتها ، فإن الحرب هي أشد خطر يهدد الثقافة ،

تلك الحرب التي تدفعنا إليها العوامل القومية التي توحى بها الكراهية ، وبيعها الحقد والحسد ؛ وقد أصبح من واجب تلك القوى الثورية الدولية العامة أن تحمى الثقافة من الأذى ، وترفع من شأنها ، وتعزز مكانتها في هذا العالم ؛ فلا غرو إذا أنا اعتقدت أن مصير الثقافة مرتبط بمصير الاتحاد السوفيتي ، وأن هذا المصير سيجد الدائنين عنه والمدافعين ...

كان هذا الخطاب الذي ألقيته يومئذ في بداية زيارتي لروسيا ، بل في الوقت الذي كنت لا أزال أعتقد ، أو بالحرى كنت لا أزال من «السذاجة» بحيث أعتقد ، أنه في إمكان المرء أن يتباحث بجد في مسائل الثقافة مع الروس ؛ وليتقى أستطيع البقاء على اعتقادي ذاك ؛ فإذا كنت في بداية الأمر قد أخطأت فمن السداد أن أعترف بخطئي وشيكا ، لأنني مسئول عن أولئك الذين قد يضلهم رأيي في بلادى ويصور لهم الباطل في صورة الحق فلا يصح أن يعنى من الاعتراف بالخطأ زهو ، أو تحول بيني وبينه كبرياء ، وإن كنت منهما المقل على كل حال ، فإن هناك مسائل أهم كثيراً من شخصي ، ومن كبريائي ، ومن الاتحاد السوفيتي ذاته ، ما دام مستقبل البشرية ومصير الثقافة في خطر .

وبدا لي كل شيء عجباً في طوفى بروسيا وتنقل في أرجائها ، فقد استطعت من اتصالي المباشر بالعمال في مصانعهم ومعاملهم ومراكبهم الرياضية أن أنعم بلحظات سرور بالغ ؛ ولست أعرف بلداً يسهل فيه توثيق العلاقات بين الناس قدر سهولته في الاتحاد السوفيتي ، ولا يروح أعرق ولا أشد حرارة منها فيه ؛ فإن الصداقة سريعة التكوين ، حتى لتكفي النظرة الواحدة أحياناً لإيجاد أسبابها ، وتمهيد مطالبتها ، ولا تلبث أواصر العطف والمودة أن تنمو وتتعزيز ؛ وأعتقد حقاً أن المرء لا يستمتع في أى بلد آخر بمثل ما يستمتع به في الاتحاد السوفيتي من الشعور بالروابط البشرية ، والحب الأخوي ، والانبعاث السريع إلى المودة والألفة ؛ حتى لقد أحسست جوارحي تستفيض ، والدموع تظهر من عيني من فروط السرور — دموع المودة

والحب . وكان الأطفال الذين شاهدتهم في المعسكرات حسنى التغذية والتعهد ، وبدوا
لعمري معززين مكرمين سعداء ، تفيض أعينهم ثقة وطمأنينة وأملا ؛ وتجلت لى هذه
السعادة المشرقة ذاتها على وجوه العمال فى المراكز الرياضية حيث يجتمعون فى المساء
بعد الفراغ من عملهم ، وقد أصبح لكل مدينة فى روسيا اليوم مركز رياضى وروضة
أطفال ؛ وشاهدت ، كما شاهد خلق كثير غيرى من الزائرين ، معامل وأندية وميادين
العباب نموذجية ، حتى لقد عجبت لها العجب كله ، وسررت أن أجد الإعجاب بكل
ما حولى مستولياً على نفسى ، وأن أبعث سواى على مشاركتى فيه وإقناع الآخرين
به ، فإذا أنا استنكرت اليوم كل ما كنت بالأمس مأخوذاً به ، فلا بد من أن تكون
هناك أسباب قوية حملتني على هذا الاستنكار .

ولم أبدأ أرى الأشياء على وضوحها إلا حين تنحيت عن الاستعانة بوسائل النقل
الحكومية ومضيت أتنقل وحدى فى البلاد لكي أتمكن من الاتصال رأساً بالشعب ،
وكنت قد قرأت من الكتب الماركسية ما يمكننى من معرفة دخائل روسيا وخوافيها ،
ولكنى كنت قد اطلعت أيضاً على عدة روايات عن رحلات ملأى بالمدائح ومعاذير
كثيرة مفعمة حماسة وشفاعة لما فيها من نقص ، وكان وجه الخطأ فى مسلكى ونصرفى
من أول الأمر أننى كنت أصدق كل ما أسمع من المدح ، وأن كل ما كان من الجائز
أن يفتح عينى ويبصرنى بالواقع كان يقال لى بلبهة الحقد أو فى صيغة النعمة والاستياء ،
فكثيراً ما يأتى أصدقاء الاتحاد السوفيتى أن يروا فيه ما يسوء ، أو على الأقل
يأبون الاعتراف به ؛ ولكن الحقائق كثيراً ما تقال أيضاً بحقد ، والأكاذيب بحب
ولطف . وأنا رجل رُضنتُ خواطرى على أن أشدد وأدقق ما أمكن حيال الذين
أحب دائماً أن أرضى عنهم ، ومن رأى أن الاكتفاء بسماع المدح وحده ليس بالوسيلة
المثلى للتعبير عن الرضى ، والتدليل على الارتياح ؛ وأعتقد أنه من الخير للقضية التى
يمثلها الاتحاد السوفيتى أن أتحدث عنه بغير تكلف ولا ادعاء ولا تحفظ واعتبار ،
وليس فى نفسى شخصياً ما أشكو منه خلال رحلتى فى بلاده ، رغم كل تلك التعليقات

الناقمة الساخطة التي انتحلت فيما بعد لتفنيد ما قلته وتسفيه ما نشرته ، من وجوه النقص
 ومواضع الانتقاد ، ورغم قولهم إن انتقادى إنما جاء نتيجة استياء شخصى وتذمر خاص ،
 وهو قول جد سخيف وأبعد ما يكون من الواقع ، فلم أنتقل يوماً فى حياتى بذلك
 الترف الذى أحاط فى روسيا بى ، ولا كنت يوماً أوفر متعة ، وأكثر تكريماً ؛ ففى
 كل مكان وجدت أخم السيارات لمركبى ، وإذا سافرت فى القطار خصصت مركبة
 لمنزلى ، وأفردت لى القنادق أبدع الحجرات ، وقدمت لى أطيب المآكل والوجبات ،
 ولم يكن يقدم لى إلا ما هو أبدع وأخم وأطيب ، والله أى استقبال كنت فى كل موضع
 أجده ، وأية حفاوة تلك التى لقيتها أينما بزلت ؛ فقد كنت أبداً موضع التكريم
 والترحاب ، وكان القوم يرون كل هذا قليلاً فى حقى ، ويسيراً لمثلئى ؛ حتى لقد عدت
 وأنا حافل الذاكرة بآيات الحفاوة التى شهدتها والخطوات التى ظفرت بها ؛ ولكنها
 مع ذلك ظلت تذكرنى أبداً بالامتيازات والفوارق التى كنت أرجو أن أرى
 « المساواة » فى مكانها ، والمعدلة قد حلت فى روسيا محلها ؛ وحين هربت من كبار
 الموظفين ومضيت أختلط بالعمال تبين لى أن أكثرهم يعيشون فى أشنع صنوف الفاقة
 فى الوقت الذى كنت أجلس فيه إلى مأدبة فاخرة كل ليلة ، وأرى الخوان حافلاً
 بالأطياب ، ومختلف « المشهيات » حتى لتكفى لإشباع النفس قيل أن يبدأ الطعام ذاته ،
 وهو عشاء من ستة ألوان متنوعة ، يستغرق المرء فى الجلوس إليها عدة ساعات ، ولم
 أترك ولا مرة واحدة حراً أدفع قائمة حساب ، وليس فى إمكانى أن أقدر نفقات هذه
 المآدب ، ولكن صديقاً لى أوتى علم الأسعار فى روسيا أنبأنى أن الشخص الواحد
 فى هذه الولاىم يكلف مائتى روبل أو ثلثمائة ، بينما كان العامل الواحد من العمال الذين
 لقيتهم لا يتقاضى من الأجور أكثر من خمسة روبلات فى اليوم ، وهو القانع بالخبز
 الأسود والسبك الجفف ، ولم تكن فى مقامنا بها ضيوفاً على الحكومة فى الواقع ، وإنما
 كنا فى ضيافة مؤسسة غنية تدعى جمعية المؤلفين السوفيتيين ، وكلما فكرت فيما أنفقت
 علينا ، وكنا ستة أضياف ، يصحبنا الأدلاء والمشفرون ، ويحبالنا مثل عددنا من كبار

الموظفين ، أدركت أنهم كانوا ينتظرون منا لقاء المال الذي أنفقوه علينا غير ما وجدوه ، وأظن أن بعض هذا السخط الذي أبدته جريدة « البرافدا » مرجعه إلى هذا الكفران الذي كان منى بصنيعهم .

ولا ريب في أنه كان من الطبيعي أن يحسنوا وفادة الضيف ما استطاعوا ، وأن يشهدوه على أحسن ما في بلادهم ، ولكني مع ذلك ذهلت وعجبت لما لمست من الفارق البعيد بين هذا الوجه من الخير الذي يستمتع به الأكابر ، وبين نصيب الكافة وحظ العامة ، أو هذا البون الشاسع بين اللناغم والامتيازات ، وبين الفاقة البالغة ، والفقر المدقع ؛ فلا غرو إذا كان إعجابي بالاتحاد السوفيتي والعظام التي حققها هو الذي سيجعل انتقادي شديداً ، ومؤاخذاً قاسية ، لما كنا نرتقبه منه ، وما حملنا على التعلل به ، والأمل في بلوغه ؛ فقد كنت مطمئناً إليه ، معتمداً عليه ، فلم يكن أشد ما فجئني أن أرى الهدف لم يستكمل ، بل أن أشهد فيه كل ما كنت أجده في وطني وأحاول منه هرباً ، تلك الامتيازات التي كنت أرجو أن أراها ملغاة إلى الأبد .

ومن ذا الذي يستطيع يوماً أن يقول أي بلد كان الاتحاد السوفيتي في تقديرى لقد كان عندي أكثر من مجرد بلد مختار ، وقدوة مثلى ، وباعث وحي ، ومهبط إلهام ... كان عندي الأمل الذي كنت أحلم به أبداً ، والضالة التي كنت أنشدها ، كان شيئاً تتجه إليه لهفتي ، وتهفو إليه فكرتي ، بلداً كنت أنصور أن المثل الأعلى يسير فيه قدما نحو التحقيق .

ولكن كان لزاماً على الناس مع ذلك كله أن يذكروا دائماً أنه كان في دور البناء ، ومرحلة التكوين ، وأننا حاضرون مخاض المستقبل ، ومولد الغد المرقوب ، فلا يخلو الاتحاد السوفيتي من محاسن ومساوئ ، أو قل من أحسن الحسن ، وأسوأ السوء ، حتى ليتنقل المرء فيه من الإشراف البالغ إلى الإظلام الشديد ، والعقمة الدامسة ، وهو في نقلته هذه الحزين القلق المروع ، وقد تم له أن ينجز الشيء الكثير ، فملاً به صدورنا اغتباطاً ، وهذا هو بلا شك ما جعلني أشدد وأدقق ، فقد بدا لي من أول

الأمر، أنه قد تخطى أشد العوائق صعوبة فانبعثت نفسى بكل جوارحها إلى المساهمة معه والتفانى فى نصرته ، كأنما قد ارتبطت به باسم البشرية المعذبة على بكرة أبيها ، وأحسست أننى قد اندججت بكليتى فيه ، فلم أفكر مرة فى أنه قد يبنى بالإخفاق ، أو يعاجله الفشل .

وكان إعجابى موجهاً بنوع خاص فى روسيا إلى الانبعاث غير المألوف نحو التعليم والثقافة ، ولكن الحزن أن التعليم الذى يتلقاه الشعب لا يتعدى تلقينه الزهو والتفاخر بالحاضر والإيمان المطلق بالاتحاد السوفيتى ، وأن الثقافة إنما ترمى إلى هدف واحد ، وهو تمجيد هذا الاتحاد والتسبيح بمجده ؛ فهى ليست ثقافة نزهة مجردة من الهوى ، ولا هى تثقيف للعقول ، وترىبة للمسكة الحكم على الأشياء ، فإن النقد لا وجود مطلقاً له فى تلك البلاد . ولست أجهل أنهم يجعلون من انتقاد أنفسهم استعراضاً ، ويتظاهرون به تظاهراً ، حتى لقد اعتقدت فى بداية الأمر ، ورجوت أن يودى هذا النزوع إلى نتائج طيبة إذا هو طبق التطبيق الصادق الصحيح ؛ ولكنى لم ألبث أن أدركت أن النقد فى روسيا لا يتعدى البحث فيما إذا كان هذا الأمر أو ذلك متفقاً مع سياسة الحزب أو غير متفق لأكثر ولا أقل ، لأن هذه السياسة لا سبيل إلى مناقشتها أو انتقادها ، وإنما كل ما فى الأمر لا يتجاوز البحث فى مدى اتفاق أية فكرة أو رأى أو تصرف مع تلك السياسة المقدسة أو مبالغ اختلافها معها ، وهى حال ذهنية ليس ثمة أخطر منها على الثقافة الصحيحة ، ولا أشد أذى لها ؛ فلاغرو إذا ظل أفراد الشعب فى جهل تام بكل ما يدور خارج بلادهم ، بل أدهى من ذلك وأمر ، أن يقال لهم إن كل ما فى الخارج دون مثيله فى الداخل بمراحل ؛ والعجيب أيضاً أنهم شديداً الاهتمام برأى الأجانب فيهم ، مع قلة اكترائهم بما يجرى وراء حدود بلادهم ، وأكبر ما يعينهم معرفته هو هل ترى الناس فى الخارج معجبون الإعجاب السكافى بهم ؛ كما أن أخشى ما يخشونه ألا يعرف الأجانب الشئ الوافى عن مواهبهم وكفاياتهم لأنهم لا يطلبون منهم معلومات أو وقائع عن مشاهداتهم فى ربوع بلادهم ، بل يطلبون مديحاً ، ويسألون ثناء ، ويقتضون تنويرها وتمجيداً .

وقد اتفق لى أن زرت مركزاً جماعياً نموذجياً من أبداع المراكز التى من هذا القبيل فى الاتحاد السوفيتى وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً ، ودخلت عدة بيوت فيه ، وليتنى أستطيع أن أصور لكم فكرة عن الأثر الأليم الذى أحدثته فى نفسى مشهد كل بيت منها ، ذلك الأثر المتشابه العام الذى قام فى خاطرى ، وأعنى به انتفاء الحرية الفردية كل الانتفاء ، والخلو التام من مظاهر الاستقلال الذاتى ، وفى كل بيت منها قطع الأثاث القبيح ذاته ، وصورة ستالين بعينها ولاشئ غير ذلك ؛ فلاحلية أخرى ، ولا زينة من الزينات ، ولا متاع خاص من الأمتعة ، بل يصح تبادل بيت بآخر دون أن يشعر الساكن بأى تغيير ، وكان للسكان بالطبع أيضاً مكاناً للتسلية المشتركة ، أو ندوة واحدة للهو والرياضة ، فكانوا ينفرون من بيوتهم لأنها أشبه شئ بالمغارات وأدنى إلى الكهوف ، ملتجئين الترويح عن أنفسهم فى « النادى » ، وما من شك فى أنه من السهل توفير السعادة لهم بتضحية فرديتهم ، من طريق « التماثل والتوحيد » ولكن هل يمكن أن يسمى فقدان « الفردية » أو هذا « التماثل العام » ، تقدماً ، وهو الآن فى روسيا الاتجاه السكى ، والهدف المنشود .

لست أعتقد ذلك ، وإن كان المسلم به فى روسيا السوفيتية أنه ليس ثمة غير رأى واحد فى أى موضوع مهما يكن شأنه ، أو وجه الحكمة منه ، وأن هذا الرأى هو الصحيح ، حتى لقد دأبت جريدة « برافدا » على أن تبين للشعب فى كل يوم ما هم بحاجة إلى معرفته ، وما يتحتم عليهم تصديقه ، أو التفكير فيه ، وقد أدهشنى ألا أرى فى الصحف الروسية حين أقمت بتلك البلاد أى ذكر للحرب الأهلية فى أسبانيا التى كانت يومئذ مشارق بالغة فى الأوساط والأندية الديمقراطية ، وقد شرحت دهشتى الأليمة للمترجم الذى كان يصحبنى فلاحظت عليه بعض الارتباك لسؤالى ، ولكنه شكر لى ملاحظتى وقال إنه سينقلها إلى الجهة المختصة . وفى مساء اليوم ذاته جرت على العشاء العام الذى أقيم لنا خطبة كثيرة ، ولم نكد ننتهى من شرب نخب الأضياف والمضيفين جميعاً ، حتى نهض أجد الذين جاءوا معنى من الكتاب

والأدباء ، وهو « جف لاست » واقترح بالروسية أن نشرب في صحة الفوز الذي أحرزه الحمر في الجبهة الأسبانية ، فصفق الجمع وهم مرتبكون قليلاً تصفيقاً ضعيفاً ، وهتفوا في جفوة وفتور ، واقترحوا على الأثر أن نشرب نخب « ستالين » . ولما جاء دورى رفعت رأسى مقترحاً نخب السفهاء السياسيين في ألمانيا ، فقوبلت هذه الفكرة بهتاف متواصل وتصفيق عاصف ، فكان الرد عليه شرب نخب « ستالين » مرة أخرى ؛ فقد كان الجمع قد لقنوا من قبل الاتجاه الذى ينبغى أن يتخذوه إزاء ضحايا « الفاشية » في ألمانيا فلم يترددوا في الهتاف عالياً حين ذكر الأمر لهم ؛ أما عن المسألة الأسبانية فلم تسكن جريدة « البرافدا » قد أعلنت بعد ماذا ينبغى أن يكون الموقف إزاءها ، ولهذا لم يجرؤ القوم على إقرار شىء لم ينبهوا إلى الوجه الصحيح فيه ولم يعرفوا الاتجاه الذى ينبغى اتجاهاه بسبيله .

ولم تمض بضعة أيام أخرى ونحن في « سياستبول » حتى شعرنا بموجة عطف مكتسحة تنبعث من الميدان الأحمر في موسكو ، وتغمر من طريق « البرافدا » جميع أنحاء البلاد .

وهكذا ألفت عقول الناس في روسيا هذه الوحدة العامة حتى أصبح الامتثال لها طبعياً مسهلاً لا عناء فيه ، وأصبح المتحدث إلى روسى واحد كالمتحدث إلى أهل روسيا أجمعين ، وهكذا ألفت النفوس هذه الحالة حتى لا أعتقد أنها أثر من الرياء أو نفاق المنافقين .

ولم يعد اختفاء « الرأسمالية » من روسيا على العمال فيها بخير أو نفع ، ولم يسق إليهم الحرية التى كانوا لها ناشدين ، فلتدرك الطبقات السكادحة في خارج الاتحاد السوفيتى هذه الحقيقة كل الإدراك . ولست أنكر أنهم لم يعودوا ألعوبة في أيدى أصحاب رؤوس الأموال وحملة الأسهم والسندات ، يستغلونهم كيف يشاءون ، ولكن الواقع أن الاستغلال ، لا يزال قائماً ، وإنما أصبح مقروناً بأعجب الوسائل وأمكرها وأشدّها التواء بحيث لم يعد القوم يعرفون من هم الملمون فيه ومن هم الذين

يؤاخذون عليه ، فإن معظم أفراد الطبقة الكادحة يعيشون تحت مستوى الفاقة ،
بينما أتاح أجورهم التي لا تسمن ولا تغنى من جوع الفرصة لزيادة مكاسب العمال
« الممتازين » أو معاشر الخانعين المسلمين بكل ما يطلب منهم ، القائلين « نعم » في
كل شيء ، ولا يسمع المرء إلا الدهشة من فرط الاستخفاف الذى بيديه أهل السلطان
نحو الذين من دونهم والخنوع والذل اللذين يظهرهما هؤلاء لأولئك ، أو دعنى أقل
الذين يبيدهما الفقراء ومعاشر المسكودين ، وأنا أسلم جداً بأنه لم تعد في روسيا طبقات
ولا فوارق ، ولكن الواقع أن فيها فقراء ، بل أنهم فيها السكثرة البالغة ، وكنت
أرجو ألا أجد منهم أحداً ، أو بعبارة أصح ، لقد ذهبت إلى روسية لكيلا أجد للفاقة
فيها أثراً ... ولكن الفاقة هناك يعبس في وجهها ، وتقابل بالإعراض والتجهم
والاشتمزاز ، حتى ليخيل للمرء أنها الفاقة الأثيمة الناشئة في أحضان الإجرام ، فلا
تثير شفقة ، ولا تبعث على العطف والإحسان ، بل ينظر إليها بعين الإزراء والاحتقار ،
وما أولئك الذين يتراءون متكبرين مزهوين إلا الذين اشتروا كبرياءهم وتوفيقهم بشمن
هذه الفاقة العامة ، وعلى حساب هذا الفقر الشامل .

وليس معنى هذا أننى أعارض في تباين الأجور ، بل بالعكس أننى مقر بوجوده ،
معتقد أن لا مفر منه ، ولكنى أرى أنه من المتعين إيجاد وسيلة للتخفيف من حدته ،
والتقريب بين حدوده وفتاته ، وأخشى أن يكون معنى ذلك كله الرجوع إلى نوع
من « البرجوازية » العالمية المرفهة أو بعبارة أخرى ، الشبيهة بالبورجوازية « المحافظة »
التي كانت بالأمس قائمة ، والتي تمثل إلى حد بعيد « البرجوازية » الصغيرة ، التي
نشاهدها في بلادنا ، لأنى أرى الأعراض والبوارد فعلاً ظاهرة ؛ ولست أشك في أن
جملة عيوب « البورجوازية » وشروها ومساوئها لا تزال كامنة في نفوس فريق كبير
من الروس ، رغم الثورة الأخيرة ، لأن الإنسان لا يمكن إصلاحه من الظاهر فحسب ،
بل ينبغى أن يكون الإصلاح أيضاً من القلب ، فلا عجب إذا أحسست قلقاً شديداً
كلما رأيت الغرائز البورجوازية تجد تمليقاً وتشجيعاً من الاتحاد السوفيتي ، وشاهدت

الأعشبة القديمة تعاود الظهور ، ولحت بوادر نوع جديد من « الأرستقراطية » أخذ يطفو على وجه الحياة ، وإن لم يكن يمت كثيراً إلى نظام « الطبقات » القديم ، ولكنه أرستقراطية على كل حال . وليتها كانت أرستقراطية « التماثل » والتشابه والحاكاة . ومن يدري فلعلها متحولة بعد جيل أو نحوه إلى أرستقراطية « المال » .

فهل ترون مخاوفي مبالغاً فيها ...؟؟

أرجو مخلصاً أن تكون كذلك ...

ولما زرت سوتشى Sotchi تولانى العجب البالغ من كثرة المصحات « والاستراحات » التى كانت يومئذ تشيد للعمال فيها ، فقد بدت لى بهجة للغاية ذات حدايق فاخرة وحمامات خاصة متناثرة على الشواطىء الرملية . ولا ريب فى أن تخصيص هذا المظهر من الترف لمعاشر العمال عمل جدير بالثناء . ولكن الواقع أن الذين يستمتعون به هم فى الأغلب من أهل الطبقة الجديدة الممتازة .

ولست أنكر أن الذين يحتاجون إلى الراحة والعلاج مفضلون على سواهم ولكن على شرط أن يكونوا من المقربين إلى سياسة الحزب المؤمنين على خطه وبرامجه ، وإنه لحزن أن يتبين المرء فى ذلك الموضع أن الذين يستخدمون فى بناء تلك الدور لا يتقاضون غير أجور صغيرة ولا يسكنون غير معسكرات حقيرة مظلمة ..

وإذا كنت معجباً الإعجاب كله بالاستراحات التى رأيتها تبني فى « سوتشى » فإذا عسى أن أقول عن الفندق الذى نزلت به فى « سينوب » المجاورة لسوكوم .

فقد كان يفوق بمراحل كل بناء عداه حتى لا يصح أن يقارن إلا بأفخم الفنادق فى الخارج وأوفرها راحة وترفاً ونعماً ، فقد كان بكل غرفة فيه حمامها وشرقتها ، وكان الأثاث من أبداع الرياش شائناً والطعام لا يقل عن مثله فى فنادق الدرجة الأولى فى أى بلد كبير .

وكانت بحواره مزرعة نموذجية تتولى إمداده بإنتاجها وتحوى مرابط للخيل ، ومداود للبقر وزرائب للخنازير وتقايفيص للدجاج مزودة بأحدث الأجهزة .

ولكنك لا تكاد تجتاز النهر الذي يقوم هناك بمثابة حدود المزرعة حتى يواجهك صف من الأكواخ الحفيرة يعيش في كل غرفة صغيرة منها أربعة أشخاص لقاء أجر يقدر بروبيتين في الشهر عن كل ساكن .

ولئن كانت دكتاتورية الطبقة الكادحة التي طبلوا لها كثيراً وزمروا لم تتحقق بعد ، فلا تزال ثمة دكتاتورية أخرى من نوع ما ، دكتاتورية و « البيروقراطية » السوفييتية ، ومن المتعين على المرء أن يدرك هذه الحقيقة ولا يدع الظواهر تخدعه ، فإن هذه النتيجة لم تكن الضالة المنشودة ، والشئ المأمول ، بل يصح لك أن تقول إن هذا هو آخر شئ كان منتظراً ، حتى لم يعد العمال يظفرون بحرية انتخاب ممثليهم للدفاع عن مصالحهم المهددة ، فإن الانتخاب الحر سواء منه العلني والسري ، سخرية وتزييف ، إذ ليس للناخبين غير حق واحد ، وهو انتخاب الذين انتخبوا مقدماً لهم وعينوا لهم تعييناً ، وهم يحددون وتكم أفواههم ويشد منهم الوثاق ، حتى كادت المقاومة تستحيل . وقد أجاد ستالين « اللعبة » وأصبح الشيوعيون في جميع بقاع العالم يهتفون به معتقدين أنهم قد كسبوا بقيام الاتحاد السوفييتي على الأقل نصراً مجيداً ، وأصبحوا يسمون الذين لا يوافقونهم خونة وأعداء الشعب ، وإن كان هذا قد أدى في روسيا ذاتها إلى « خيانة » من نوع جديد . فإن الوسيلة المثلى للظفر فيها بالترقيات هي أن يصبح الفرد « مخبراً » فإن كنت فيها كذلك ، فقد أمنت شر البوليس ، وظفرت بحمايته ما دمت في خدمته . ويوم تضع قدمك في هذا الطريق السهل المنحدر لن تنفع صداقة ، ولن يجدي ولاء . في منعك من الإسفاف أو إمساك قدميك من التردى ، بل لن تلبث أن ترى نفسك منحدرًا إلى الدرك الأسفل ، هابطاً الوهدة السحيقة بغير إرادة أو نضال . وكانت النتيجة أن أصبح كل امرئ مسترياً بالآخر ، حتى لتؤدي أبسط الملاحظات . ولو من أفواه الأطفال والصبية . إلى الدمار ، وتعجل بالخراب ، فلا غرو إذا رأيت كل إنسان في حذر متوجساً لا يطمئن إلى أحد . ويخشى أن يذهب فريسة الشبهات .

وقد سبق لى خلال مطافى فى روسيا مشاهدة المدينة النموذجية « بولشيفو »
الفريدة فى نوعها ، لأن جميع سكانها من قدامى المجرمين ونزلاء « الليمان » من
سطنائين ونشالين وقتلة وسفا كين ؛ وكانت قد بدأت كاستعمرة صغيرة يقضى فيها
الحكوم عليهم مدد عقوباتهم اعتقاداً بأن المجرمين ليسوا إلا مرضى أو مصابين
باختلال عصبى يصح علاجهم بالرفق والعطف والرياضة النفسية وإعادةتهم إلى الحياة
الطبيعية ، حتى يصبحوا مواطنين صالحين راضين ، ولكنها لم تلبث أن نمت
وأصبحت مدينة زاهرة لا تحوى مصانع فحسب ، بل تقوم فيها المكتبات العامة
والمصحات والأندية .

وقد لاحظ لى عند زيارتها من أحسن التجارب التى قامت فى الاتحاد السوفيتى
ومن أنبل أفكاره ومشروعاته ، ولكنى تبينت فيما بعد ما لم أكن به من قبل عليا ،
وهو أن جماعة « الخبزين » الذين سبق لهم أن خانوا زملاءهم المساجين وأبلغوا عنهم
السلطات ، هم وحدهم الذين يعطون « امتياز » المقام فى هذه المستعمرة « النموذجية »
فهى وقف عليهم لا يشاركون فيها أحد ...

فهل يمكن أن تنحدر الأخلاق إلى هذا الدرك ، وهل يمكن أن تصل الخسة
الإنسانية إلى هذا الحد .. ؟؟

وقد بدا لى أن العامل الروسى فى المصنع مربوط بمصنعه ، كما يربط العامل
الزراعى بالمزرعة الجماعية سواء بسواء ، فإن هو يوماً أراد أن يترك عمله لسبب خاص ،
كأمل فى تحسين أحواله ، أو تعلل على الأقل بتخفيف بلاء عيشه ، أو من رغبة فى
النقلة والتغير لا أكثر ولا أقل ، فقد استهدف لخطر بالغ ، وهو ألا يجد عملاً ما ، فى
أى مكان آخر ؛ لأنه إنما يشغل فى مصنعه كسجين ، بل إن هو ترك المصنع وبسقى فى
المدينة ، حُرِم من المسكن الذى يعطيه عمله فى المصنع الحق فيه ، ومن أشد المشقة عليه
أن يجد مسكناً سواه ، مع أنه كان يدفع أجر المسكن الذى أعطى إليه ، وسيتبين له
أيضاً أنه بخروجه من المصنع سيخسر جزءاً كبيراً من أجوره ومجموع الأرباح المتجمدة
له فى المزرعة الجماعية .

أما إذا رأت السلطات ذاتها أن لا مندوحة من نقله فلن يستطيع رفض النقل ، فلا هو حر في الذهاب حين يشاء ولا في البقاء حيث تتركز علاقاته وصلاته ومصالحه . وإذا هو لم يكن من أعضاء الحزب ، فسوف يتخطاه من هم أعضاء في الترقية ، ولكن ليس كل من يريد الظفر بالعضوية يعطاها ، فضلا عن أن كل إنسان لم يؤت مطالبا من الملق والدهان والرياء والخنوع .

ولكن إذا حاله الخط وفاز بعضوية الحزب فلن يستطيع أن يستقيل منها إلا إذا رضى لنفسه فقدان جميع الامتيازات والمنافع والفوائد التي تعود عليه من عمله ، وقد يتعرض أيضاً للانتقام منه والتشفي والمراقبة .

وهم يتساءلون قائلين لماذا يفكر أحد في ترك الحزب مادام الانتماء إليه يتيح له منافع مادية كبيرة لقاء مجرد الطاعة والإذعان ؛ بل لعمر الله لماذا يريد أن يفكر لنفسه ويستقل برأيه مادام الإجماع قائما على أن كل شيء على أتم مايرام ، وخير مايرجى ... ؟ إن تفكير المرء لنفسه استهداف للاتهام بأنه يشتغل ضد الثورة ، فإن كان عضواً في الحزب تعرض للطرد ، ومن يدري ، فقد يرسل إلى سبيرا .

وأدهى من ذلك وأنكى أن هذا العصف بالبشرية ، أو هذا التعقب لما فيها من خير وفضيلة يجري غير ملحوظ من أحد ، وأن الذين يخفون أو يحملون على الاختفاء ، هم من أروع الشجعان وأشد الناس حرصاً على استقلالهم ، ومن بين الذين برزوا من عرض الجماهير وارتفع ذكرهم من صفوف الكافة ، وأبوا الامتثال وأنفوا من التفاهة والصغار ، وأصروا على أن يعيشوا كرماء على أنفسهم ، وأن هؤلاء المبعدين وهم ألوف ، ممن يشق عليهم أن يحطوا ويتمنوا الكرامة البشرية ، وينحنوا ركباً ساجدين للسلطان ، يخيّل لي أني أسمعهم في الظلام المحيط بي ؛ وإن صيحات أولئك الضحايا الذين لا عداد لهم لتوقظني من هجمتي في صميم الليل وهدأته ، وإن الصمت الذي أرغموا على التزامه هو الذي يحفزني اليوم إلى الكلام ، والتفكير فيهم هو الذي يدفعني إلى كتابة هذه السطور . ولشد ما يروح عرفانهم في خاطري قدراً لو أن كلماتي هذه تبلغ

أسماعهم ، ولشد ما يكون عذوبة في نفسى وأثراً ، وأزكى ما يلوح في أنفى عطراً ، من
أى بخور تحرقه لى « البرافدا » ، وأى ند ترسل لى أنفاسه الزكية ؛ فلست أجد أحداً
يتوسط لهم ، ولا أرى لهم من ولى ولا نصير ، فإن المسئولين عن العدالة والحرية
ملجئون لا يفوهون ببنت شفة ، وجماهير الشعب عمى الأبصار لا ينظرون .

وإذا رفعت صوتى فى سبيل الذود عنهم ، قيل لى ، باسم كارل ماركس أيضاً ،
إن إجراءات الإبعاد والنفى ، وفاقاة العمال ، وإلغاء حرية الانتخاب ، ليست سوى تدابير
مؤقتة ، وهى الثمن الذى لا مفر من دفعه لقاء الخير الذى أصبناه من ثورة ١٩١٧ .

ولكن الواقع أنه من المؤلم كل الإيلام أن يرى المرء ذلك الخير بمختلف ضروبه ،
ذلك الخير الذى اشتري بأشد الآلام ، واقتنى بأجفع المآسى ، ذاهباً على هذا النحو
مبدداً ، لا يجد حريصين عليه ؛ وقد آن للقوم أن يفتحوا أعينهم على هذه الخيبة
المريرة التى انتهت إليها كل تلك الآمال السكبار التى كنا نرجوها مخلصين . وكان من
الجاثر أن يتسامح المرء فى انتفاء كل أثر للحرية الشخصية ، وحرية التفكير ، فى روسيا
اليوم ، لو أنه لمس فيها دليلاً على أن سير التقدم للمادى مطرد تدريجاً ، أو بخطوات
بطيئة ؛ ولكن العكس هو الواقع ، بل الحقيقة أن القرائن قائمة على أن شر أنواع
الرأسمالية وأسوأها أخذت تعود إليها ، وتستقر فى ربوعها ، وأن تلك البورجوازية
الصغيرة التى سبق لى التحدث عنها ، والتى أخشى كثيراً من تفاقها ، هى فى رأى ،
مناهضة للثورة أشد المناهضة ، وإن كان ما يسميه القوم كذلك ليس فى الحق غير تلك
الروح الثورية ذاتها ، أو ذلك التيار المتدفق عينه ، الذى اكتسح فى البداية الجسور
المتداعية التى كانت تقوم فى عهد القيصرية البائدة ؛ وليس شئ أحب إلى النفس من
أن تعتقد حقاً أن الحب لا يزال يملأ منهم القلوب إلى حفاًفسيها ، والرغبة فى استتباب
العدالة لا تزال مكينة منها ؛ ولكن للأسف لم تسكد الثورة بتحقيق ، حتى توارى
ذلك كله وتلاشى ، وأصبحت تلك الرغبة الكريمة التى كانت تلهم نفوس الثائرين
الأولين ، مجرد آلات صَدِئَة لم تعد نافعة ولا صالحة ، بل الآن وقد استقرت الثورة ،

فقد بدأت تتنازع الأمر والعدالة ، وتصطرع مع الحرية والمساواة ؛ وأضحى الذين لا تزال الروح الثورية مشتعلة في جنوبهم ، والذين يعدون هذه الامتيازات والترخيصات المتعاقبة المتوالية انحرافاً عن المبادئ ، وتهاوناً بالأسس ، لا يجدون من أحد توقيراً ، ولا يصيبون احتراماً ، بل قد يقضى عليهم ، ويتخلص في النهاية منهم ... أفليس من الخير إذن الكف عن المغالطات ، والمباحكات ، والاعتراف بأن وحى الثورة قد انقطع ، ولم يبق مطلوباً من الناس غير الطاعة والخضوع والإذعان ؛ بل أصبح المطلوب هو مجرد التأمين على كل ما تفعله الحكومة أو تأتية ، وأمسى أقل اعتراض عليها أو انتقاد لها يجر صاحبه إلى أقسى العقاب ، ولا يلبث أن يقضى عليه القضاء الأخير ؛ وبات الناس من أكبر كبير فيهم إلى أصغر صغير في هذا البلد الذي تغيرت قواعد الاجتماع فيه يمتنون أشد الامتihan ، ويساق بهم مساق الأنعام ، فان أبدى أحد منهم استقلالاً برأى ، أو انفراداً بعمل ، أحيط به وأبعد إبعاداً ، فلا ينقضى وقت طويل ، حتى لا يبقى في ذلك الشعب الباسل الذي طالما استحق حبنا ، واستولى على إعجابنا ، غير معاشر التعصبين والاستغلاليين والجلادين والضحايا .

لقد أصبح العامل الصغير المستقل طريدة تستعقب ، وقنيصة تجاع وتعدب ، ثم تتحطم في النهاية وتستأصل استئصالاً . ولست أحسب بلداً ، حتى ولا في ألمانيا الهتلرية ذاتها ، بلغ الحد فيه من حرية العقل والروح ، وإخضاع النفوس ، واشتداد الإرهاب ، مبلغه في الاتحاد السوفيتي ؛ ولكن كبت المعارضة في بلد ما أو وقع حرية الرأي ، أمر خطر كل الخطورة ، بل هو دعوة إلى الإرهاب ونداء إلى الطغيان . ولست أنكر أن تشابه الناس في التفكير من شأنه أن يغني عن الحكومة كثيراً من المتاعب ، ولكن هل في إمكان المرء إزاء حال كهذه أن يتحدث عن الثقافة ...؟؟

إن الحكمة الحقيقية هي في الاستماع لآراء المعارضة ، بل في تشجيعها ، حتى مع منعها من الإضرار بالصالح العام .

إن الإنسانية مركبة ، وليست مقطوعة من قد واحد ، فكل محاولة لتبسيطها

وتجنيدها وتسخيرها ، بل كل محاولة من الظاهر لإخضاع كل شئ ، وكل إنسان ، لمقياس واحد ، ستظل أبداً مخفوفة بالخطر ، مخوفة العاقبة ، شديدة الأذى .

أما حال أهل الفنون في روسيا فأسوأ وأنكى من حال سائر المواطنين ، وأعتقد أن قيمة الكتاب الحقيقية هي من ناحية قوته الثورية ، أو بعبارة أدق ، من ناحية معارضته وجوهرها وحقيقة مرادها ؛ إذ لست من المحاقة بحيث أعتقد أن الذكاء والمواهب العقلية والفنية وقف على اليساريين دون سواهم ، والفنان الكبير هو بالضرورة « الخائف » للغير ، المتأبى على التشابه والتحاكى ، وأن من واجبه أن يسبح ضد تيار زمانه ... ولكن ماذا عسى أن يحدث على الأيام في روسيا السوفيتية إذا تم للدولة الجديدة القضاء على كل نزعة إلى المعارضة عند معاشر أهل الفنون ، وماذا ترى سيحدث للفنان حين لا يجد إلى المعارضة سبيلاً ؟؟

ألا يبقى يومئذ أمامه غير مجارة التيار ... ؟؟

إن الفنان سيتمكن بلا شك ، ما دام النضال مستمراً ، والنصر لا يزال يقتضي الكفاح ، من قيادة الثورة ؛ بل إنه سيناضل ويساهم في الجهاد ، ليؤكد النصر المرتقب ، ويضمن الفوز المنشود ؛ ولكن ماذا سيحدث عندئذ ... ؟؟

هذا هو السؤال الذى يعلق بالى من جانب الاتحاد السوفيتي ، بل هو السؤال ذاته الذى جعلت ألقى على خاطرى قبل ذهابى إلى روسيا ولم أجده عنه جواباً مقنعاً . وماذا سيكون أيضاً من شأن الفنان الذكى اللبق المبتكر حقاً ... ؟؟

لقد حدثنى رسام لقيته في روسيا أن اللباقة والذكاء والابتكار لم تعد مطلوبة في البلاد ، وقال إن « الأوبرا » لا تجدى العامل نفعاً ، ولا قيمة لها عنده ، إذا هو عند انصرافه من الملهى لا يجد منها في خاطره نعمة يستطيع ترديدها ، أو لحناً يفسر به تصفيراً .

ومضى في حديثه يقول : إن المطلوب اليوم هو الشئ البسيط السهل المفهوم . قلت معترضاً : ولكن روائع الفنون ، مما أصبح فيما بعد محبوباً من الشعب ،

شائعاً بين الناس ، لم يقدر حق قدره في بداية ظهوره أو لم يرض عندئذ غير فئة قليلة أو نخبة من الصفوة .

قال : إن تهوفن نفسه لن يستطيع في بلد كالاتحاد السوفيتي مداركة الفشل إذا هو أخفق في البداية ، فأولاً يتعين على الفنان هنا قبل كل شيء أن ينتهج سياسة الحزب وخططه ، وإلا عدت أسمى منتجاته أمثلة من « الشكليّة » البحت ، وهي الكلمة التي شاعت اليوم في روسيا للتعبير عن كل ما لا يُعْمَنُون مطلقاً بسماعه أو مشاهدته ، لأننا نعتزم خلق فن جديد خليق بالشعب الجديد الذي أصبحناه .

قلت : إن هذا يقتضى من جميع الفنانين أن يكونوا « محاكين » ولكن خيارهم وأكثرهم ابتكاراً لن يقبلوا الإسفاف بفنونهم إلى هذه الوهدة ، ولن يرضوا الانحناء لهذا الطغيان ، فلا يسعهم غير التزام الصمت ، والكف عن الإنتاج ، فلا يكون نصيب القادة والزعماء الذين يرغبون في النهوض بالثقافة وتمجيدها ، ورفع شأنها ، إلا الاحتقار والسخرية والإزراء من هذه الثقافة بالذات .

فأجبنى محدث بقوله إننى إنما أتكلم على هذا النحو « كبورجوازي » وإنه من ناحيته مقتنع بأن الماركسية التي آتت في عدة ميادين وحقول أطيب الثمرات ، قادرة أيضاً على إنتاج طيب في ميدان الفنون ، وإن الحائل الوحيد دونه إلى الآن هو الأهمية البالغة التي لا يزال أهل الفنون أنفسهم ينسبونهم إلى الأشكال والقوالب البالية منها .

وكان محدثي هذا قد بدأ يرفع الصوت شيئاً فشيئاً ، كأنما يلقى محاضرة ، أو يتلو درساً محفوظاً ، فلم أستطع على الإصغاء إليه صبراً ، وتركته وانصرفت دون تعقيب . ولكنه جاءنى في غرفتى يوماً آخر فقال إنه في أعماق قلبه موافق على ماقلت ، ولكنه كان يعرف في الردهة أن هناك آذاناً تسترق السمع عليه ، وإنه منتو قريباً عرض ألواح ورسومه في متحف ، فهو بحاجة إلى معونة السلطات ورضاها .

وكان الرأي العام في روسيا عند ذهابى إليها لم ينته بعد من حل خلاف طويل ،

وجدل عنيف ، حول نظرية « الشكلية » في الفنون ؛ وحاولت جهدى أن أفهم مؤدى هذه الكلمة ومدلولها فتبين لى أن المنتجات الفنية التى اتهمت بها إنما هى موجهة إلى فنانين عمدوا إلى تغليب الشكل على المعنى ، والصورة على الجوهر ، والمظهر على المدلول ؛ بل يصح لى أن أضيف أن هناك مدلولاً واحداً ظفر بالتقدير ، وعد خليقاً بالعناية والاهتمام ، واعتبر الفن الصحيح المنشود ، وما عداه داخل فى باب « الشكلية » أو فن الصور الظاهرة ، أو « الأشكال والتهاويل » ، لأنه لا يتجه هذا الاتجاه بالذات ؛ ويكفى أن يتمكن الفنان من حمل الناس على البكاء ليدرك الناس أن هذه هى الروح التى توحى النقد فى الاتحاد السوفيتى . ولعل هذه « الطائفة » كانت يوماً مجدية من الناحية السياسية ولكن لا يمكن أن تسمى « ثقافة » ، لأن الثقافة تتعرض للخطر فى كل حين إذا انتفت حرية الانتقاد . وكل إنتاج فنى فى روسيا محكوم عليه بالفناء إذا لم يتبع سياسة الحزب وتعاليمه . وليس الجمال فى نظرهم إلا شذوذاً « بورجوازياً » ، وإذا لم ينتهج الفنان هذا النهج ، مهما تكن مواهبه ، ومهما يرتفع بفنه ، فسوف يظل خاملاً منكوراً مهملاً ، لا يعترف الناس به ، إذا فرضنا أنه سيجد عملاً أو يسمح له بالإنتاج . أما إذا هو « امثلى » فالجزاء نصيبه والإغداق عليه مكفول ، والمديح إليه مسوق . ومن السهل أن تدرك أى فائدة تعود على الحكومة من أفراد فنان بالعباء والنوال ، لأنه يسبح بحمد العهد الحاضر والثناء بالخير عليه . ومن السهل أيضاً أن تدرك مدى الفائدة التى تعود على الفنان ذاته إذا هو رضى التفتى بمديح الحكومة التى تغدق عليه وتسخر فى الجزاء .

ولعل الكاتب هو فى روسيا أكثر المنتجين والصناع وأرباب المهن حظوة ، وأوفرهم قسطاً من التدليل ، حتى لقد أدهشتنى المزاياء التى عرضت على وروعت خاطرى ، وبت يومئذ أخشى أن أقع فريسة الإغراء ، وأن أذل للرشوة والفساد . وما ذهبت إلى روسيا لأحظى بمزاياء ، أو أظفر بمنافع وفوائد ، وكان ما شاهدته من مختلف صنوفها وعديد ألوانها فاتناً يسترق القلب ، ولكن هذا لم يمنعنى أن أنتقد ،

لأن أشد الخطوة وأكبرها قدراً إنما يستمتع في روسيا بها الكتاب أكثر من استمتاعهم بمثلها في أى بلد آخر من بلاد العالم ، وإنما تعطى لقاء التفكير في الحدود التى ترضى السلطات عنها ، والأفق الذى تجيزه ؛ وكان هذا وحده كافياً لتنبيهى إلى الخطر ، وتبصرتى بالعاقبة ، فأخذت يومئذ حذرى ، وناديت حكمتى وصبرى ، لأن الثمن المطلوب نظيرها هو التخلي السكلى عن كل نقد حر ، أو معارضة صريحة .

وتبين لى أن عضواً بارزاً من أعضاء المجمع العلمى أفرج عنه أخيراً ، وكان قد زج به فى غيابة السجن ، لا لذنوب اقترفه سوى استقلال الرأى ، وحرية الحكم على الأشياء ، وكان العلماء الأجانب كلما حاولوا الاتصال به ، قيل لهم إنه مريض معتكف مع أنه فى السجن يومئذ مقيم .

وقيل أيضاً إن آخر فصل من « أستاذيته » وحرم من كل تسهيلات كان من قبل يجدها فى العمل ، لا لشيء سوى أنه أبدى آراء علمية لا تجارى تيار العقيدة السوفيتية ، حتى لقد أرغم على أن يكتب خطاباً مفتوحاً إلى الرأى العام يتراجع فيه عنها انتقاء الإبعاد ، وخشية من التشريد . وأنت تعلم أن من خواص الطغيان عجزه عن احتمال الاستقلال الفكرى ، ورضاه عن المهانة والاستضعاف والخنوع ، والويل للحامى الروسى الذى ينهض فى ساحة القضاء للمرافعة عن متهم تريد الحكومة إدانته ، مهما تكن مرافعته من العدالة بمكان .

إن ستالين لا يسمح بغير المديح والاستحسان والتحييد ، ولن يلبث أن يجد نفسه محاطاً بقوم لا يملكون تبصرته بخطأ ، أو تنبيهه إلى ضلّة ، إذ ليست لهم آراء على الإطلاق .

إن صورة ستالين أصبحت تشاهد فى كل مكان ، واسمه أمسى على كل شفة ، وإزجاء المديح إليه ظاهر فى كل خطبة أو كلام .

أفذلكم كله نتيجة العبادة ، أم ثمرة الحب ، أم وليد الخوف العام . . . ؟
من يدرى ... !

وأذكر وأنا في طريقى إلى « تفليس » مجتازاً بلدة « جورى » التى ولد فيها ستالين ، أننى رأيت من المجاملة أن أبعث إليه برسالة شخصية عرفاناً وشكراً على الترحيب الصادق الذى لقيناه فى بلاده وكرم الضيافة الذى وجدناه أينما حللنا ، وبدالى أن هذه فرصة لن نتاح مرة أخرى ، فأوقفت المركبة أمام دار البريد ، وسلمت مكتب التلغراف رسالة أقول فيها « يحدوني المرور « بجورى » فى سير رحلتنا العجيبة أن أبعث إليك

وهنا أمسك عامل التلغراف عن القراءة وقال إنه لا يستطيع أن يبعث برسالة كهذه ، لأن توجيه الخطاب بالضمير المفرد هكذا لا يكفي فى حق ستالين ، بل هو أسلوب لا يليق ، فلا معدى من إضافة شىء آخر ، وأقترح أن يكون ذلك قولى مثلاً « إلى زعيم العمال » أو « مولى الشعب » .

ولكن ذلك بدا لى سخيفاً فقلت له إن ستالين بلا شك يسمو على المدق ، ولكن قولى هذا لم يُجَدِ معه نفعاً ، فقد أبى أن يرسل البرقية ما لم أوافق على تعديل نصها .

وقد تبين لى مع الأسف أن هذه « الرسميات » بعض العوامل التى ستساعد على إقامة حاجز منيع بين ستالين ورعاياه .

وكثيراً ما اضطررت إلى إجراء حذف أو تعديل فى نصوص الخطب التى أقيمتها خلال رحلتى ، فقد قيل لى مثلاً إن كلمة « المصير » ينبغى أن تُشْفَع بنعت جميل كقولى « الباهر » كلما أشرت فى خطبى إلى مصير الاتحاد السوفيتى ، كما طلبوا منى يوماً أن أحذف صفة « العظيم » إذا جاءت نعتاً لأحد الملوك ، قائلين إن الملوك لا يمكن أن يكونوا يوماً « عظماء » !

ودعيت وأنا فى ليننجراد إلى إلقاء خطاب فى جمعية للطلاب وحملة الأقلام فعرضت مسودة الخطبة على اللجنة التى تتولى تنظيم الاجتماع ، ولكنها أبلغتنى أن ما سوف أقوله لن يبدو مقبولاً ولا مستحسنًا لأنه يخالف تعاليم الحزب وسياسته . وقد أدى

ذلك إلى متاعب وصعاب كثيرة حملتني في النهاية على العدول عن إلقاء الخطاب ،
وكان نصه كما يلي :

« كثيراً ما دعيت إلى إبداء رأيي في الأدب السوفيتي المعاصر ، ولهذا أحببت
اليوم أن أشرح سر رفضي إلى الآن إبداءه حتى أجلو بعض العبارات التي أدليت بها
في الميدان الأحمر بموسكو بمناسبة تشييع جنازة « جوركي » ، فقد تحدثت عندئذ عن
المشا كل التي أولدها نجاح الثورة ذاته ، وأثارها انتصارها قائلاً : إنه من حسنات
الاتحاد السوفيتي وماثره الخالدة أنه هو الذي أوجد تلك المشا كل وهياً لها السبيل
حتى ننظر فيها وندرسها ، ولا يخفى أن مصير الحضارة متصل وثيق الاتصال بالحل
الذي ستهدي روسيا إليه ؛ وهذا هو ما يجعلني أعتقد أنه من الخير والفائدة أن
أثيرها في هذا المقام من جديد فأقول إن الجمهرة ، حتى وإن شملت خير العناصر ،
مطبوعة على الاستخفاف بكل جديد أو دقيق من روائع الفن ومنتجاته ، فلا تقدر
إلا كل ما يسهل فهمه ، أو بعبارة أخرى كل ما هو عاديٌّ مألوف ، ولكن لا يصح
لنا أن ننسى أن للثورة « كليشيهات » ولوازم وشئونها عادية كما « للبورجوازية » ، وأن
ما يضيفي الخلود والجودة على أي عمل فني ، لا يأتي بالضرورة من الثورة ، ولا هو حتماً
من آثارها ، أو صورة من أفكارها ، مهما تكن هذه الآثار والصور سامية الأهداف
نبيلة الغايات ، وإنما يحيا العمل الفني ويخلد بفضل ما فيه من ابتكار وقوة خلق
وإنشاء ، وبما يثير من مسائل أو يخلق من مشا كل ، أو يرد به عليها ، أو يستبق
إليها بالجواب ؛ وأخشى أن الكثير من المنتجات الفنية المشبعة بأنقى التعاليم الماركسية
والتي لاقت النجاح اليوم لهذا السبب وحده ، سيبدو غداً للأجيال الخالفة « مطبوخاً »
أو يحمل « رائحة » المعمل ، فإن الآثار الأدبية التي تتغلب على أحداث الزمن ، ولا
يتطرق إليها النسيان على الدهر ، هي التي تسمو على عقول المعاصرين والآراء الشائعة
لديهم . واليوم وقد أصبحت « الثورة » هي المقتصرة المظفَّرة ، فقد بات الفن في خطر
بالغ ، لا يقل عن أي شيء عداه في أشد عهود الطغيان وأكثرها عصفاً واستبداداً ،

وأعنى به خطر «الأرثوذكسية» . وما أحوج الفنان في عهد الثورة المضفرة إلى الحرية ، لأن الفنون إذا لم تتوافر الحرية التامة لها فقدت معانيها وقيمتها ، وما دام هتاف الجماهير واستحسانها معناه النجاح والفوز ، فإن الشهرة والصيت البعيد سيذهبان إلى المنتجات الفنية التي يستطيع الجمهور فهمها بغير محاولة أو جهد ؛ وكثيراً ما ساءلت نفسى ترى لو أن « كيتس »^(١) أو « بوديلير »^(٢) أو « ريمبو »^(٣) كانوا في روسيا اليوم ، فهل نحسبهم سيروحوون فيها مجهولين منكورين ، كما كانوا في عصورهم ، بسبب قوة ابتكارهم ، وفضل استحداثهم ، وندرة مواهبهم . إننى لا أعطى أكثر اهتمامى إلا لمعاصر الفنانين الذين سخر الناس في أول الأمر منهم واحتقروهم وأهملوا شأنهم ، أمثال كيتس و بوديلير و ريمبو وأشباههم ممن ستوليهم الأجيال القادمة نعمة الخلود على الزمان . ولعلكم قائلون إننا لسنا اليوم بحاجة إلى هؤلاء ومن لف لفهم ، لأن كل ما ينطوى عليه تاريخهم من دلالة لا يعدو القول بأنهم إنما صوروا المجتمع المنحط المنقرض الذى كانوا ثمراته الحزنة . وقد تقولون إنهم إذا لم يستطيعوا كسب الإعجاب العام ، فإن الضير عليهم ، والخير في ذلك لنا ، لأننا لن نجد لديهم شيئاً جديداً نتعلمه ، ولن نصيب منهم طريفاً نتزكى به ؛ وإنما الذين يستطيعون اليوم هدايتنا وإرشادنا وتثقيفنا هم معاصر الفنانين الذين يشعرون في العهد الجديد بأنهم من صميم أهله ، ونفوسهم متماثلة مع روحه ، أو بعبارة أخرى ، الذين يقرون العهد ويتملقونه ويترضونه ، ولكنى شخصياً أعتقد أن المنتجات الفنية التي تقوم على المديح والاسترضاء والملق هي آثار لا قيمة لها إطلاقاً ، من الناحية الثقافية ، وأن من واجب الثقافة إذا أرادت التقدم والاطراد أن تتجاهلها وتنكر وجودها .

أما الأدب الذى ينحصر جهده في تصوير المجتمع ، فقد سبق أن بسطت لكم

(١) شاعر انجليزى مبدع عاجله الموت في شبابه .

(٢) شاعر فرنسى معروف .

(٣) شاعر فرنسى ملهم عاش شريداً جوالاً لا يستقر على حال .

رأى فيه ، فان البقاء على إدامة التأمل الذاتي والإعجاب بالنفس قد يكون مرحلة من
مراحل التطور بالنسبة لمجتمع ناشئ ، وأمة فتية ، ولكن من الحزن حقاً أن تظل
هذه المرحلة هي الأولى والأخيرة فلا يتقدم المجتمع منها مطلقاً إلى مرحلة تالية ... »
هذا هو ما كنت أنوى أن أقوله في خطبتي .

وما دام الإنسان مضطهداً مديساً مغلوباً على أمره ، وما دام الظلم الاجتماعي قائماً
لإخضاعه وإذلاله ، فلا يسعنا غير عقد الأمل على البراعم التي لم تظهر بعد في الأرض
الخصيبة ، أو الكامنة الخصب ، أرض الطبقات الكادحة الحارثة المكدودة ، مثلنا
في ذلك كمثل الذين يعلقون كبار الآمال على الأطفال حين يشبون على الطوق ، فلا
يكون منهم عندئذ غير رجال عاديين مألوفين ، أو كثيراً ما يذهب بنا الظن إلى أن
الجاهير إنما تتألف من أفراد نشأوا من طينة أرق وأفضل من طينة بقية أفراد البشرية
الخبيين للآمال ، وأعتقد أنهم لا يمتازون إلا بشيء واحد عنهم ، وهو أنهم أقل
فساداً ، وانحطاطاً من سواهم ؛ وإني لأشهد اليوم في الاتحاد السوفيتي بوادر
« بورجوازية » جديدة تنمو وتتطور من بين صفوف هذه الجاهير التي لم تجرب
بعد ، وأرى فيها العيوب والمساوى ذاتها التي لدينا ، إذا لم تكذب ترتفع فوق مستوى
الفاقة حتى أضحت تحتقر الفقراء ودبت عقارب الغيرة في نفوس أفرادها ، واستولت
على المتع والمناعم التي كانت محرومة منها أمداً طويلاً ، وأمست تعرف كيف تظفر بها ،
وكيف تحفظها وتصونها ، فلا تفلت من أيديها ، فهل هؤلاء القوم حقاً هم الذين
صنعوا الثورة ...؟؟

كلا . وأيؤمن الحق ... إنهم في الواقع معاشر الذين استغلوا لمنفعتهم ، وأحالوها
إلى مصلحتهم ، بدوافع الأنانية وحب الذات ، وقد يكونون إلى الآن أعضاء في
الحزب الشيوعي ، ولكنهم لم يعودوا شيوعيين في أطواء جوارحهم ، وأعماق قلوبهم .
ولست ألوم الاتحاد السوفيتي على أنه قد أخفق في تحقيق أكثر مما قد حقق .
لأنني أعتقد أنه لم يكن في الإمكان أحسن مما كان ، لأن البلاد بدأت من

درك سحيق ، وكانت قبل الثورة في أعماق وهدة ، ولكنني ألومه على مدى الخدعة التي استمرأها ، والدعوى الضخمة بأن الحالة في روسيا مما يحسد عليه ، وتطبيب النفس له ، فإن زعماء كهذا من البلد الذي كان منطأ آمالي ، ومعقد إيماني ، أليم لنفسى محزن لخاطري .

وألوم الشيوعيين في فرنسا ، وفي كل مكان كذلك ؛ ولست بلائهم أولئك الذين خدعوا لحسن نيتهم ، وسلامة طويتهم ، وإنما أنا لأثم الذين كانوا يعرفون أكثر من سواهم ، أو الذين كان أولى بهم أن يعرفوا ، ولكنهم أبوا إلا أن يسكذبوا على العمال في الخارج ويغرروا بهم ، وإن ظلوا طيلة الوقت يلتمسون تحقيق أهداف سياسية .

ألم يثن للعمال خارج روسيا السوفيتية أن يدركوا أن الحزب الشيوعي أضلهم وغرر بهم ، كما أضل من قبلهم العمال في روسيا ذاتها...؟؟

ولو أنى وجدت بارقة أمل في تحسن الأحوال وصالح الأمور في الاتحاد السوفيتي ، للزمت الصمت ، رغم ما هو فيه من سوء يبعث على الأسف ، ويورث الهم والحزن ؛ ولكنني رأيت من الواجب أن أتكلم علانية ، وأصارع بالحقيقة جهره ، لأنني وصلت إلى مرحلة الاعتقاد الجازم بأن الاتحاد السوفيتي هابط رويداً المنحدر الذي كنت أرجو أن أراه صاعداً فيه ، راقياً إليه ، ولأنه راح يتخلى لأسباب مموهة ، ودوافع بارقة خادعة ، عن الحريات واحدة في إثر واحدة ، تلك الحريات التي اكتسبها بفضل الثورة العظيمة بعد متاعب جمة وإراقة دماء ، ولأنني أراه يجور في أذياله إلى حافة الفوضى الأحزاب الشيوعية القائمة في الأقطار الأخرى .

ولن يحول بيني وبين الصراحة شيء ، ولا الولاء الحزبي ذاته ، لأنني ؛ أضع الحق فوق الأحزاب ، وأعلم حق العلم أنه ليس في التعاليم الماركسية شيء يقال له « الحق » أو الحق المطلق على الأقل ؛ وإنما الحق في تقديرها نسبي ، ولكنني أعتقد مع ذلك أنه من الإجرام في أمر خطير كهذا تضليل الناس والتفجير بهم . ومن الأمور

الواجبة بغير إبطاء أن ينظر الناس إلى الأمور كما هي ، لا كما يودون أن تكون ،
وكما كانوا يرجون .

إن الاتحاد السوفييتي قد خدعنا في أعز أمانينا ، وبين لنا كيف يمكن أن نزل
بالثورة الصادقة البريئة القدم في الرمال الخادعة . والسباسب اللينة الكاذبة .

إن المجتمع « الرأسمالي » قد عاد فاستقر ، وقام طغيان جديد مكانه ، طغيان
رهيب ماحق مستغل توافرت فيه كل ما في العبودية من حقارة ومهانة وذل .

لقد فشلت روسيا ، كما فشل « ديموفون » ^(١) في أن يكون رباً معبوداً ، ولن
تنهض الآن من نيران هذه المحنة السوفييتية ...

(١) ديموفون هو الوليد الذي جعلت ديمتر في أساطير اليونان تربيته في المهدي على الاكتواء بالنار
وتضع له في السرير جذوات متقدة ، لكي تجعل من بشرته ألوهية ، ولكن أمه اكتشفت
الأمر فأخذت به الإنسان ، وضحت بالإله . انظر استهلال أندريه جيد لقصته .

لويس فيدشر

كانت تقوم في خاطري وأنا شاب في فيلادلفيا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، صورة مرتبكة المعالم لروسيا « مهزوزة » الأجزاء ولم أكن يومئذ قد رأيتها، أو رأيت سواها، من البلاد الأجنبية، ولسكني قرأت طائفة كبيرة من روايات تولستوى، ودستوفسكى وترجنيف وبعض القصص القصيرة التي كتبها جوجول وجوركى، كما هزت مشاعري « مذكرات تائر » التي وضعها البرنس بيمتر كرويويتكين القوضوى الروسى الكبير، بما حوت من أخيلة، ومبادئ سامية؛ وسخط إنسانى، وكان الأدب الذى ألفت في شبابه قراءته عن الرحلات والمخاطرات، يشمل قصص الثوار البواسل الذين خادعوا الموت بالفرار من مناجم الملح في أصقاع سيبيريا، وكان أبواى قد ولدا في بلدة صغيرة تدعى « شبول » خارج حدود مدينة « كييف »، فكاننا يحدثاننى عن المذابح التي كان « الموزيق » — أو الفلاحون الروس — يقتربونها وهم يملون ملحون على « الفودكا » نازفو الأبواب من صهبائها الباطشة، فكانت روسيا تلوح لى من ذلك كله « خاماً » وشرقية، وتبدونلخاطرى متحضرة وغير متحضرة، متعلمة وأمية، وقد تنشرت في أرضها بارقات من ثقافة، ورواء قيصرى، وثراء ضخم، وسط ظلمة مترامية المدى، وفاقه ضاربة الأطناب.

وهكذا ظل العالم المتمدن خلف حدود أمريكا في خاطري أشبه بصورة واهية الظلال، قائمة المعالم، إلى بداية الصراع حيسال امبراطور ألمانيا، ونشوب الحرب واشتراكى فيها، فقد حجبنا عنى كل شىء حتى الأحداث الجسام ذاتها من اعتزال قيصر الروس العرش ونزوله عن الدست للحكومة الموقوتة في شهر مارس عام ١٩١٧ ومولد النظام السوفييتى في شهر نوفمبر منه، فان هذين الانقلابين لم يتركا في ذاكرتى أثراً ما عند وقوعهما، ولو أحدثاه لما استطعت يومئذ أن أفهم سر التجاء البلاشفة إلى إسقاط حكومة كرينسكى الموقوتة التي وصفها لينين بقوله إنها جعلت

روسيا « أ كثر بلد في العالم حرية » ولا أن أدرك الأسباب التي حملتهم على التخلي عن تأييدها لمصلحة « ديكتاتورية » مؤكدة .

ولما عدت إلى بلادي في عام ١٩٢٠ بعد انتهاء خدمتي العسكرية فيما وراء البحار اشتد بي الشغف بمعرفة سر نشأة الحرب العالمية الأولى وأسباب نشوبها فعكفت على دراسة عدة مؤلفات ومجلات في هذا الشأن بأقلام كتاب من مختلف العناصر والجنسيات ، وكانوا جميعاً مختلفين في النتائج ، وإن اتفقوا جميعاً على توزيع جريرتها توزيعاً واسع النطاق يجعل روسيا القيصرية ، والنمسا والجر ، في مقدمة الدول التي تحمل أ كبر التبعات عن إثارة نارها ، ثم تتلوها ألمانيا وفرنسا ثم بريطانيا .

وتبين لي من دراستي أن هؤلاء الباحثين يعتقدون أن جميع الدول العظمى كانت متفقة بمعاهدات سرية على تقسيم الدول الصغيرة الضعيفة فيما بينها أشياء موزعة ، وأن دوافع التوسع الاستعماري أدى في النهاية بها إلى التنازع ، فلم تلبث أن قامت الحرب كنتيجة لذلك الصراع المستمر .

وبدأت الجلات الأسبوعية الحرة في نيويورك تنادي عندئذ بأن مؤتمر الصلح في فرساي إنما أقام عمله على هذه المبادئ الاستعمارية الخبيثة ذاتها ، وأن الساسة كانوا رغم نصائح الرئيس وودرو ويلسون ومشوراته السامية ، أشد اهتماماً بالكسب الإقليمي والمادي منهم بإيجاد حلول كفيلة بإقرار السلام .

فلا عجب إذا جعلني موقف من الحرب والسلام على استعداد لقبول سحق البشافية على الغرب وحملتها عليه ، فقد ذهبت موسكو تندد بما كان في مؤتمر الصلح من عمليات الضم والتقسيم والإلحاق ، وتستنكر مسألة « التعويضات » ، وتندر بأن ذلك كله بذور حرب عالمية أخرى .

وكنت أعرف طالباً يدرس العلوم الهندسية في جامعة بانسلفانيا ويتكلم الروسية . فراح يبين لي ما تضمنته المذكرات الشائكة الساخرة المرة التي وضعها شيشرين وزير خارجية السوفييت من التنديد بالحكومات « البورجوازية » لتدخلها بغير موجب

ولاً مبرر في الحرب الروسية الأهلية لتأييد الرجعية وأنصار القيصرية حيال البلاشفة
الناشرين ، وكيف كان هؤلاء يكافحون قوات أكبر منهم بأساً ، وأشد بطشاً ،
ويتحدون العالم القديم لأنه أبى أن يسمح بمولد عالم جديد ، وكيف كانت روسيا
تحارب قوات عرفت كيف تضرم نار الحرب ، ولم تعرف كيف تقرر السلام !

وقد أحسست يومئذ دافعاً قوياً يحفزني إلى معرفة أوروبا هذه التي استطاعت
أخيراً النجاة من حرب عالمية ، وثورة ، فادخرت بعض مواردى ، وسافرت إلى
الخارج في شهر ديسمبر عام ١٩٢١ كمراسل حر غير مقيد بجريدة معينة .

وكانت أوروبا يومئذ في حال سوء ، وأمر مريع ؛ فقد استحال أبطال الحرب
الأقوياء الجنوم إلى متسولين شرذمة يهيمون في شوارع المدن البريطانية يسألون
الناس وهم طائفون بالمعازف والقيثارات « والأرمونيكات » أو يغنون وينشدون ، أو
يتجولون لبيع أقلام الرصاص ؛ وكانت صفوف من المقاعد في مساح لندين ملأى
بالنساء دون بعولهن ، لمصرعهن في الخنادق ، أو دون أحد من الرجال ، لأنهن لن
يرتضين منهم أحداً ، لأن الذين كانوا مصباحين لهن بعولاً ، أمسوا رقوداً تحت أطباق
الثرى في ساحات فرنسا والفلاندرز ، وكان مكسيم جوركى يومئذ يناشد العالم أن
يبادر بالأغذية لإطعام خمسة وعشرين مليوناً من الجياع الساعين في روسيا .

وقد كتبت من بولونيا في شهر يناير عام ١٩٢٢ عن « الجوائح » التي لم تدع
أحداً ينجو من محالها ، كما وصفت التيار الجارف فيها من الوطنية المستعرة والنعرة
القومية المتناهية ؛ وكانت بولونيا رغم ما اصطاح عليها من عدة المشاكل الداخلية
لا تزال محتفظة بجيش يستنفد مواردها ، ومصرة على ضم « فيلنا » Vilna إليها .

وقضيت شطراً من الشهر التالي في النمسا ، وكتبت إلى جريدة « نيويورك
بوست » في أول مارس من العام ذاته أقول : « إن فيينا التي طالما تسامع الناس عن
مرحها وبهجة الحياة الليلية فيها أمسّت تلوح قائمة كلما أرخى الليل سدوله ، وقد
غمرتها بلدة غريبة وجمود عجيب ، وتضاءلت الأضواء في شوارعها ، وإن كانت

الأنوار والحياة وأبواق السيارات وأصوات القصف والرقص والغناء في المشارب
والثياب المهفهفة لا تزال بادية في أحيائها المليئة بالخانات والقريبة من دار « الأوبرا »
والمسارح الكبيرة والفنادق الفخمة .

وقد تحطمت الواجبات الزاجية الضخمة في عدة بنوك ومتاجر ومطاعم وفنادق
خلال المظاهرات العدائية التي جرت أخيراً ضد المضاربين .

أما ألمانيا التي استطاعت بفضل ضخامة مساحتها وعديد نواحيها ومركزها في
وسط أوروبا أن تخيف أو تنفسد أو تغزو مناطق مترامية في أوروبا ، كما تمكنت من
تعزير مناطق أخرى وتقويتها وبعث النهضة في ربوعها ، فقد أمست تعاني « كابوساً »
مستمراً من التطاحن الحزبي بين الملكيين والجمهوريين ، وتشكو من التضخم النقدي
وآثاره السيئة » .

وفي المؤتمر الدولي الذي انعقد في جنوه خلال شهر أبريل من العام ذاته لم يقو
الملتصرون الغربيون على نسيان ما كان ، أو أخذ المسيئين بالغفران ، أو الدعوة إلى
الوحدة بينهم والوئام ، فراحوا يدفعون بروسيا ، أو « المنبوذة » الشائنة ، وألمانيا
الطريذة بعد الحرب ، إلى التحالف ، وعقد حلف سيامي تجاري ، بل لقد حملوا هؤلاء
المطرودين المنبوذين إلى التسليح والتعاون عليه سراً بينهم .

لقد كانت أوروبا يومئذ لا تزال مبهوتة مذهولة تقطر دماء من أثر الحرب الأولى ،
وهي مع ذلك كله تسير متخبطة إلى حرب أخرى ، بينما لبث المواطنون والساسة يقلبون
أكفهم أسفاً وياساً .

وكنت في ذلك الحين لا أزال أقرأ وأسمع الكثير عن روسيا السوفيتية ، وأعلم
أن البلاشفة يمجدون الإنسان ويعزرونه ، ويرثون له ، عارضين عليه الأرض والجزر
والسلام والعمل والسكن والطمأنينة والتعليم والصحة والفنون والسعادة ، ويناصرون
مبادئ الإخاء الدولي الذي يجمع أشقات السكادحين والمكدودين ، ويقولون إنهم
سيقضون على التمييز العنصري والاستغلال والظلم وقوة الثراء وحقوق الملكية والجشع

الأقليمي ؛ وقد راحوا يفاخرون بأنهم حرروا بولونيا وفنلندة ودول البلطيق من حكم الروس ، وتخلوا عن امتيازات القيصر في الصين ومناطق نفوذه وامتيازات الزيت الممنوحة له في إيران .

فلا غرو إذا مضى المظلومون في هذا العالم وأنصارهم يرون في السوفييت رسل عهد جديد في التاريخ .

لقد رأينا يومئذ دولة تشغل مساحتها سدس الكرة الأرضية تنضم إلى خطيب الشوارع في أصائل الأحاد وتتكلم كلامه ، وتتحدث بلغته ولسانه ، وشهدنا لأول مرة في التاريخ حكومة تحقق أحلام المصلحين ومخطي الأضنام والرواد الأولين في الأجيال الماضية .

لقد سرت في البشر هزة ، واستولى الرعب على نفوس أصحاب الامتيازات ، والتقاليد ، ورجال العسكرية ، والأباطرة ، والمزهوين بلونهم على سائر بني البشر ، والجامدين على الأوضاع القائمة ، فلم تلبث مخاوفهم أن أثارت الإمال الكبار في نفوس الآخرين .

وكان أبداع ما في البلشفية « عموميتها » ، فهي لم تقترح إدخال تغييرات معينة في روسيا فحسب ، بل رمت أيضاً إلى ما هو أوسع نطاقاً ، وأتم شمولاً . رمت إلى إلغاء الحروب ، والقضاء على الفقر ، والآلام ؛ فلا عجب إذا رأينا صغار الناس في كل بلد من عامل أجير ، وكاتب مفكر ، وذكي مستنير ، قد شعروا يومئذ بأن حدثاً خطيراً جرى في حياتهم ، حين بدأت جذور الثورة تتأصل في أرض روسيا وترتبهـا . والواقع أن ذلك العطف العام الذي أحاط بالبلشفية في تلك الأيام كان مرجعه إلى السخط على سير الأحوال في البلاد الأخرى ، أكثر من مرده إلى معرفة حقائق الحال في روسيا ذاتها ؛ فإن أكثر الناس كانوا يومئذ يجهلون ما حدث فيها ، ولا يعرفون شيئاً عما كان يجري تحت النظام البلشفي الجديد ؛ وإن مضى كل إنسان يتحدث عنها بحماسة ، ويتحمس في الحديث عنها كل الحماسة . ووقع ما كان منتظراً ، إذ جعل

المتنمون إليها ، الداخولون في حظيرتها ، يعتمدون في الغالب على وعودها ، ويعتدرون
عن « المتاعب » التي وجدتها في طريقها ؛ بينما ذهب الناقون منها المتربصون بها
ينتقدونها على أنها لم تحقق من تلك الوعود شيئاً .

ولم يلبث هذا الجدل القائم بين أنصارها وخصومها أن أثار في نفس الرغبة في
الظفر بالحقائق من مواردها ، والعلم من مظانها ، فذهبت إلى موسكو من برلين في
شهر سبتمبر عام ١٩٢٢ وأنا لا أعرف كلمة واحدة من الروسية ، ولا أعلم إلا القليل من
أمر النظام السوفيتي ، وإن كنت أحنو على أمانيه ، وأعرف مع ذلك أن الأحوال
فيه سيئة ، وأنتى لست مسافراً إلى « المدينة الفاضلة » ولا أنا حاج إلى مكة المكرمة .
وكانت ثورات الفلاحين واشتداد المجاعة وموات الإنتاج قد أرغمت الحكومة
السوفيتية في ربيع عام ١٩٢١ على وضع سياسة تدعى « السياسة الاقتصادية
الجديدة » وهي خطة ترى إلى إقرار الرأسمالية الأهلية ، وتبيح منح امتيازات لرؤس
الأموال الأجنبية .

وهكذا وجدت البلشفية نفسها الضعف نظامها مجتذبة إلى الخلف ، مردودة إلى
الحافة ، محمولة على الرجوع إلى القهقري . وقد اعترف لينين نفسه بالردة ، ولم يكن
يخفي يوماً النكسات ؛ فلم يلبث الباعة المتجولون الصغار أن انقشروا كالجراد في أحياء
موسكو وليننجراد وكيف والمدائن الأخرى سارحين بثياب داخلية وأقمصة وجوارب
ونعال مطاطية ومشدات للخصور وسلع فضية وكل ما يخطر بالبال من البضائع القديمة
والمصنوعات البسيطة . وبدأ الريف يضج بطلاب الإثراء العاجل ، وعمدت الحكومة
ذاتها إلى تشغيل دور لهو وميسر ضخمة ، ومطاعم فخمة ، وحانات بديعة ، وكاباريات
لمرتاك الصفوة ، حيث تقدم الماء كل الشبهة التي لا سبيل للمواطنين العاديين إلى
الظفر بمثلها .

ولم يكن شيء من هذا يبدو لعيني ضرباً من الشيوعية ، أو وسيلة جديدة من
وسائل الحياة ، أو أسلوباً يمت إلى هذه المبادئ ومعانيها . والظاهر أن الفرزة

« الرأسمالية » قوية عزيمة ، فلم تلبث أن وثبت إلى العمل على نداء السياسة الاقتصادية الجديدة ، حتى لقد رحلت أسائل نفسى أترى الثورة قد خدعت جذوتها ، وانطقات وقدتها ؟ ولكن معاشر الشيوعيين يحييون بالسلب ، وإن كان الواقع يدل على أن الماديات ليست برهاناً قوياً على وهن البولشفية ، وإنما روح الشيوعيين هى الدليل والبرهان .

وكان الحزب الشيوعى هو أبرز هيئـة فى روسيا السوفيتية حتى يشبه نظام « الأديرة » إذا ذكرنا التقشف ومطالبه ، والتفانى المطلوب من أعضائه وعترته ؛ فقد جعلته تقاليده ، وهى الطاعة المطلقة ، والسرية ، والنظام التتين ، والضبط والربط ، أشبه ما يكون بهيئة « عسكرية » ، وكان يبدو كأنه « الدينامو » المحرك ، أو الكلب الراصد الحارس المترقب ، أو هو وحى النظام الجديد وإلهامه ، وكان مصدر كل سياسة توضع وكل خطة تنتهج ، والمظهر الأوحد للسلطة السياسية وإن لم يباشرها فى الظاهر ، أو يمارسها بالفعل ، تاركاً قيادها للحكومة البيوقراطية ذاتها ، مكتفياً بالتوجيه والرقابة والإشراف ؛ وذلك لأن توزيع المهام على هذا النحو من شأنه أن يمنع من إغراء المناصب الكبيرة ، وفتنة السلطان ؛ وكان أكثر الموظفين فى الحكومة أعضاء فى الحزب ، ولكن عشرات المئات من الشيوعيين البارزين كستالين وزينوفيف وبوخارين لا يتقلدون مناصب فيها ، واعتاد معاشر الشيوعيين أن يتنادوا فيما بينهم بكلمة « الرفيق » وأن يتقاضى السواد الأعظم منهم مرتبات قليلة جعلتهم يعيشون عيش الشطف والزهد والنقاء كما كان دأب أهل « أسبارطة » فى الإغريق للغابرين ، وكانت واجبات الشيوعى تفوق امتيازاته عدداً ، إذ كان الحزب ينتظر منه أن يكون مثلاً للحمية ضد الدين والولاء الأسمى والخلق الكريم والتفانى السياسى ، وكانت المحالقات تعاقب بشدة ، وتجد صارم الجزاء .

وكانت روسيا يومئذ تنبض نشاطاً « دينامياً » وتمتلى حركة ودأباً ، وبدت المدائن مزدهمة بخلائق طارئين عليها من الغابات وحقول القمح ، والشباب بادى كل

ميدان ، ظاهر في كل مشهد ؛ وكان لينين قد بلغ في عام ١٩٢٢ الثانية والخمسين ، وتروتسكي الثالثة والأربعين ، وستالين مثله ، وزينوفيف التاسعة والثلاثين ، وكانيف في السن ذاتها ، وبوخارين في الرابعة والثلاثين ، و « رادك » في السابعة والثلاثين . وكانت رحي الثورة لا تزال تطحن الطبقات الحاكمة القديمة وتسحقها سحقاً ، وتدع المجال فسيحاً لبروز قوات جديدة ، وعناصر فتيمة ، وكان هؤلاء اعترافاً بالصنيع ، وفرحاً بالساحة ، على استعداد لقبول النظام المسكين ، والعمل الشاق والتضحيات المطلوبة .

وكانت المجاعة لا تزال تعض بأنيابها الحداد خلائق كثيرة ، في مناطق عدة ، وأصقاع مترامية ، وكانت الوجبة الواحدة تكلف ملايين من « الروبلات » ، فقد تجاوز التضخم النقدي في روسيا أعراضه الرهيبة في ألمانيا ذاتها ، وراح أسوأ وأبشع أثراً ؛ فلم ألبث أن فرغت لمشهد الفاقة الموروثة التي زادت الحرب العالمية اشتداداً ، وجاءت الحرب الأهلية والثورة فجعلتها تتفاقم شراً وويلاً ، ولكن النظام ذاته وأنصاره لم يبدوا تشاؤماً من هذه الحال ، ولا أظهروا مخافة وإشفاقاً ، ولا عراهم منها يأس أورهمق .

وكانت الحماسة ذات عدوى عامة ، والحمية تسرى في كل مكان ، فجعلت أسائل نفسي لماذا تحاول الحكومات الأجنبية ، ويحاول الساسة والمراسلون الأجانب في موسكو ، الوقوف في وجه أمة عظيمة كهذه تريد أن تخرج من الحماة التي هوت من قبل إليها ؛ وكنت قد ولدت ونشأت في بيئة الفاقة ، فلا غرو إذا أنا بدافع الغريزة رحبت بكل سعي يراد منه استئصال الفاقة واجتثاثها من أصولها ، ولم أنسكز على البلاشفة مصادرتهم الممتلكات الخاصة ورؤوس أموال الأفراد وتأميم الأراضي ، بعد أن جاءت الثورة فقطعت كل صلة بالماضي ؛ وكان هذا هو أكبر فتنتها ، وأبدع ما يجذب الأرواح إليها ، فقد كان الماضي مظلماً ، وراح السوفييتيون يتلمسون طريقهم وسط الظلمات ، في أرض لم يَرْتَدُّها من قبل مرتاد ، نحو هدف لم يشهده شاهد ، وغرض لم يتخيله قبل اليوم متخيل .

فلا غرو إذا أنا أعجبت بشجاعتهم ، ولم يكن في إمكان أحد أن يشك في نزاهتهم ، أو يستريب بإخلاصهم .

وكانت النزعة « الدولية » بلا ريب في رأس قائمة المزايا والفضائل والحاسن التي اجتمعت للشيوعية وأهلها ، فكثيراً ما رأينا الحدود الوطنية تنشأ نتيجة السرقة وثمره العدوان، بل لظالما كانت الوطنية نفسها مثيرة الحروب، والمنافسات الاقتصادية، وموقدة نار العدوان والبغضاء بين الشعوب ، وهي في الحق ضرب من « العنصرية » ونعرة الأجناس ؛ ولكن معاصر البلاشفة كانوا يعدون جميع العناصر متساوية وإن تباينت ، أنداداً وإن اختلفت ، حتى ليعيش في روسيا مائة عنصر من هذه العناصر أو تزيد ، ويُنصّر فيها للذين ظلمتهم فرص التاريخ، والاعتبارات الجغرافية ، على الذين أصابوا دونهم حظاً من الرقي، وأوتوا نصيباً من الحضارة والعرفان، بينما راحت البلشفية في الخارج تعترف بالتقسيمات « القومية » وإن التمس إنشاء مجتمع شيوعي « دولي » ، يستطيع الغلبة عليها ، ويهيئ السبيل إلى سلام عالمي مستقر ممكن .

وتبين لي أن أغلب الأمم ظالمة لروسيا الجديدة معادية لها متحيزة ضدها ، وبدا لي أن مجموعة الديون « الميئة » وإعادة ملكية الأراضي والمؤسسات « المؤممة » ، وصب جام العداوات الفكرية ، والسكراهيات النظرية ، كانت أهم وأخطر في أعين الساسة الرأسماليين من العمل على قيام صلات أدبية ، وأواصر سياسية ، وروابط اقتصادية مع البلاشفة ، من شأنها أن تعجل بإقرار السلام واستكمال دور النفاذة والإبلال العام .

وإن المرء حين يتحدث إلى أصدقائه من السوفييت لا يلبث أن يستفكر حقايق البلشفية وبلاهاتها ، ولكنني في رحلاتي إلى أوروبا وأمريكا وجدت الناس منقسمين إلى معسكرين متعارضين : معسكر الأنصار المؤيدين ، ومعسكر الخصوم المناهضين ، فلم أستطع الانضمام إلى هؤلاء على أولئك ، لأن أمانى روسيا الجهورية بدت لي أكثر فتوناً ، بعد رؤية « البلادة » العامة التي كانت يومئذ ضافية على عهد

هاردينج — كولدج في الولايات المتحدة الأمريكية ، ومشاهدة الشرود المستولى على أوروبا ، وتخطيها على غير هدى في ذلك الحين ، وخضوع الديمقراطية المترنحة المذبذبة في إيطاليا « لفاشية » موسوليني وسلطته ، وتضييع الاشتراكيين الألمان الفرصة الفريدة التي سنحت لهم بعد الحرب للتخلص من ماضي ألمانيا وجماعة اليونكرز العسكريين ومثيري الحروب ورجال الصناعات الحتكرين ، حتى لقد بات خاطري لا يرتضى الانتقادات الشديدة التي كان الديمقراطيون الاشتراكيون يوجهونها إلى البلاشفة الذين قضوا « فعلا » على أنصار الملكيين من الساسة والاقتصاديين في روسيا ، وجعل من العسير على تفكيرى أن أعد « الديمقراطية الاشتراكية » تعويضا عن الرأسمالية أو بديلا منها .

ولم ينقض وقت طويل حتى أدركت أن اختياري قد وقع ؛ فإن الاختيار ، كما لا يخفى ، إنما يكون بين أمرين ، وإن الأمر الآخر هو البديل من الأول والمستعاض عنه إذا كان ميسورا ، وقد اخترت الرياح الجديدة الجارفة على الهواء الراكد الفاسد ، وآثرت الرواد حسنى النية على معاشر الفاشلين الحقيقين الذين ثبت إخفاقهم .

لقد أحببت السوفييت لأنهم كانوا « تجربة » في سبيل مصلحة الجبهة العنسة المنكودة الكادحة ومن أجل خيرها وإسعادها ، ولأنهم قضوا على اختصاصات الأقوياء العدودين ، وامتيازات الصفوة القلال ، ولأنهم كانوا ضعفاء البأس ، مستهدفين لخصومة المحافظين في مختلف أنحاء العالم ومعارضة الرجعيين والجامدين .

وكانت هذه العوامل المحببة والاعتبارات الجاذبة وليدة استعداد فى نفسى من البداية ، جعلنى ، وأنا لا أكاد أشعر ، نصيرا للاتحاد السوفيتى وأحد أشياعه الصادقين .

ولا ريب فى أن وقوف المرء بجانب قضية ما هو أشد تقييدا وسلطانا على النفس من أى شىء سواه ، اللهم إلا العلم بوقائع مشينة تتصل بها ، ومعاييب تشوب جلالها فى خاطره ؛ وكما يعجز المنطق فى الإيمان الدينى عن زحزحته ، لأن التسليم بعقيدة

دينية ليس وليد عملية منطقية ولا ثمرتها ، بل كما يتحدى الإخلاص الوطني ، والحب الشخصي ، جملة من الحجج ، وحشداً حاشداً من البراهين ، لم تلبث الجاذبية التي اجتذبتني إلى السوفييت أن فصلت بيني وبين أحداث الزمن كل الانفصال ، واستقلت بي كل الاستقلال ، فجعلت أنظر إلى التطورات التي تبدو ضارة بروسيا ، باعتبارها مجرد عوارض وقتية سريعة الزوال ، أمام ما سيظهر قريباً من أحداث أبلغ منها دلالة ، وأصدق منها مقبلاً ، وأحسن منها مرداً .

وقد ألفت يومئذ أن أدرس الأحوال متقصياً متدبراً وأروها أميناً مخلصاً ، وكانت أحياناً غير مشرفة للبشفية ، ولا حسنة في حقها ، ولكن ذلك لم يكن ليوهن علاقتي بالنظام السوفيتي ، أو يززع إيماني بمصيرها الباهر وغدها المأمول .

ونشرت لي جريدة « نيويورك نيشن » في ٤ مارس عام ١٩٢٥ مقالاً بسبيل « السجناء السياسيين في عهد البلشفية » تحدثت فيه عن « إما جولدمان » ، و« أليكسندر بركان » ، وهما فوضويان دوليان معروفان زاراروسيا في عام ١٩٢٠ — ١٩٢١ ، وقلت إن السجن في تلك الفترة كانت أملاً منها اليوم بالسجناء السياسيين ، وكان هؤلاء خلالها يجدون معاملة أقسى مما هم الآن واجدوه ، وإن إما وبركان كانا يعرفان هذه الحقائق جد المعرفة لأنهما كانا يستمتعان بحرية الانتقال ، ويصطحبان فريقاً كبيراً من خصوم البلشفية ، وكان هؤلاء يحيطونهما علماً بما يجري ، ويحملان إليهما أبناء ما يقع ، ولكنهما مع ذلك كله لم يريا بأساً من مناصرة الشيوعيين والسعي في ضم الفوضويين الجدد إلى البلشفية ، أو بعبارة أخرى إن الاعتقالات السياسية إنما تبدو لك إن كنت للسوفييت نصيراً شائبة تشوب الشعار الناصع الجميل الذي تحرص عليه ، ولكنها لا تلبث كلما زالت العشاوة عن عينيك ، وانطلقا البريق الذي كان يفتنك ، أن تصبح سلاحاً في يدك ، تحارب به روسيا ، وتشهره عليها كل الإشهار . وقد انتقد أليكسندر بركان ذلك المقال الذي كتبت .

فبعث من برلين يقول : « لقد كان استعدادي النفسي طيباً نحو البلاشفة ، كما

كان حالى فى العام الأول من مقامى فى روسيا ، وقد نازعتنى رغبة صادقة فى المعاونة على عملهم ، ومفاصرتهم ، فلم أدع فرصة سانحة إلا انتهزتها لإقناع زعماء الشيوعية بأن انتهاج سياسة التسامح ، والأخذ بمكارم الأخلاق ، حيال خصومهم السياسيين من حزب اليسار أنفع وأجدى على الثورة من التنكيل بهم والتعسف فى حربهم ، بل لقد ظلت بعد قطع كل صلة بينى وبين البلاشفة ، وانصرافى عنهم إلى غير رجعة ، وعقب حركة التطهير التى جرت فى كرونستاد ، أحاول جاهداً أن أحملهم على تغيير سياستهم إزاء السجناء الثوريين ... » .

وهكذا أيد بركان فكرتى ، فقد كان نصيراً للسوفييت وإن كره منهم معاملتهم الوحشية للمعتقلين السياسيين ، ثم جاءت الوسائل التى تذرعوها بها لإخماد فتنة البحارة فى جزيرة كرونستاد القريبة من بطرغراد فأحققته على النظام السوفييتى كله ، لأن « حمام الدم » الذى جرى فى تلك الجزيرة نقل معاملة السجناء السياسيين من موضع احتجاج خاص إلى سبب يحمل على النقد والهجوم ، وأكبر الظن أن قسوة موسكو على أولئك السجناء هى التى أضعفت من « مناعة » بركان حيال صدمة أنباء الوحشية التى جرت فى « كرونستاد » ، فلم يصبح خصماً للبلاشفة إلا بعد « حمام الدم » ، ولم ينقلب عدواً مبيناً إلا بعد حركة التطهير .

إن الفصيل فى الأمر إذن هو حادث « كرونستاد » ، فقد كان من الجائز قبل وقوعه أن يتردد المرء بعاطفته ، أو يتشكك من جهة خاطره وتفكيره ، فى فضل هذه القضية وحقيقة شأنها ، بل من المحتمل أن يرفض الاقتناع بها جملة ، ويأبى إقرارها كلية ، ولكنه مع ذلك لا يرتضى مهاجمتها .

أما أنا فلم يقع فى طريقى حادث من هذا النحو عدة سنين ، وإنما جعلت خلالها أزن بفكرى وعقلى الباطن النظام السوفييتى وزن المدقق الحكيم ، وكانت قراءتى للميزان بالطبع مرتبهة بما أضعه فى الكفة المقابلة ، وكان جلياً لى فى عام ١٩٢٤ أن الدولة السوفييتية استخفت بالفوازع البشرية ولم تدخلها مطلقاً فى حسابها ، فلم تجعل

الحرية أيقونة مقدسة كما هي في الغرب ، وإنما جعلت إعطاء الجماهير حرية اقتصادية
أسمى من ذلك هدفاً وأنبأ غرضاً ؛ وراح الشيوعيون على هذا النحو يبررون انتفاء
حرية الصحافة ويشرحون الدوافع التي اقتضت قيام إدارة للشرطة السياسية ، وإن
كنت أعتقد أن هذا لا يمكن أن يصلح مبرراً ، لأنني أستنكر إهدار الحرية الشخصية
لأنها كانت عندى أعظم شأنًا وأكبر قدرًا من أى شيء سواها .

وقد قلت في مقالى الذى أسلفت الإشارة إليه إن هدف البلاشفة هو قيام
« مجتمع جديد » ، وإن قيامه نقيماً مطهراً من شوائب الاستغلال يرجح دون شك
بانتفاء حرية الصحافة ووجود البوليس السرى .

لقد كان الأمل فى السوفييت يملأ خاطرى ، ويستثير خيالى ؛ وكانت تعهدات
الحكومة السوفيتية والشيكات المحررة منها للدفع فى تواريخ مؤجلة ، ولو إلى عشر
سنين ، قرائن أخطر شأنًا من قلة الإنتاج الصناعى مثلاً وافتقاره إلى الكفاية والإتقان ؛
فلاغرو إذا لم يلبث ماضيهما السيئ وخططها للمستقبل البديع أن اجتماعاً لتكليف الحكم
على حاضرهما ، وكان المستقبل لرؤوس الأموال السوفيتية ، فقد عرض البلاشفة أن
يبيعوا لأى إنسان سندات وسهوماً فيها ، وكانوا يصورون كل مشروع جديد من
مشروعات السنوات الخمس كخطوة شاقة ولكن ضرورية فى سبيل الصعده نحو العالم
الجديد ؛ وكيف كان ممكناً أن تشكو من قلة البطاطس مثلاً وأنت تبني صرحاً ممرداً
للإشتراكية ؟؟ أفلا تستغنى عن الزبد مثلاً لى تشيد القناطر الضخمة والمشروعات
الهندسية الرهيبة التى ستوفر القوى الكهربائيه وتزيد إنتاج الصلب نمواً ، فلا تكون
النتيجة بعد ذلك كله إلا وفرة فى الزبد ، بل الكوثر منه والفيض العميم ..؟؟

وقد عرف السوفييت الأثر البالغ الذى يحدثه الحلم العظيم ، ونشوة الأمل
الضخم ، وكلما مر الزمان عليه فأصبح ماضياً ، مضوا يحاولون إحياء الإيمان بأن
النفع سوف يأتى ، وأن الخير على الدهر قادم ، بل راحوا فى أواسط عام ١٩٣٠
يأمرون الكتاب جميعاً بأن يعتبروا الحاضر كأن لم يقم ، والمستقبل كأن قد قام ،
حتى عرفت هذه النزعة بقولهم « الرىاليزم الاشتراكى » !

وكان فيسيفولود إيفانوف ، وهو قصاص سوفيتي معروف ، يضع قصة عن الحياة في مصنع ضخيم جديد للسيارات في جوركي ، ورأى أنه من الخير أن يقيم فيه حتى يلم بموضوع روايته كل الإلمام ؛ وخطر له ، وهو في المصنع مقيم ، أن يقرأ شطراً من القصة على جمع كبير من العمال فيه ، وكان الجزء الذي قرأه عليهم وصفاً للمتعاب التي يلاقها العمال في الرواح والغدو مسافات طويلة في «الأتوبيسات» القديمة ، عبر طرق وعرة ودروب يشق فيها المسير .

وبدأ القوم يسألونه .

قالوا : متى تنتهي من كتابة القصة ؟؟

قال : ستة أشهر .

قالوا : ستستغرق مراجعتها ومراقبتها إذن بضعة شهور أخرى ، كما سيقتضي الطبع فترة مماثلة ، أي أن كتابك لن يظهر قبل انقضاء عام ، ولكن ستكون لنا قبل منصرمه طرق معبدة « وحافلات » جديدة وعمارات ذات طبقات صغيرة لسكننا بجوار المصنع ، فلماذا لا تصف هذه الطرق والمركبات والمساكن كأنها بالفعل قائمة ؟؟ ومرضت ذات مرة في موسكو واستطالت بي العلة عدة أسابيع ، فكانت « ماركويسكا » زوجتي تقول للأصدقاء الذين بدأوا بعد فترة من احتجابي يسألون عني « إنه أحسن كثيراً وإن لم يعرف ذلك بعد » وهي عبارة مقصودة جرت على نحو من « الرياليزم » الاشتراكي الذي حدثكم عنه ، لتكون على سبيل « الدعاية » في باب « التعلل بالمستقبل » .

فقد أصبح « التعلل » هو العامل النفسي الذي يمسك بقلوب الشباب ذوى الطموح وإبائهم ، ويربط على أفئدتهم ، ويغريهم بالصبر والتجملد ؛ بل لقد فعل ذلك وأكثر منه في نفوس الذين كانوا يتمنون أن يروا النظام الجديد ماضياً في سبيله نحو تحسين أحوال البشر والنهوض بالإنسان من وهدة الحاضرة ، فكانوا يرون في التقدم قيد شهر أو فتر ، أميلاً عدة ، ونهضة طيبة مباركة .

وكنْتُ أتمسك لأعمال الإنشاء ويهيج لها خاطري ، وأكبر ظني أن حماسي لها
ترجع إلى ما كان يعمل في دخيلة نفسي من الإيمان بالنهضة والتقدم ، فقد اشتد
تحمسي لما رأيته من إقدام الروس على إنشاء المصانع الضخمة ومحطات توليد القوى
الكهربائية وبناء المدن الجديدة ، لأنني رحت أنظر إليها من خلال منظار الأمل
« ومجهر » التعلل والرجاء ، ومضيت أعتقد أنها بداية برنامج عظيم سوف يغير وجه
هذا البلد التمسس ويرفع أقيسة المعيشة بين أهله ، ويدلل على أن حكومات الشعب
تستطيع أن تعمل للشعب عامة ، وتسدى إليه الخير شاملاً كاملاً .

وبدأت الإحصاءات والأرقام المدللة على نمو النهضة الصناعية في الاتحاد
السوفييتي تملأ أعمدة الصحف ، فكانت بمثابة اللحن البديع في موسيقى « الاشتراكية »
والحفل الافتتاحي في « مباركة » الحياة الجديدة ؛ وقد كنت في روسيا حين بدأ
التفكير في إنشاء مصنع ضخيم لصنع الجرارات الزراعية في خاركوف ، وأخذ العمال
في تمهيد الأرض التي سينهض البناء عليها ، وكنْتُ أزور الموقع مرة في كل ستة أشهر ،
وعدت بعد إتمامه أتفقد أرجاء المصنع مرة في العام ، وأحسست يومئذ أنني بعض
أجزائه ، وأن روحي متصلة به ، وخاطري أبداً فيه .

وكذلك أمسى الخزان القائم على نهر « الدينير » قطعة مني ، حتى لقد مضيت
مع كبير المهندسين السوفييتيين فيه أتسلق الصخور القوائم على مجراه عند ما سحبت
المياه منه ، وعدت بعد خمسة أعوام أجوس خلال نواحيه في سيارة وأشهد جداره
الضخم القائم فوق تلك الصخور الشَّمْ ، وأنا أشعر يومئذ بأن السوفييت قد أنشأوا
شلالاً ضخماً « كنياجرا » ليدوا به ملايين من الخلائق بالضوء والدفء والسلع
الاستهلاكية التي لا غناء عنها لحياتهم .

وعند ما نسف النازيون شطراً من ذلك الخزان ، أحسست جرحاً أليماً من
فعلتهم في جوانحي .

وكانت محطات توليد القوى الكهربائية في الخارج ، والمصانع المتعددة الأنواع ، صامتة لا يسمع لآلاتها أزيز ، ولا لدولابها حركة ، فقد ألقت الأزمة المالية في أمريكا وركود التجارة في عام ١٩٢٩ بملايين من الناس في وهدة اليأس ، وهاوية الفاقة ، فأعان ذلك على ترجيح كفة السوفييت ، حتى لقد ذهب إليها الاقتصاديون والباحثون في الدول الرأسمالية لدراسة خططها ومناهجها والبحث في مدى إمكان تطبيقها والأخذ بها في بلادهم .

وبجانب برنامج « التصنيع » لم تلبث الحكومة السوفيتية أن أغذت المسير في سبيل تعميم « المزارع الجماعية » ، وكانت مهمة واحدة من تلك المهام التي اضطلعت بها تسكفي لاستنفاد طاقة أي حكم واستنزاف جهد أي عهد من العهود ، ولكن البلاشفة استطاعوا الاضطلاع بها جميعاً في وقت واحد ، وبدأوا في عام ١٩٢٩ ينفذون تدابير من شأنها أن تدمج المزارع الصغيرة التي لا يقل مجموع الزراع المالكين فيها عن مائة مليون مزارع ، في شبكة الزراعة الجماعية .

وكانت هذه الزراعة هي الانقلاب الأول في نظام الحرث والزرع منذ تحرير العبيد في أوربا على عهد الأقطاع القديم وتحويلهم إلى زراع أحرار لا سلطان عليهم لأحد من السادات والمتجبرين .

وكان المأمول من المزارع الجماعية أن تسكفل مزيداً من الإنتاج ، وكما حل المصنع الآلي محل الصانع اليدوي في القرون الوسطى ، جاءت « السكونلوز » — أي المزرعة الجماعية — لتحل محل الزارع المستقل الصغير ؛ فلا عجب إذا بدا هذا النظام « الجماعي » في الزراعة « كنقطة تحول » في تاريخ البشرية ، ولا بدع إذا راح البلاشفة ، بتلك الروح « الدرامية » التي امتازوا بها ، يحشرون هذا الفصل الجديد في « باب » التطور الاجتماعي خلال بضع سنين ، ولا غرو إذا مضى المراقب الأجنبي في تلك البلاد يهني نفسه بهذا الحظ السعيد النادر الذي أوتيته ، وهو أن التاريخ أخذ يُصنَّعُ بعينه وسمعه !

ولسكن الزراعة الجماعية لم تلبث أن بدت « كرونستاد » أخرى في أعين فريق كبير من الأجانب الذين يعطفون على النهضة الروسية ، وعدد لا يحصى من المواطنين السوفيت أنفسهم ، فقد تبين لهم ، قبل أن يتبين لى ، أن هذا النظام ليس إلا ضرباً بارعاً من الاستعباد فى القرن العشرين ، بل استعباداً بالجملة يراد به حمل الفلاح على العمل تحت أعين بضعة أفراد مختارين من الشيوعيين فى القرية ، ويقصد منه أن يظل المسكين « عالة » على الدولة فى السَّدِّ والبذور ومعظم دخله .

وكان طبيعياً أن يلاقى التأميم الزراعى على هذا النحو مقاومة عنيفة موحشة مترامية المدى من معاشر الفلاحين ، وقد رأينا جميعاً ما فعلت الحكومة السوفيتية حيالها ، فقد نفت جموعاً جامعة من « السكولاك » أو الزراع الموقفين من الأرض وألقت بهم فى معسكرات « السخرة » ؛ ولكن هذا النفي بالجملة لم يحطم المقاومة القائمة فى القرى فقد أبى الفلاحون الفقراء استيقاق ماشيتهم إلى المزارع « الجماعية » ، وعمدوا إلى ذبحها وأكلها ، أو بيعها ، قبل أن يستسلموا للضغط ويرتضوا الدخول فى حظيرة المزرعة الجماعية ، حتى لقد لبثت روسيا عدة أعوام تعاني نقصاً فى الماشية ، وقلة فى الخيل ، واضطرت السلطات إلى الاستعانة بمختلف جميع وسائل القوة والإكراه على استيقاق الفلاحين إلى المزارع الجديدة ؛ وكثيراً ما كانت وحدات من الجيش الأحمر تغشى القرى وينتقل جنودها من كوخ إلى آخر لإكراه القوم على تكوين « كولخوز » أو مزرعة جماعية ، وتهديدتهم بالنفى إلى سيبيريا أو التركستان إذا هم أصروا على الاستقلال بزراعة أرضهم .

وبهذه الوسائل وأمثالها سيق بالكثرة الساحقة من الفلاحين الروس إلى هذه المزارع ، ولكن فريقاً كبيراً منهم ما كادوا يدخلون حظائرهما حتى تملأوا منها أوراخوا « يعرقلون » جهودها الجماعية احتجاجاً على الإفراط فى فرض الضرائب عليهم ؛ أو لبقية أمل فى عدول الحكومة عن المزارع لإخفاقها ؛ وقد رأينا كيف أدت هذه العوامل فى أوكرانيا إلى المجاعة التى ضربت أطناها فى عام ١٩٣١-٣٢

وفتكت بعدة ملايين من أهلها ، وأفتت قرى بجملتها ، وجعلت ثمن تهوور البلشفية وعنادها قادحاً غالباً .

وقد زرت عشرات من هذه المزارع في أوكرانيا والقرم والقوقاز وشمال روسيا في الفترة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٦ وكانت تبدو أكبر وأفضل كثيراً من تلك المزارع الصغيرة التي رأيته قبل ذلك بعدة سنين ، فقد اختفت منها الأسوار المقامة من العوسج وتوارت الخيران والأخاديد ، وظهرت فيها الآلات الحديثة وأقيمت رياض الأطفال ومعاهد الحضانة ، وقال الموظفون إن غلة الأرض زادت ، وأن تجارب البذور ، وتحسين الإنتاج والحراث بالآلات الكهربية وغيرها من المستحدثات العلمية التي لم تكن تخطر للفلاح يوماً ببال أصبحت وفيرة متداولة .

ولكن هل تساوت المحاسن والمساوى ، وهل يعدل الأمل الموعد الثمن المدفوع في سبيله ... ؟؟

لقد بدأت أشعر بقلق ، وأخذتني الحيرة من جميع جهاتي ، فضيت أسائل نفسي أتراني رحت أجد الصلب والكهرباء ، ونسيت الإنسان ذاته .

إن كل ما في العالم من أندية ومدارس وكتب وحرارات وأنوار كهربية وطرق ودروب معبدة لن تزيد شيئاً على العالم الذي كنت أحلم به ، إذا كان النظام الذي أثمرها فاسداً بعيداً من الخلق^١ خلياً من البشرية .

فلا عجب إذا بدت نقط سوداء تلوح في نسج الخيال الذي قام في خاطري من ناحية السوفييت ونظامهم ؛ وقد عمد البلاشفة في شهر يونية عام ١٩٢٨ إلى إعداد المسرح لأول محاكمة رهيبة من محاكماتهم في موسكو ، وأعنى قضية « شاختي » التي اتهم فيها نحو خمسين مهندساً من كبار المهندسين السوفييت بالتخريب والجاسوسية ، وقد حضرت الجلسات من أولها إلى آخرها في بهو « الأعمدة » المشهور ، ولم أدر ماذا أصدقه ، وما الذي أكذبه ؛ ولكنني صدقت جزءاً وعجبت للبقية . ولشد ما تفأقت ربي وشكوكي حين رأيت شرطياً من هيئة البوليس السري مسلحاً بالبندقية

وقد ركبت فيها « السونكي » وهو يقتاد إلى المحكمة رجلاً يدعى « موخين » فيقف في مكان « الشهود » ، ولا أزال إلى هذا اليوم ذا كراً اسم ذلك الرجل وثوبه الأسود ووجهه اللحيم الشاحب المستدير ، فقد مضى يشهد على متهم يدعى « رانوفتش » وهو شيخ جاوز السبعين من العمر ، كان يفاضل في نفي التهمة عنه نضالاً بارعاً حيال النائب العام « كريلنكو » ، وهو في القضية يصول ويحول ، ولا يكاد أحد من هول حجبته وبراعة مرافقته يعرف كيف يقهره ، ولهذا سبق بهذا الشاهد « موخين » لإثبات التهمة وتأييد الحكومة في موقفها ، وكان من قبل في السجن عدة أشهر بتهمة لا علاقة لها بهذه القضية ، وقد راح بعد حلف اليمين يعلن أنه سلم رانوفتش رشوة له وأخرى لتوزيعها على المتهمين .

فلم يكذ رانوفتش يسمع هذا القول منه حتى مشى نحوه فلم يبق بينهما غير قيد شبر ، وراح يحملق ببصره في وجهه ، قائلاً : عمن تتكلم ... أعشني أم عن أحد سواي ... ؟؟

قال : أتكلم عنك ...

فصاح رانوفتش به قائلاً : لماذا تكذب ؟؟ ومن الذي طلب إليك أن تقول كذباً ، وأنت تعلم أنك لم تعطني مالاً .

فاشتد شحوب موخين وازداد وجهه اصفراراً وعاد يردد قصته كمخلوق يردد أقوالاً ، فرض عليه أن يقولها ، أو كآلة حاكية مسخرة ؛ وعندئذ عاجله الشرطي ، فاقتاده إلى الخارج ، وبدا النائب العام كريلنكو مطرقاً ، كأنما قد أسقط في يده ، ولم يبق من شك في أن « موخين » إنما كان يمثل دوراً اخترع له في دار الشرطة السرية اختراعاً .

وقد تحدثت بعد ذلك في هذا المشهد الذي رأيته مع كبير من رجال وزارة الخارجية الروسية ، وكان يعرفني حق المعرفة . فلم يستطع أن يماريني في أكلوبة ما جرى واصطناعه .

ولو أن حدث هذا الشاهد كان فردياً لكان الأمر ، ولم ينطو على أية دلالة بالغة ، ولكن هيئات أن يعد كذلك ، لأن البوليس السرى الذى أعد مشهده كان قد اشتد فى البلاد نفوذه ، واتخذ لنفسه سلطات جديدة ، أو على الأصح سلطاناً عريضاً لا يعرف قانوناً ، ولا يوقر قضاء ، ففي شهر يناير عام ١٩٢٨ قبض على ليون تروتسكى وأبعد إلى آسيا الوسطى ، وكانت جريمته خلافه السياسى مع ستالين ؛ وكانت هذه المشاورات والخصومات قبل الثورة وفى عهد زعامة لينين تعرض على الحزب الشيوعى وهو وحده الذى يفصل فيها من طريق المناقشات وأخذ الآراء ، أما الآن فقد أصبح المسدس فى يد البوليس السرى هو الحكم الفيصل !

لقد كان استخدام البوليس فى إنهاء كل نزاع على السياسة هو « وأترو » الحزب ، والمركة الفاصلة التى انهزم فيها ، بغض النظر عما إذا كان الحق مع تروتسكى أو مع ستالين ؛ وقد عدت إلى تقاريرى ومذكراتى فبين لى أننى لم أنحز إلى هذا أو ذاك فى تلك العهود .

وقد استتبع الاستعانة بالشرطة على هذا النحو اعتقاد الذين أوتوا القوة فى أيديهم أنهم قد أوتوا معها الحكمة . فلم يسع المخالفين لهم إلا أن آثروا السلامة على المجاهرة بالرأى . ولم يلبث خراب الذم أن انتصر على الأمانة والنزاهة والصدق . ولم تغب عنى هذه الظاهرة ، وإنما غاب عنى يومئذ أنها بداية التدهور الذى أثمر اليوم هذا المين والإفك الذى نراه ، وأدى إلى هذا الصمت السائد الذى نشهده . ولم يكن بد أيضاً من أن تساعد هذه الظاهرة على ظهور « الزعيم » .

وقد نفرت نفسى من هذا التمجيد الذى رأيته لمكانة ستالين ، والمديح الذى يرحى إليه ، والملق المترامى من حوله ؛ فقد راحت الدعايات التى كان هو بالذات مسئولاً عنها تصوره للناس فى صورة الزعيم « المعصوم » الرحيم العليم المبدع الذى صنع كل شىء حسن فى روسيا ، جاء بكل خير ، ومنه كانت تستفيض البركات والأنعم والطيبات . أما الأغلاط والحن والنكبات والهزائم والنكسات ، فلم تكن بالضرورة إلا من عمل « الخريين » و « والتروتسكيين » وأعداء الشعب وخصومه ... !

وقد رحت أصبُّ جامَ غصبي على هذه العبادة الجديدة لشخص ستالين في مقال
كتبته في موسكو ونشرته في نيويورك عام ١٩٣٠ ، وحملته تبعة ذلك كله ، وسميت
هذه الظاهرة أسوأ التسميات ، فقلت إنها « مناقضة للبشيفية » ، وإن كانت في الواقع
« بلشفية » صميمة ، لأنها النهاية التي لا مفر منها للدكتاتورية ؛ فقد رأينا موسوليني
وهتلر يتوليان حركة مماثلة في باب المديح الذاتي ، وإملاء التسبيح والحمد والتمجيد ؛
ولكنني في ذلك الحين لم أكن أعتقد أن فساد ذوق ستالين ، وسوء سلوك البوليس
السري ، من الجرائم الفتاكة القاتلة ، وإنما كنت أحسبهما « دُمِّلَين » في جسم
سليم كان مع ذلك يشيد المدائن وينشئ القيم الجديدة ، وكنت أعتقد أن ما ينفع
الناس سيمكث في الأرض ، وأن ما لا خير فيه عارضٌ لا يلبث أن يزول ، ومضيت
أضع كل شيء في الميزان ، ولكن الأمل الذي كان يداعب خاطري شوّه حكمي
على الأمور ، وجعلني لا أقسط في الوزن ، ولا أعدل في الحكم ، لأن الرؤية ذاتها لم
تؤثر في الإيمان .

ولعل انكشاف الواقع لخاطري كان بطيئاً ، ولكن لم تعرض يومئذ لي مشاهد
« كرونستاد » ، ولو وقعت لمنعني « حمام الدم » الذي أقامه هتلر في ألمانيا عام ١٩٣٣
من التحلي عن الإيمان بالاتحاد السوفيتي ، فقد مضى النازيون يعلنون خهرة مذهبهم
وهو « الفأس » — وفي ذلك كان هتلر يقول « سنطيح بالرؤوس » ؛ وإلى جانب
الفأس « القورر » وألمانيا المترامية النطاق ، والمناهضة للسامية ، والعداء للشيوعية ،
ولو نجحوا في هذا السبيل ، لهوت البشرية إلى درك الوحشية ، والدم ؛ وقد أعان
الشيوعيون هتلر على الوصول إلى ذروة الحكم وقوة السلطان ظناً منهم أن القضاء على
مراكز الديمقراطية سيدلّل لهم في النهاية النضال حيال النازيين ، وهو خطأ منهم
لا يفتقر ، وسوء تقدير لا علاج له .

ولم يكد « النازيون » يستولون على ألمانيا ، حتى انقلب الشيوعيون الألمان
عليهم ، بينما ظلت حكومة السوفييت عاماً على الأقل مترددة لا تدرى أتقدم أم تتحجم .

قبل أن تنضم إلى الصراع ، ولم تنبذ الدول الرأسمالية إلى خطر هتلر إلا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد رأينا ليتفينوف وزير الخارجية السوفيتية عندئذ يوجه حركة قوية نحو تحالف ضد الفاشية لكي يمنع الحرب ، وينبى في جنيف ليسلخ أديم الذين كانوا يحاولون تهدئة خاطر هتلر وتلميحه ، ومصانعة موسوليني واليابان ؛ وكان نجاحه في إقناع الصحفيين والمنادين إلى « المسالمة » غير معوض عن فشله في تغيير خطط الحكومات البورجوازية المحافظة الهزازة للظروف ؛ وقد أصبح اسم « ليتفينوف » رمزاً ، ولا يزال كذلك ، للسخرية من أولئك الذين كانت ولا تزال حججهم أن المعتدين الفاشيين هم وحدهم الذين أثاروا الحرب العالمية الثانية ، فقد كان لهتلر أعوان بين الدول الديمقراطية كان لهم أثر إيجابي أو سلبي في دفع العالم إلى الحرب .

إن محاربة هتلر تبدو خيراً وأحكم من محاربة الاتحاد السوفيتي ، ما دام الأخير يشن نضالاً عالمياً على الفاشية والحرب معاً ، فلا عجب إذا رأينا النقاد الذين دأبوا فيما مضى على انتقاد موسكو يخففون من هجماتهم ، ويضمون صفوفهم لتكوين جبهة شعبية من الأحرار والاشتراكيين والشيوعيين .

وتحسنت أحوال المعيشة في روسيا تحسناً محسوساً في الفترة بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٥ ، وإن كان تحسنها ضئيلاً إذا قيس بمستواها في البلاد الأخرى ، ولكن الروح المعنوية والمبادئ والمثل العليا بين الشيوعيين كانت آخذة في التدهور والوهن ، حتى لقد أحال تدخل البوليس السرى في مشاجرات ستالين واختلافاته في الرأي مع اليساريين واليمينيين المعارضين ، الحزب الشيوعي إلى شيء أشبه بخاتم من المطاط في يد الطاغية . يصمم به ما يريد . ويطبع به ما يشاء . فقد طغت بيرقراطيته إلى جانب بيرقراطية الحكومة ذاتها . فأولدنا المتملقين والمداهنين وخزبي الذم والمستهترين والخبثاء ، وكان باعث كل كلمة تقال ، أو فعلة تفعل ؛ في أعلى الأوساط وأدانها على السواء ، يرجع إلى الخوف ، أكثر منه إلى الفكر ، ومرده إلى المصلحة الشخصية

أكثر منه إلى المصلحة العامة ، وكان كل إنسان له رأى مخالف فيما مضى أو عاد يفوه بكلمة صريحة قد تحدث أثراً في النفوس ، يتلقى زيارة من الشرطة في الثانية من الصباح ، ولا يلبث أن يضم إلى « بناء الاشتراكية » في مجاهل سيريا والمناطق المنجمدة الشمالية .

فلا غرو إذا شهدنا قناصى القرص ، الحذرين ، الحريصين ، الخانعين ، سواء في هيئة الحكم ، وصفوف الحزب ، والنقابات وغيرها من الهيئات ، يقدرون مواقع أقدامهم قبل الخطو ، ويتلفنون يمنة ويسرة ، ويجاهرون بالولاء مجاهرة ، ويرددون في أنعام رتيبة ألقاظ الدعاية الحكومية وعباراتها ، ويلتمسون عن ذلك كله العزاء ، في العيش المترف ، والحياة المليئة بألوان البذخ ومظاهره ، فهم يأكلون ويشربون ويرقصون ويلهون ، على قدر ما يحيز التسامح في الأقيسة ، ويبيح التراخي في التطبيق .

وجعلت « الكرملين » تنادى بأن المساواة هي « فضيلة بورجوازية » ولكن لا شك أيضاً في أنها ليست فضيلة « سوفيتية » فإن المسافة بين أغنى الأغنياء ، وأقفر الفقراء ، لم تلبث أن تجاوزت الحدود المعروفة عن الرأسمالية المتناهية ، وأصبح العمل « بالقطعة » عاماً ، واستحالت النقابات مجرد هيئات « على الورق » — أو صورية — بينما أمسى مديرو المصانع والإدارات « القواد الأفذاذ » المفردين ، الذين يستأجرون ويفصلون ويحددون الأجور .

وفي عام ١٩٣٤ أطلق شاب يدعى « نيقولايف » النار على سرجى كيروف فقتله ، وكان هذا « الرابع » في ترتيب رؤساء النقابات في ليننجراد ، وإذا بالبوليس السرى يعدم مائة وثلاثة في الحال ، وكان هؤلاء سجناء من عدة أشهر قبل مصرع كيروف ، وتلا هذا الإعدام بالجملة على هذه الصورة إبعاد زينوفيف زميل لينين من البلاد ومعاقبة رؤساء البوليس السرى في ليننجراد .

وأحسست في أعماق ملالة وتبرم . حين رأيت الدولة « السوفيتية » التي كان

محكوما على مثلها نظرياً أن « تذبل وتموت » قد ترامت حتى استحالَت إلى « غول » بشع ضخم مشنوء الخلقه موحش رهيب ؛ وشاهدت هذه الحكومة البلشفية ذاتها مواصلة في الخارج السعى لإقامة كتلة من « السلامة الجماعية » حيال العدوان الفاشي ، ولكنني كنت أشعر بأن هذا كله لا يكفي ، حتى لقد كتبت يومئذ أقول في سياق رسالة نشرتها صحيفة نيويورك نيشن : « أعتقد أن صبغ الاتحاد السوفيتي بالصبغة الديموقراطية ^(١) من شأنه أن يضعف خصوم السلام » . ورحت في ذات مساء أقرأ هذه العبارة وأنا في موسكو من مسودة رسالتي على قسطنطين أومانسكي مدير إدارة الصحافة في وزارة الخارجية الروسية ومساعدته بورييس ميرنوف ، فأمن هذا عليها ، بينما مضى الآخر ، وهو أومانسكي الموظف الصُّلب المتشدد يقول إنها ليست في محلها .

وقد أعدم ميرنوف فيما بعد بسبيل إحدى المحاكمات ، وأصبح أومانسكي سفيراً في واشنطن والمكسيك ، وإن كان قد لقي حتفه بعد عشرة أعوام أو قرباتها في حادث سقوط طائرة أحاطت به ظروف غامضة

والواقع أن الديموقراطية داخل روسيا كانت ستروح ملائمة كل الملائمة ، متنسقة كل الانساق ، مع سياسة التعاون على صون السلام مع الديموقراطيات الغربية حيال هتلر ؛ ولو تحقق ذلك لها ، لاستطاعت روسيا أن تؤيد العناصر المناهضة لفكرة « المسألة » في بريطانيا وفرنسا وتناصرها في التخلص يومئذ من أشباه نيفيل تشمبرلين وأشياع ديلايديه ، ولتجاشت حركة التطهير التي تولاها ستالين ، وتجنبت المحاكمات الكبرى التي جرت في موسكو فأوهنت روسيا اقتصادياً وعسكرياً . بل لو أن ذلك تحقق لما وقعت روسيا ميثاقها مع هتلر في عام ١٩٣٩ ، وبعبارة أخرى عرفت روسيا كيف تمنع نشوب الحرب التي أعان السوفييت الطغاة على التعجيل بها .

ولست أشك في أن ستالين عاقل ، إذا نحن استثنينا الدوافع القاهرة إلى الحماقة

(١) في الأصل استعمل الكاتب لفظة جديدة ، وهي « ديمقطة » الاتحاد السوفيتي ، وهي فعل مشتق من « ديمقراطية » .

التي تلازم نظامه ، وقد توافرت البوادر على أنه كان عليا بأمر الأزمة الداخلية التي ترجع أسبابها إلى اشتداد الطغيان ووهن الإيمان ، فقد بدد البلاشفة التراث الروحي الذي خلفته الثورة ، فلم يأت عام ١٩٣٤ حتى توافر الحزب في البلاد ، ولكن الناس لا يعيشون على الحزب وحده ، وبخاصة إذا كانت موافاتهم به غير مضمونة ، ولا مستقرة ، واحتاج هذا النظام إلى حوافز جديدة تحبب الشعب إليه ، وتخفف من وقع السياسة التي رسمت أخيراً ، لمنح امتيازات واجبة للجيش والشرطة والمهندسين والطبقة الاستقرائية في صفوف «الكادحين» وكبار الموظفين في الدولة «البيرقراطية» الذين يتألف منهم الحرس المأجور لهذا النظام الجديد .

ولكن لم يكن ثمة من حوافز جديدة ، ودوافع مبتكرة لم تجرب من قبل ، يتيسر للعهد البلشفي الالتجاء إليها ، غير « القومية » والحرية .
فعمد ستالين إلى تجربة الأولى .

ولم يكن أمام الدكتاتورية ، بعد أن بددت الأحلام الزاهية التي تتطلع الحوافز إليها على الأيام ، غير شيء واحد ، وهي أن تتولى عن الغد بوجهها ، وتنتظر إلى الماضي وتحصر كل همها فيه .

وكان هذا هو جوهر السياسة « القومية » التي انتهجتها الكرملين في ذلك العام ...

وقد شهدنا الثورة النازية تبدأ بتمجيد ماضي ألمانيا ، ورأينا الثورة البلشفية تنتهى بتمجيد ماضي روسيا .

لقد كان لروسيا ماض عظيم ، وكان أبطاله خصوماً للقيصرية وعليها متمردين ؛ أما هذا الدور الجديد فلم يعمد إلى تمجيد ذكرى أولئك الثائرين ، وإنما راح يمجّد القياصرة ، من أمثال « إيفان الرهيب » ، وبطرس الأكبر ، وكاترين العظيمة ، ويشيد بذكر الأمراء القيصريين ، والقواد الذين حاربوا الثائرين ، أشباه « سوفاروف » ، وانشئ ينتزع رهبان القرون الوسطى وأخبارها من وسط خيوط

العناكب التي نسجت حولها لفض الغبار عنها وإعادة تجميلها ، وإزجائها في صور
القديسين والأولياء الوطنيين، وحث الناس على تقديسهم ، وكانوا من قبل قد أوحى
إليهم أن يبغضوهم ويولوهم المقت الشديد ؛ فلاعجب إذا بات الناس من هذا التناقض
مبهوتين ذاهلين ، ولم يكن من هذه « المهازل » إلا أن زادت في حرج أزمة الإيمان
التي كانت قد بدأت حين قيل للناس إن تروتسكي وغيره من مؤسسى الحركة الثورية
« فاشيون » ؛ ويوم يقال عن تروتسكي إنه « فاشى » وعن إيفان الرهيب إنه بطل
سوفييتى ، لا تلبث أقيسة الحكم الثابتة أن تتوارى ويصبح الناس متلذذين حيارى
لا يدرون بماذا يؤمنون وبماذا يكفرون ، فقد ينقلب الذين كانوا فى مطلع النهار ملائكة
إلى أبالسة قبل أن تغيب شمسهم ، وليس لبلبله الأفكار على هذا النحو غير نتيجة
واحدة ، وهى شيوع النفاق ، وقبول ما يهبط الوحي به من قباب الكرملين بغير
تفكير ولا مناقشة ، وهى حال قلق لا يأمن الناس فيها على نفوسهم ، ولا تطمئن
بهم حياة .

وكانت الروح القومية الجديدة « روسية » صرفاً ، فقد عمد الكتاب الذين
يمشون مشية « الأوز » إلى إعادة كتابة التاريخ للتدليل على أن روسيا القيصرية لم
تكن « سجن الأمم » كما كان الشيوعيون من قبل يقولون فى وصفها ، وجعلت
دراسة اللغة الروسية إجبارية على سائر الأقليات ، وأعيدت مخلفات القيصرية
ومظاهرها الخارجية التى طالما سخر البلاشفة منها واتهموها ، ودعوا آثار الماضى
البعيضى ، وظهرت من جديد الألقاب الجديدة التى كانت تمنح للضباط و « الشعائر »
التي كانت توضع على الأكتاف .

وكان هذا مولد الفكرة الجديدة « روسيا فوق الجميع » التى راحت القومية
الجاهلة ، المتوثبة بعد بضع سنين أخرى تمحوها فكرة « الدولية » ، وتؤثرها عليها ،
كشعار وطنى لروسيا الحديثة ، كما أدت الفكرة الجديدة إلى الاستعانة بالكنيسة كأداة
محلية ، ووسيلة فى الخارج ، لخدمة أغراض الحكم وتحقيق مراميه ، وإلى ظهور قواد

عظام تملأ صدورهم الأوسمة ، ويلوحون أشبه « بجورنج » أشكالا ومظاهر وقدوداً ،
وإلى ظهور الروح الاستعمارية السوفييتية ، وليدة القومية ، وإلى الدعاية والترويج
للجامعة السلافية ، وهي نزعة لا تقل عن « الجامعة الجرمانية » شراً ونكراً .

لقد كانت البلشفية ثورة على ما تركته القيصرية من تراث سيء ، في مختلف
النواحي المادية والثقافية والنفسية ، ولكن ما لبثت القيصرية أن دلت على أنها ما فتئت
تقاوم وتكافح ، فلم يتقدم العالم الخارجى إلى معاونة العهد الجديد على دحر العهد القديم .
ولهذا كله تولانى العجب العاجب من جنوح البلشفية إلى النهل من آبار
القيصرية « السكدرة » ، وشعرت باشمئزاز بالغ ، فقد كان ارتباطى القوى بالنظام
السوفييتى يعود إلى « دوليته » ونظرته التقدمية ، وتطلعه إلى الغد المرقوب .

وجرى التهامس بين الناس فجأة فى عام ١٩٣٥ ، بأن النية متجهة إلى وضع
دستور ديموقراطى جديد ، وما إن حل العام التالى حتى تحقق الهمس ، وأعلن النبأ
ونضجت الفكرة .

دستور ستالين ... !

لى الله ... ! لقد أمسكت بالنبأ من قرنيه ... !
فقد أردت أن أصدق به وأومن ، لأننى لم أشأ أن أتخلى عن قضية وضعت فيها
مثل ما وضعته من مدخر روحتى ، ورأس مال عاطفى .

ومن يدرى لعل ستالين قد فطن يومئذ إلى أن الشعب ظمآن إلى منهل الحرية ،
فقد كانت له ، كما قال لينين ، فى الفترة القصيرة التى تولى كيرنسكى فيها الزمام ،
وتقلد السلطان ، بل فى الحق لقد كان الشعب يستمتع منها فى عهد القيصر نيقولا الثانى
بنصيب أوفر مما أصابه تحت حكم البلاشفة .

والآن وقد تم القضاء على جميع العناصر المعادية فى الاتحاد السوفييتى بلا أمل فى
رجعة أو مآب ، فقد أصبح فى وسع ستالين بلا أدنى خطر على النظام ذاته أن يمنح
الشعب وثيقة جديدة للحرية ، قد تثير الحماسة مرة أخرى ، وتستعيد الحمية الماضية ،
فيذل بذلك مهمة الحكم فى الإدارة والإنتاج .

لقد أردت أن أؤمن بأن الدكتاتورية الخيِّرة المنبعثة عن سامي الدوافع ونبيل الأغراض يمكن أن تتخلى عن طغيانها ، وتتحول عن غاشم سلطانها ، وتسلك مسلكاً جديداً .

ولكن لم يفتنى حين وضع الدستور المرتقب ما فيه من نقص وعيب ؛ فقد أقام وثيقة حقوق ، ولكنه لم يعين أداة تنفيذية لتحقيقها ، ولا سلطة قضائية لحراستها وضمانها .

وقد تحدثت في ذلك إلى « كارل رادك » Radek عشية صدور الدستور .

وكان رادك كاتباً سوفيقياً يشار إليه بالبنان ، وأحد أصحاب لينين ، وعضواً في اللجنة التنفيذية للحزب ، وزميلاً لستالين ، ومحدثاً بارعاً لا يشق له غبار ، حتى ليعرف كيف يرد على كل سؤال ، ويحيب عن كل أمر ، وقد يلقي سؤالاً ويبادر بالجواب عنه ، قبل أن يتمكن المسئول من الرد عليه .

قلت له في هذه المناسبة : إن مسألة الدستور هي في الواقع مسألة « الأوجوب » — أى البوليس السرى — .

فصمت دقيقتين كاملتين ، وهو يذرع الحجر ذهاباً وجيئة ، ثم انثنى في النهاية يقول : « لك حق ! » .

وكان ستالين يومئذ متعباً من البوليس السرى متضيقاً ، فقد حاول على عهد رئيسه « ياجودا » الذى حكم عليه بالإعدام فيما بعد بسبب مطامعه أن يصبح رأس الديكتاتورية وذراعها في وقت واحد ، وأن يسمى دولة في الدولة ، فلم يلبث ستالين أن عهد يومئذ إلى تطهيره .

ولكن هل تراه مستطيعاً أن يقص من أطرافه ، ويكبح من جماحه ، ويجرده من سلطانه وسلاحه...؟؟ وبذلك يتيسر له أن يجعل الدستور حقيقة واقعة تبعث الأمل في التحسين والإصلاح .. لأنه إذا لم يفعل بقيت وثيقة الحرية التى حملت اسمه مجرد « رمز » لإحداث تأثير في نفس العالم الخارجى ، وظل سهماً في

كفانة المهيج السوفييتي المحترف ، ووسيلة لتضليل الناس في الداخل والخارج على السواء .

وإذا بالآمال التي كانت تداعب خاطري وأنا أحاول جمع الأدلة والقرائن على صدق إيماني ، وقوة بقيتي ، أن تحطمت بحدّاً ، وتلاشت وشيكاً ؛ فان هيئة البوليس السري لم يكبح جماحها ، ولم ترد عن غيها ، ولم تجرد من سلاحها ، وإنما غربلت غربلة ، ولم يتجاوز الأمر مجرد « تنقية » أضفيت عليها حقوق جديدة ، ورفعت سلطات أخرى ، على حساب الوثيقة والدستور .

وكانت محاكمات موسكو الصاخبة في أعوام ١٩٣٦ و ٣٧ و ٣٨ قد أعدت فعلاً عدتها ، ولم يكن الشعب خلالها يشهد إلا جزءاً يسيراً من مصارع الألوف الذين مضى البوليس السري يقتلهم برصاصه ، مصوباً نيرانه إلى رقابهم من الخلف في المحابس والسجون ، بغير محاكمات .

لقد كانت تلك المحاكمات والمصارع الرهيبة ، تناقضاً غريباً مع مزامير الدولة وأنشيداتها في مديح « الدستور الجديد » !

وكان الظلام قد بدأ من قبل يلقى ظلاله القائمة ، فلم ينتصف عام ١٩٣٦ ، ولم تكذب تبتدأ المحاكمات ، حتى أحسست أن الليل مقبل ، والظلمة مدلهمة ، وشعرت بأنني لم أعد أبغى المقام في روسيا السوفييتية .

وكان في الإمكان أن أظل يومئذ على حماستي لما أخذت المصانع الجديدة تضطلع به من جسام الأعمال ، وما أدخل على الزراعة من حديث الوسائل والأساليب ، فقد كنت أحب الشعب السوفييتي ، وأرجو أن يظفر على الأيام بوفرة من الأحذية والمساكن والنور السكهر بأى ، وكان قد بدأ فعلاً يظفر بزيادة في عدد المدارس وعناية بالصحة والعلاج ، ووفر من الرفاهية .

لقد كانت الروح المعنوية قوية في روسيا حين زرتها لأول مرة ، وإن لم يكن ما حققته الثورة يومئذ شيئاً مذكوراً .

لقد كانت الروح العامة روح تفان مثالي ، وتضحية سامية ، وإقدام جريء ، وشجاعة ثائرة ، وكانت الشيوعية رمزاً للثورة والانقلاب .

وأما اليوم ، بعد تسعة عشر عاماً من مولد النظام البلشفي ، فقد قتل الخوف المقيم الذي يبرره الإرهاب العام ، روح الثورة ، وأسكت الأصوات الناقمة ، وقضى على تلك الشجاعة المتمردة ، وحل الاستهتار وطلب السلامة والأمان محل التفاني والتضحية ، وقام في موضع النضال في سبيل المثل الأعلى ، العمل للمصلحة الخاصة ، والمجد الذاتي ، وحلت محل الروح الحية المتوثبة ، روح المجازاة الميئة ، والمداواة السقيمة ، والأوضاع البيروقراطية ، وترديد العبارات المصطنعة ، وتكرار « الكليشيهات » المزيفة المفتعلة . وقد جالت هذه الخواطر الغوامضة في نفسي ، واستولى أشباهها على مشاعري ، ورأيت من جماعة الموظفين قوماً كانوا صحاباً لي لا يترددون أحياناً في الكلام معي ، أو التلميح لي ، قد عادوا يصمتون ، ويخلدون إلى السكوت ، أو إذا هم تكلموا لم يخرج كلامهم من القلب ، وفقد العمل الصحفي في موسكو ما كان له من حماسة ، وما كان يقدمه إلى المرء من عزاء وترضية .

فما الذي يغريني بالعيش في بلد كهذا ويحبب إلى نفسي الثواء فيه ...؟؟

وفي ذلك الحين بالذات — أي في شهر يولييه عام ١٩٣٦ — نشبت الحرب الأهلية في أسبانيا .

فقد عمد الجنرال فرانيسكو فرانكو ، بمعونة فريق من العسكريين الرجعيين ، وحزب الفلانج الفاشي ، وجماعة الملكيين ، والارستقراطيين المومنين ، وكبار أصحاب الأراضي ، إلى تنظيم حملة عدوانية على الحكومة الحرة الديمقراطية المستنيرة وليدة الانتخابات الشرعية في البلاد .

وكان الشعب الأسباني قد ظفر بمحبتتي وإعجابي خلال زيارتي لأسبانيا في عام ١٩٣٤ وريبع ١٩٣٦ ، فقد رأيت الأسبان قوماً مثقفين ؛ حتى وإن كانوا أميين جاعلين ساغبين ، وأدركت أن بهم فتوناً وولوعاً بالظهور بمظهر الأمة «الديموقراطية»

وهو تكلف يثير الاشمئزاز ويبعث النفور إذا لم يكتسب شيئاً من الروعة ، ولم تتوافر له الهيبة البالغة .

وقد عرفت فيهم الاهتمام بالشكليات ، ويؤثر عن امرأة أسبانية قولها « إنا لنؤثر أن نموت قياماً على سوقنا ، على أن نموت ركعاً جاثين ... » .

ولكنهم مع ذلك عاشوا قروناً عدة على رُكبتهم ؛ مستذلين ، تصرعهم الفاقة ، ويطحنهم الظلم والاستبداد ، وتخضعهم طبقة عليا من الحكام المتخلفين ، استطاعت حجز الثورة الفرنسية عن دخول بلادهم ، وتولت في عام ١٩٣٦ التجربة ذاتها ؛ فحاولت حجز مبادئ القرن العشرين عنها ؛ وهذا هو ما كان فرانكو يريد من عدوانه وهجومه ، فلا عجب إذا هو تلقى على الأثر من هتلر وموسوليني عدة وعتاداً وأعواناً ومناصرين .

وما لبثت أسبانيا أن أصبحت الخط الأمامي للقوات المناهضة « للفاشية » ولشد ما سرني أن أغادر روسيا لأكون عن كثب من المعركة .

لقد تسلسل الموت إلى روسيا في فحمة الظلام ، ولكنه جاء إلى أسبانيا من الامام ، وتحت الشمس ، وفي وضوح النهار .

وقد حزنت أسبانيا ، ولكنها ظلت نبيلة مترفعة سامية ... ؟

وأرجأت الحرب الأهلية الأسبانية خروجي على الشيوعية وتمردى ، لأنها شغلت بالي ، واستنفدت نشاطي ، واستحوذت على قواي ، وإن ظل الاتحاد السوفيتي مائلاً في مخيلتي ، و بقيت أفكر فيه عن بعد وأسترجع ذكرياتي فيه .

ولعل صراع الجمهورية في أسبانيا حيال الفاشية كان الذروة التي انتهت إليها السمو السياسي ، والنبالة المثالية ، في النصف الأول من القرن العشرين .

لقد كان العطف الخارجى على روسيا السوفيتية حتى في أنضر السنين ، وأحسن العهود ، عطفاً سياسياً ، أو فكرياً ؛ فقد مضت البلشفية تثير عواطف حادة في نفوس أنصارها في الخارج وجوانح المتشيعين لها في مختلف البلاد ، ولكنها لم تثر فيهم غير

قليل من ذلك العطف الرفيق والحدب الرفيع الذى أثارته أسبانيا الوفية لعهـد الجمهورية
الصادقة الولاء لقضيتها الوطنية .

لقد كان أنصارها يحبون الشعب الأسباني ، ويقاسمونـها على مضض محنتها ،
مستعينين بالرصاصة والقنبلة ، أو صابرين على الشظف والمسغبة والجوع .

وكان الفارق بين العاطفتين أن النظام السوفيتي أصاب موافقة فكرية ، وأن
النضال الأسباني جعل الناس مواسين له فى أعماقهم ، متأثرين له بأرواحهم ومشاعرهم ،
وزاد فى هذا العطف أن أنصار الجمهورية كانوا أبدا الجانب الضعيف فى هذا النضال
المستمر ، وظلوا طيلة المعركة الخاسرين المنـدحرين ، وكان أصحابها وأنصارها يخشون كل
الخشية أن تنتهى قواها ، وتضمحل ، مُـنـتـهـبـة فستسلم وتستكين .

ولن يستطيع أحد أن يدرك مدى الفرح بالنصر وكثرة الأسى والحزن على الهزيمة ،
فى نفوس الملايين من المشتركين من بعيد فى تلك الحرب الأهلية وتقلباتها ، غير الذين
عاشوا مع أسبانيا بأرواحهم فى تلك الفترة الدامية ، فترة الثلاثة والثلاثين شهراً التى
سلختها ، من شهر يولية عام ١٩٣٦ إلى شهر مارس عام ١٩٣٩ .

وقد تبين لى بعد متابعة الموقف عدة شهور أن الكتابة عن ذلك النضال الخطير
من ناحية مصير الحرية البشرية والسلام العالمى لا تكفى ، فبادرت إلى التطوع فى
صفوف « الفرقة الدولية » وكنت أول أمريكي فعل ذلك .

وعيننى أندريه مارتى الزعيم الشيوعى الفرنسى الذى كان يتولى قيادة تلك الفرقة
فى وظيفة « الكوارتر ماستر » ، أو ضابط المؤن « والتعيينات » ، ولكن لم يلبث
وجود رجل مستقل مثلى فى الفرقة أن بدأ يقلق باله ، فنقلنى إلى عمل آخر ، وهو العمل
الذى ظلت أوديه إلى أن انهارت الجمهورية وتداعى بنيانها .

وكنا جميعاً مقتنعين بأن الحرب الأسبانية هى المعركة الأولى من الحرب العالمية
الثانية التى اقتربت ساعتها وحان اشتعالها ، وكانت ألمانيا وإيطاليا تنظران إليها هذه

النظرة بالذات وقد استخدمتها لتجربة أسلحتهما وتدريب رجالهما ، وكسب حليف لها في شبه الجزيرة الاستراتيجية ، وهو أهم من الهدفين الأولين وأخطر شأنًا .

ولكن بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، بقصر نظرهن على غير المألوف منهن ، ودافع « باثولوجي » عجيب نحو تعذيب أنفسهن ، مضين ببذل كل ما أوتين من قوة وجهد لتدمير تلك الجمهورية الديمقراطية ، التي كانت ستصبح لولا ذلك كله شريكتهن الصادقة ، ونصيرتهن الخليفة النفع في الحرب ضد الفاشية .

أما المكسيك ، وروسيا السوفييتية وحدها دون الدول العظمى ، فجعلتا تمدان الحكومة الموالية للجمهورية بالأسلحة وتزوداتها بالخبراء ولم تكن مساعدة موسكوها تكفي لتمكينها من كسب النصر ، وكانت روسيا قد لجأت إلى بذل تلك المعونة ، عقب تحلى تشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا ، ودلاديه رئيس وزراء فرنسا عن سياستهما المسالمة حيال النازي ، والفاشية ، وفرنكو ، ولولاها لأمكن منع الحرب العالمية الثانية ، أو تيسر الظفر للديمقراطيات بحصن منيع في أسبانيا يتسنى لها أن توجه الحرب منها ، ولكن بريطانيا وفرنسا عجزتا عن إنقاذ شيكوسلوفاكيا في محادثات ميونخ خلال شهر سبتمبر عام ١٩٣٨ بل تركتاها ، حتى نزع منها سلاحها وحررت من مقومات النضال تجريدًا ، وبدأ يومئذ جلياً أنهما لن تنقذا الجمهوريين في أسبانيا ، وما لبثت البوادر أن أوحى بأن الجمهورية الأسبانية مقضى لا محالة عليها ، فأقلت روسيا من المعونة ، وتولت عن التأييد والإمداد .

والتقيت في الجبهة والمطارات والمستشفيات ومقر القيادة ، والدور والمساكن الخاصة ، بفريق كبير من الروس الذين أوفدوا لبذل أقصى ما في مكنتهم من المعونة للجمهوريين وما رأيت في الحرب الأسبانية أحداً أشد منهم دأباً ، ولا أكثر منهم إقداماً ، ولا أبهر قتالاً ، ولا أصدق تفانياً وولاء ، حتى ليخيل لي أنهم مضوا يسكبون في ذلك الصراع الرهيب تلك القوة العاطفية الثورية المستحصدة التي لم تعد تجد أمامها مجالاً فسيحاً في روسيا ذاتها .

وكان هذا هو بعينه إحساس عدد لا يحصى من الأشخاص في الاتحاد السوفيتي، فقد كانوا يرجون أن تكون أسبانيا وسيلة روحية « لنقل الدم » إلى البلشفية بعد ذبولها، وأداة لملاجئها من خمودها، وإنطفاء جذوتها الماضية .

ولكنني في سفرتي إلى موسكو عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ الرؤية زوجي وولدي وجدت الأفق القاتم أشد قتاماً مما تركته ، وأفخم سواداً ، وأبصرت ستالين ورئيس شرطته الجديد « يزهوف » معنيين في مذابح تشمل كبار الشيوعيين وصغارهم ، وتطيح بالموظفين والمهندسين العسكريين والفنانين والمستنيرين والأجانب من الشيوعيين وأعضاء النقابات والمشرفين على المزارع الجماعية ممن استهدفوا لنقمتها أو أخذوا بالشبهات أخذاً .

لقد راح النظام البلشفي يوثد العقول الكبيرة فيه وكان الناس يتكلمون مخافتين ، ويتحدثون هامسين ، ولم يعد أحد منهم مطمئناً على نفسه من كلمة سوء تقال عنه ، أو كيد يكادله ، فتنتهى حياته في غيابة السجن ، أو يجد أسوأ من ذلك منقلباً ، وكان كل امرئ بالآخر متظنناً ومنه متوجساً ، وكل إنسان في أعين سواه جاسوس ، بل لم يكن المالقون أنفسهم يومئذ مطمئنين .

ولو أني جاهرت يومئذ بالخروج لخسرت صلاتي بالروس الشجعان الباهرين في أسبانيا ، وأضعت كل فرصة أمانى للعمل مع زعماء الجمهوريين في سبيل قضيتهم ، وكان الشيوعيون الأسبان يومئذ قد اكتسبوا قوة بالغة في المعسكر الجمهوري فلو أني ظهرت عندئذ بمظهر الناقد لروسيا السوفيتية لفروا مني ، ولم يرحبوا أحد فيهم بي ، ولهذا اقتصررت على التحدث مع « نجرين » رئيس الوزراء ونفر من أصدق أعوانه عن الأحداث البشعة التي كانت تجري في روسيا ، وتحذيرهم من قيام ديكتاتورية في أسبانيا .

ولكنني مع استنكارى للسياسة الداخلية في روسيا ، كنت بسياستها الخارجية معجباً ، فقد كانت معاونتها للجمهوريين في أسبانيا تناقضاً ظاهراً مع مسلك الديموقراطيات وتصرفها الأحمق ، ومناصرتها المعيبة لفرانكو ، تلك السياسة التي كانت تدعوها إلى الامتناع عن التدخل .

وتبين لى أن الفظائع التى تقع فى داخلية روسيا ، والفساد الذى طرأ على البلشفية من جراء « القومية » سينتهيان بها إلى إفساد علاقاتها بالعالم الخارجى ، وإن كان الدور الذى قامت موسكو به فى أسبانيا قد خفف من حلقى عليها ، وقلل من نفورى النفسى منها ، إن لم يكن قلل من نفورى الفكرى ، فلم ألبث أن ترددت فى الهجوم ، وأمسكت عن المجاهرة بالاستفكار والتنديد .

وكانت الكفتان اللتان رحّت أرن فىهما الحسنات والسيئات متعادلتين ، بحيث لو زيدت شعرة واحدة على كفة روسيا ، لكانت هى الكفة المرجوحة ، أما الآن فقد ألقى طن كامل فى الكفة المقابلة !....

وكان رجال الجمهورية الأسبانية قد بدأوا يجمعون الأدلة التى تثبت التدابير التى اتخذها السوفيت حيال الأفراد الروس الذين اشتغلوا فى أسبانيا ، قبل أن يتم لفرانكو النصر على الشعب الأسباني فى شهر مارس عام ١٩٣٩ ، فكانت الحكومة السوفيتية من حين إلى آخر تستدعى واحداً أو أكثر من أولئك المجاهدين والأنصار الذين أعانوا الجمهوريين ، فلا يكاد يعود إلى بلاده حتى يخفى ولا يبقى له أثر ، حتى اقتنع الجمهوريون الأسبان فى نهاية الأمر بما توافر لديهم من الوقائع الثابتة والأدلة الدامغة ، بأن أكثر العسكريين والمدنيين الروس الذين عملوا فى أسبانيا ، إن لم يكن كلهم ، قد أعدموا أو نفوا عند ما بهم إلى بلادهم .

فقد أعدم الجنرال جوزيف الذى كان يتولى الدفاع عن مدريد ، وقبض على جريشين الذى كان أول رئيس أركان حرب فى الجيش الأسباني ، ونفى ستاشيفيسكى مندوب السوفيت التجارى فى أسبانيا عام ١٩٣٧ — ٣٨ وكان شيخاً بولونياً من كبار الثوريين ، ومستشاراً اقتصادياً يتمتع بمكانة مرموقة عند نجوين رئيس الوزراء ، كما أعدم مارسل روزنفرج أول سفير روسى لدى الحكومة الجمهورية فى أسبانيا ، وجيكيز مستشاره ، وأنطونوف أفسينكو ممثل السوفيت فى « قطالونيا » وهو الذى هاجم « القصر الشتوى » الذى كان يملكه القيصر فى شهر نوفمبر عام ١٩١٧ واستولى عليه باسم الثورة البلشفية فى إبان مطالعها .

ومن الذين شملهم الإعدام أيضاً الجنرال أورتيسكى الذى كان يتولى الإشراف على شحن الأسلحة للجمهوريين الأسبان، وميشيل كولتسوف مراسل جريدة «برافدا» الذى كان يوافى ستالين وفوروشيلوف بأبناء الأسبان مباشرة .

وليس هذا التعداد للضححايا لإقامة يسيرة لأسماء الذين لم يعد أحد يراهم أو يسمع بنبيهم منذ كانوا يعملون فى أسبانيا ؛ ومن يدرى فلعلهم احتبلوا فى الشرك الذى نسجه ستالين ورئيس شرطته يزهوف ، وقد يكون سر مصارعهم أنهم كانوا يعرفون أكثر مما يجب عن حقائق الأحوال فى الخارج .

وقد عيب علىّ أننى لم أعلن خروجى عند هذا الحدأ وقبله ، ولعله كان واجباً ، فلم تكن يومئذ تخالجنى شكوك فيما حدث وأسبابه ، وكنت على يقين أنه لا ينتظر أن يدخل تحسين ما على سياسة السوفييت ومناهجها .

ولكنى انتظرت ولبثت صامتاً ، ما دام ذلك جائزاً

ولم يلبث ميثاق التحالف بين السوفييت والنازى أن وقع فى ٢٢ أغسطس عام ١٩٣٩ ، وهو الميثاق الذى ألزم الحكومة السوفيتية أن تتخذ السبيل الذى اتخذته من ذلك الحين ، فرأيت أن الساعة قد حانت لأعلن ... الخروج !

ولم يكن هذا الميثاق اتفاقاً على كسب الوقت ، ولكنه كان اتفاقاً على كسب إقليميّ ، فقد تبين من «البروتوكولات» السرية المتصلة به ، التى أعلنت بعد الحرب وأذيعت ، أنه ينص على تقاسم الأراضى التى قد يتعرض الروس والألمان منها للعدوان كمناطق نفوذ ، وظهر بعد ذلك كيف بدأت روسيا خططها العدوانية التى أكسبتها اليوم امبراطوريتها المتداعية ، وجعلت مشكلة البشرية تزداد اشتداداً واستعصاء .

لقد كان ذلك الميثاق مقبرة البلشفية «الدولية» ، وحجر الزاوية فى بناء البلشفية «الاستعمارية» !

ولم يذل ذلك سوى أن روسيا البلشفية أصبحت مقبرة البلاشفة ، ولست أجد فى نفسى عظفاً على نظام يتخلى عن أصوله ، ويغدر بصانعيه ومؤسسيه .

وقد كان التوسع القيصري من قبل توسعاً طويلاً وعرضياً ، أو بعبارة أصرح ،
توسعاً إقليمياً ، فقد مضى يفتح أقاليم ، ويغزو ربوعاً ، وهو غير آبه بتحسين أحوال
الناس ورفع مستوى عيشهم .

وجاء ستالين أيضاً يحذو حذو القيصرية آل رومانوف الغابرين

لقد راح يبني على أكتاف الكادحين والفلاحين الذين أصارهم « قوميين » ،
وعلى هتاف المستنعبين والمستنيرين القابعين ، وصيحات الاستحسان من المساكنة
والمنافقين نظاماً قومياً ضخماً ، بل نظاماً استعماريّاً ، رأسمالياً ، عسكريّاً ، يتولى هو
فيه مكان المولى المعظم ، والسيد المطلق في عبيده الأرقاء ، ويتولاه من بعده من
هو على الأيام خالفه ...

فليت شعري كيف يسوغ لأحد يعنى بأمر الشعوب ويحرص على السلام ،
ويتوخى كل ما يحدى على البشرية ، أن يؤيد نظاماً كهذا أو يناصره .

أفيكون التأييد لأن الفساد أصاب صميم العالم الديموقراطي ...؟؟
إن في إمكاننا أن نحارب هذا الفساد ونكافحه .

ولكن ماذا في وسع المواطنين السوفيت أن يفعلوا إزاء هذه النوازع

« الاستالينية »؟؟

لقد رأيت خلقاً كثيراً يعجبون لأمرى كيف لم أبادر بإعلان خروجي ، بعد أن
رأوا الظلام الدامس يغمر روسيا بأسرها ، ولكني لا أحس هذا الإحساس نحو
الذين لا يزالون مترددين كما كنت ، فلا أعيب عليهم البقاء ، ولا أعجب لترددهم .
فقد كان ذلك الميثاق إذناناً لي بالخروج ، بينما رأيت غيري لا يغادرون «القطار»
حتى شهدوا روسيا تغزو فنلندة في شهر سبتمبر عام ١٩٣٩ .

إن تحديد المرء لساعة خروجه رهن بعدة عوامل موضوعية ، وأخرى نفسية ؛
ففريق قد بلغ بهم استنكار الجرائم التي ترتكب في العالم الرأسمالي حداً أعماهم عن
جرائم البلشفية وفسلها وإفلاسها ، وفريق آخر ليس بقليل ، عمدوا إلى استغلال
عيوب الغرب ومساويه لصرف الأنظار عن فظائع موسكو ومنكراتها .

ووصفتى أنا للناس هي : التخلي عن الجانبين ، أو رفض كلا الرأيين .

إن صاحب الفكر الحر ، المتخلص من سائر القيود الاقتصادية والتعيز الفكري ، يستطيع أن يولى ظهره لمساوى العالمين ، ويحاول بتحسين شأن العالم الذى ينتمى إليه أن يقيم عالماً يتوافر له السلام ، والرخاء ، والأخلاق ، ولا تلبث الدكتاتوريات القائمة على كلا جانبي « الستار الحديدي » الذى يدعونه أن تختنق ويسرع إليها الفناء . وهذا يستتبع إثارة سؤال حاسم ، وهو إلى أين يذهب جموع الذين أفلتوا من أغلال الحزبية الشيوعية ، وزالت عن أبصارهم غشاوتها ، حين يجدون أنفسهم أحراراً ناجين ...؟؟

إن « كرونستاد » ليست المنتهى ، فأولى بها أن تكون « وقفة » على الطريق المؤدية إلى نقطة انتهاء أفضل من الدكتاتورية وأحسن مقلباً .

ففي كرونستاد ، وسط الشيوعيين القدامى ، وبين أمثالى من أنصار السوفييت الذين لم يكونوا في يوم من الأيام شيوعيين ، صنف من الناس يصح أن ندعوه الفريق « المتأثر » من طريق الإلزام النفسى ، والتأصل العاطفى ، فهو بتغير وجهة نظره ، أو سوء مآلده ، ونسكّر مآرآه بعينه ، قد يتحول عن « الاستالينية » وأثرها فيه ، ولكن لا تزال لديه العيوب ذاتها التى دفعت به إلى المعسكر البلشفى أول مرة ، فهو يتخلى عن الشيوعية فكرياً ، ولكنه يظل مع ذلك بحاجة إلى بديل عاطفى منها ، لأنه لا ينى بضعفه فى أعماق نفسه ، وافتقاره إلى السلامة ، وحاجته إلى فكرة مواسية ، ومبدأ يجد فيه الراحة والعزاء ، وكتيبة ضخمة يمد فيها خطوه ، وينشر فيها جناحيه - أن ينجذب إلى قطب جديد من « العصمة » ، والألوهية ، والشئ الذى يحسبه قد وصل إلى مرتبة « اليقين » ، فيتشبث بما يبدو له من الظاهر قوياً موحداً متمسكاً لا اختلال فيه ، وكثيراً ما يهجر الشيوعية لأنها ليست مأمونة كل الأمان ، ولا مستقيمة كل الاستقامة ، بل ملتوية متراوحة ، لا تحقق له الاستقرار الذى ينشده ، وحين يجد دكتاتورية جديدة ينطلق فى محاربة الشيوعية بذلك العنف ذاته الذى تحارب

الشيوعية به ، والتجبر الذى تستخدمه ، والتعصب الذى تلجأ إليه ، فهو « شيوعى خصم للشيوعية » .. !

وقد رأينا « دوريو » الزعيم الشيوعى الفرنسى ، والعضو فى اللجنة التنفيذية « للدولية » الثالثة ، ينقلب « فاشياً » ويحارب الشيوعية حرباً « دينية » عنيفة موحشة ، وشهدنا « لافال » الشيوعى القديم ، ورئيس الوزارة السابق فى فرنسا ، يتحول فيما بعد إلى مناصرة « النازية » والمبادئ الرجعية .

وقد انقلب عدة ألوف من الإيطاليين والرومانيين والمجريين والبولونيين ، الذين كانوا من قبل فاشيين ونازيين ، إلى حظيرة الحزب الشيوعى القومى فى بلادهم ، والطيور على أشكالها تقع .

ولن تجد يوماً الرجل المثبت بصاحب السلطان ، بسبب الإلزام النفسى ، أو ما يعتمل من الإرغام فى أعماقه ، هاجراً ستالين إلى نقيضه غاندى .

ويوم يعجز القائد العام عن اقتضاء التفانى التام من جنوده ، لا يلبث أن يتنعم بأن يكون « قائداً » كسائر القواد الآخرين ، ويوم يذبح الجندى فى فرقة « العاصفة » الملايين من بنى قومه تذييحاً ، لا يتخلى عن الإرهاب ، وإنما يتولى هو الإرهاب بنفسه ، لأن الدافع الوحيد عنده حيال الدكتاتورية ليس سوى الرغبة فى أن يكون هو الدكتاتور ، لا فريسته .. !

والذين ينطلقون من « كرونستاد » — أو خاتمة المطاف مع الشيوعية — بعد زوال الغشاوة عن أبصارهم ، واستنكارهم لما لمسوه منها ، لا يلبثون إذا كانوا من هذا الضنف المولع بالسلطة ، أو هذا الضنف « القوميسارى » ، أن يتجهوا نحو دكتاتورية أكثر نجاحاً ، فليست نقطة « الانتهاء » أو « كرونستاد » عندهم سوى انتقال ولاء ، وماهى بتحول قلبى ، ولا تغير فكري بحال . وإنما يصبح « الخروج » مجدياً كبير الأثر جليل النفع ، حين يكون رفضاً لجميع وسائل الدكتاتورية وأساليبها ، وتحولاً إلى المبادئ الديمقراطية واتجاهاتها .

ولن نجد دكتاتورية في العالم منطوية على شيء من الديمقراطية ، وليست في
الدكتاتوريات إطلاقاً بذور الحرية .

ولم أكن أفهم ذلك في تلك السنين التي كنت فيها مناصراً للسوفييت ، وإنما
كنت يومئذ أعتقد أن وقف إطلاق الحريات إلى حين من شأنه أن يمكن النظام
السوفييتي من التقدم بخطوات اقتصادية سريعة ، وعندئذ يعيد الحريات كما كانت .
ولكن ذلك لم يحدث ، وتبين أن الدكتاتورية السوفييتية ظلت مقفلة من البقول
والأغذية ، لأنها قد ظلت مقفلة من الحريات ، إذ لا سبيل إلى ضمان مادي ، ولا
إلى ديمقراطية اقتصادية ، ما لم تتوافر الديمقراطية السياسية . وإن اعتقال ملايين
من الخلق في معسكرات السوفييت وسجنونه عقب انصرام ثلاثين عاماً على بداية الثورة
لهو في الحق سخريه من كل ادعاء بأنه توافرت فيه الديمقراطية السياسية والاقتصادية .
وليس ثمة أيضاً أقل بادرة على أن هذه الدولة « البوليسية » آخذة في الذبول والفناء ،
بل بالعكس ، كل تطهير فيها يخلق ساخطين جديداً ، ويستوجب تطهيراً آخر ،
وهكذا ينقلب التطهير غير المشروع سلاحاً دائماً في يد الدكتاتور ضد الشعب .

ولا تتوأتى الحرية في ظل الدكتاتورية . إذ ليست هناك حقوق ثابتة لا تبديل
فيها ولا تحويل . فإن الدكتاتور من كثرة القوة . وللفرد من ضآلتها . ما يبيح للأول
أن ينزع أي حق يعطيه . ويسترد أي شيء هو واهبه . فإن حق العمل مثلاً قد يكون
معناه اليوم حق العمل في المصنع بأجر . وقد يكون غداً ضرورة ملجئة إلى العمل في معسكر
اعتقال لقاء « جراية » لا تغني من جوع . وليس للفرد من يستعديه لكي ينصفه .
لأن الدكتاتور هو السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية . والسلطة القضائية موسدة في
واحد بذاته . وليس من شك في أن الشعوب السوفييتية الدوب الذكية تستحق أحسن
من ذلك . وتعرف أكثر من ذلك . لأنه من السهل أن يحب الإنسان الحرية .
ولكن ما حيلتهم . والإرهاب على السنين متزايد...؟؟

ورأيت مناصرتي للسوفييت مؤدية بي أيضاً إلى الوقوع في خطأ آخر . وهو الاعتقاد

بأن نظاماً يقوم على المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسطة ، قد يخلق عالماً أفضل ، أو إن شئت قل إنساناً أحسن حالا .

ولكن الواقع أن الوسائل المنافية للأخلاق لا تنتج إلاغايات منافية لها ، وأناساً منافين لمبادئها ، في البلشفية والرأسمالية على السواء .

إن الغايات من نحو مال أو ترقية أو نجاح هي في ذاتها وسائل لغاية لا تفتأ ترد وتتراجع ، ومن هنا رأينا أكثر الحياة عند الأفراد تتألف من وسائل ، وكل حياة يقل فيها نقاء الوسائل وطهرها وبهجتها في سبيل تحقيق مستقبل طبيعي أو خارق للطبيعة ، من شأنها أن تحيل العيش عسفاً قذراً كدراً لا هناءة فيه .

إن الدكتاتورية مستوية على بحر من الدماء ، وأوقيانوس من الدموع ، وعالم من الآلام ، وهي كلها نتائج وسائلها القاسية فكيف إذن يتوالت لها أن تسكفل الرغد أو الحرية أو الطمأنينة ظاهرة وباطنة . . . ؟؟ بل كيف يتهيأ للخوف والإرغام والكذب والعسف أن تصنع إنساناً أحسن حالا ... ؟؟

لقد علمتني الأعوام التي قضيتها في مناصرة السوفييت أنه لا يصح لامرئ يحب الناس ويريد السلام أن يناصر دكتاتورية ما ، وأن قيام نظام اجتماعي ينادى بالحرية ولكنه مع ذلك يحيد منها لبس سبباً يبرر اعتناق مذهب يدمر الحرية تدميراً ، ويقضى عليها قضاء مبرماً ، بل من الخير أن يعمل على إزالة القيود المضروبة على الحريات بأنواعها من شخصية ، وسياسية ، واقتصادية ، وهي القيود الممهوسة في الديمقراطيات جميعاً ، تغذيتها بمبادئ غاندي وتعاليمه ، وفي مقدمتها احترام الوسيلة ، والإنسان ، والحقيقة ...

واليوم وأنا أعود بالخطر إلى الماضي لا ألبث أن أتبين أنني إنما توليت يومئذ بوجهي شطر روسيا السوفيتية لأنني ظننت أن فيها الحل المطلوب لمشكلة القوة ، وقد رأينا العلم يضع القوة المتزايدة على مر الزمن تحت تصرف الإنسان ، فلا يدري كيف يفعل بها ، وليست مشكلة القرن العشرين الكبرى سوى مشكلة ضبط القوى الشخصية ، والاجتماعية ، والوطنية . في العالم الحديث ، وكيفية الإشراف عليها

وتوجيهها ، وأحسب قبولى لروسيا السوفيتية جاء يومئذ وليد سخطى على القوة التى يكسبها الإثراء والرغد ووفرة المال لأصحابها فتعطيهم سلطاناً على البشر ، وكنت فى شبابه قد قرأت كتاب هنرى جورج «التقدم والفقير» . وأُشربت روحى المبادئ التى راجت فى عهد «تيودور روزفلت» . ومذاهب الأحرار والشعبيين التى كانت جزءاً من تراث كل أمريكى فقير فى تلك الأيام ، ولم تلبث روسيا السوفيتية أن ظهرت عقب ذلك كله منادية بأنها ستحطم إلى الأبد قوى السادات المالكين ، والشركات الضخمة ، وتقضى على المستغلين والرأسماليين القضاء الأخير .

وأنا إلى الساعة لم أغير موقفى إزاء أخطار القوة المتناهية ، ولم أعدل عن رأيى ، وإنما أدركت الآن أن البلشفية ليست هى الخرج ، لأنها فى ذاتها جماع القوى المسيطرة على الإنسان الباغية الحاشدة ، وإن غضبى لتغلى مراحلها كلما ذكرت المظالم التى تنصب على رؤوس السكان المساكين فى مناطق الفحم بولاية بنسلفانيا التى نشأت فيها ودرجت من الطفولة ، لأن شركات التعدين فيها هى التى تملك مساكن العمال ، وتتولى بنفسها إدارة المتاجر والحوانيت ، وما الاتحاد السوفيتى فى الحق إلا شركة ضخمة تشرف فيها الحكومة على جميع الأعمال ، وتملك جميع الدور ، وتدير جميع المتاجر ، والمدارس ، والصحف وما إليها ؛ ولا سبيل إلى الفرار منها . وإن كان للفرار من مناجم بنسلفانيا وسلطان شركاتها سبيل لمن يشاء فراراً .

لقد وُصِفَتْ «روسيا ستالين» بأنها «دولة بوليسية» . ولكن ذلك بعض الشر أو أهونه ، فإن الكرملين لا تتوسل إلى إخضاع الفاس بقوة البوليس والسجن وحدها . بل بقوة أكبر من ذلك ، بتلك القوة الملائمة للملكية كل عمل اقتصادى والاستيلاء على إدارته .

وما الشركات الضخمة بأنواعها فى الدول الرأسمالية إلا أقزام إذا قيست بذلك

« الاحتكار » السياسى الاقتصادى « الماموثى »^(١) الذى يتمثل فى الدولة السوفيتية إذ ليس لقوته الضخمة نقض ولا إبرام ، مادامت مظاهر القوة كلها موسدة فى دكتاتورية الحكم وطغيانه .

فلا عجب إذا علمتني روسيا أن نقل الملكية من أيدي الأفراد إلى أيدي الحكومة ليس وحده الطريق إلى الحرية وتحسين مستوى العيش ، لأنه إذا آلت الملكية كلها إلى الحكم ، وقضى فى عملية نقلها على الطبقة الوسطى التى أصبحت عاملاً حاسماً فى حضارتنا الصناعية الحديثة ، فلا فائدة من ذلك ولا كسب ، بل فيه حقاً الخسار المبين .

إن العالم بحاجة إلى توازن فى القوى السياسية والاقتصادية على السواء ، فلا يصبح حزب . ولا تسمى طبقة ، ولا حكومة ، ولا مجموعة شركات ، مستاثرة بكل قوة . لا يستطيع أحد لها تحدياً . ولا ينهض حيالها ناهض .

وقد رأينا روسيا السوفيتية مفتقرة إلى هذا «التوازن» وهذا هو سر الدكتاتورية فيها وجوهرها . بل هذا هو علة التصرفات العرفية التى تبدو من الحكومة السوفيتية فى الخارج والداخل فيما يتصل بالعمال والفلاحين والموظفين والشيوعيين والموسيقين وأرباب الفنون ومن إليهم .

وليس فى إمكان روسيا حل مشكلة القوة لأنها فى ذاتها أقبح مظاهر المشكلة وأسوأ وجوهها .

ومن واجب كل رجل بعد تنحيه عن مظاهر الدكتاتورية أن يعمل فى سبيل قيام ديمقراطية تتوزع القوى فيها بحيث لا يتسنى يوماً لحكومة تستند فيها إلى الأغلبية . ومن باب أولى لا يتيسر لأيه جماعه من الجماعات . أن تحتكر القوى احتكاراً وتستأثر بمظاهرها استئثاراً . والزعيم الحكيم الأريب من يقدر على كبح جماح القوة التى تتوأتى له . ويعرف كيف يعدل فى استخدامها .

(١) نسبه إلى « الماموث » وهى الحيوانات الضخمة التى كانت فى بداية الخليقة .

ومن المتعين على كل رجل يتحول عن الشيوعية ، وكل معتذر متشفع قديماً لروسيا السوفيتية أن يتطوع في « الجهاد » من أجل الظفر بالحرية التامة لكل من يخالفونه في الرأي ، والمذهب ، والدين ، والعنصر ، واللون ؛ فإن أسمى ذرى الثقافة أن يستطيع المرء أن يعيش في سلام مع من يختلف معه ، وبغير ذلك لا قيام لشيء غير نكد الحياة وصـلف الطغيان .

وأخلق بالذين كانوا فيما مضى أنصاراً للسوفيت أن يظاهروا « دولية » لا دخل فيها « للقوميات » والنزعات « الوطنية » ؛ وقد يأتى يوم نرى فيه « القومية » بغير حاجة ، سواء من الناحية النظرية أو العملية ، إلى النزاع مع « الدولية » . ولكن فكرة قيام بلد منعزل كحصن أمان ، أو معقل رأسمالية ، أو قلعة اشتراكيين ، أو نصير للفضيلة ، هي التي تحول فعلاً دون نمو العاطفة الدولية .

أما أن ينادى اللسان إلى حكومة عالمية ، بينما يظفر القلب فرحاً لكل توسع عسكريّ أو نجاح ماديّ تصيبه بلاده ، فخير لهذا اللسان أن يخرس .
إن كل مستمسك « بالعنصرية » أو العزلة ، وكل كاره للشعوب الأجنبية ، لخصومة قائمة ، أو عداوة ماضية ، أو محتملة الوقوع ، ليس بدولىّ ، وإن زعم أنه كذلك . إن هو إلا نصير لفكرة الحكومة العالمية على الورق فقط ، والقلب من اليقين والإيمان بها خلاء .

وسياتى على الناس يوم لا تجد فيه أمة ناعمة مستمتعة بنجاح وحدها ، إذا هي لم تشارك غيرها فيه . وهيات لن تتوافر لك هناءة ولا طمأنينة ولا سلام إذا كان جارك في الشارع الذى تسكن فيه أو على بعد ألوف الأميال منك ، معذباً شقيقاً .

وأهم من ذلك كله ، أن الواجب على المتنحى عن الجانبين ، والمستنكر لمساوىّ الدكتاتورية ومساوىّ الديمقراطية على حد سواء ، أن يحصر همه جميعاً في أمر « الإنسان » . فإن مختلف الأهداف ، من استقلال وطنيّ ، ونظام دوليّ ، وتقدم اقتصاديّ وعلميّ ، وسلامة قومية ، وحرص على الرأسمالية ، وإقامة حكومة اشتراكية

ونحوها من المقاصد والغايات ليست شيئاً في الجوهر واللباب ، بل كل معانيها في صلتها بمصالح الأحياء من الرجال والنساء والأطفال الذين هم الوسائل التي يتحقق بها كل شيء في هذا العالم .

وقد ينسى المرء من فرط حميته وحماسته لفكرة من الأفكار ، أو مذهب من المذاهب ، أمر هؤلاء بتاتاً ، أو قد يحسب أنه في إمكانهم أن ينتظروا ، أو يخيل له أنهم لا يحفلون ولا يعبأون .

وقد يذهب الظن بالمرء . وهو في شغل شاغل ببعض المثل العليا . أنه من الجائز التضحية بجيل من الأجيال في سبيل مصلحة الأجيال الخالفة . ولكن التضحية بالناس قد تصبح عادة في الجيل الثاني أو الثالث .

لقد كنت وأنا أناصر السوفييت أظن أنني بذلك أخدم البشرية .

ولكنني من ذلك الحين فقط اكتشفت حقاً الإنسان ...

فهو الوسيلة والغاية معاً . والواسطة والهدف على السواء ...

ستيفن سبندر

لبثت بضعة أسابيع عضواً في الحزب الشيوعي البريطاني خلال فترة الشتاء بين أواخر عام ١٩٣٦ وأوائل عام ١٩٣٧ . وسرعان ما انتهت عضويتي عقب انضمامي . فلم أتلق يوماً دعوة إلى حضور الخلية الشيوعية في « هامر سميث » حيث كنت أقيم ، ولا دفعت رسوماً غير الرسوم الأولية التي دفعتها عند قبول عضويتي .

و كنت قبيل انضمامي قد نشرت كتاباً عنوانه « خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار » وقد وقع اختيار نادى الكِتاب « اليساري » عليه ليكون « كتاب الشهر » . وكانت حجتي فيه أن في فكرة حزب الأحرار عن حرية الفرد ثلثة ظاهرة . فقد رأيناها أحياناً يتحدثون ويكتبون كأنهم مؤمنون بوجوب ترك الحرية الفردية مطلقة بلا حد ولا قيد . وأحياناً أخرى بوجوب إطلاق الحرية بين الأنداد بالسواء . وكان رأيي أن الأحرار استطاعوا في القرن التاسع عشر ، خلال فترة التوسع في آفاق التجارة البريطانية ، أن يوفقوا بين التنافس الحري بين أصحاب العمل ، وبين الإصلاح المطلوب للعمال ، دون تعريض موقفهم لتناقض ظاهر ، ولكن لم يعد في إمكانهم عام ١٩٣٠ عقب حرب عالمية أشاعت بعداتها الركود وزيادة التعريفة الجمركية والبطالة ، وقامت على أثرها حركات فاشية في أوروبا ، أن يناصروا فكرة إطلاق الحرية للعمال وأصحاب الأعمال على السواء ، بل أصبحوا مضطرين إلى إقامة فكرة الحرية على أساس العدالة الاجتماعية والحد من الاستغلال .

وقد أشرت على الأحرار في كتابي الذي أسلفت ذكره بوجوب تأييد العمال ، وقبول الضرورة الملحة . وهي محاربة « الفاشية » . والدفاع في الوقت ذاته عن الحرية الفردية في التعبير . وكنت أقصد من هذه العبارة « حرية القول » والحرية الشخصية . لقد كانت مهمة الأحرار تعليق حرية الفرد على محاربة الفاشية . ومواجهة الوسائل

التي قد تكون ضرورية لتحقيق القوة . أو بعبارة مختصرة وضع قضية الحرية بجانب قضية العدالة الاجتماعية . ونقل الحرية الفردية من الرأسماليين إلى مصلحة العمال .
وقد أثار كتابي كثيراً من البحث والمناقشة ، وكان بين الذين كتبوا لي بسبيله المستر « هاري بوليت » فقد دعاني إلى لقائه فذهبت ذات أصيل إلى مكتبه القائم في دارالحزب الشيوعي بقرب محطة « شارنج كروس » .

وكان المستر بوليت رجلاً صريحاً تستروح النفس إليه ، ويسكن الخاطر إلى أحاديثه ، وكان قصير القامة ، ضئيل الجسم ، محمر الملامح ، أسود العينين ، تحت حاجبين غزيرين ، فلم يلبث سمته هذا أن ذكرني « بجورج روبي » .

وقد بادرنى بمصافحتي وأنشأ في الحال يقول « لقد شافني كتابك ، والذي أدهشني منه الخلاف بين طريقة تناولك للشيوعية ، وبين طريقتي ، فطريقتك أنت فكرية محض ، وأما أنا فقد أصبحت شيوعياً لأنني شاهدت بعيني رأسي جرائم الرأسمالية في موطنى وديارى ، ورأيت أمة تذهب لتعمل في طاحون ، فلا تلبث الأحوال التي كانت تعمل فيها أن عجلت بمصرعها ... »

وقال إن هناك وجهاً آخر للخلاف بيننا ، وهو أنني لا أظهر في كتابي كراهية للرأسمالية ولا أطوى النفس منها على بغضاء ، وأنه يؤمن بأن كراهيتها هي القوة العاطفية التي تدفع الحركة العمالية إلى الأمام .

واعترض على انتقادي لمحاكمة بوخارين وغيره في موسكو . فكان جوابي أنني غير مقتنع بأن المتهمين لم يكن لهم من ذنب سوى معارضتهم لستالين ، ولكنه خالفني في هذا الرأي أشد الخلاف وقال إن المحاكمة كانت من حسن حظهم لأنهم لم يكونوا يستحقون منها شيئاً .

ومضى يقول إننا وإن اختلفنا في مسألة هذه المحاكمات فلا نزال متفقين على ما بدا من الشيوعيين من المناصرة والتأييد للجمهورية الأسبانية .

وقال إن لديه فكرة ، وهي أن تتفق على ألا تتفق . ولكن ذلك لا يمنع مطلقاً

من انضمامي إلى معاشر الشيوعيين لمناصرتهم في قضية الأسبان ، وأنه لا بأس من أن أكتب في صحيفة « الديلي وركر » مقالاً أنتقد فيه تصرفات الشيوعيين وأن أنضم في الوقت ذاته إلى الحزب .

فقبلت ما عرضه ، وتلقيت بطاقة العضوية من الحزب ، وظهر مقال في تلك الصحيفة ، ولكنه لم يلبث أن أثار حنق الشيوعيين في اسكتلندة وشمال إنجلترا ، وسرعان ما نسيت عضويتي وعفا الزمن عليها العفاء .

وقد أصاب «بوليت» في قوله إن الأسباب التي حملتني على أن أكون شيوعياً لا صلة لها بي كعامل ، ولكن كانت هناك سلسلة من الأحداث جعلتني أحاول التوفيق بين أفكاري والانخراط في الحزب .

وهذه الأسباب تعود إلى عهد طفولتي ، فإن أشد ما أثر في نفسي يومئذ من قراءة « الإنجيل » هو قوله إن الناس جميعاً سواسية في عين الله ، وإن يسار الأقلين هو ظلم للأكثرين .

ولم يكن إدراكى للمساواة بين الناس قائماً على فهم أحوال الجماهير ، بقدر قيامه على الشعور بالوحشة ، والإحساس بالعزلة والانقطاع .

ولا أزال أذكر كيف كنت أسهر الليل مفكراً في أحوال البشر ، ومهبط الإنسان إلى هذه الأرض بغير طلبه ، ودون سؤاله ، وانطوائه على نفسه ، غريباً عن بقية البشر ، بحاجة إلى الحب والعطف ، مواجهاً في النهاية أجله ، ملاقياً على الأيام منيته .

وإذا صح أن الإنسان إنما يولد في هذه الدنيا ليكون « روبنصن كروزو » طريحاً على جزيرة منقطعة ، فمن الظلم البين ألا يكون الناس جميعاً أحراراً في اقتسام ما أفاءته الطبيعة في هذه الدنيا عليهم ، ومن الجور البالغ أن يكون فيهم قوم محرومون من ارتياد العالم الذي ولدوا فيه ، يقضون طيلة حياتهم في أكواخ محبوسة كأنها مقابر الأحياء .

وكان يبدو لى — ولا يزال يبدو — أن حالة كل إنسان فى هذه الحياة ينبغى أن ترجح فى الاهتمام بها . ووجوب علاجها ، على سائر الاعتبارات المبررة لقيام الطبقات والفوارق بين الناس .

ولكنى لم أكن أعدنى « ثورياً » لمجرد مساورة هذه الخواطر وأشباهاها لنفسى ، فقد كانت أفكاراً « مسيحية » ، وكان عملى بها مقتضياً أن أهب كل ما أملكه للفقراء ، وأن أعيش عيشة فلاح فى الهند أو الصين .

وكان الشيوعيون يلوحون لى قومياً بشعين كأكلة اللحوم البشرية ، أو كالذئاب الضارية ، يريدون أن يدمروا مدائن العالم ويعيشوا على تلها ، فقد أشربت نفسى أفكار عشيرتى وأصحابها واعتقدتهم أن الثورات نكبات كالزلازل ، وأن الاشتراكيين ليسوا سوى خلق أقل خطراً من الشيوعيين . كما لقنت أن أتخاشى النزوع إليهم ، وأن أعتقد أن الذين يترعمونهم مجانين أو فى مرتبة أخط من مرتبة البشر ...

ولما بلغت السادسة عشرة دخلت مدرسة لندن النهارية ، فالتقيت فيها بمعلم وفى أوفيين من الاشتراكيين . وكان المعلم قد خدم فى الحرب واشترك فى نادى ١٩١٧ ، واعتاد قراءة « الديلى هيرالد » ، فكان رأيه أن الاشتراكية ليست عهد إرهاب أو حماقة ، ولكن معناها تأمين الصناعات حتى تنتج سلعاً وموارد ثروة تتولى ملكيتها الأمة بأسرها لابضعة أفراد فيها ، وإزالة التنافس المبني على طلب الربح والكسب . لأنه يؤدى إلى الخصومة الدولية والتزاحم التجارى ، ومن ثم يسوق إلى الحرب ، وتوفير التكافؤ فى الفرص لجميع الصبيان والشبان من مختلف الطبقات فى التعليم والعمل . وكان هذا مطابقاً لفكرتى الأولية عن العدالة الاجتماعية . وكان لى فى المدرسة صديق يدعى « موريس كورنفورث » ألف قراءة روايات برنارد شو وكتابة مسرحيات لا تقل عنها إجادة وحذقاً .

وكان كورنفورث قد أوتى ذهنياً يستطيع أن يشرح الأشياء وينسقها فى نظام من الأفكار ، وسلسلة من الخواطر ، فلم ينقذنى من الكاثوليكية الانجليكانية

إلا ليلقي بي في تيار « البوذية » ، وكان « نباتياً » اعتاد أن يمشى ثلاثين أو أربعين ميلاً في اليوم في متrolاند كلما حلت أواخر الأسابيع .

وكان له رأس أشعث ، وكلبه أشعث الشعر مثله . وهو يومئذ المسيطر على المناظرات والمناقشات في حلبة المدرسة وندوتها ، والعاكف على نظم الشعر وكتابة الرسائل ، وتأليف الروايات .

وكانت الاشتراكية عندي وعنده أحد الموضوعات المتعددة التي نغني بها ، كمذهب الرسم « التعبيري » الحديث والمسرح و « الباليه » . والرقص ، والشعر بل لقد كانت الاشتراكية في الواقع ضرباً جديداً من السلوك ، كاستعمال أربطة العنق الحمراء ، وإرخاء اللحي على نحو ما كان برنارد شو يفعل .

وهكذا مضيت وأنا في أكسفورد أتقبل بسهولة الرأي الذي كان يراه أكثر الصحاب فيها واللذات ، وهو أن الفن ليس له أدنى صلة بالسياسة ، ورحت أحذفها من قائمة آرائي الحديثة في مختلف الشؤون ، وآمنت بالفن لذاته .

واليوم تلوح لي أعوام ١٩٢٨ و ٢٩ ، بل ٣٠ أيضاً هادئة ، رفرفت السكينة بجناحيها عليهن ، وكان من السهل في أكسفورد أن ينسى الفتى منا مظالم البشر ، أو على الأقل يحسب أنها ليست من شأن « الشاعر » .

وبقيت يومئذ اشتراكياً على النحو الذي يبقى عليه بعض الناس كثالكة ؛ وإن لم يصلوا يوماً ، أو يبقوا في الحراب ، أو يحوهم صحن الكنيسة ، إذ حسبهم أن شيئاً من « الأرثوذكسية » استقر وجد في أعماق أذهانهم وهم عالمون بأنه في عقولهم قائم ، وأنه قد يذوب في يوم من الأيام فيتركهم في غمرة فيضان جائح ، وإن بدا في الساعة الراهنة منقطع الصلة بأعمالهم وتصرفاتهم .

وذهبت لأقيم في ألمانيا بعد مغادرتي أكسفورد ، فلم يلبث الشعور بالبشرية كنضال اجتماعي أن استيقظ في نفسي ؛ وقد كان أكثر ما لقيت من الشبان الألمان أو كلهم قراء يعيشون على اللقمة ، ويحيون من اليسد إلى الفم ، على ترزيسير من

المال ، ورزق طفيف محدود ؛ وكان الناس على اختلاف طبقاتهم شاعرين بوطأة الهزيمة والتضخم النقدي وعقابيل الحرب ونتائجها ، وكان كثير من الموسيقي والرسم والأدب الشائع في عهد جمهورية « فيمر » صوراً تعبر عن روح ثورية ، أو عن رثاء الفقراء والمحاييج ، حتى ليخيل إلينا أن أعين الضحايا والصرعى في عالم بعد الحرب تحلق في ألواح الرسامين الألمان الذين يعتنقون المذهب « التعبيري » في الفنون .

وكننت في ألمانيا غربياً ، وكان أول أثر في نفسي لهذا الشقاء العام في تلك البلاد عطفاً بالغاً على أولئك الضحايا الذين عصفت بهم الأزمة التي بدأت عام ١٩٣٠ . ولكن على فرط تأثري بمشهد المتعطلين الذين راحت أبصارهم محمقة من حواف الأفاريز ، لم يكن شعوري يومئذ متجاوزاً حدود الشفقة ، ولم أكن أملك لهم غير الأسف والرثاء ، لأنني كأجنبي كنت أشعر أنني خارج ألمانيا ، ولكن لم تكد الأزمة تسرى إلى بريطانيا وسواها من البلاد حتى بدأت أدرك أن هذه الأزمة هي مرض من أمراض « الرأسمالية » راح ينتشر كالوباء في أرجاء العالم كله وبقائه .

ومضيت رويداً أفتنع بأن العلاج الأوحدمشكلة المتعطلين — إذا أخرجنا الحرب من الحساب — هو قيام مجتمع دولي تستثمر فيه موارد العالم لمصلحة شعوبه جميعاً وأجمه .

وجاء إلى برلين صديق دعاه « ايشروود » Isherwood في كتابه عن حياته الخاصة « الليوث والظلال » Lions & Shadws — شالرز ، فدعاني كريستوفر في ذات يوم إلى لقائه ، وكان شالرز قد انضم من عهد قريب إلى الحزب الشيوعي ، وذهب في رحلة سياحية إلى روسيا لم تتجاوز بضعة أيام ، وقد عطف على برلين عند رجعه منها ...

وكان يلوح قزماً أسمر اللون في ربيع الشباب ، أصاب ملاحظة ظاهرة ، وبدا أخاصامة تأخذ العين ، وكان يفظر إلى الأشياء نظرة الرقيب الحارس المتحفز الذي لا تأخذه غفلة ، ولا يثنى عن متابعة ، حتى تستقر منه العين عليك وهو يحدثك ،

أويستمع إليك ؛ ويبدو جامعا بين المرح والمجانة ، وبين الرزانة والوقار ، في آن واحد .

فلما سألتني ما خطب روسيا وأحوالها ؟ مضى يرسل بصره بعيداً ، ويقول بلهجة امتزجت فيها السخرية بالغموض : « إنها أجمل بلد في العالم ! » .
ولو أن شالمرز عاش في جيل آخر غير جيله لكان أكبر الظن قسيساً في الريف يمدد الإلهام الشعري حتى في مغالطات الأرثوذكسية ومفارقاتها ، كما تكون الأزهار مخبئة بين العوسج في بعض الأزقة والدروب .

وذهبت ذات أصيل معه للرياضة في أرجاء برلين ، ولم نسر غير بعيد حتى أخذنا نتحدث عن الشيوعية ، وكان لشالمرز رأى صريح واضح فيها ، فقد مضى يقول إن البطالة والحرب وأكثر مساوى العصر وآثامه ، ومنها الغيرة الجنسية ، ومشاكل الكتاب وأرباب الأفلام ، راجعة إلى الرأسمالية ، وإن العلاج الوحيد منها هو إلغاؤها وإقامة الشيوعية مكانها ، وإنه من المتعين في المجتمع أن يتوافر التعاون مع العمال الذين أدركوا خطر طبقتهم ، وبين المرء ونفسه يتحتم أن يأخذها بالحزم والإرادة .

وكان يقول إن هناك قوماً في المجتمع الحاضر لا يروقه التعتل ، ولا يحبون الحرب ، بل قد يطيب لهم أن يتخلوا صادقين عن مصالحهم في سبيل إزالة هذه المساوى والآثام ، ولكن جهودهم ذاهبة أدراج الرياح ماداموا مرتضين المجتمع البورجوازي وأصوله وقواعده لأن الرأسمالية معناها حتماً التنافس بين الطبقات والأُمم ؛ وليس الذى يعمل ضد اتجاه هذا النظام مع قبوله له في الوقت ذاته وارتضائه إلا كمن يحدث جدولاً صغيراً من الماء لراحة ضميره أمام تيار نهرجارف ، وليس أمامه إذن من سبيل غير أن يتخذ المرء « جانب التاريخ » فيعمل على تغيير اتجاه التيار ذاته جملة واحدة . وهو عمل باهظ ، وكفاح بالغ ، ومن يتولاه لا ينظر فيه إلى الوسائل الماضية التي استعان بها الناس من قبله ، إلا من ناحية مدى أثرها ، ومبلغ كفايتها ، ولا يفكر

في المصاير التي انتهوا إليها ، فإن التاريخ لم يعبأ يوماً بأمر الذين لم يكونوا « في جانبه » .

وكان التاريخ في تعبير صديقي « شالمرز » هو بالطبع « الثورة العالمية » و«كتاتورية الكادحين» ، وقيام الشيوعية لأنها ستقضي على مساوى الحاضر وآثامه ، وتنشئ عالماً حراً على السنين .

وكان « شالمرز » يحلم حقاً بقيام هذا العالم ، فلا عجب إذا هو كان صادقاً في منزعه ، مخلصاً في طلب السعادة لبنى البشر .

ولكنه لم يكن يلقى بالاً إلى المظالم وصنوف « القسوة » التي اقترفها « التاريخ » في طريقه ، ولا يتأثر بها ، ولا يريد أن يستمع إلى قصتها وحديثها ، بل لا أظنني ظالماً له إذا قلت إن تلك المظالم كانت تروقه ، وترضى سخريته ونزغته الأدبية ، وروح التهم المكيئة فيه .

وقد أقام خاطره ونيته واتجاهه على اتخاذ سبيل « ثورة » ، ومضى ينظر إلى النتائج التي قد يؤدي هذا السبيل إليها ، من مكان سحيق ؛ وكان كل ذهنه متأثراً بالمستقبل ، مصروفاً إليه ، حتى ليبعدو الحاضر وما يحدث فيه ، أمراً لا يستحق العناية منه ، ولا هو مباليه ، كما لو أنه مصير قوم قضت عليهم الزلازل منذ مئات السنين . لقد كان يعيش بروحه وخاطره في المستقبل ، وما الحاضر عنده إلا ماض رهيب يسبق الثورة ، وكان كل ما يطلبه من نفسه ومن الذين رضوا لأنفسهم الانضمام إلى « جانب التاريخ » أن يتوفروا بكل قواهم ، ويتفانوا بكل عقولهم وخواطرهم ، ويكرسوا كل تصرفاتهم وفعالهم ، في سبيل إيجاد مجتمع مطهر من فروق الطبقات ، فلم يكن ليتردد في إخضاع الحاضر كله لعمل تمليه مقتضيات المستقبل ومطالبه .

وما لبثت أن شعرت بتشكك نفسي حياله لأني صارحته بأني أكره العنف وأوثر حرية التعبير ، على ماعداها ، في هذا العالم ، وقلت له إننى مع ذلك أريد انقلاباً ثورياً يكفل قيام مجتمع عادل دولي ، دون تدمير حرية الفرد وتحطيمها .

فلم يكذب يسمع هذا القول منى حتى أخرج قصبة التبغ من فمه وقال بلطف :
« يا غاندى ...! » .

وكنت قد تحدثت إليه فى أمر « عصابة الأمم » فضى يقول إن المبادئ الخيالية
التي من هذا القبيل ، والنظريات المثالية التي تحتضنها هذه العصابة لن تفعل شيئاً فى
سبيل إلغاء الحروب ، فإن هذه العصابة ليست سوى مجموعة من الدول الاستعمارية
أرادت أن تستغلها كوسيلة لوقاية ذاتها إن لم تكن تريد منها أن تمد فى نطاقها ، وتنمى
مواردها ، وتزيد فى سيادتها وسلطانها ؛ وكانت الأمم التي استخدمت العصابة هي
بذاتها أدوات التسليح ونصيراته ، وليست العصابة فى الحق إلا تحالفاً على الروس ،
فكل حديث اليوم عن التسليح على ضوء النظام الحاضر هراء وكلام لا طائل تحته ...
ودار بعض الحديث بيننا على القصة ، فكان شالمرز كخلق كثير من الكتاب
الشيوعيين يرى أنه بشيوعيته قد قطع الأرض من تحت قدميه ، فلم يعد له غير الإيمان
بالثورة ، وأنه أحد « البورجوازيين » الذين عناهم البيان الشيوعى بقوله إنهم هم
الذين « انتقلوا » إلى صفوف الكادحين ، وأن هذا المركز لا بأس به من الوجهة
السياسية ، لأن أكثر زعماء الثورة جاءوا من عُرْض البورجوازيين ، ولكن الأمر
يختلف من جهة « الفنون » فإن « حساسيته » البالغة التي استمكنت منه منذ طفولته
هي نزعة « بورجوازية » فى جوهرها وصميمها ، فلا أمل له فى اكتساب عقلية
عملية من طريق الإرادة ، والرياضة السياسية ؛ ولو أنه فعل ، لواجهته مشقة كبيرة ،
وهي أن الطبقة العاملة هي فى الجملة وعقب الثورة أكثر « بورجوازية » من
البورجوازية ذاتها ، خلا فريقاً قليلاً من العمال « الشعارين بتأثير طبقتهم » ، وقد
رأينا العمال غير حافلين بالقصص « البروليتارية » ؛ ولا تنس أيضاً أن تأليف قصة
ثورية تهاجم الرأسمالية مشكلة فنية ، لأن المشتغلين بالسياسة والذين لا يفكرون إلا
فى السياسة ، معنيون بالترويج والدعايات ، أكثر من عنايتهم بالفن المبني على التجربة
والملاحظة ، وما يستوجبه حتماً من إبراز العوامل المثبطة والعوامل المشجعة على السواء .

وكان شالمرز في أحاديثه معي يعترف بهذه المشاق صراحة ، ويقول على سبيل الشرح النظري « لست أعتقد أن قصة تحوى بطلا من العمال ورأسمالياً شريراً ليست من القصص الشيوعية الحسنة ، وقد تفضلها قصة تحوى أشخاصاً رأسماليين من ذوى العطف والطوية الحسنة وآخرين من الشيوعيين الساخطين المتبرمين الناقين ، على أن يذهب السياق فيها إلى التدليل على أن هؤلاء هم الذين على حق ، وأن أولئك هم الخاطئون ، ولست أنكر أن الحزب طبعاً لن يرحب بقصة من هذا الطراز » .

وكان رأى شالمرز في قصة تصور هؤلاء الشيوعيين الناقين ، وهم يبررون التطور التاريخي حيال الرأسماليين الطيبين الضالين بسبيل « التاريخ » ، أنها ليست سوى مثل يصور أدق التصوير موقف الشيوعي الفكري المستنير ، فهو يضع كل إيمانه في « آلية » التاريخ لأنه حتى وإن تحقق على أيدي أشرار ، وبوسائل سيئة ، فسوف يجعل الناس في النهاية أحياناً ، كما رأينا النظام الرأسمالي يدفع اعتباطاً جميع المقاصد الطيبة في طريق الحرب والدمار ، وإن كان معاشر الشيوعيين لا يروقه أن تبسط أمامهم حقيقة العقيدة الشيوعية على هذا النحو الصادق الصريح .

وكان هنري بوليت قد نبأني أن أبدع قصة ثورية في نظره هي قصة « جاك لندن » « الكعب الحديدى » !

وانقضت بضعة سنين على هذا الحديث الذى جرى بيني وبين شالمرز ، وعرض لى بعد ذلك في عام ١٩٢٧ أن أسأله عن رأيه في سلسلة المحاكمات الروسية الأخيرة التى شملت بوخارين ورادك وغيرهما ، فتردد لحظة وأطلق بصره بعيداً كأنما ينظر إلى شىء قصي ثم طرف بعينيه ومضى يقول « لقد كثرت هذه المحاكمات حتى تركت التفكير فيها من زمن طويل » .

وكذلك قرر في نفسه ، وارتضى الوسائل الحالية ، لأن كل أمله كان مركزاً في شىء واحد ، وهو الغد ... !

وكان شالمرز يجمع بين الإيمان بالتطور التاريخي الذى لا يخطئ ولا يضل ، كما

يقول ماركس ، وبين إيمان غريب ، بل إيمان « متصوف » بالعمال ، فقد كان يعتقد أنهم يمثلون المستقبل وأنهم سوف يزدهرون في حضارة أفضل لو أُتيحت الفرصة لهم . ولست أشك في أنه لم يكن متطيراً بشيء ، أو موجساً من ناحية ، تتصل بوسائل الشيوعية وأساليبها ، اللهم إلا قوله إن المجتمع « البروليتارى » المتطهر من الطبقات ، في عالم عمالى جديد ، سوف ينمو ويتعرع في التربة ذاتها التي حرثت بوسائل الدكتاتورية الكادحة .

ولا يخفى أن في هذا الإيمان عنصراً من « الصوفية » ، ولعل هذا هو سر فتنة الشيوعية وسحرها في خاطر المستنير ، فإن الإيمان بالعمل السياسى والقوى الاقتصادية وأثرها في إطلاق سراح طاقات جديدة في هذا العالم ، هو إيمان من شأنه أن يقوى نفس صاحبه ، ويطلق سراح طاقته ، ويثير قوى جديدة في نفسه ، فلا يعود يشعر برثاء لضحايا الثورة أو شفقة على صرعاها ، بل قد يعد الشفقة بمثابة عرض ظاهر من أعراض رغبة « رجعية » لديه في الفرار من لوازم الثورة ومطالبها ؛ وفي وسع المرء أن يحتفظ بإيمانه بأهداف الإنسانية ومقاصدها العليا ، وأن يتجاهل في الوقت ذاته وجود ألوف مؤلفة من الناس في معسكرات الاعتقال وغيابة المحابس ، وألوف آخرين في أعمال « السخرة » يكدهون مستذلين . وإنه ليتساءل : أهؤلاء حقاً وجود ؟؟ وسواء كان لهم وجود ، أو لم يكن ، فإن الزعم بوجوده ليس إلداعية « بورجوازية » ، فلا مناص إذن من أن ينكر أن في روسيا معسكرات اعتقال أو معسكرات للمسخرين ، فقد أصبحوا « أصفاراً » في حجة المؤمنين بأن الحاضر للنضال ، والمستقبل للشيوعية ، وهو عالم سيصبح كل إنسان فيه على الدهر حراً ؛ فإن اعترف امرؤ بينه وبين نفسه بوجود تلك المعسكرات وأولئك الضحايا ، فلا منسدوحة له عن اعتبارهم تضحيات لا بد منها في سبيل نصرته القضية ونجاحها ، ولا معدى له عن القول بأنه من الضعف « الإنسانى » أن يكثر الناس من الكلام عن الضحايا ، وإنما كل ما يجب هو أن يضع المرء الهدف نصب عينيه ، فلا يلبث بذلك أن يتخلص من الشعور بالاستنكار

والقلق للذين يلازمان عقلية الأحرار ، وإن كان شعوراً لا جدوى منه ولا خير فيه ، على كل حال .

ولا تنس أيضاً أنه إذا كانت للشيوعية ضحايا ، فللرأسمالية ضحايا أكثر منها عدداً ، وإلا فما بال الملايين من المتعطلين ، في أيام السلم ، والملايين الآخرين الذين يقتلون في الحروب ، أليس هؤلاء جميعاً ضحايا التنافس الرأسمالي وفريساته ؟ أو ليست الرأسمالية نظاماً يقوم على التضحية بالملايين حتى لينمو عداوهم كلما نما شأنها واستطال أمدها ؟

أما الشيوعية فنظام ستندم فيه الضحايا ما دام السكل فيه شيوعيين في مجتمع غير مقسوم طبقات ولا موزع طرائق ، وماضحايا اليوم إلا ضحايا الثورة ، لاضحاياها هي بالذات ، ويوم تنجح الثورة ، وتذوى دكتاتورية « البروليتاريا » ، تقل الضحايا بطبيعة الحال ، لأن الشيوعية ليست بحاجة إلى استغلال الطبقات ، وإنما كل ما تقتضيه هو تعاون الناس جميعاً على قيام عالم أفضل .

وقد مضيت خلال الأعوام التي توالى بعد عام ١٩٣٠ أحاج نفسي على هذا النحو وأناقش خاطري ، وكان شعوري بالإثم يعزز حججى ، وكانت استراقتى بأن ذلك الجزء منى الذى يرثى لضحايا الثورة وصرعاها ، إنما يفاصر خفية الرأسمالية ويؤيد مساوئها وشرورها التي أفدت أنا شخصياً منها وانتفعت .

وكانت البذور التي غرسها شالمرز في خاطري بحملاته على عصبة الأمم ، والنقد الضمنى الذى وجهه لى حين وصفنى بأننى من شيعة « غاندى » ومريديه . . قد تركتني في الأشهر التالية أعتقد أن جميع الأعمال العامة ، وكثيراً من التصرفات الخاصة والشخصية ، نوعان : أحدهما من أجل الشيوعية ، والآخر ضدها . وأن الدوافع « الشخصية » لا صلة لها مطلقاً بالنزوع « الموضوعى » إلى إنسانها ، فإن من يعمل مع الفقراء ، ويجهاد خيرهم ، ويود صادقاً أن تتحسن دنياهم ، وينصالح عالمهم ، قد يكون من الناحية « الموضوعية » ضد العمال إذا جعل الذين يشتغل خيرهم راضين

بمجمع رأسمالى قانعين ببقائه واستمراره . والواقع أن القسيس الفقير ، والمساعد فى الخدمات الاجتماعية ، هما من صنائع الأغنياء وأدوات الرأسماليين ، سواء بسواء .

ولكنى آمنت اليوم بأنه من الجائز أن يتولى حكم بلد من البلاد زعماء يؤمنون إيماناً صادقاً بأنهم من الاشتراكيين . ولكنهم مع ذلك لا يريدون استخدام الوسائل القاسية العنيفة التى تتذرع الثورة بها ، وأن هؤلاء الاشتراكيين قد يمحذون أنفسهم يوماً فى مركز تتعرض فيه الاشتراكية للخطر من جانب الرأسماليين الذين وطنوا نفوسهم على تدمير سمعة البلاد فى الخارج ، على أمل أن يتمكنوا بذلك من تدمير سمعة الحكومة الاشتراكية أيضاً ، فلا يسعها عندئذ غير قضاء لبانة الرأسماليين ، أو الاتجاه إلى الوسائل العنيفة لتحطيم الرأسمالية .

وقد أثبتت لنا الأحداث التى وقعت فى عام ١٩٣٠ أن الديموقراطيين الاشتراكيين أمثال « برون » وسيفرنج فى بروسيا ، ورمزى مكدونالد فى بريطانيا ، رفضوا حين رأوا أنفسهم أمام أحد هذين الأمرين ، أن يتخذوا الثورة فعمدوا إما إلى اتخاذ الأمر الآخر ، أو لجأوا إلى الاستقالة والتخلى عن الحكم .

وقد مضيت أعرض حالتى الخاصة على التحليل ذاته الذى طبقته على أولئك الاشتراكيين الرسميين ، فجعلت أسائل نفسى ما الذى أريده حقاً وأبغيه ..؟؟ هل ترانى فى هذا المجتمع ألهو على سبيل الترف الملازم لمركزى بالتظاهر الخداع المغالط لحقيقة نفسى بأننى أحب لغيرى ما أحبه لنفسى ، وأبتغى لهم التوفيق ذاته الذى أصبته ، والحظ عينه الذى أنعم به؟؟ وهل ترانى على استعداد لقبول عالم اشتراكى ، إذا أنا صحت من نوى فجأة فى يوم من الأيام فوجدت أن ذلك قد تحقق بغير ألم ، ونفذ بغير عنف ، أو أنا على استعداد لتأييد الوسائل التى قد تحقق هذا الهدف ، أو ارتضى قيام فترة « انتقال » قد تكون مرهقة كل الإرهاق بل شراً من الرأسمالية وأسوأ منقلباً . وقد يطول عليها الأمد ثم تنتهى إلى الهدف الذى يريده الاشتراكيون ويشتهونه؟؟ وإذا أنا لم أرتض الوسائل التى ستجلب الاشتراكية ، أفلا تكون

أفكارى وآرائى مجرد مخادعة لنفسى ورثاء لها ، وحلماً مبرراً لتفكيرها ، وأمنية مغالطة لنزوعها ، دامت الاشتراكية اليوم شيئاً آخر غير « الاتحاد العالمى للدول الاشتراكية » ، وما دامت مجرد الوسيلة التى قد تحقق الهدف ، مهما تكن من السوء والجفوة والعنف ... ؟

ولما سألت نفسى كل تلك الأسئلة ، وجدتني مضطراً إلى الاعتراف بأن ما أريده حقاً وأبتغيه هو أن يعيش غيرى العيش الذى أعيشه ؛ ولكنى لا أرتضى الانضمام إلى العمال ، لأنه مطلب لا يروقنى ، وعمل لا أحسنه ، وأمنية أنا عن تحقيقها العاجز ؛ فلا أجروء على التفكير فى إضاعة « الاستقلال » الشخصى الذى أدين به لمركزى فى المجتمع « البورجوازي » ؛ ولكنى بريضة خيالى استطعت بعد لأى أن أبلغ حالة عقلية يتييسر لى فيها أن أقول لنفسى إننى مرتض تأييد الثورة ، حتى وإن اقتضت ضياع هذا الاستقلال ، فإن ذلك لا يختلف عن خسارتى الشئ الكثير إذا نادعت إلى صفوف القوات فى حرب من الحروب ؛ ولكنى مع بلوغى هذه الحالة الذهنية لم ألبث أن واجهتنى احتمالات مزعجة لا صلة لها بمصلحتى الشخصية .

فقد عجزت عن التسليم بأنه لا معدى عن حرمان الغير من حرية التعبير عما يعتقدون أنه الحق إذا كان هذا الحق مخالفاً للحدود العرفية التى حددتها الدكتاتورية العالمية للحرية ومداها ، ولم أستطع أن أعتقد أنه من « الرجعية » السياسية الإيمان بالله ، أو التمسك بآراء وأفكار فى الطبيعة والإنسانية ، ليست فى عرف « ماركس » « علمية » ، لأن ماركس يبنى تحديده للوسائل « العلمية » على إنكار وجودها فى البحث الحر .

إن الشيوعية فى نظر المستنير السليم النية هى صراع الضمير ، وفى فهمها على هذا النحو بيان لعدة أمور ، وشرح لجملة مسائل ، ومنها أن الشيوعيين الذين يأتون أعمالاً قد تبديهم لغيرهم سفلة مستهترين ، قد يكونون فى الواقع مخلصين الإخلاص كله ؛ مثلهم كمثل السفن الملقية مراسيها ثوابت مزدوجة فى كلا مقدمها ومؤخرها ، وسط

تيارات متقاذفة تجعل السفن الأخرى تمايل ذات اليمين وذات الشمال مترنحة ، وماهذه المراسى المزدوجة إلا الحلم الذى يداعب خواطرهم ، حلم المجتمع المتخلص من الفوارق والطبقات ، والأمل فى الغد المرتقب . وأما التيارات المتعارضة التى تزعج ضمائر الأحرار فهى هذه الهواجس التى تنتاب الأذهان من جهة الوسائل التى لا غناء عنها لتحقيق أهداف الشيوعية ومراميها ، ومعرفة آلام الألوف من الناس الذين ليسوا شيوعيين . ويبين لنا هذا الضمير الشيوعى المسكين المطمئن من هاتين الناحيتين سر الندم والأسف للذين يبيدهما أحياناً غير الشيوعيين نحو الشيوعيين الأقحاح الذين استقرت ضمائرهم بالساحل وألقت مراسيها المزدوجة ، ورسخت رسوخاً ، فإن للضمير المستقل سلطاناً غلاباً ، وأثراً فعالاً بالغا ، وهذا هو الذى يضى على الشيوعى رهبة ، ويوحى إلزاماً ، ويجعل إيمانه بالشيوعية سخرية وتعييراً لكل من يدين بمذهب الأحرار ، ويترنح ضميره ويتمايل من مبدأ إلى مبدأ ، وهاجس إلى هاجس ، فتراه حيناً مؤيداً حرية كاتب قد يكون مجرداً من الضمير ، أو من شيعة « السير ياليزم » ، وحيناً آخر مناصراً قسيساً كاثوليكياً ، وحيناً ثالثاً أستاذاً فى السجن .

وليت شعرى أية قوة تلك التى يملكها الضمير الذى لا يعيرنا بالشرور والعيوب فحسب ، بل يعيرنا ببعض الفضائل أيضاً ، كثرائنا للظالمين بغياً وعدواناً ، أو حبنا لصديق ليس حزياً متطرفاً ؛ أى قوة للضمير كهذا يقول لنا إننا مستطيعون إذا نحن اتخذنا موقفاً سياسياً معيناً اليوم ، أن نبلغ مركزاً ضخماً مكيناً كالصخر يغطى على كل ماضينا ، بغير غضاضة علينا ولا مقارفة إثم ، ولا عسير محاولة ، بل بمجرد تحويل شخصيتنا كلها إلى مادة أولية تستغلها الأداة الحزبية لمصلحتها .

ليس ثمة شئ أسهل ولا أيسر من التوكيد بأن الهواجس والشكوك التى تتخالج نفس الرجل المؤمن بمذهب الأحرار — مهماتكن هذه الهواجس حسنة النية ، والمراد منها طيباً — إنما تتجاهل الخير العام ، والصالح الاجتماعى ، بل ما أبسط وأهون من القول بأن هذه الهواجس ليست فى الواقع غير « نقط أمامية » على خط الدفاع عن

« البورجوازية » ، وأن الرجل حسن النية قد يدافع عن القوى التي جلبت أكبر النكبات على العالم ، ورمته بأفدح الخطوب ...؟؟

وقد أسلفت عليك الحديث عن تلك « الصوفية » العجيبة ، أو الإيمان الغريب الذى يؤمن العمال به ، وهو أنهم كطبقة سيخلفون البورجوازية . وهى « الصوفية » التى لا أشك فى أنها قد أحدثت أثرها فى نفس « شالمرز » ولكن فكرة « العمال » ذاتها لا يزال لها أثرها فى الصراع المحتدم فى أعماق ضمير الشيوعى المستنير . فقد يروح رغم إيمانه بالحرية الفكرية يسائل نفسه « لماذا ينبغى للعمال أن يتدخلوا فى حريتى ؟ » فإن ما يطالب به ملايين العمال فى المفاجئ والألوف المؤلفة من الصناع والفلاحين هو شىء آخر غير الحرية فى ترقية شخصياتهم ، وتنمية قيمتهم ؛ إنهم يطالبون باستتباب السلام ، ووفرة الخبز ، وتحسين مستوى العيش ؛ فإذا كانت التضحية بحرية بضعة ألوف من المستنيرين هى الثمن الذى ينبغى أن يدفع فى سبيل خير الملايين ، فقد تعمين التضحية بها ، إذ لعمري ما قيمة شخصية كاتب متحمس يجلس فى مقهى كافيه دى فلور ، ويقضى الوقت فى التحدث عن « الوجودية » ، فى نظر الفلاح الهندى ، أو الحمال فى الصين ...؟؟

إن المستنيرين ليسوا عمالاً ، كما مضى هنرى بوليت يحدثنى ، فلا معنى للبحث فى أمرهم ، ما دام موقفهم لا يتجاوز حدود « النظريات » ، بل لقد تأثروا بالفاشية أشد التأثير ؛ وكان انتصار هتلر عام ١٩٣٣ هزيمة للحرية الفكرية فى ألمانيا ، وخطراً يهدد الحرية فى كل مكان ، وجعلت اليهود والمستنيرين على حد سواء ، قوى سياسية ، لمجرد أنهم مستنيريون ويهود لا أكثر ولا أقل ؛ وكان وجه الخطر من انتصار هتلر على الحرية العامة أنها تمس حرية الأقليات العنصرية ، وحرية العلماء فى استنتاج نتائج دون النظر إلى اعتبارات السياسة وظروفها ومواقفها ، وحرية الشاعر والرسام فى التعبير عن أدق مشاهداته ، وألصق الأحاسيس بدخيلة نفسه . وقد شاهدت فى ذلك العهد أفلاماً روسية كفيلم « الأرض » وفيلم « بوتومكين » والأم ، والأيام ، التى هزت

العالم ، والطريق إلى الحياة ؛ وهى جميعاً من أوفر المنتجات الفنية فى العالم براعة وإثارة للحماسة ، وقرأت كتباً وبحوثاً لموريس هنداس ولويس فيشر وغيرها ، وهى جميعاً تنوه بالتقدم الاجتماعى الكبير فى الاتحاد السوفيتى ، وتبين لى أيضاً أن النقد الذى قرأته يومئذ عن روسيا وصدقته لأول وهلة لم يكن سوى دعاية ضدها ، وجاء نشر الدستور السوفيتى فبعث فى النفس الأمل فى قيام عهد جديد فى روسيا يتوافر فيه نصيب كبير من الحرية .

وأما اليوم وأنا أكتب هذه السطور ، فيبدو لى أن ذلك كله كان فى الواقع سخرية أو حلمًا كاذبًا لأن الاستالينيين اليوم إنما يمثلون الخطر ذاته الذى كان أشياخ هتلر فى عام ١٩٣٣ ، يهددون به الحرية الفكرية وإن لم يكن ذلك جليًا ظاهرًا فى ذلك الحين ؛ وكان الغالب على الظن إلى قبيل مقتل « كيروف » أن روسيا توشك أن تظهر بقسط كبير من الحرية بدليل ما كان ملموسًا يومئذ فى المسرح من التطورات السريعة ، وما بدأ يدخل من التحسين على السينما والموسيقى ؛ ولست أنكر أن الذين كانوا عندئذ يزورون روسيا بواسطة الهيئات السياحية ظلوا تحت رقابة شديدة وحراسة مطبقة ، وعيون تترصد لهم ؛ ولكن روسيا لم تكن مع ذلك معزولة عن بقية العالم ، لأن الدعاية المتهوسة التى كان المناهضون للثورة يوجهونها أفادتها كثيرًا على كل حال ، بإثارتها جوارًا كثيفًا من الضباب جعل من المتعذر على الرقيب الجرد من الهوى أن يقبل ما يقال ضدها ويروى عنها ، وعلى ذكر الدعاية أقول هنا إن الدعاية ضد الشيوعية دلت على أنها أجدى ما تكون على ستالين وأكبر نفعًا من أية دعاية استعين بها منذ قيام الثورة البلشفية .

فلا عجب إذا رأينا اليهود والمستنيرين أو معاشر « الكستبة » الذين أبت عليهم أذهانهم « المستنيرة » أن يرتبطوا بأى علائق طائفية ، أو صلات حزبية ، مضطرين إلى البحث عن حلفاء لهم وأنصار ، وحين خاب أملهم فى الديمقراطية تحولوا بوجوههم شطر الحركة العالمية ، وراحوا يوازنون بين مساوى التعطل بالجملة وعيوب

« الفاشية » وويلات الحروب ، وبين سيئات الشيوعية وآثامها ، فلم يلبث الأمل أن مضى يداعب أحلامهم في أن تكون الشيوعية علاجاً يعين على إزالة هذه السيئات ، ووضع حد لهذا المنكر العظيم ، حتى لقد شهدنا كاتباً حراً كالستر « فورستر » يكتب قائلاً إن الشيوعية هي العقيدة السياسية الوحيدة التي يقوم عليها الأمل في الغد المرقوب ، وإن استطرده يقول إنه لا يرضى لنفسه أن يكون شيوعياً ، وهكذا تحولت الحياة الفكرية في عام ١٩٣٠ إلى جدل مستطيل حول « الوسائل والغايات » .

ولكن الذين أسهبوا في ذلك الجدل المحتمد المصدع للرموس ، راحوا على الأيام ينظرون إلى الأمر نظرة مختلفة ، فقد أزعجتهم الأزمة الاقتصادية في ذلك الحين ، وجاء انتصار هتلر فبدد دعواهم أنهم يعيشون في عالم أخذ التعصب يقل فيه ، ورأوا اضطهاد اليهود فتارت الشفقة في نفوسهم ، واحتدم الغضب ، واشتد السخط . وليس من شك في أن الحرب الأهلية في أسبانيا كانت الطامة الكبرى في عام ١٩٣٠ وذروة البلاء والسوء ، وكانت النتائج التي قد تسفر تلك الحرب عنها تلوح في أسبانيا ذاتها ، وأعين الشعب الأسباني نفسه ، أكثر تعقيداً وتشعباً مما كانت تبدو في تقدير الذين يعيشون خارجها ، وقد يكون ثمة بعض الحقيقة في قول « آرثر بريانت » Arthur Bryant إن الأسبان في كلا الجانبين المتحاربين كانوا أشد كراهية للذين هرعوا إلى معونتهم منهم لخصومهم الأسبان ، وأعدائهم المواطنين ؛ ولكن أسبانيا كانت تبدو أمام العالم كله يومئذ المسرح الذي تمثل عليه مأساة الصراع بين الفاشية وخصومها .

وجعل تدخل موسوليني وهتلر ، ثم روسيا ، والفرقة الدولية ، في الحرب الأسبانية في ذلك العهد مدار الصراع العام في أوروبا لاستنقاذ روحها ، فقد ثار القواد الأسبان فيها على حكومة انتخبها الشعب ، فما إن عجز الثائرون عن تعزيز ثورتهم ، وأقبلت قوات من الخارج لتساهم في النضال ، حتى أصبحت المقاومة الجمهورية ذاتها قضية الديمقراطية ، ومقاومة الثوار ، قضية « الفاشية » .

وكان هذا الوجه من التفكير هو الذى تحارب من أجله إيطاليا وألمانيا وروسيا
والفرقة الدولية على التربة الأسبانية ، وإن اشترك الأسبان فى الصراع لنصرة
كلا الجانبين .

وقد تحول الصراع بين الفاشية الأوربية والحركة المناهضة لها إلى « مأساة »
تمثل على المسرح الأسباني كأنها بعض الروايات التمثيلية الدامية ؛ وما لبثت النزعة
العاطفية الغريبة التى ركبت فى نفوس الأسبان والجنوح الذى طبعوا عليه نحو الأمثلة
العليا ، وحدة المزاج التى عرفوا بها ، ومشاهد الطبيعة ذاتها فى بلادهم ، أن خلعت
على الحرب لوناً بارزاً ، وزادتها شدة واستعاراً ، وأضفت عليها لوناً من الشعر لم يكن
لها من قبل ، وما كان لها من بعد .

لقد كانت تلك الحرب قبل كل شىء حرباً لايزال الحساب فيها والاعتبار للفرد
وعاطفته ونزعاته واستقلاله عن الوسائل الميكانيكية ، بل فى الحق لقد كانت من ناحية ما
حرب فرد فوضوى أو حرب شاعر ، وقد رأينا خمسة على الأقل من خيرة كتابنا
الشباب يهبون لها وأرواحهم كما وهبها لها الشعراء من مختلف البلاد ، وهذا هو
ما اجتذب إليها المستنيرين وفتنهم بها فتوناً .

ولم يلبث الصراع القاسم بين الفاشية والديمقراطية بعد سقوط الجمهورية ، أن
أمسى صراعاً كان الحساب فيه والاعتبار للجيش والآلات والبيروقراطيات أكبر
من حساب الأفراد .

وكنت قد شخصت إلى جبل طارق فى المراحل الأولى من تلك الحرب ، وزرت
أوران وطنجة ، ولشد ما كانت دهشتى لمشهد الحمية التى كانت تسود الناس فى الجامع
لنصرة الجمهورية الأسبانية ومظاهرتها ؛ وما أحسبني رأيت فى حياتي اجتماعاً كالذى
حضرتة فى طنجة ، فقد رأيت عدة مئات من أشد خلق الله فاقة ، وبينهم المقعدون
والكسيجون والعوى ، يستمعون فى حماسة بادية على سحنهم إلى الخطباء الذين كانوا
يدافعون عن قضية الجمهورية .

لقد بدا لي في هذا المشهد بريق من الولاء والأمل المشع ، جعلني أتمثل في خاطري الجموع الحاشدة التي وصفها « الإنجيل » .

وكنيت أيمناً أذهب في غمار تلك الحشود الشيوعية أستشعر روعة بالغة من مشهد ثقتهم وطمأنينتهم وحسن سلوكهم ، وفي « أوران » وسط الضجيج والعجيج والعريضة الشائعة في الميناء ، كان الشيوعيون الذين ألفوا الاختلاف إلى مقهى صغير يلوحون كأنهم في عالم مختلف عن عالم المدينة كل الاختلاف .

وعلى النقيض من الأثر الحسن الذي قام في نفسي من مشهد معاشر الشيوعيين ، كان إحساسي من ناحية الموظفين ورجال الأعمال الذين يمثلون مصالح الدول الديموقراطية فقد تبين لي أن أكثر الذين لقيتهم من هؤلاء كانوا يؤيدون فرانكو ، وفي وسعي أن أضرب عدة أمثلة ، ولعل أشملها ما شاهدته في طنجة التي تتولى الإدارة فيها لجنة « دولية » تتألف من وزراء ينتمون إلى عدة دول كبريطانيا وإيطاليا وأسبانيا وبلجيكا وفرنسا ؛ وكان « بريتودل ريو » الوزير الأسباني الذي يمثل الجمهورية منبوذاً من الآخرين ، أو منقطعاً عنهم .

ولما ركبت سيارة « تاكسي » وطلبت إلى السائق أن يذهب بي إلى دار المفوضية الأسبانية ، راح يتبع إجراء معيناً ، ويأخذني إلى دار البريد ، وهي يومئذ مقر رئاسة الجنرال فرانكو ، ورأيت المدعوين إلى حفلة « كوكتيل » في المفوضية البريطانية يتحدثون عن الوزير الأسباني قائلين إنه قلما يحدث أن يتخذ رجل طيب مثله الجانب الخطي ، وهم يعنون به جانب « الجمهورية » في بلاده ، ذلك الجانب الذي يمثل الحكومة الشرعية التي اعترفت الحكومات الأخرى بها .

ولما زرت بريتودل ريو في النهاية وجدته جالساً مع رجلين من أعوانه وموظفيه معزولاً عن الحياة « الرسمية » في طنجة ، التي كان عضواً في حكومتها .

وفي جبل طارق وصف لي موظف بريطاني متقاعد الموقف وصفاً صريحاً جلياً ، تخالطه سخرية مرة لم يكن يقصدها ، فقد ذهب يقول لي إن الشيء الذي لا يفتن

إليه الناس في بلادنا هو أن الجمهوريين الأسبان ليسوا كديموقراطييننا ؛ ولو أنك ذهبت إلى الشارع هنا وسألت أول عشرة من العمال الأسبان تلقاهم ، أى الجانبين في بلادهم يناصرون ، لقالوا لك جميعاً ، إنهم يناصرون الجمهوريين . إن هذه ليست فكرة الديموقراطية عند البريطانيين مطلقاً ، وهو ما يريده تسعون في المائة من الشعب ..

وبدا لي أن الموظفين البريطانيين في جبل طارق لا صلة لهم بالأسبان الذين يريدون الجمهورية ، وأنهم لا يعرفون غير الذين يشتركون في الصيد ، وأنهم سمعوا منهم روايات شتى عن الفظائع التي يقترفها الجمهوريون ، وينكرون علمهم بشيء عن وحشية الآخرين .

وبعد أن زرت برشلونه ومدريد وبلنسية مرة أخرى بعد زورتي الأولى ، اشتركت عند عودتي إلى الوطن في مظاهرة مناصرة للجمهورية الأسبانية ، وألقيت خطاباً وانضمت إلى عدة لجان ، وحملت في ذات مرة مع بعض الكتاب الآخرين لافتات خشبية كتبت عليها هتافات مؤيدة للجمهورية ، ومضينا نخترق بها شارعى أوكسفوردوريجنت .

وكانت تلك الأيام هى الفترة التي قامت فيها الجبهة الشعبية ، وكانت العوامل العاطفية التي أوقدت هذه الحركة وأكسبتها الحياة ، بعثاً غمراً للفكرة الأحرار ومشاعرهم وإن لم يكن في بريطانيا يومئذ أحد من الأحزاب يمكن أن يقبل على تلك الحركة ويناصرها إلا معاشر الشيوعيين ؛ فقد كان حزب العمال لا يزال متأثراً لم ينقه بعد من غدر رمزى ماكدونالد وخيانتة ، فلا عجب إذا استغل الشيوعيون هذه الحركة التي أعادت الحياة إلى مبادئ الأحرار ، وإن ظهرت في صورة المناهضة للفاشية .

وكان بين المستنيرين والكتاب من أمثال فيكتور جولانكز وجون ستراشى وجورج أورويل^(١) وآرثر كوستلر وفورستر ، فريق لا يترددون في

(١) مؤلف « مزرعة الحيوان » ، وهو كتاب أجراه على السنة البهائم ككتاب كلية ودعمته ووصف فيه روسيا الشيوعية أبعد وصف ، وقد نقلته بقلبي إلى العربية أخيراً « بعنوان أسطورة الحيوانات الثائرة » وسيظهر قريباً .

مجاراة الشيوعيين والذهاب مذهبهم في مقت الفاشية ومقاومتها ، والدفاع عن الحرية والعدالة الاجتماعية ، كما رأينا خلقاً كثيراً ممن لم يكونوا شيوعيين يبذلون قواهم في سبيل تأييد الجمهورية الأسبانية مؤمنين بأنها « قضية الديمقراطية » .

ولو أن الشيوعيين أقبلوا على الجبهة « الشعبية » بذلك الإيمان القوى الذي أقبل به الاشتراكيون والأحرار عليها لامتدت حركة ديموقراطية من أقصى اليسار إلى وسط الأحرار ، ولظفرت بتلك الحمية والسماحة وسعة الخيال التي كانت ثورات الأحرار في سنة ١٨١٨ مقترنة بها ؛ ولكن القدر الموكل بالشيوعيين قضى بالآل يفكر في شيء غير تأليف جهات متعددة ليتولوا الرقابة عليها من الداخل ، وهكذا راحت قوى الأحزاب تتأثر بالحزب الأوحده الذي كان يلح في إعلان رغبته في الوحدة ويرفع الصوت عالياً في مناشدتها .

وكانت أزمة ١٩٣٠ الاقتصادية ، ونكبة جمهورية « فيمر » ، وسقوط « فيينا » الاشتراكية — وهى الأحداث التي شاهدها من الخارج — قد اضطرتني يومئذ إلى قبول مكان لي في الشيوعية وإن لم يتعد الناحية النظرية الصرف ، فضيت في أشعاري وفي كتابي « خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار » أقرر أن الشيوعية ضرورة عقلية عاطفية ، ولم يلبث إلحاح بوليت على في وجوب المعاونة والعمل في أسبانيا أن دفعني إلى الحزب الشيوعى دفعا .

ولكن أسبانيا مع ذلك هى التي ورطتني في أولى تجاربي العملية واشتغالى بالسياسة مع سواى ، كما تجاوزت بي هذه الخطوة التي جعلتني عضواً في الحزب إلى ما وراءها ، بل إلى خارج الحزب ذاته ، فلم ألبث أن بدأت أدرك أنه إذا كانت الشيوعية هى القوة المنظمة الموجهة التي تكمن خلف مناصرة الجمهورية الأسبانية ، فإن قوة الجبهة الشعبية ونشاطها الحقيقي ، إنما يتغذيان بتأييد الذين يحترمون فيهم مذهب « الحرية » وأقيسته ؛ بل لقد فطن الشيوعيون أنفسهم إلى أن ما جعل أسبانيا جهاداً وشعاراً ، أوعلا ورمزاً ، في القرن العشرين ، هو بذاته الذي جعل لعام ١٨٤٨ واثقلاته

خطره البالغ وعظيم شأنه في القرن التاسع عشر ، ونعني به أن الجمهورية لم تكن شيوعية ، حتى لقد رأينا معاشر الشيوعيين يعلنون ذلك من البداية ، ويجهلون به رغم محاولتهم استغلال الموقف والإفادة منه ، وينكرون في غضب قول القائلين إنها شيوعية ، ويقولون إنهم إنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك من قبيل الدعاية الحسنة ، بينما مضوا في تصرفاتهم وتدابيرهم يحاولون جاهدين تكذيب تلك الدعاية ومناقضتها ، والاستيلاء على السلطة في أسبانيا والإشراف على الهيئات التي كانت تجلب المعونة إليها من الخارج .

وما لبث الأحرار وهم الأخيار حسنوا النية أن وجدوا أنفسهم بدافع من حلفائهم الشيوعيين ، رغم مناصرتهم للجبهة الشعبية ، مواجهين صراعاً نفسياً ، أو صراعاً في أعماق الضمائر ، أحدث صدعاً بالغاً في صفوف المناصرين للجمهورية ؛ فإن الحرب الأسبانية كانت يومئذ في أعين الشيوعيين مرحلة من مراحل نضالهم في سبيل الوصول إلى القوة والسلطان ، وليس ثمة عجب أن يصبحوا عندئذ القوة المحركة في الجبهة الشعبية وأسبانيا خاصة ، لسيطرة فكرة واحدة على عقولهم ، ولشدة تعصبهم لرأيهم ، ووحدتهم اتجاههم ؛ بل كانوا أيضاً القوة التي تكبح القوى الأخرى وتمسك بها ، وهي القوى التي كانت في النهاية أكثر حيوية منهم ، لأنها أكثر تشعباً ، وأشد اهتماً بالحرية ، والاستقلال في الرأي ، ومختلف ضروب التعبير ووسائله .

ويكاد كل ما كتب عن الحرب الأسبانية يصور « البعث » الذي طرأ على مذهب الأحرار ، ولم يصب الشيوعيون منها شيئاً ، لأن « أورثو كسيتهم » كادت تقتل البحث في الأفكار السارية ، والآراء الشائعة ، وتعمى العين عن مشاهد تشعب الأحداث وتعمدها ؛ وكانت أفضل الكتب التي وضعت عن الحرب — وهي كتب مالرو Malraux وهمنجواي Hemingway وكوستلر وأورويل — مفعمة بوصف للناسفة الأسبانية من وجهة نظر الرجل الذي يدين بمذهب الأحرار ، وهي شهادة على الشيوعيين وما اقترفوه من أغلاط وآثام .

وقد رأيت خلال زيارتي الثانية لأسبانيا كيف استطاع الشيوعيون الرقابة التامة على « الفرقة » الدولية وكان أفرادها قد جندوا على « حس » الجبهة الشعبية المنتمية إلى الجمهورية ، فإذا بالشيوعيين يركزون في أيديهم جميع العناصر الديمقراطية المختلفة التي كانت الفرقة تتألف منها ، وكان هذا التركيز إلى حد ما مثلاً من الأمثلة على ما كان الشيوعيون يفعلونه في أسبانيا ، والوسائل التي كانوا يتوصلون بها ؛ وكان هدف هذه الخطة في داخل الجيش الجمهوري دعوة الأحزاب إلى تأليف جيش تندمج فيه سائر الهيئات السياسية وتشكيلاتها ولجانها وشعبها ، لكي يتزعموها في النهاية ويظفروا بالرقابة على الجيش بجملمته .

وقد وقعت أحداث أليمة في الفرقة الدولية من أثر سيطرة الشيوعيين عليها ، ولا أزال أذكر حادثة منها ، فقد التقيت عند زيارتي للجبهة في مدريد بقى انجليزى لا يتجاوز الثامنة عشرة وكان يدعى ل ... وقد حدثنى قائلاً إنه جاء إلى أسبانيا وهو معتقد أن الفرقة الدولية لا تقل إيماناً بمذهب الأحرار عن الجمهورية ذاتها ، ولكنه ما لبث أن فقد إيمانه بها حين تبين له أن الفرقة واقعة في قبضة الشيوعيين ، ولم يكن يحبهم أو يجد في نفسه جنوباً إليهم ؛ وبدألى حين ناقشته أنه لم يكن قد فكر يوماً في الشيوعية قبل مقدمه إلى أسبانيا ، فسأله هل يأذن لى أن أحاول إعادته إلى بلاده فلم يشأ أن يدعى أفعّل شيئاً من ذلك ، وراح يشير بيده إلى طرة التل المشرف على الوادى حيث كنا نقف وهو يقول « إننى سأظل إلى آخر حياتى أمشى فى كل صباح هنا ذهاباً وجيئة حتى أقتل يوماً وأذهب من هذه الدنيا ... » .

وقد ذهب قتيلاً بعد ذلك بستة أسابيع !...

ولما عدت إلى انجلترا كتبت مقالاً نشرته جريدة « نيوسبيتسمان » أحتج فيه على الدعاية التي حملت الشبان والفتيان الصغار على التطوع فى صفوف الفرقة الدولية دون أن يشرح لهم أحد أنها هيئة عسكرية يتولى الشيوعيون الهيمنة عليها .

وقد أغضب ذلك المقال معاشر الشيوعيين ؛ فقد لقيت بعد بضعة أسابيع من

تاريخ نشره وأنا في « بلنسية » مراسلاً لإحدى الصحف الشيوعية ، فقال إنه رأى المقال وإن ما كتبته عن أسبانيا صحيح ، ولكنه مضى يقول إن المهم هو أن يكتب المرء ما يعتقد أنه خير سبيل إلى تحقيق الأهداف التي يرادها كسب الحرب ، وظفر الشيوعية ؛ وكان يناقشني برفق ومودة بالغة ، مظهراً ذلك النوع من الاستخفاف بآلام الضحايا الذين يذهبون فداء لقضية صادقة ومبدأ قويم .

وكان سلوك الشيوعيين في الفرقة الدولية يشابه سلوكهم ذاته داخل الجمهورية ، ولا يختلف أيضاً عن سلوكهم في أمر الدعاية ، فقد ذهب دعايتهم ينسبون أحداث القتل والجازر إلى الفاشيين ، ويصورون الجمهوريين في صور الملائكة ، ويصفون الذين يقولون إنهم كانوا يقتلون الناس ، ويرتكبون الفظائع بأنهم « فاشيون » أيضاً . وهذه الصورة هي التي نفاها مالرو في قصته ، وكذبها « همنجواي » في روايته ، وهما القصتان الوحيدتان البارزتان عن الحرب الأسبانية .

وهناك مثل آخر على سذاجة الدعاية وفسادها ، وهو استغلالها لقتل « لوركا » . ولم يكن الرجل شيوعياً ، ولكنه كان « كاثوليكياً » فر إلى « فرانكو » في بداية الحرب ، فقتله الفاشيون وعمد الشيوعيون إلى استغلال مصرعه على هذه الصورة لأنهم يكرهون « الهراطقة » الأحياء ، ولكنهم قد يستغلون الموتى منهم ، ما دام مصرعهم لم يكن على أيديهم ؛ وقد ينتفعون بإلحاحهم القديم للتدليل على أن معاشر الشيوعيين قوم سماح ، وأن خصومهم قوم قباح ضيقوا الأعطان .

فلا عجب إذا كان وصف « لوركا » بأنه كاثوليكى محافظ ، بل رجعي ، لم يفضيهم مطلقاً ولم يسوءهم ، ما دام فرانكو هو المسئول عن مقتله ، بل كانوا بلا شك سيفضون لو قيل عنه إنه « أحمر » ؛ فقد كان الشيء الوحيد الذي لا يعترف عندهم ولا يقبل سماحة ، هو أن يقال إن هناك غموضاً حول ظروف موته .

وقد لاحظت وأنا في أسبانيا أن أكثر الشعراء الأسبان كانوا مستحيين من هذه الدعايات التي روجت حول الوفاة .

وكان شراً منها وأسوأ تلك الحملات والدسائس وقالة السوء التي كانت توجه إلى الهيئات المنتمة إلى الجمهورية الكارهة للشيوعيين . فقد كان القضاء على جماعة التروتسكيين وجماعة « البوم » Poum والتشهير بجميع أفرادها وتصويرهم كفاشيين وصمة عار في جبين الجمهورية عند سائر الذين لم يكونوا شيوعيين .

وقد حدثني بعد الحرب قائد أسباني فقال إنه يعتقد أن الدعايات الشيوعية أضرت بقضية الجمهورية أكثر مما نفعها فإن قضيتنا كانت من الحق والسادد بحيث لا يعجزنا شيء عن قول الحقيقة بسيلها .

وهذا قول حكيم ، ورأى صائب ، فإن الدعاية التي تصور أصدقاءها أيضاً ناصعي البياض ، وأعداءها سوداً فاحي السواد ، لا تقنع أحداً سوى الذين صدقوا بها من قبل وسكنوا إليها ، ولا تجد مصدقين جدداً ، ولا تصيب مؤمنين ، لأنها من الوجهة الإنسانية غير قابلة للتصديق ، إذ هي ترسم الأحداث البشرية كأنها أمور « مجردة » لا يعتقدونها غير العمى الذين لا بصيرة لهم ، وتفسر نفوس الذين يعطفون على القضية ولكن أعينهم مفتحة .

وكثيراً ما أدت الدعايات الشيوعية ضد الجمهورية الأسبانية إلى تنفير الذين كانوا مخدوعين بها ، وإحداث رد فعل قوى في نفوسهم ، فقد لقيت في بلنسية رجالاً يصور الخدوعين الذين زالت الغشاوة عن أعينهم أدق تصوير ، فقد كان صحفياً أمريكياً يرسل صحيفة بريطانية كبيرة ، ويعد بلاشك من أكبر العاطفين على الجمهوريين ، حتى لقد جعل يجلس في ردهة فندق فيكتوريا ليقرأ صحيفته ، ويبدى الغضب والاستياء مما يقرأه كل يوم فيها من فيض الأنباء التي يبعث بها زميله المراسل الآخر الذي يقيم مع فرانكو ، وقلة الأنباء التي يرسلها هو إليها ، لما يتناولها الحرره من البتر والاختصار والاقتضاب ، حتى لا يبقى منها إلا على النزر اليسير .

وأقبل الرجل في ذات يوم بتلك البراءة التي يمتاز أحياناً بها أذكى الأمريكيين يسألني هل ارتكبت حقيقة حوادث القتل الكثيرة التي وردت الأنباء عنها في

بلنسية و برشلونة وقيل إن الجمهوريين هم مرتكبوها ؟ فقلت إنه لا يبعد أن تقتزن كل حرب ثورية بأعمال عنف وقسوة .

قال بسذاجة : لماذا ينكرون إذن ما هو واقع ؟ أفلا تهز هذه الفكرة إيمانك بالجمهورية ؟

قلت : مطلقاً . إن إيماني بها لن يزول إلا إذا اعتقدت أن هذه الوقائع صحيحة فعلاً .

وقد ذهب صديقي الأمريكي بعد بضعة أسابيع إلى برشلونة ، وكان مقدمه إليها في الوقت الذي بدأ الشيوعيون فيه يتخلصون من جماعة « البوم » ، فلم يسمعه إلا تكذيب كل ما كان الشيوعيون ينسبونه باطلاً إليهم ، وغادر أسبانيا ، وانقطع عن مناصرة الجمهورية .

وفي شهر يولية عام ١٩٣٧ حضرت مؤتمر الكُتَّاب الدولي الذي انعقد في بلنسية ومديره ؛ وكان « أندريه جيد » قد نشر يومئذ كتابه « عودتي من روسيا السوفيتية » وهو سجل يومي للحوادث التي رآها الكاتب في زيارته ؛ ولو أن كتاباً مثله وضع عن أمريكا ، أو بريطانيا أو إيطاليا أو فرنسا لما أثار تعليقات كثيرة ، ولا أحدث استياء شديداً ، ولكنه كان يتناول الأحداث في روسيا ، ويصف بجانب الكثير الذي ظفر بمديحه ، طغيان ستالين ، والجو المشيع بالرؤية والخواف الذي كان يسود البلاد ، ولم يرق الكاتب ، بل استنفره وأوغر صدره ، فلم يلبث أن أطلق الشيوعيون في جميع أرجاء العالم صرخة مدوية كصيحة أم من رؤية طفلها المدلل يتلقى تأنيباً شديداً من أحد المارة في الطريق ؛ وإذا بالكاتب الكبير الذي ذهب لتحية أرق ديمقراطية في العالم ، يصبح في نظرهم فاشياً ، منحطاً ، خائفاً ، وتتناوله صحفهم بالتشهير والسباب إلى حد شنيع ، بدا لي يومئذ شيئاً لا أستطيع له تصديقاً .

ولم يكن الروس الذين حضروا ذلك المؤتمر من مظهر بارز اللهم إلا من ناحية صلفهم واضطراب عقولهم ، وهياج أذهانهم ، وكلما خطب منهم خطيب لم يتناول الأدب

في شيء من البحث المستفيض ، أو الدراسة الوافية ، وإنما جعلوا يسخرون من تروتسكي ويستيزنون بأندريه جيد ، ويمدحون ستالين والشيوعيين ، ثم يجلسون . ولم أرايلاً أهرنبرج ولا إليكس تولستوى ولا كوتزوف ولا أحداً سواهم يقول شيئاً في المؤتمر أو المجالس الخاصة ، يمكن أن يثير نقاشاً بين المندوبين الآخرين ، ولم تكن لهم آراء مبتكرة ، ولا خواطر مستقلة ، وكانت كل براعة كوتزوف السخرية من كتاب أندريه جيد ، وإن كانت هذه الموهبة الساخرة لم تنقذه من الاختفاء والجمود عند عودته إلى روسيا .

وقد ذهبت في جلسات المؤتمر أئين للمستمعين كيف أن الناس لا يريدون أن يؤمنوا بما يكرهون أن يؤمنوا به ، وكنت قد ركبت في سفري من بلنسية إلى برشلونة عند عودتنا من المؤتمر سيارة كان بين ركبها أيضاً شاعر شيوعي ، وسيدة قصصية ، وصاحبة لها من الشاعرات ، وكان مجلسي في المقعد الأمامي بجانب السائق ، وهو رجل مرح ظريف راح يحدثني مباهياً بأنه أطلق النار خلال الحوادث التي وقعت ضد حزب « البوم » على خمسة أناس فقتلهم غيلة في شوارع برشلونة .

وبينا كنا منتظرين على الحدود انبرت القصاصة تقول وهي تلوح كأنها أشبه بمؤدبة ، أو مربية ، ولا نفقأ تردد كلما أرادت شرح رغباتها وسر ميولها ومشيتها ، « لقد كان ذلك مني إشاراً وبعداً عن الأنانية أيها الرفيق » ، تقول إننا لم نشهد في الأيام العشرة التي انعقد فيها المؤتمر ، وخلال رحلتنا في ربوع أسبانيا ، دليلاً واحداً على أن سلوك الجمهوريين لم يكن كاملاً . فلم أستطع أن أتمالك من تريد ما سمعته من السائق قبل لحظة ؛ فلم يكن من القصاصة والشاعر والناظمة إلا أن حلقوا في وجهي غضباً مبهوتين ، وتبادلوا النظرات ، وتولوا في صمت معرضين .

وكان في مدريد كاتب انجليزى أصبح « قوميساراً » سياسياً ، وكان يبدو شجياً كثير الحركة ، فجعل يقول إن بذلة « النفر » العسكرية التي كان يرتديها هي مثال الارتجال الفاشي في الجانب الجمهوري ، وكان أولى به أن يرتدي بذلة ضابط عظيم ؛

وكان من عادته أن يقبل بالحديث على الروائية ، والشاعرة ، والشاعر ، وعلى أنا أيضاً ، فيمضى في الفندق يشرح لنا سر الحرب الأسبانية ودوافعها ، والعوامل التي أدت إليها ، وكانت أحاديثه تدور جميعاً حول نعمة واحدة ، وموضوع بعينه ، وهو أن الشيوعيين هم وحدهم المتحدون ، وسط هذا الانشقاق الظاهر بين أنصار الحكومة وفي الجيش والفرقة الدولية ، وأنهم كلما حشوا الآخرين على الاتحاد ، استطاعوا السيطرة على القوات الموحدة والإمساك بزمامها ، فاذا رأيتم في بعض الأحيان يمتنعون عن الحث عليه ، فما ذلك منهم إلا لأسباب « استراتيجية » معينة .

وكان احتجاجي في بعض الأحيان بأن هذا النوع من الاتحاد لم يكن اتحاداً في شيء ، ولكنه خيانة وغدر بتلك الأحزاب ، ومحاولة إحداث انشقاق داخلي في صفوفها ، لا يحدث غير حلقة عتاب ، وحجة تأنيب ، من صاحبنا الروائية ؛ وكان الكاتب القوميسار في العادة ينبرى لي فيردد للمرة المائة قوله إنني العاجز عن التفكير الصائب والشرح الحكيم .

وكان الرأي الذي تمسكت به هو أن الشيوعيين هم « تاريخياً » الحزب الذي اتخذ مكاناً حقيقياً بين الأحزاب ، وأنهم إذا تكلموا عن « الوحدة » أرادوا توحيد الجماعات المنحرفة وتوجيهها نحو السبل الصحيحة إلى التطور التاريخي وهم يرددون أبدأ قولهم إنهم الحزب « الديمقراطي » الأوحيد الذي يريد توحيد جميع قوى التقدم ، فإن قلت لهم إنهم إنما يفعلون ذلك ليغدروا بالأحزاب الأخرى ، ويشيعوا الانقسام في صفوفها ، قيل لك إن هذه حجة « فاشية » لأن الشيوعيين يعتقدون فعلاً أنهم يؤلفون جبهة من الشعب ، فإن فكرت غير ذلك كنت شيوعياً « رديئاً » ، وقد كان الكاتب القوميسار مثلاً من الأمثلة التي وصفها « جورج أورويل » في قصته « ١٩٨٤ » لمعاشر الذين يفكرون تفكيراً « مزدوجاً » ، وهو كقولهم أيضاً « إن الشيوعيين هم أنصار الحرية والديموقراطية والجبهة الشعبية ، وإن كانوا في الوقت ذاته يحملون حملة شعواء على « الأحرار » والاشتراكيين والفاشييين ، ويعملون في سبيل القضاء عليهم ، كما قضاوا على جماعة « البوم » في أسبانيا .

وكننت في ذلك الحين قد استقر بى التفكير على رأى قد يكون ظاهراً جلياً ، ولكنه في الواقع كان كبير الأثر في تطورى الفكرى بسبيل السياسة ومسائلها ، وهو أن الناس جميعاً لا يتعلقون بالحقائق إلا على فترات منقطعة متباعدة ، فلا يمسكون بها أبداً ، ولا يقبضون عليها جملة واحدة ، وأن كل ما هو « حقيقى » عندهم لا يتجاوز بضعة شئون تمثل مصالحهم وتجدى عليهم خاصة ؛ وأما الأشياء الأخرى التى لا تقل عنها في الواقع نصيباً من الحقيقة ، فتلوح لهم مجرد نظريات ، وكلام مطلق ، فإن هم اعتزموا المضى في عمل معين ، كان كل ما يعين على تحقيقه ، أو يسعف في تنفيذه ، صادقاً حقيقاً في تقديرهم ، وكل ما يتعارض معه نظرى مطلق لا يمت إلى الحقيقة بسبب ؛ وما أصحابك الإحلفاء ، فهم لذلك مخلوقات حقيقية من لحم ودم ، لهم من المشاعر والعواطف مثل ما لك ؛ أما أعداؤك فهم قوم مستعبدون غير معقولين ، ولا ضرورة لحياتهم ، أو وجودهم ، حتى لتود أن تمحوهم من هذه الدنيا محواً .

ولا يخفى أن مجانبة هذا المنحى في التفكير تستوجب توافر العقلية « القضائية » التى تحسن الحكم على الأشياء ، وتتجرد من الذاتية في تحقيق المسائل ودراسة الأمور ؛ وقد آلمنى أن ألاحظ في أيام الحرب الأسبانية أننى أنا ذاتى كنت أفكر على هذا النحو ، وأتبع ذلك المنحى ؛ فكلماً رأيت صوراً لأطفال قتلهم الفاشيون أحسست رثاء مختلطاً بغضب ، وشفقة مزيجة بحقد وهياج ؛ وكلماً كان فرانكو يتحدث عن فظائع الجمر ، كنت أغضب وأستنكر كيف تسول لبعض الناس نفوسهم أن يقولوا كذباً ، ويرووا روايات باطلة ؛ وما ذلك إلا لأننى في الأولى كنت أرى جُشناً ، وفي الأخرى أسمع كلاماً ؛ ولا أحسبني تعلمت يوماً أن أتجنب نقد نفسى ، فلا عجب إذا أنا اكتسبت رويداً بعض الاشتمزاز من الطريقة التى يشتغل بها عقلى والاتجاه الذى يتخذه خاطرى ، وتبين لى أننى لم أكن أعاباً بقتل الأطفال وتذبيحهم إطلاقاً ، إلا إذا عباأت بكل طفل يقتل ، وعنيت به دون تحيز ؛ وكان شعورى في أعماق ذهنى بالاشتمزاز عند معرفة نبأ فريق من القتلى ورؤية الدعاة وهم يتخذونه أداة لدعايتهم ،

وحطباء ووقوداً لترويحائهم ، ولكنى كنت أبدى الاستخفاف الشديد بتلك الجثث الأخرى التى سقطت فريسة للجمهوريين .

وإذا صح رأيي ، وهو أن الناس جبلوا على التفكير المجرد دون أن يزونا الحقائق البشرية التى تتأثر بعواطفهم السياسية ، كان من السهل شرح عقلية الشيوعيين ، وهى أنهم قد اتخذوا نظرية من شأنها أن تشجع الناس على رذيلة بالغة ، أو نقيصة مزرية ، وأعنى بها أن يعدوا قضيتهم حقيقية وأنصارهم حقيقيين ، بينما يرون قضية سواهم ومؤيديهم أمثلة عامة على اعتقادات « نظرية » عتيقة بالية .

وقد يقال إن « النظرية » ذاتها تبرر تلك النقيصة ، لأن الشيوعية تتوخى فى النهاية أن تنمى السعادة الإنسانية صفة وقدرًا — أو كِما وكيفًا — ولكنى فى تلك السنوات استقر رأيي شيئًا فشيئًا على مخالفة هذا التعليل ، لأن اعتداد الذين يعتقدون أن اتجاههم من شأنه أن يحقق للبشرية السعادة ، ويطابق سير التاريخ حتى ليتلاشى كل إنسان يختلف معهم فيه ، أو لا يلبث أن يندمج فيهم بسبيله ، لا نتيجة له غير تجريد الشيوعيين أنفسهم من البشرية ، فإن التاريخ البشرى قد صنعه الناس الذين عملوا وفقًا لمبادئ معينة ، لا على مبادئ بغير نظر إلى الناس وصفاتهم ، وإذا جردت المبادئ الناس من بشريتهم ، كان المجتمع الذى يتألف هؤلاء الناس منه مجرداً منها كذلك ، وأنا أبدأ على خلاف فى الرأي مع الدوس هكسلى Aldous Huxley وأمثاله من القائلين بأن كل سلطة تُفسد ، فإن رأيي هو أنه لا سبيل إلى إنقاذها من الفساد إلا إذا هى جعلت بشرية بالإذلال ، إنسانية بالإخضاع ، واعتقادي أن السلطة بغير إذلال تتحول إلى اضطهاد وشنق وإعدام وأكاذيب عامة .

وقد تبين لى أنا وزملائي أن تشجيعنا للتفكير فى أن هناك قضية بشرية واحدة ، وجانباً بشرياً واحداً ، سبب الأثر فى شخصياتنا ، مضر بنا الضرر كله ، لأنه يعلمنا أن نستغل التعذيب والآلام لتحقيق أغراضنا ، وأن نتجاهلها إذا لم تخدم هذه الأغراض ، وهو الذى شجعنا من قبل على تكوين صورة جزئية ناقصة للصراع ، بل هو الذى صرفنا عن تصحيح هذه الصورة على ضوء التجربة إذا هى تعارضت مع أفكارنا النظرية .

وقد وجدتني أمام الشيوعيين المستنيرين أواجه أبداً حقيقة ثابتة ، وهي أنهم وصلوا حين أصبحوا شيوعيين إلى استنتاج جعلهم يغيرون الحقيقة في جملتها ، فلم يبق عندهم غير مجرد الأبيض والأسود ولا شيء سواهما ، كأنما قد أقاموا على حساب ثابت يعرفونه ، ولا يعرفون غيره ، وكل عامل من العوامل يواجههم في سير الحياة اليومية لا يؤثر بتاتاً في ذلك الحساب الذي استقر في عقولهم ، فالثورة هي عندهم البداية ، وهي النهاية ، وهي رقم الأرقام ، ومبلغ المبالغ ؛ وقد يأتي يوماً شيء في أي مكان فيضاف إلى هذا المجموع « السعيد » الذي يمثل ديكتاتورية « البرورليقاريا » والمجتمع الشيوعي . وقد ألقى هذا النوع من التفكير كل الاعتراضات عليه القائمة على التجربة .

وهكذا رأينا الشيوعيين المستنيرين لا يعنيه شيء غير « النظرية » . ولا يهمهم أمر قد يتعارض معها . فمثلاً لم ألتق يوماً بأحد منهم يعني أقل عناية بأي ناحية في روسيا لا تتصل بالدعايات الرائجة حول ستالين و بطانته ، ولم يدهشني عند نظر قضية كرافشنكو Kravchenko في باريس أن أرى قوماً من أولئك الشيوعيين المستنيرين يتطوعون للدلاء بشهادات ضد كتابه « أثرت الحرية » . وإن لم يستطيعوا أن يزعموا أن لهم علماً بروسيا وخبرة بأحوالها . بل كل ما كان يعنيه من الأمر هو أن كرافشنكو كان من المعارضين للنظام السوفيتي ، وما دام كذلك فلا بد من أن يكون مخطئاً ... ! وينطبق هذا الاستخفاف بكل شيء غير « النظرية » على السلوك أيضاً ، فإن

الغاية تبرر الوسيلة ؛ وقد رأيت مراسل الصحيفة الشيوعية يظهر السرور وهو يقول لي إنه لا غناء عن الكذب ، وسمعت الكاتب القومي سار يحدثني بفخار وزهو كيف أرسل جندياً لم يكن موثقاً به إلى موضع في ميدان القتال لم يكن يخافه شك في أنه سيقتل فيه ويذهب في الهاكين . بل هكذا شهدنا هاري بوليت ينشر في عام ١٩٣٩ ، بياناً يقول فيه إن الحرب العالمية إنما نشبت للنضال عن الديمقراطية إزاء الفاشية ، ثم يبادر إلى سحب هذا الكلام بمجرد الشعور بأنه لا يروق روسيا ، وينبى يقول إن الحرب لم تكن إلا « شجاراً » بين الرأسماليين الاستعماريين في كلا الجانبين ، وهكذا مضى أحد زعماء

الحزب الشيوعي البريطاني حين لقيته في عام ١٩٤٦ يقول لي متهماً ، لماذا تضجون وتتصايحون لمصرع بضعة ألوف من البولونيين ، بينما ترون الاتحاد السوفيتي كله هدفاً للخطر...؟؟

وعلى هذا النحو ترى أن الفكرة الثابتة في الخاطر وإلغاءها لسكل ما عداها من الاعتبارات الأخرى لا تزال قائمة صحيحة ، فإذا غير الحزب اتجاه سياسته ، وقرر أن ما كان بالأمس ديمقراطية ، صار اليوم فاشية ، فليس في ذلك ما يسمى تحولاً ، أو تناقضاً ، لأن سياسة الحزب ليست إلا الموقف الذي يتخذه حيال غير الشيوعيين ، وهم جميعاً موضع أقوال وبيانات تحيلهم إلى نظريات مفترضة ، واستنتاجات مجردة . وهكذا نجد دائماً أن اهتمام الشيوعيين مُنْصَبٌّ على تطبيق النظرية على الواقع لأن الشيوعي «السعيد» إنما يعيش في عالم ذهني ، أو في «سلطنة» ذهنية تدعه لا يرى يوماً أن الأشجار للخشب ، بدلاً من أن يرى الخشب يوماً للأشجار...!

ولم أر نفسى يوماً في «سلطنة» ذهنية كهذه ، بل ظلت دهري في حيرة بالغة من هذا اليقين العجيب الذي يشعر الشيوعيون به فيما يتصل بالأشياء التي لا يكادون يعرفون عنها قليلاً ولا كثيراً ، وإنما يطبقون عليها نظرياتهم .

وكان هناك شيء آخر استبهم على خاطري ، واستغلق على تفكيري ، وهو كيف أن فريقاً من الشيوعيين الذين عرفوا الجواب عن كل شيء استطاعوا يوماً ترك الشيوعية ، وراحوا عقب تركها يعللون تحولهم بتلك الاعتراضات ذاتها التي كان غيرهم من قبل يتقدم إليهم بها ، فلا يرتضونها ، بل يفندونها تنفيداً ، ويقنعون قائلها بأنها حجب واهية ، وأسباب لا تستند إلى سبب وجيه .

ولعل خير مثل أضربه على هذا النوع من الشيوعيين القدامى هي مسز شارلوت هلدين الروائية التي كانت يومئذ قرينة العلامة هلدين ، فقد كانت حين عرفتها في أيام الحرب الأسبانية أحسن مثل يضرب على الشيوعيين الذين يعيشون في «سلطنة» ذهنية ، وأذكر أنني كنت راكباً معها في يوم من الأيام عقب بعض الاجتماعات ،

وقد مرقت السيارة بنا في أحد شوارع لندن ، حيث كان خلق كثير من الناس وقوفاً في الصفوف ينتظرون « الترام » ورذاذ المطر يساقط عليهم ندياً ، فلم تكد السيدة شارلوت تبصر بتلك الصفوف حتى صاحت قائلة « صفوف ! ياللعار ! إن هذه المشاهد لا يمكن قبولها في روسيا » .

قلت محتجاً : ولكن لا بد من أن يكون في روسيا صفوف كهذه .
وكنت قد قرأت من قبل عنها .

وإذا بمسز هلدن تنظر إلى نظرة ساخرة يمازجها رثاء مشفق ، كما تفعل الشيوعيات من النساء حين ينقلبن ساخرات .

وقد ذهبت السيدة شارلوت في أعوام الحرب إلى روسيا ، كأشد العاطفين على ستالين ، ولكنها لم تكد تعود من رحلتها حتى تركت زوجها والحزب الشيوعي معاً ، وكتبت فيما بعد مقالاً في الصحف كان جلياً من ناحية ، وغامضاً مستغلقاً من الأخرى ، فقد ذهبت فيه تقول « إن كل كلمة أو عمل يأتية الروس مواطنين عاديين ، أو علماء باحثين على السواء ، لا يخلو من أدلة كثيرة على تغطية بالغة لا تنقطع ، للتجسس والترصد والتسجيل ، بل إن كل كلمة تقال أو تكتب أو تنشر عرضة لهذا الفحص الدقيق ، وقد تقدم في أي وقت ضد قائلها أو كاتبها كشاهد عليه » .

ولعل الشيء الوحيد الذي يحير الخاطر هو لماذا اضطرت مسز هلدن إلى السفر إلى روسيا لتكشف هذه الحقيقة...؟؟ ألم يكن أولى بها أن تستخلص عشرات غيرها من عدة الكتب التي لا أحسبها غفلت عن قراءة واحد منها ، وهو كتاب أندريه جيد « عودتي من روسيا السوفيتية » وإذا هي لم تصدق ماجاء فيه من الشواهد على الاضطهاد الشيوعي فيها ، فلا أحسبها قد غاب عنها الهياج الشديد الذي قبول به ذلك الكتاب عند ظهوره ، والتشنج العصبي الذي أحدثه في نفوس الروس عقب نشره فإن هذا الحق يبين بجلاء ماذا كان الروس صانعين بالكاتب لو أتاحت لهم الفرصة للنيل منه ، وتواتت لهم أذيته .

ولعل التعليل الوحيد لتحول قلبها أن ما كان يلوح لها غير منطقي قبل ذهابها إلى روسيا عاد فجأة فبدا لها متفقاً مع المنطق خلال زيارتها ، وهي بلا شك أولى بأن تهنا بهذه الأمانة التي غيرت رأيها .

وقد رأيتها في ذلك المقال بعينه تشير بنظرة من فوق كتفها إلى الأستاذ هلاين سؤالاً أهم كثيراً من سؤالك لماذا ينبغي أن يكون الكتاب مشايعين لستالين ، وهو لماذا ينبغي أن يكون العلماء كذلك ، وقد حاولت الرد على هذا السؤال في قولها « إن السر في ذلك أنهم يرون من خلال زجاجة قائمة ، أو الأفضل من خلال منظار وردي اللون ، بلداً » اشتراكياً « خصصت فيه الدولة أموالاً طائلة للبحث العلمي ، بلداً يتقاضى فيه العلماء مرتبات عالية لا مثيل لها في سواه من البلاد ، ولا يعوق عملهم فيه خوف من أن يستغل كبار رجال الأعمال اكتشافاتهم لمنفعتهم الخاصة ... »

ولعل بعض مشاهداتي الشخصية لسلوك الأستاذين هلاين وبرنال اللذين راقبتهما عن كשב بضع سنين ، توحى على الأقل بأن معاشر العلماء هم بشر ككل إنسان سواهم ، وتدل على ما أسلفت الإشارة إليه ، وهو أننا لا نبدأ نثق بالناس ، مهما يكن حظهم من الذكاء ، إلا إذا أيقنا أن مبادئهم قد امتزجت بذلك الشعور بحدودهم وهو الشعور الذي أسميه الوداعة أو « الانضاع » .

وقد بدا لي مما شاهدته من العلامة هلاين أنه رجل أوتي صفات جلييلة ، لعل « الانضاع » أقلها بروزاً . فقد اشتهر حين كان يتولى التدريس في جامعة كمبودج بأنه أستاذ غريب الأطوار إلى حد ما ، وعالم مسرف في إظهار بطولته ، فقد أذيع عقب التجارب التي كان يقوم بها في « نجبا هولدين » ، بعد نشوب الحرب الماضية أنه كان يصير على الجلوس في أحد الخنايا بينما كانت القنابل الشديدة الانفجار تتساقط بقر به . وكنت في ذات مساء خلال الحرب الأسبانية مدعواً إلى حفلة عيد الميلاد عند شقيقته « ناوومي ماتشيسون » وإذا به يحضر الحفل ؛ وكان قد رجع لساعته من أسبانيا ولبت في الحفلة واجماً مكتئباً ، حتى فرغ الأطفال من أغارهم وألباسهم ، وإذا به

ينشئ يفاكه المدعوين بالحديث عن مشاهداته الرهيبة في أسبانيا ، ولا تـأزال أثله إلى الساعة وهو يلوح ، تحت سـمته كـعلم وبجائة ، أشبه بـغلام في المدرسة أولع بالموضوعات العلمية ، وكأنما كان يطرب بمظاهر العنف وصوره ، ولعل مسز هـلـدين كانت تعنى ناحية أخرى من خلقه وهى تلمح فى مقالها بقولها إن العلماء يرون أن فى روسيا السوفيتية ميداناً فسيحاً يشعر العلماء الكبار فيه بأنهم أحرار فى تجاريهم العلمية .

ولست أريد بهذا أن أنتقص من أقدار علماء كبار كهولدين وبرنال ومن لف نفهما ، وإنما كل ما أرى إليه هو أن أبين أنه من الخطأ أن يعتقد أحد أن العلماء يبدون من صفات النزاهة والرعاية فى مجالسهم وعلاقاتهم الاجتماعية مثل ما يبدون فى العمل ، بل هم عرضة كـأى أحد سواهم للتأثر بانفعالاتهم ، والانـدفاع مع عواطفهم ، وأن فى المجتمع المنظم تنظيمًا خاصاً من وسائل الإغراء والتشجيع ما يحملهم على الإمعان فى هذا السبيل .

وأكبر ظنى أن برنال أقل « صـبـيانية » وفضاظة من صاحبه « هولدين » أو لعله نوع آخر من الصبيان ، وإن كان بلا شك عبقرى فى عمله العلمى ، ولـسـكنه أيضاً قد ألهم عاطفة اجتماعية حادة باطشة ، فهو هائج الخاطر أبداً بأفكار وخواطر ، عن « البيت المثالى » الصالح للإنسان فى مجتمع اشتراكى ، وعن وضع تصميم لبنائه يلغى جميع فنون العمارة الماضية ، ويذهب بطريقها السابقة ، وهو كذلك المتهوس بمختلف الخطط لإصلاح أحوال البشر ، لأنه فى تفكيره الاجتماعى يمدى نزوعاً إلى كل مستطرف ومستغرب ، وإن كان لا ينزع هذا المنزع فى عمله العلمى وبحوثه .

ونحن فى المجتمع نضفى على العلماء من الفضل ما يكاد يبلغ بهم مرتبة الحكمة الخارقة للبشر . وقد يكون من الحق أن يقال إنهم كسواهم من الاختصاصيين وأهل الفنون ليسوا إلى حد يسير بشريين ، فقد تراهم متحمسين أشد الحماسة لمشروعات ترمى إلى تحويل المجتمع إلى ميدان فسيح للتجارب العلمية ، وإن كانوا من ناحية أخرى لم يفعلوا شيئاً لحماية المجتمع من استخدام مكتشفاتهم . وكلما قيل إنهم مسئولون عن

المختبرات الهدامة ، راحوا يحتمون خلف دعواهم أنهم ليسوا إلا علماء ، ولا يهمهم التفكير فيما على المجتمع الموقوت من دين لتقاليد الماضي وتراثه وفضله ، ولا فيما قد نخسره مثلاً إذا قضى على فنون العمارة القديمة ، واستعوض عنها في الحياة والعيش بأدق الآلات المستحدثة .

وقد رأينا العلماء في ألمانيا الهتلرية يتوفرون على مشروعات ترمى إلى تعقيم غير الصالحين من الناحية العقلية للزواج والقضاء عليهم ، واستئصال مئات من الخلق لا لشيء سوى استخدام الناس في تحقيق تجاربهم . وقد حدثني صديق لى من العلماء ذهب إلى ألمانيا بعد الحرب لمشاهدة مدى نشاط زملائه الألمان ، فقال إن أشد ما راعنى من أمرهم أنهم يسرفون أحياناً في تجربة نظرياتهم العلمية على الناس، حتى لا تأخذهم فيهم رحمة ، وقد لا تكون التجربة ضرورية . ولست أريد بقولى هذا أن أقترح على العلماء في البلاد الأخرى أن يفعلوا كما يفعل هؤلاء ، ولكنى أريد أن أقول إن العلم لا يعارض في إجراء تجارب كهذه إذا كان المراد منها استئصال غير الصالحين من الناحية العقلية ، وأن العلماء إذا اعترضوا عليها ، فلا يقوم اعتراضهم على أساس علمي إطلاقاً . ولم نر العلم الحديث يمنع الحكومات من توجيه العلم في كل بلد إلى ما يحدث الهدم ، ويستعان به على التدمير ، بل شهدنا العلم مجرد أداة للخير والشر على السواء ، فلنكن نوجه الوجهة الحسنة الطيبة ، ينبغى أن يكون عند الذى يتولى التوجيه فكرة عن البشرية أوسع نطاقاً من مجرد خلق مجتمع علمي منظم ، إذ يجب أن يكون في المجتمع هدف آخر بجانب التنظيم الحسن ، أما إخضاعه بغير قيام هدف كهذا لنظام « ديكاتاتورى » في سبيل إنشائه على نظام علمي أو نحوه ، فليس سوى استغلال العلم وإساءة استخدامه . وقد رأينا الساسة في روسيا هم الذين يوجهون العلم وينظمون نشاطه ويرسمون خطته .

ولهذا رأيتني حين أصبح علماء كبرنال وهلين وجوليوت كورى شيوعيين منشككاً في الدوافع التي دفعتهم الى اعتناق الشيوعية ، وأحسب أنهم فعلوا ذلك

لايمانهم الأعمى بأداة العلم وسلاحه ، ولكن هذه الأداة لا هدف لها يمكن أن يمت
إلى الأخلاق ، وكلما ناصر العلماء فكرة وضع العلم في أيدي الساسة الذين يلقون
بخصوصهم في غيابة السجون ، ولا يتورعون أحياناً من اضطهاد العلماء الذين لا تتفق
نتائج بحوثهم مع آرائهم السياسية وخطة الدولة واتجاهها، استطعنا أن نقول إن هؤلاء
العلماء الشيوعيين هم ضحايا نوع من العنصرية الخلقية الذي طالما اتسم العلم بطابعه ،
واتصف من عهد طويل به .

وكنت في عام ١٩٣٠ أراقب زملائي الشيوعيين فيتولاني الإعجاب بشجاعتهم،
ولم أكن أنهمهم يومئذ بالآثرة والعمل لمآربهم الخاصة ، فقد رأيتهم يضحون بشيء
كثير ، ولا يترددون في احتمال مزيد من التضحية في سبيل نصره قضية يعتقدون
صوابها أشد الاعتقاد ، وإن كان الظاهر بغض النظر عن هذه الشجاعة ، وتلك
التضحية ، أن أحسن ما فيهم من الصفات مضى في خدمة أسوأ ما عندهم منها ، وأن
شخصياتهم دسرت تدميراً ، من إيمانهم في هذا السبيل ؛ فقد آمنوا بوجوب جعل
الفقر محارباً ، لا بوجوب حمله على محبة جاره ، وأضحى الحق عندهم خادماً يسعى
في خدمة حفنة صغيرة من الزعماء ، وارتضوا « الكراهية » كدافع قوى إلى العمل ،
وشوهوا معاني الكلمات التي طبقوها على الشعوب ، والأحزاب والأفراد ، دون أن
يفطنوا مطلقاً إلى أن تشويه الكلام ، يحدث الفوضى ، ويفسد النظام ؛ فالسلام
في لغتهم يمكن أن تعني « الحرب » ، والحرب يصح أن يكون معناها « السلام » ،
وكلمة « الوحدة » قد تعني « الخيانة من الداخل » ، ولفظة « الفاشية » قد يكون
المراد منها « الاشتراكية » .

ولم يكن ثمة شيء يرغمهم على تنمية قوى الفرور وعوامل الحقد ومظاهر السلطة
والخيانة والغدر فيما بينهم غير خدمة أغراض الحزب وتحقيق مآربه ، ولو خدموها
بهذه المناقص لبدت فضائل وحسنات .

وكثيراً ما تبسّين لي أن الشيوعي العطوف الحذب هو شيوعي «ردى» ، بقدر

ما في نفسه من العطف وما أوتيته من الحذب ، وإنه العليم بذلك في ذات نفسه
الفطن إليه في أعماقه .

وقد أدركت في تلك السنين أن الشيوعيين يكادون ينقسمون إلى أربع فرق ،
الأول منها فريق « النظريين » الذين يعرفون بوجه عام ، وشكل نظري ، حقيقة
الوسائل والأساليب التي يتذرعون بها ، ولكنهم يرونها مجرد « ضرورة » لا مفر
منها ، والثاني فريق الخدوعين في حقيقة روسيا والوسائل التي يستخدمها رفاقهم ،
ولا يزالون بهذه الخدعة سعداء مقتبطين راضين ، والثالث فريق العمال الذين لن
يخسروا شيئاً غير الأصفاد التي يرسفون فيها ، والذين يحاربون الاستقلال الرأسمالي ،
ولا يزال الخبز عندهم أهم من الحرية شأنًا ، والرابع فريق رجال الشرطة والقوميسريين
والصنائع والجواسيس ومن إليهم ؛ ولعل الأخيرين منهم هم الشيوعيون الوحيدون
الذين يعرفون جميع الحقائق المتصلة بمعسكرات الاعتقال والسجون والمحاكمات .

وكنت أرتقب حين انضمت إلى الحزب الشيوعي أن أعرف على الأيام ماذا
يفعل الشيوعيون ، ويتيسر لي أن أوازن بين وسائلهم ، ووسائل الرأسمالية ، وأتعلم
كيف أرتضى الصلة بين الوسيلة والغاية ، ولم أكن أتوقع أن أرى الشيوعيين أنفسهم
يفكرون تصرفات رفاقهم في روسيا وأسبانيا ، أو يحملونها كل الجمل .

وقد أسلفت عليك كيف كان صديقي «شالمرز» يستخف بالمحاكمات التي تجري
في روسيا ، وإصرار زملائي الأدباء في أسبانيا على رفض الاستماع إلى الوقائع التي
تحدث ارتباكاً في الصور البسيطة التي ترسم فيها الحوادث لهم ، وتبدو واضحة سهلة
في الأخيلة والأخلاق .

وقد أتت على أيام استطعت أن ألمس فيها مثالين آخرين لسلوك الشيوعيين ،
وتصرفاتهم التي لا مفر من إلقاء تبعاتها عليهم ، وهما أولاً ، قصة حدثتني بها كاتبة
أمريكية معروفة كان زوجها من الروس ، فقد ذهبت تقول إن رجال الشرطة جاءوا
إلى مسكنهما في الثالثة من الصبح ، وهما في موسكو ، فاستاقوا زوجها استيقاقاً ، ومن

ذلك العهد لم تره ولم تسمع بخبره ، ولا تعرف شيئاً عما قد جناه ، وكانت المرأة نفسها شيوعية ؛ وقد عرفت هذه القصة واشتهرت ، لأن معاشر المستنيرين من البريطانيين والأمريكيين قلقوا على الرجل ، وجزعوا لمصيره ، وبعثوا برسائل وكتب إلى « سكرتيرية » الكومنترن ، فكانت السكرتيرية في بداية الأمر ترد عليهم منبثهم أن كتبهم وصلت إليها ، وتهدم بأنها ستحقق الأمر ، ثم لم تلبث أن لزمت الصمت ولم تعد ترد على الكتب التي ترسل إليها .

أما المثل الآخر فهو قصة صديق لى يدعى « ي » كان يعمل في صفوف « الفرقة الدولية » وهو ابن أخت سياسى كبير النفوذ ، فخشيت عليه أمه الموت ، وطلبت إلى أخيها أن يتصل بقواد الفرقة ويرجو إليهم ألا يرسلوا ابنها إلى الميدان .

ولقيت « ي » في أسبانيا ، فنبأته بحقيقة منى وسوء تصرف عما فعله خاله ، وكان « ي » فتى شجاعاً فغضب واشتد الحنق به ، فترك الفرقة هارباً ، ولكنه لم يخف عن الأنظار ، بل تراءى للقوم ليأخذوه ، وقرروا عقاباً له على الفرار أن يوفد إلى الميدان ليشارك في القتال ، وكان هذا هو ما أراده ، وقد حضر معركة « مورانا » وجال فيها وصال شجاعاً أخاً كريهية .

وكان في الأيام القليلة التي زج به في السجن خلالها يقيم مع عدة آخرين من السجناء ، وكان الحبس الذي ألقى فيه ضيقاً « كالحاصل » ، وقد حدثني يومئذ قائلاً : ولكنه لم يكن على ضيقه ليذكر بالقياس إلى المحابس الأخرى ، فقد جرى بسجناء آخرين إلى محبسنا فقالوا إنه « نعمة » إذا قيس بالحصير الذي كانوا فيه ، لأنه لم يكن يزيد في شيء عن « دولاب » أو قِطْر صغير . . .

ولكن الفتى « ي » لم يرع من هول تلك الخطوب التي خاضها ، ولا استطاعت تلك الأهوال أن تغير من رأيه في « الجمهورية » ، بل العجيب من أمره أنه راح يعد تلك الخطوب مسلية باعثة على الفكاهة والتسرية .

وقد قصص هاتين الروايتين في اجتماع عقدته فئة من الكتاب الشيوعيين

في لندن ، وقلت لهم إن هناك سبباً يدعو إلى قصصهما على أسماعهم ، ومضيت أشرح لهم الباعث فقلت « إنني مدرك بالطبع أن ليس ثمة سبب يحملكم على تصديق هذين الحادثين خاصة ، ولكني أعلم أنهما حادثان » نموذجيان « ، فإن أنتم لم تصدقوا ما أنا عليه بأنه مثل نموذجي ، فسأدرك أنكم تجهلون وقائع وحقائق كان أولى بكم في نظري أن تعرفوها ، لأن معرفتكم لها أو جهلكم بها ، أو تسليمكم بصحتها ، أو إنكارها ، أصبح يهمني أشد الأهمية لأنكم إذا كنتم بها جهلاء ، أو كنتم تنكرونها فيما بينكم ، فسوف أعتقد أن الانتماء إلى حزب ليس لأعضائه علم بتصرفاته مسئولية لا قبل لي باحتمالها ، ولكن إذا سلمتم بها ، وقلتم إنه لا يصح الجهر بها في الجامع ، فسوف أشعر أنكم تجدون فيما تقولون ، وعندئذ قد أرتضى حجتكم وأقبل وجهه نظركم ... » .

ولما فرغت من الكلام نهض كاتب منهم فقال : إن الرفيق سبندر قد ألف بعقليته « البورجوازية » أن يخترع قصصاً من هذا القبيل .

وانبرى آخر يقول : وإذا لم يكن هذا الذي سمعناه منه مخترعاً ، كان كل المراد منه أن يسترعى الأنظار إلى حوادث تافهة لا خطر لها ولا شأن لكي يتحاشى مواجهة الحقائق ويتهرب من القضية الأصلية ذاتها .

وقال ثالث وكان طيب الشعور نحوي « اصنع إليّ يا ستيفن ، لانتس أن صديقك « ي » كان نفسه في السجن الذي يزعم أن هذه الأحداث وقعت فيه ، فلعله إنما تحدث إليك عن حقد في نفسه ، ومكد في أعماقه ، ولهذا ينبغي ألا تضفي أهمية كبيرة على شهادته » .

ولم يجد نفعاً أن أؤكد لهم أن « ي » لم يكن في نفسه شيء مما وصف ، وأن هذا هو ما جعلني أختار قصته من عدة قصص كان في وسعي أن أسردها أمامهم ، وما كان مجدياً أن أقول لهم إن حجتهم تلك تصلح كشاهد على وجوب تجاهل جميع الجرائم التي ارتكبتها « الفاشية » ، باعتبارها غير « متمشية » من حيث المنطق مع

تصرفات هتلر التاريخية ، أو بوصفها مبنية على أقوال أناس ضربوا وعذبوا وساء إليهم فأمسوا حاقدين مضطغنين ، وهم على هذا النحو غير صالحين للشهادة .

وهكذا بدا لي أن أولئك الكتاب لا يريدون أن يكونوا مسئولين عن تصرفات الحزب الذي هم أنصاره ومظاهروه ؛ وبدأت أسائل نفسي عجباً وحيرة كم من الشيوعيين يعرفون كل ما يتصل بالشيوعية أو يدخل في بابها ، ولا أزال من هذا الأمر في عجب ، فإن غيرهم من الشيوعيين ، لا يقولون لهم إن في روسيا معسكرات سخرة واستعباد ، بل لو أن شيوعياً أشار إلى شيء من ذلك ولو تلميحاً ، لاتهموه بأنه يشغل نفسه بالتوافه والكلام الذي لا طائل تحته ، إذا هم لم يتهموه بأنه من الضالعين مع « الفاشية » .

وليت شعري متى خطر لأحد من الشيوعيين أن ينتحى بصاحبنا « هاري بوليت » الزعيم الشيوعي البريطاني الذي أسلفت عليكم حديثه ، ليقول له أشياء عن روسيا ، لا دخل للدعاية فيها ..؟؟

وفي الحق إن أعضاء الحزب أقل علماً بما يجري في البلاد التي تسيطر الشيوعية عليها مما يتصوره غير الشيوعيين ويتخيلونه ، ولكنهم يعرفون بعض الحقائق عن « الدكتاتورية » لأنها جزء من المبادئ التي يؤمنون بها ، فلا عجب إذا كانت أول عبارة بادرني بها مسيو « راكوزي » نائب رئيس الوزراء في المجر ، وهو من الشيوعيين ، حين لقيته في بلاده عام ١٩٤٧ هي قوله : إن الحكومة العمالية في بريطانيا « فاشية » !

ولما سألته ماذا يعني بهذا أجاب إن لما قلته سببين : أولاً — إنها لم تملأ الجيش البريطاني بقواد « اشتراكيين » ، وثانياً — أنها لم تتسلم إدارة الشرطة في « سكوتلاند يارد » .

وقد استتبع هذا الرأي اتجاهات كثيرة أصبحت أكثر وضوحاً وجلاء مما كانت تبدو منذ اثني عشر عاماً ، ورددها على سمعي الرئيس « بنيش » في حديث دار بيننا

في مدينة « براج » خلال شتاء عام ١٩٤٦ ، فقد ذهب يقول إنه يعتقد أن حكام روسيا لم يكونوا يستطيعون على الأرجح تحقيق « الثورة العالية » بغير الوسائل الرهيبة التي لجأوا إليها ؛ ولكنه أردف يقول بحماسة إنه يحمد الله الحمد كله على أنه لم يطلب منه يوماً أن يستخدم مثلها ويرجو الله ألا يضطر على الأيام إلى استخدامها . ولم يفتني وأنا أكتب هذا المقال أن انتقاد الشيوعيين لا يزيل الحجة القائمة على النظام « الرأسمالي » ، فقد علمتني التجارب الأليمة طيلة تلك السنين أن كلا الجانبين عامل شر وظلم وجور وإهدار للحريات ومساوى لا عداد لها ؛ وقد يقال عن « الرأسمالية » إنها قد تكفل لطول عهد الدنيا بقيامها متعة الحرية في الفنون والآداب والمناقشات بين مختلف الأحزاب السياسية .

ولكن لا خفاء في أن الرأسمالية كما نشهدها اليوم في أمريكا التي تعد أكبر بلد رأسمالي في العالم ، لا تقدم إلى الناس شيئاً غير الحرب والاستغلال ، وتدمير موارد العالم . أما الشيوعية فن الجائز إذا استطاعت أن تحقق « الدولية » وتصنع الإنتاج الصناعي بصبغة الاشتراكية ، أن تنشئ عالماً جديداً لن يكون مجموعة من المتناقضات الاقتصادية .

ولو فرضنا جدلاً جواز تحقيق انقلاب عالمي وقيام نظام شيوعي من الوجهتين السياسية والاقتصادية معاً لأصبحت رفاهية المجتمع الجديد المتخلص من الزراع الطبقي رهناً بفرض جدلي آخر ، وهو أن ديكتاتورية العمال الكادحين سوف تدوى من تلقاء ذاتها على الأيام .

وقد رأينا « الماركسيين » والكتاب الشيوعيين لا يفتأون يرددون القول بأنها « ستذبل » وتتلاشى رويداً ، ولكنهم لا يريدون أن يصفوا لنا كيف ستنتهى إلى « الذبول » ، وإنما يرون أن القضاء على الرأسمالية سيتحقق وفقاً لنواميس ناشئة من متناقضات في داخل النظام الرأسمالي ذاته ، وأن استيلاء العمال الكادحين على زمام السلطة لا يزال يتبع أيضاً هذا التطور الميكانيكي ذاته ، وإن كان من بعض نواحيه

نتيجة الإرادة البشرية وثمرتها ، وحين تتحقق النتيجة الحتمية لهذا التطور ، لا تبقى
ثمة ضرورة تقتضى فناء الرأسمالية بعملية ما ، ولا تستوجب نهضة « البروليتاريا » بإجراء
معين ، وإما « تدبّل » الدكتاتورية طبيعياً ، وتذوى تبعاً للموقف الذى يصبح العمال
فيه على الأيام بغير خصوم ولا أعداء .

وإذا صح هذا كانت الاعتراضات التى تقوم فى وجه الشيوعية منصبة على
متاعب موقوتة ، ومشاق قائمة إلى حين ، ولا ينكر أحد أن هذه المتاعب والمشاق
عسيرة مرهقة لضحايا الثورة وقرساتها ، ولكنه ثمن يصح أن يدفع لقاء قيام عالم
نعيش فيه الشعوب جميعاً على وفاق ووئام ... !

ولكن إذا لم يكن « ذبول » الدكتاتورية محققاً ، فإن انتقاد تصرفات
الشيوعيين وأساليبهم اليوم يصبح انتقاد الدكتاتورية غداً ، وبعد غد ، واليوم الذى
بعد غد .

وكان من بين الدروس التى تعلمناها فى الثلاثين عاماً الأخيرة أن كل دكتاتورية
قامت فى العالم الحديث ، بكل ما توافر لها فيه من القوى والأساليب ، كالبوليس
السرى ، والدعاية ، والإرهاب ، لا تنزع بسهولة ، ولا تلخع برفق ، ولم نر ستالين يوماً
ولا هتلر ولا موسولنى ولا فرانكو مهدداً بخطر ثورة أو تمرد عليه من داخلية بلاده ؛
وما سقط « الطغاة » إلا نتيجة دمار جلبه على البلاد أمصار أخرى وشعوب ، فلا غرو
إذا قلنا إن قيام « دكتاتورية » عالمية من شأنه أن يجعلها ثابتة مستقرة مكينة الجذور ،
بل ستروح عندئذ أثبت الدكتاتوريات على الزمان ، وما أحسب أحداً بمصدق على
ضوء ما تبين له فى روسيا أن الشيوعية أو أى حزب سواها سينشئ من الطغاة
و « البروقراطيات » والشرطة من يريد الذبول ، ويرضى التلاشى والزوال باختياره .
ولا عجب إذا كانت دراسة خواص القوميسيرين والطغاة اليوم هى فى ذاتها
دراسة شىء من القوانين القائمة فى الدولة الشيوعية التى قد تكسب السلطان غداً ،
ولن تمخلى عنه إذا هى كسبته .

وقد لاحظت على المستنيرين الشيوعيين في عام ١٩٣٠ سلوكاً أصبح في شرق أوروبا اليوم مشروعا مقررًا من جانب نقابات الكتاب وأرباب الأقلام، وهي النقابات التي أصبحت تملئ على الروائيين والشعراء ما ينبغي لهم حصر أفكارهم ومشاعرهم فيه فلا يتجاوزنه ؛ وكان جل هم الكتاب الذين اجتمعوا للبحث في مشكلة « الفن والجمع » أن ينتهوا إلى قرار يقضى بأن يتولى الأدب التدليل على صحة النظريات الماركسية القائلة « بسمو » البروليتاريا ورفع مكانها، وضرورة الثورة وتنظيم أسبابها ؛ وليس من شك في أن هذا الرأي يتجاوز حتماً كل تجارب الكتاب ومشاهداتهم ، ولكن المرء إنما يرجع إلى تجاربه ليستعين بها على تصوير وجه من وجوه الرأي وصل إليه مستقلاً عن التجربة في حد ذاتها .

ومهما يكن إخلاص أولئك الكتاب في ماركسيته فان سيطرة النظريات على عقولهم ، وهي سيطرة تسبق التجربة ، لا تخلو من نتائج حتمية ، لأنه مادام كل همهم أن يكونوا ماركسيين « نظريين » فلا غرو إذا رأينا أن « لخيوة » الماركسيين — وهم غالباً شر الكتاب — مزية ظاهرة على الذين يرجعون إلى تجاربهم في سبيل إنتاجهم الفني ؛ ومعنى هذا أن معاشر النظريين أصبحوا اعتباطاً نقاداً أدبيين يحلون الأدب كله في ماضيه وحاضره تبعاً لمذاهبهم ، وقد استمعت يوماً لشاعر شيوعي يشرح الجمعية أدبية في « هامستيد » بمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر « كيتس » قائلاً إن كيتس لم يكن « ماركسياً » ولكن من الجائز لنا أن نقول على الأقل إنه كان ابن سائس خيل ، ومريضاً بالسل لم تعن الدولة بعلاجه ، فهو إذن حقيق بأن بعد ضحية من ضحايا الرأسمالية .

وأصغيت أيضاً لهذا الكاتب وهو يقول إن كتاب « ليلة بجانب فراش ميت » الذي وضعه « جويس » Joyce يصور مبلغ الانحلال الفكرى واللغوى في دنيا « البورجوازية » .

وكان هذا الكاتب هو نفسه الذى كتب فى عام ١٩٤١ حينما عمدت « فرجينيا

وولف « إلى الانتحار ، يقول إنه يهفها باختيار هذه «الضرورة التاريخية» ، وإنه بات منتظراً أن يحذو حذوها كتاب بورجوازيون آخرون .

وقد أصغيت باثمئزاز إلى سفسطة كتاب من صغار العقول ، وسمعت إلى نظرياتهم ، فبدأ لي أن هناك شيئاً غير مستساغ في دعواهم أن صاحب النظرية الاجتماعية يستطيع أن يحتل مكاناً يزرى بمكانة « العبقريّة » ، إلا إذا كانت إلهامات العبقريّة ، وخواطرها في ذاتها ، تطبيقات لنظرية سياسية على مبادئ كمالية أو مادة من صميم الفنون وجوهرها .

وأحسست الاثمئزاز أيضاً من ذلك النقد الأدبي الذي يلجأ الماركسيون إليه ، لمحاولة التدليل على أن الأدب هو مجموعة « أساطير » وخزعבלات اخترعها الكتاب عمداً أو بغير عمد لخدمة أغراض بعض الطبقات العليا في التاريخ ، فإن رأيي في شاعر كدانتى ، أو شكسبير ومن جاءوا على غرارها أنهم كانوا بلا شك رجال عصورهم ومفكرين سياسيين في أزمنتهم ، ولكنهم أصابوا أيضاً من التجارب والمشاهدات في الحياة ما نقلهم إلى أسنى الآفاق ، وجاوز بهم حدود المصلحة الذاتية ، أو شئون الاجتماع ومشاكله ، وأنه من الجائز أن يتبعهم المجتمع إلى إلهامات مثيرة ، واكتشافات باهرة ، فيما يتصل بطبيعة الحياة ، وإلى خواطر تتراعى وراء مشاغل الناس ، وهماهم عيشهم في أى عهد من العهود ، وهو ما يرفع المجتمع فوق ذاته ويسمو به مكاناً علياً ولكن هذه الإلهامات ليست من قبيل الأمانى التى تجول في نفس جيلهم .

واعتقادت أن معتقدات الشعراء إلهامات قدسية ، وصور لحقائق عن طبيعة الحياة وأسرارها ، وقد لا أومن بها ، ولا أقاسمهم أحاسيسهم بسبيلها ، ولكنى لا أستطيع ولا أود أن أفندها أو أصفها بأنها « ظواهر اجتماعية » ، فإن كان للفن ما يزكينا ويعلمنا فهو بلا شك تلقيننا أن الإنسان ليس محتسباً بكلية في مجتمعه ، بل قد يتعلم المجتمع من الفن كيف يتسنى له إلى حد ما الفرار من محتبسه .

أما رفض التصديق بأن الفن في بعض معانيه هو أداة التعبير الوحيدة في يد

الفنان فهو بمثابة الحكم على الفن بأنه مجرد التعبير عن حاجة الاجتماع ومطالبه . وهذا هو رأى معاشر الشيوعيين فيه ، وموقفهم منه ، فكأنى بهم يريدون أن يقولوا إن الشعراء وأهل الفن ليسوا بأحسن القضاة فى الحكم على النظريات والمذاهب الاجتماعية ، فلامعدى إذن للنظرين والمفكرين السياسيين من إملاء حاجة المجتمع عليهم ومطالبتهم بجعل فنونهم خاضعة لمقتضياته .

وأذكر أننى حضرت فى عام ١٩٣٠ اجتماعاً عقدته لجنة التنظيم فى مسرح « جروب » للبحث فى مسرحية شعرية لى تدعى « محاكمة قاض » كانت قد ظهرت من قبل على المسرح ، وإذا بأمرأة أنيقة من الشيوعيات الشابات تنهض فى المجتمع فتحتج على الرواية قائلة إنها لم تسر من الرواية ولم ترح إليها ، وإن زملاءها الشيوعيين أيضاً قد نسكروها ، فقد كانوا يتوقعون من رواية كهذه أن تصور حادثة يبدو الفاشيون فيها رأساليين ، والأحرار ضعفاء ، والشيوعيون هم وحدهم الذين على الحق ، كما هم مؤمنون كل الإيمان ، ولكنها لم تخرج عن مجرد قصة يميل فيها المؤلف إلى العطف على وجهة نظر الأحرار ومناصرتها ، بل أدهى من ذلك أن الفصل الأخير لا يزال يحوى شيئاً من « الصوفية » ، ونحن لا نريد أحراراً ، ولا متصوفين ، وإنما نريد من كتابنا أن يكونوا شيوعيين مكافحين .

ولعل هذا هو رأى « هارى بوليت » نفسه واتجاه تفكيره ، فقد كان دأبه كلما لقيته أن يقول لماذا لا تنظم أغانى وأنشيد للعمال كما فعل بيرون وشيللى وورد سورث ؟؟ وهو سؤال لا جواب عنه ، إلا إذا أردت أن أعرض الشعراء الإنجليز « الرومانتيكيين » للعار والنقيصة بعد عماثهم ، وأحسب أن الشاب الشيوعية التى سلف ذكرها وهارى بوليت مثلاً « غشيان » أو « خام » ، ولكن ستالين قد يكون أغشم منهما مثلاً ، وإن كان أشد أثراً ، وكثيراً ما نرى هذه « الغشومية » تصور وترسم بشىء من الحذق ، ولون من ألوان الدهاء ، فقد حدث مثلاً فى نسيكوسلوفاً كيا عام ١٩٤٧ أن معلم اللغة الروسية فى إحدى الجامعات الكبيرة ،

وهو شيوعى وأخو ذكاء وفطنة ، أراد أن يدافع عن اتحاد الكتاب السوفيت في حملاتهم على باسترناك وزوشنكو وغيرهما ، بحجة أن روسيا ليست بحاجة إلى كتاب مجيدين ، فقال إن هؤلاء بالطبع هم خيرة كتابنا ، ولكننا لا نملك أن يكون لنا كتاب مجيدون ، وقد رأينا أحسن شعرائنا ينظمون قصائد محزنة للناس ، مئسرة لنفوسهم ، من ناحية تصويرهم تفاهة الحياة وخلاتها من الهدف ، ونحن نريد من الناس أن يعملوا أشق مما عملوا يوماً في حياتهم الماضية ، ولهذا نستطيع أن نسمح للشعراء بأن يقولوا إنهم محزونون غير سعداء

ودعنى أيها القارئ الكريم في وسط هذه الحماقة التي أنا ماض فيها ، أعذ إلى القضية الأصلية ، فأقول إن العنف ومعسكرات الاعتقال وسوء استغلال العلوم وإفساد الفنون ، قد يكون لها ما يبررها إذا كانت على الأيام مؤدية إلى قيام المجتمع الخالى من الطبقات الذى ينشدونه ، وقد ظلت هذه الحجة ماثلة لخاطرى أبداً ، لأنها حجة من الخطر والقدر الكبير بحيث لو صحت لجعلت الاعتراض على قيام شيوعية تستطيع حقاً أن تنشئ مجتمعاً دولياً عادلاً ، حجة تافهة ، ورأياً سخيفاً .

ولكن جملة رأى الذى انتهيت إليه هي أن الأحزاب الشيوعية في العالم ، كما هي قائمة اليوم ، لا تستطيع إقامة عالم أفضل ، بل قد تقيم علماً شراً من هذا وأسوأ منقلباً ، وسر رأى هذا وباعته أن قدراً كبيراً من السلطة موضوع في أيدي حفنة قليلة من الناس وهم في مناعة من نقد تصرفاتهم ، فلا يستطيع أحد أن ينتقص من شأنهم ، اللهم إلا إذا وجهت شيئاً من الانتقاد إلى تصرفات الحزب نفسه وخططه وسياسته ، حتى بات هؤلاء القلائل بغير رقابة ، لا يجدون من يقونهم من أنفسهم ، أو يمنعونهم من الإسراف في شر خصال البشر وصفاتهم ، وهي الوحشية والانتقام والتشفي والحسد والطمع وشهوة السلطان .

ولست أومن بأن الهيئات المركزية في الشيوعية قادرة على إنشاء عالم خلو من نزاع الطبقات ، وليس في مكنيتها أن تقيم شيئاً أكثر من حكم يبرقراطى يمتاز

بالتشقى والغيرة والحسد ، وهذا هو ما يجعلنى لا أعتقد أنه من المتعين على أن أسلم فى حكمى لشيئهم ، وأخضع عقلى لسلطانهم مهما يكن من القوة والأثر ، ومهما يكن رأى من الضعف والعجز والهوان .

ولا يخفى أن الشيوعيين يمثلون حداً من « المركزية » المترامية لم يعرف مثيله فى يوم من الأيام ، فإن الحزب السياسى — وهو الحزب الأوحد — يقوم نفسه على المركزية ، ولكنه يعتمد فى التوجيه على حفنة من الناس ، كما أن جميع وظائف الدولة وفروعها الأخرى مركزة أيضاً معتمدة على التوجيه السياسى .

وليس معنى تركيز الفنون فى خدمة السياسة إلا الدمار للفن فى النهاية ، والخراب « المستعجل » لكثير من الناس حتى ولو تعذر تعريض السلطة المركزية التى يحميها الشرطة للخطر . والواقع أن الفنون فى روسيا مدّ مرةً فعلاً مُحَرَّبةً ، وأن الشيوعيين أنفسهم أحياناً يعترفون بأنها كذلك حقاً ، وهو اعتراف يثير الدهشة ، ويستولى على النفس منه العجب ، وقد نبأنى أيليا إهرنبرج ونحن فى باريس عام ١٩٤٦ أن الروس لا يرتضون الاشتراك فى معرض رسم دولى إذ ليس لديهم رسامون مجيدون ، وأن القصة اليوم هى القصة « الأمريكية » ، بغير منازع ، وأن الروس لا يتفوقون إلا فى الموسيقى ، ولكنى سمعت شيوعياً مجرباً فى العالم ذاته يقول إن الروس دمروا الأدب فى روسيا وقضوا على الرسم ، وهم اليوم يقضون على الموسيقى .

ولا سراة فى أن « الفنان » هو فى الواقع أسمى الأفراد فى المجتمع شعوراً ، وأرقاهم وأنباهم أحاسيس ، فليس له رأى عام أو فكرة مشتركة فى حاجات البشر ومظاهر نشاطهم ، ولكن له بصيرة عميقة تتغلغل فى أغوار الجوانح وأعماق التجارب ورغد الناس وبأسائهم ، وأفراح الأفراد وأتراحهم ، والقول بأنه « فردى » فى تفكيره وإحساسه ، هو نقيض القول بأنه إنما يخلق من نفسه لأجل نفسه ، ولكن الجدير بأن يقال عنه هو أنه يخلق من تجاربه ومشاهداته التى تتصل أوثق الصلات بتجارب خلق كثير من الناس ومشاهداتهم ، وأن ما يخلقه ليس مجرد تعبير عن مطالب المجتمع وحاجاته .

ومن هنا كان الأدب والفن « شاهدين » على ظروف البشر وأحوالهم في ظروف خاصة ، وزمان معين ، ومكان بالذات ، وليس إخضاع التجارب الفردية للتعميم إلا احتجاز البشرية ومنعها من الشعور بذاتها كجموعة أفراد يعيشون معاً في حدود معاشهم الخاصة ، ووجودهم الشخصي ، وحياتهم المستقلة ؛ ومن الصعب أن يعتقد أحد أن السلطة المركزية في الدولة ، التي تحرم الكتاب وأهل الفنون من حرية التعبير عن إلهامهم ومشاعرهم المستدقة ، لمجرد أنها تتنافى مع سياستها ، تملك من الحيوية والقوى الأدبية ما يمكنها من إسعاد الناس وتوفير أسباب الرغد لهم ، لأن كل ما لديها هو أداة « ميكانيكية » ودولاب ، ونظام آليّ يقوم مقام الحياة والروح ، فلا غرو إذا كان تدمير حرية الفنون ضرباً من الجنون كتدمير حرية الفرد ، في أذنيه ، ليسمع من الأصوات ما يحسها بعقله ، ويستشعرها بروحه ، والاستعاضة عنهما بمكروفونين مجهزين بحيث لا يسمعان إلا أوامر الدولة وتوجيهاتها ، ولا يصيخان إلا إلى ما تذيعه مجاهر الدولة وميكروفوناتهما الضخمة الصاخبة .

ولكن تدمير هذا النوع من الحرية لا يزال يجد شفيعاً يبرره في القول السائر وهو أن الحرية هي « اعتراف بالضرورة » ، وما حرية الضرورة السياسية إلا ضرورة الدولة من حيث جعل مطالب الحياة « جماعية » ، وإحالة الإنسان مخلوقاً « جماعياً » خصب ، ولكن حرية الفنون إنما تمثل « فردية » كل مخلوق بشري ، وإذا لم يكن الفن كالسياسة ، فلا يزال سياسياً من حيث توسيعه نطاق فكرة الحرية البشرية وهي « عملية » من شأنها أن تغير رأينا في الحياة جيلاً بعد جيل ، وتؤثر على مر الزمن في أهداف المجتمع السياسية .

ورب ناقد معترض يقول إن هذا المقال هو أقرب ما يكون إلى نقد موجه إلى شخص ، منه إلى نقد موجه إلى الشيوعية ذاتها ، فليت المعترض يقول هذا حقاً فيما أوردته عليك ، لأنني في الواقع أردت أن أنتقد نفسي في صلتها بالشيوعية ، لا نقيد الشيوعية نفسها ، لأن ذلك عمل لا أمل فيه ، ومهمة لا رجاء منها ، فإن الشيوعية

تعتقد أن المجتمع يمكن تغييره بتحويل الأفراد إلى أدوات أو « ماكينات » لتغيير المجتمع ، فإن أحس أحد بسخط من المجتمع في شكله الحاضر ؛ كشأنى أنا اليوم ، فليس في استطاعته أن ينتقد هذا الرأي ، وإنما يستطيع أن يربط نفسه به ، ويتخذ منه وسيلة لنقد نفسه واختبار معتقداته ، وهذا ما حاولته في هذا البحث .

وكما عدت بالخاطر إلى الماضى بدا لى أن انتقادى لنفسى بدأ عندى من أول حديث جرى بينى وبين هارى بوليت حين مضى يحدثنى عن ضرورة كراهية « الرأسمالية » ، والواقع أننى لم أشعر بهذه الكراهية فى جوانحى ، وإنما وجدتني مدفوعاً بشعور اجتماعى وشخصى بأننى مخطئ مذنب ، وقد حملنى هذا الشعور أولاً على أن أتميز لناحية معينة ، وأشعرنى ثانياً بأنه فى إمكانى تطهير نفسى من « فردية » غير عادية من طريق التعاون مع الحركة العمالية .

وقد تبين اليوم لى أننى لم أكن بحاجة إلى الانضمام إلى الشيوعيين لأنى كنت قد ملت فعلاً إلى ناحية ، وتميزت إلى جانب ؛ وكانت تلك الناحية ، أو ذلك الجانب ، هى ناحية كل من آمن بالعدالة الاجتماعية ، والحرية ، وقول الحق فى الوسائل التى لا غناء عن اتخاذها فى سبيل تحقيق هذه الأهداف ، فإذا عجز معاصر الساسة عن جعل جانبهم صادقاً نزيهاً متفتحاً لا شبهة فيه ، فلا مندوحة للمستنيرين عن مناصرة أقل الساسة غشاً وخيانة ، من طريق معاونتهم وانتقادهم والتعريض بوسائلهم وأساليب العنف والكذب والمين التى أبوا إلا استخدامها .

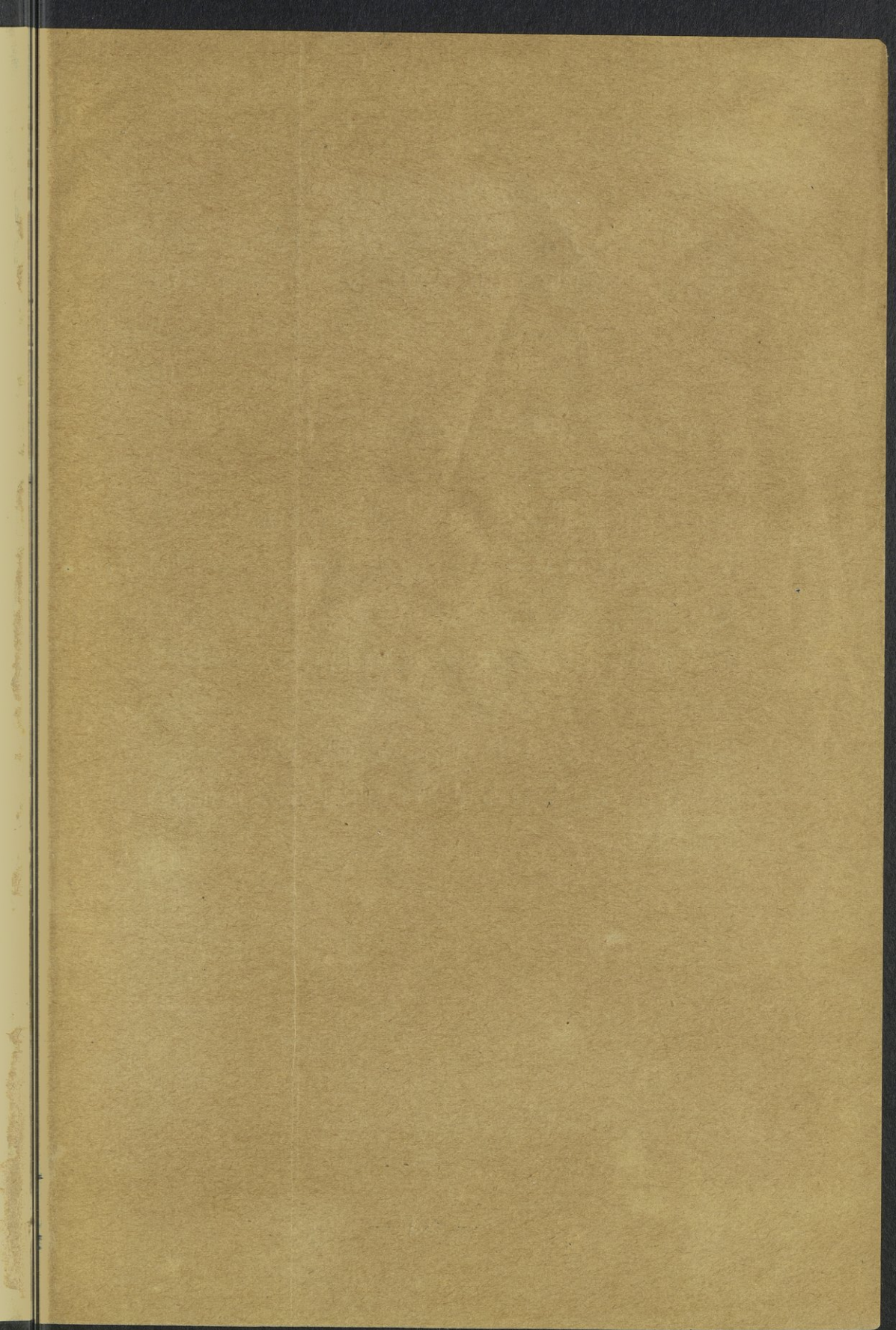
لقد كان الصراع الذى انبرى له الأحرار الأطهار فى عام ١٩٣٠ منحصراً فى مشكلة الوسائل والغايات ، وكانت حججهم أنك إذا أردت الظفر بسلطان فليس أمامك غير التوسل بوسائل سيئة ، وإنكار ذلك ، والبراءة منه فى غضب ظاهر . وكان واجبي ككاتب ومستنير أن أبين هذه الحالة وأصور هذا الموقف .

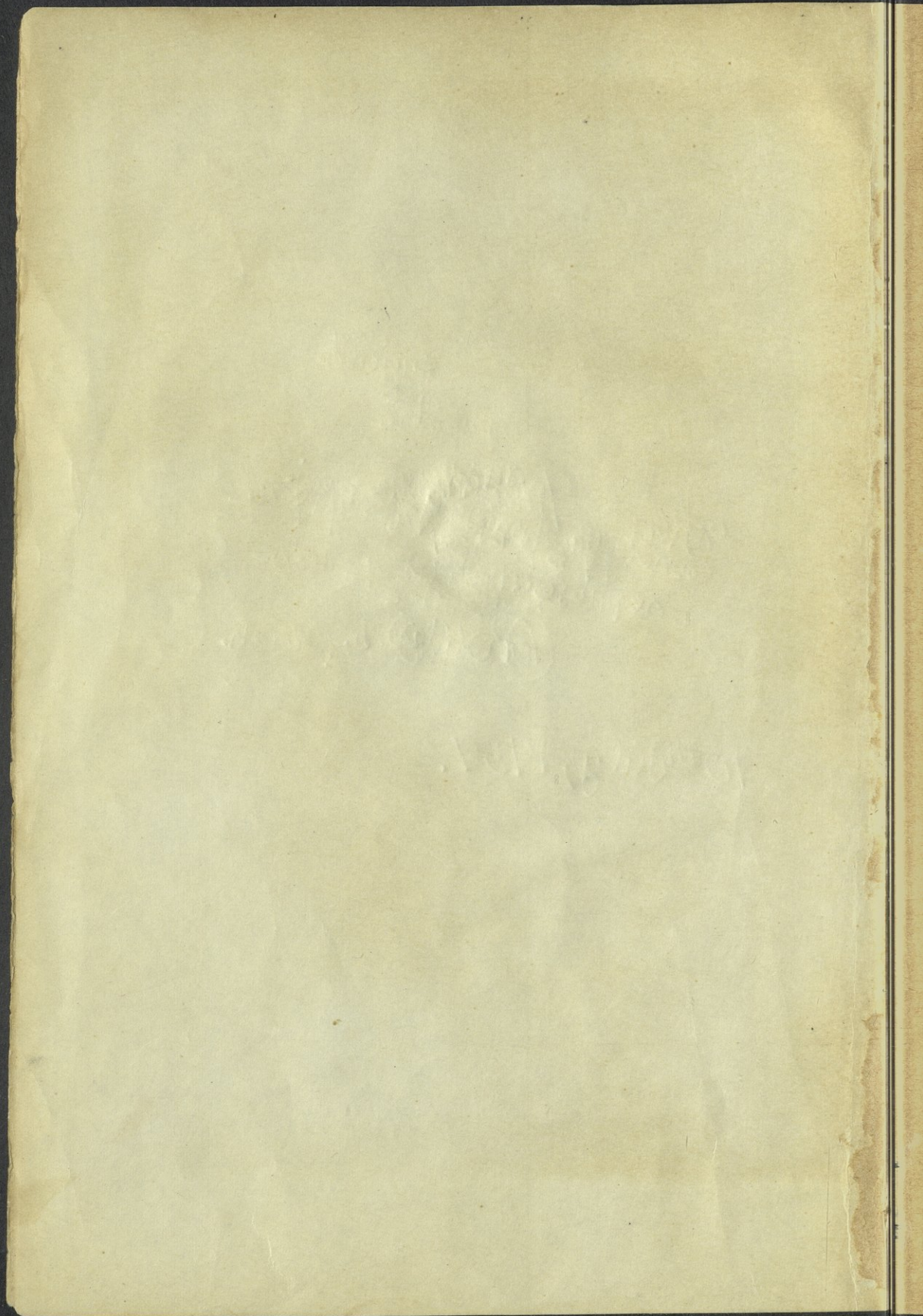
وقد فعلت إلى حد ما ، بعد خطئى الأول ، وغلطتى من البداية ، وقد رحت أحمل على نفسى وألومها وأنتقدها ، لا لما أغلو بقيمته عندى فحسب ، بل لأنه واجبي ، فقد شعرت « بوجيعة » اجتماعية ، وأحسست أيضاً فى دخيلة نفسى بحقيقة شخصيتى

وطبيعتي ، وأدركت أنهما لا تلائمان هذه الحركة الاجتماعية ولا تتفقان معها .
لقد تركت نفسي تندفع إلى الشعور بذنبي وخطيئتي ، لا من وجهة ترددي ،
بل من وجهة الحب والرحمة والولوع بالحرية الفردية ، التي قربتني من الشيوعية
وأصحابها ؛ وقد رأيت الشيوعيين يقولون لي : إن هذه الشاعر « بورجوازية » ،
وإن الشيوعي الذي انضم إلى الحزب لا بد من « إخضاع » عقله حتى لا يعود يفكر
في الأسباب التي جعلته شيوعياً .
وقد بدا لي اليوم جلياً أن واجبي يقتضي أن أبين الرأي الذي أؤيده دون تحيز
إلى جانب ما .

وليس كلا الجانبين في موقف العالم اليوم يمثل ما أعتقد أنه الحل الأوحيد لمشاكله
وما على الشعوب والأمم المحبة للحرية إلا أن تنزع حركة عامة في سبيل تحسين
أحوال الملايين من البشر الذين يهتمون بالخبز أكثر من اهتمامهم بالحرية ، حتى
يتسنى انتشالهم من وهديهم إلى مستوى من العيش يحجب إليهم الاهتمام بالحرية
والخبز معاً .

إن مصلحة القلائل الذين يُعْنَوْنَ بقيم الحرية ينبغي أن تتفق مع مصلحة
الأكثرين الذين يحتاجون إلى الخبز ، وإلا توارت الحرية إلى الأبد ... ؟!





335.4:K78mA

كوسنتر، آرثر

المعبود الذي هوى. دراسات في الشيع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01020130

American University of Beirut



335.4

K78mA

General Library

335.4
K78mA